انطون تشيخوف

ترجمة د. ابو بكر يوسف



موسكو • دار التقدم

مؤلفات مختارة
في ٤ مجلدات

انطون تشيخوف
مؤلفات مختارة

في ٤ مجلدات

المجلد الثاني

ترجمة د . ابو بكر يوسف



دار التقدم . موسكو

Ч $\frac{70301—006}{016(01)—81}$ 526—81 4702010100

انطون بافلوفتش تشيخوف

بقلم الاديب : فلاديمير كورولنكو

١

تعرفت على تشيخوف فى عام ١٨٨٦ او فى بداية ١٨٨٧ (لا أذكر الآن على وجه الدقة) . وكان فى ذلك الوقت قد أصدر مجموعتين من قصصه القصيرة . كانت أولى هاتين المجموعتين والتى رأيتها على مكتب تشيخوف عندما زرته ذات مرة تسمى «حكايات ميلبومينا» ، وقد صدرت فيما يبدو عن احدى المجلات الفكاهية . وقد تجلى حتى فى مظهرها الخارجى الطابع المميز لصحافتنا الفكاهية . فعلى الغلاف كتب : «أ . تشيخونتى» * ، كما رسم هناك حامل وأمامه رسم كاريكاتيرى لمصور بشعر طويل . واذا لم تخنى الذاكرة فان هذه الحلية قد رسمها شقيق تشيخوف، وهو مصور توفى فى اواخر الثمانينات او اوائل التسعينات ، وكان كما قيل شخصا موهوبا للغاية ولكنه غير موفق . . . ولم يلتفت جمهور القراء كثيرا الى كتاب تشيخوف الاول هذا ، وربما نادرا ما يذكره أحد الآن . الا ان بعض قصص المجموعة (ولا أعتقد ان كل القصص) قد أعيد نشرها فى المجموعات التالية .

ثم اذكر انه فى بداية عام ١٨٨٧ ظهر كتاب اكبر حجما وهو «قصص منوعة» ، وهى القصص التى نشرت فى مجلات «بوديلنك»

---

* أصدر تشيخوف قصصه القصيرة الاولى تحت اسم مستعار ، قريب الى اسمه الحقيقى ، وهو اسم : أنطوشا تشيخونتى . **المعرب** .

و«ستريكوزا» و«أوسكولكى» * ولكنها أصبحت الآن تحمل اسم «أ . ب . تشيخوف» . وعلى الفور لفت هذا الكتاب انتباه جمهور القراء العريض . وبدأوا يكتبون ويتحدثون عنه . وكان ما يقال وما يكتب عنه متباينا لكنه كان كثيرا ، وعموما فقد حظى الكتاب بنجاح كبير . لقد ذكرت بعض النبذ والتعليقات الصحفية أن أ . سوفورين ** كان اول من لاحظ وسط اكوام «فكاهياتنا» الروسية الكابية جواهر موهبة تشيخوف الاصيلة . بيد أن هذا ليس صحيحا فيما اعتقد . لقد كان د . جريجوروفتش *** هو أول من لاحظها . واعتقد انه قد انتبه الى هذه الومضات الاصيلة وهى بعد مبعثرة على صفحات المجلات الفكاهية ، او ربما عندما صدرت المجموعة الاولى لـ«أ . تشيخونتى» . وأظن ان جريجوروفتش هو الذى دبر نشر «القصص المنوعة» ، ومنه ، على الأرجح ، عرف سوفورين اسم تشيخوف فدعاه للكتابة فى مجلة «نوفويه فريميا» («العصر الحديث») . وفى اول لقاء لى مع تشيخوف أرانى رسائل جريجوروفتش اليه . وكانت احداها مرسلة من الخارج ، وتحدث فيها جريجوروفتش عن الوحشة التى يشعر بها وهو فى منتجعه ، وعن المرض ، وعن احساسه بدنو أجله . وقال تشيخوف وهو يعرض علىّ هذه الرسالة :

– نعم ، هذه هى نهاية الشهرة والنجاح والمكافآت المالية الكبيرة . . .

خيل اليّ آنذاك ان هذه النغمة المتشائمة هى نغمة عارضة على لسان كاتب مرح لقصص مرحة ، كاتب لم تكد الحياة تفتح أمامه آفاقها المغرية . . . ولكنى فيما بعد تذكرت كثيرا هذه الكلمات فلم تعد تبدو لى عارضة . . .

---

* «المنبـّه» و«الجرادة» و«شظايا» هى مجلات اسبوعية فكاهية كانت تصدر فى تلك الفترة فى بطرسبرج ، ونشر فيها تشيخوف قصصه الاولى ــ **المعرب** .

** ناشر وناقد روسى مشهور . **المعرب** .

*** ديمترى جريجوروفتش (١٨٢٢–١٨٩٩) كاتب روسى معروف كتب عن حياة الفلاحين الاقنان الشاقة . له روايات «صيادو السمك» و«المهاجرون» و«الصبى المطاط» وغيرها . **المعرب** .

بعد صدور مجموعة «قصص منوعة» أصبح اســـم أنطون بافلوفتش تشيخوف مشهـــورا على الفور ، رغم أن تقدير هذه الموهبة الجديدة أثار الخلاف والجدل . كان هذا الكتاب ، المفعم بخلو بال صبيانى خاص ، وربما بنوع من النظرة المستخفة الى الحياة والادب ، يشع ببريق الفكاهة والمرح ، وبكثير من سرعة البديهة الاصيلة والايجاز الفائق وقوة التعبير . أما نغمات التأمل والوجدانية ، والحزن الخاص المميز لتشيخـــوف وحده ، والتى تسللت فى بعض المواضع عبر الفكاهة الساطعـــة ، فقد أبرزت ذلك المرح الشبابى لتلك القصص «المنوعة» بالفعل .

٢

فى تلك الفترة كانت تصدر فى بطرسبرج مجلـــة تسمـــى «سيفيرنى فيستنيك» («بشير الشمال») . وكانـت تصدرهـــا أ . يفرينوفا ، أما هيئة تحريرها (فى قوامها الاول) فكانت مكونة من محررين سابقيـــن فى مجلـــة «أوتيتشستفينى زابيسكى» («المذكرات الوطنيـــة») . وكان يرأس تحريرهـــا نيقولاى ميخايلوفسكى ، ويساهـــم فى التحرير جليب أوسبينسكـــى وس . يوجاكوف ، كما اشترك أ . بليشييف فى تحرير القســم الادبى والشعرى . ودعيت أنا ايضا للمشاركة فى هذه المجلـــة وكنت مسافرا الى بطرسبرج ، بالمناسبة ، لهذا الغرض ايضا . وكنت آنذاك قد قرأت قصص تشيخوف ، فأردت اثناء مرورى بموسكو ان أتعرف بمؤلفها .

كانت أسرة تشيخوف آنذاك تقطن فى منزل أحمر صغير مريح فى شارع سادوفايا بمنطقة كودرينو ، من تلك المنازل التى ربما لا تجد مثلها الا فى موسكو . كان بيتا حجريا يلتصـــق ببيت كبير ، الا انه كان عبارة عن شقة واحدة فى طابقين * . وقابلتنى فى الطابق الارضى شقيقـــة تشيخوف وأخوه الأصغر ميخائيـــل

* أصبح هذا المنزل الآن «شقة-متحفـــا» لتشيخوف فى موسكو .
المعرب .

بافلوفتش ، الذى كان آنذاك طالبا . وبعد بضـــع دقائق كان أنطون بافلوفتش يهبط على الدرج من الطابق العلوى .

رأيت امامى رجلا شابا ، مظهره الخارجى اكثر شبابا ، وقامته أعلى من المتوسط بقليل ، ذا وجــه مستطيل قليــلا ، ناعم ، متناسق التقاطيع ، لم يفقد بعد ملامح الشباب المميزة . كان فى هذا الوجه شيء خاص لم استطـــع أن احدده على الفور ، ولكن زوجتى ، التى تعرفت ايضا على تشيخوف قد حددته ، فيما بعـــد بدقة كما يبدو لي . فحسب رأيها ، كان وجه تشيخوف ، رغم ما يبدو فيه من ذكاء لا شك فيه ، يحمل تقطيبة معينة تذكرك بشاب قروى ساذج . وكان ذلك جذابا بصفة خاصة . وحتى عينا تشيخوف الزرقاوان ، اللامعتان والعميقتان ، كانتا تشعان فكرا وفى الوقت نفسه تلقائية تكاد تكون طفولية . وكانت القسمة المسيطرة على كل هيئته ، كما على كتاباته ، هى بساطة حركاته وأساليبـــه وحديثه . وعموما فقد ترك تشيخوف فى نفسى ، من خلال لقائنـا الاول هذا ، انطباعا بأنه شخص دافق الحيوية . وبدا أن عينيه معين لا ينضب للبديهة الحاضرة والمرح التلقائى اللذين تشبعـت بهما قصصه . وفى الوقت نفسه لاح فيهما شيء أعمق ســـوف يتكشف فيما بعد وينطلق فى الاتجاه السليم . كان الانطباع العام متكاملا وفاتنا بالرغم من أنى لم اكن متعاطفا مع كل ما كتبـــه تشيخوف . وحتى موقفه آنذاك ، موقف «التحرر من الحزبية» بدا لى يحمل جانبا طيبا . فقد كانت الحياة الروسية قد أكملت كيفما كان احدى دوراتها القصيرة ، التى انتهت كالعادة دون ان تتجسد فى شيء واقعى ملموس ، وهومت فى الجو ضرورة «اعادة النظر» فى الامور بشكل ما ، قبل الانطلاق الى مواصلة النضـــال والبحث . ولذلك بدا آنذاك لى أن تحرر تشيخوف من حزبية تلك اللحظة ، مع وجود موهبة كبيرة واخلاص كبير لديه ، يعطى له بعض التفوق . وكنت أقول لنفسى ان هذا التحـــرر لن يطول . . . ففى احدى قصصه القصيرة (أظن ان عنوانها : «فى الطريق») تلتقى فى مكان ما ، على احدى محطات الطرق البريدية ، امرأة شابة محبطة برجل يطوف فى الدنيا ، وايضا محبط ، هدته الحياة ، من اولئك الروس «الباحثين» عن الأفضل . كانت ملامح هذه الشخصية مرسومـــة

بخطوطها العامة فقط ، الا انها ذكرتني الى درجة مدهشة بشخص من الاشخاص البارزين جمعتني به المقادير . وقد أذهلني كيف استطاع هذا الكاتب الشاب الخالي البال ، بطريقة عابرة ، وبدون خبرة ، بنوع من التخمين لموهبة اصيلة ، ان يلمس بهذه الدقة وهذا الصدق تلك الأوتار الحميمة للغاية لهذه الشخصية «الرودينية» * الخالدة التي لم تنقرض بعد من واقعنا .. وبدا لي تشيخوف أشبه بشجرة بلوط فتية ، تفرعت غصونها في شتى الاتجاهات ، بصورة لم تزل بعد متعرجة بل واحيانا بلا شكل محدد ، ولكنك تخمن فيها الصلابة والجمال المتكامل لشجرة سوف تكون جبارة في المستقبل .

وعندما تحدثت في بطرسبرج ، في اوساط مجلة «سيفيرني فيستنيك» عن زيارتي لتشيخوف ، وعن الأثر الذي تركه في نفسي ، اثار حديثي كثيرا من الجدل . كان الجميع يعترفون بموهبة تشيخوف الا انه كانت هناك بعض الشكوك حول الاتجاه الذي سيصرف اليه قوته الكبيرة التي لم تتحدد بعد . وكان القراء يعرفون نظرة ميخايلوفسكي ** الى تشيخوف ، فقد كان كثيرا ما يعود الى تناول مؤلفاته باهتمام كبير ، ويعترف بأبعاد موهبته الهائلة ، ولكنه كان يشير بمزيد من التشدد والصرامة الى تلك الملامح التي يرى فيها — ميخايلوفسكي — نظرة خاطئة من تشيخوف الى الأدب ورسالته . ومع ذلك فلم يكتب ميخايلوفسكي عن أيّ من معاصريه بهذه الكثرة كما كتب عن تشيخوف ، وفي السنوات الاخيرة ، كما هو معروف ، كان يكن لتشيخوف عطفا كبيرا . . . على أية حال ، ففي الفترة التي اتحدث عنها كانت مجلة «سيفيرني فيستنيك» التي كان يرأسها ميخايلوفسكي ، ترغب

---

* رودين هو بطل احدى روايات الكاتب ايفان تورجينيف ، وهو رمز للشخصية الهاملتية المترددة التي تسعى بالقول الى التغيير وتعجز عن العمل في سبيله فتطحنها الحياة . **المعرب** .

** نيقولاى ميخايلوفسكى (١٨٤٢ــ١٩٠٤) مفكر وصحفي وناقد روسي من انصار اتجاه الشعبيين الليبراليين . كان رئيسا لتحرير مجلتي «مذكرات وطنية» و«الثروة الروسية» كما ساهم في تحرير مجلات ادبية اخرى من بينها «بشير الشمال» . **المعرب** .

فى أن ترى تشيخوف ضمن محرريها ، وهكذا فقد وجهوا الىّ اللوم لأننى لم أهتم اثناء زيارتى لتشيخوف (وكنت حديث العهد بالعمل فى المجلات) بدعوة تشيخوف للعمل محررا فى المجلة .

وفى زيارتى التالية لتشيخوف تحدثت معه فى هذا «الامر» ، وكان قد سبقنى للحديث فى نفس الموضوع أ . بليشييف الذى زاره فى طريقه الى القوقاز عبر موسكو . وأخبرنى تشيخوف نفسه بهذه الزيارة ، واكد على وعده الذى قطعه لبليشييف ، الا أنه أبدى بعض التردد . فحسب قوله كان قد بدأ عمله الأدبى مازحا تقريبا ، باعتباره متعة ولهوا ، والى حد ما باعتباره وسيلة لاكمال تعليمه الجامعى والانفاق على أسرته * .

– اتدرى كيف اكتب قصصى القصيرة ؟ . . انظر .

وتطلع الى الطاولة ، وتناول أول شيء وقعت عليه عيناه – وكانت منفضة سجائر – ووضعها أمامى وقال :

– اذا شئت قدمت لك غدا قصة قصيرة . . . عنوانها «المنفضة» .

وأشرقت عيناه بمرح . وبدا وكأنما بدأت تحوم فوق المنفضة شخصيات ما غير محددة ، ومواقف ومغامرات لم تتجسد بعد فى اشكال واضحة ولكن المزاج الفكاهى كان حاضرا . . .

والآن ، عندما اتذكر هذا الحديث ، وغرفة الجلوس الصغيرة حيث كانت امه العجوز جالسة الى السماور ، والبسمات الودودة لشقيقه وشقيقته ، وعموما ذلك الجو كله المحيط بتلك الأسرة المتكاتفة المتحابة ، والتى كان فى مركزها ذلك الشاب الآسر الموهوب ، ذو النظرة المرحة الى الحياة على ما يبدو . . . عندما اتذكر ذلك يخيل الىّ انها كانت أسعد وآخر فترة فى حياة الأسرة كلها . . لحظة طمأنينة وسعادة على عتبة دراما توشك على البدء . . . واتذكر الآن اننى احسست فى تعابير وجه تشيخوف آنذاك وفى حركاته بنوع من الازدواجية : فمن جهة كان تشيخوف

---

* فى تلك الفترة كان تشيخوف قد أصبح طبيبا ولكن بدون عيادة ، أما شقيقه ميخائيل بافلوفتش فبدأ ينشر ايضا قصصا قصيرة فى المجلات الفكاهية (باسم مستعار) . **ملاحظة كورولنكو** .

لا يزال هو ذلك الشاب الخالى البال «انطوشـــا تشيخونتى» * ، المرح ، الموفق ، المستعد لأن يضحك بالمناسبـــة من «البواب الذكى» الذى كان يوصى بقراءة الكتب فى المطبخ ، وعلى الحلاق الذى علم اثناء الحلاقة ان عروسه ستتزوج بآخر ، ولذلك ترك رأس الزبون نصف حليق . . . كانت الشخصيات تتزاحم عليه جموعا مرحة خفيفة الظل فتداعبه ونادرا ما تشغل باله . . . كانت تملأ شقته المريحة ، وبدا أنها لا تزوره وحده بل تزور أسرته كلها . فقد روت لى شقيقة تشيخوف أن شقيقها ، الذى كان يفصل غرفته عن غرفة نومها حاجز خشبى رقيق ، كان كثيرا ما يدق هذا الحائط ليلا لكى يفاتحها فى موضوع قصة ، بل واحيانا يحدثهـــا عن قصة مكتملة ظهرت فى ذهنه فجأة . وكانا كلاهما يفرحـــان ويدهشان لتلك التركيبات المفاجئة . . . أما الآن فقد حدث تحول واضح فى هذا المزاج الصافى : فلم يكن من الممكن الا ان يلحظ تشيخوف نفسه وأسرته ايضا ان ما فى يدى انطوشا ليس لعبــة مسلية والى حد ما مفيدة للأسرة ، بل جوهرة ثمينة قد تصبح حيازتها مسئولية كبيرة . ويبدو لى انه فى تلك الفترة كانت قصة «فى ليلة العيد» قد نشرت (فى مجلة «نوفويه فريميا») ، وهـــى لوحة مدهشة ، مشبعة بحزن عميق أخاذ فاتن ، حزن لم يزل بعد مسالما وغير عليل ، الا انه أصبح بعيدا ، بعد السمــــاء عن الأرض ، عن ذلك المزاج اللاهى الضاحك لمعظم قصص مجموعة «قصص منوعة» . وحتى فى وجه تشيخوف ، هذا الذى كان منذ قريب محررا خالى البال فى مجلة «أوسكولكى» ، ظهر تعبير خاص ، ربما كانوا فى الماضى يسمونه «أولى انعكاســات الشهرة» . . . واذكر اننى سمعت فى كلمات والدته ، التى كانت فيمـــا يبدو سعيدة وفخورة بنجاح ابنها ، نبرات حزينة . وتحدثت مع انطون بافلوفتش عن سفره الى بطرسبرج وعن المكان الذى سنلتقى فيه ، وهنا قالت والدة تشيخوف متنهدة :

— نعم ، يبدو لى ان أنطوشا لم يعد ملكا لى . . .

---

* وهو الاسم المستعار الذى كان تشيخوف ينشر به قصصه الفكاهية الاولى كما سبق ان أشرنا . **المعرب** .

وكما يحدث كثيرا فقد كان أحساسها كأم صادقا . . .

وتواعدنا ان نلتقى فى بطرسبرج فى ادارة مجلة «اوسكولكى» حيث وجدته بالفعل فى اليوم المحدد فى مكتب رئيس التحرير السيد ليكين . وبالمناسبة فقد وقعت هنا حادثة صغيرة . فقبلها كان السيد ليكين قد تباهى أمام تشيخوف بقصة رائعة أرسلها الى «اوسكولكى» كاتب مبتدئ غير مشهور بعد ، أظن انه كان من بلدة «تسارسكويه سيلو» . وأعجب رئيس التحرير بالقصة اعجابا شديدا فدعا المؤلف للتباحث معه شخصيا بهدف جذبه للعمل فى المجلة . وأراد تشيخوف أن يقرأ المخطوط . فاتضح انه ببساطة احدى قصص تشيخوف ، قد نسخت بعناية من النص المطبوع ووقعت باسم مجهول . ويبدو أن أسمى قرائن الشهرة ، الا وهى السرقة الأدبية ، قد قدّرت هذه الموهبة الجديدة ، فامتدت اليها متسلقة كنبات طفيلى . . .

٣

بعد فترة انهى تشيخوف اولى قصصه المخصصة لمجلة ادبية . وكانت بعنوان «السهوب» . واثناء وجودى فى بطرسبرج تلقى أ . بليشسييف رسالة من موسكو يخبره فيها تشيخوف أن كتابة القصة تتقدم بسرعة . «لا أعرف كيف ستكون النتيجة ، الا اننى أشعر من حولى بعبق أزهار السهوب وأعشابها» — هكذا تقريبا كتب تشيخوف فى رسالته (وأنا استشهد من الذاكرة) محددا مزاج هذه القصة ، وهو ما يشعر به بلا شك من يقرأها . صحيح ان أولى قصص تشيخوف «الكبيرة» هذه كانت لا تزال تحمل بصمات الشكل الأليف لديه . وقد أشار بعض النقاد الى ان «السهوب» هى بمثابة عدة لوحات صغيرة وضعت فى اطار كبير واحد . بيد ان الذى لا شك فيه ان هذا الاطار الكبير يملؤه مزاج واحد محافظ عليه بدقة . فالقارئ يشعر كأنما تلفحه ريح السهوب الطليقة القوية المشبعة بأريج الزهور ، ويتابع بعينيه تألق فراشة سهوبية تهوم فى الهواء ، وتحليق طائر جارح وحيد وهو يحوّم حالما متراخيا ، أما جميع الشخصيات المرسومة على هذه الخلفية فمشبعة ايضا بهذه النكهة السهوبية الاصيلة . وقد حدثنى شقيق

تشيخوف الاصغر (ميخائيل بافلوفتش) بعد أن صورت هذه القصة فى «سيفيرنى فيستنيك» ان فيها كثيرا من ملامح السيرة الذاتية والذكريات الشخصية .

وفى هذه القصة ، بالمناسبة ، ثمة تفصيل بدا لى مميزا جدا لتشيخوف فى تلك الفترة . ففى القصة توجد شخصية «دينيسكا»، وهو شاب قروى ، يقوم بدور الحوذى . وتتوقف العربة بالمسافرين فى السهوب للراحة فترة القيلولة الحارة الخانقة . وتلهب اشعة الشمس الساخنة الرؤوس ، ومن مكان ما تتناهى اغنية «خافتة ، ممطوطة كئيبة ، تشبه النواح ، ولا تكاد الاسماع تلتقطها . . . كأنما مرت روح خفية على السهوب وهى تغنى» ، او السهوب نفسها : «المحروقة شبه الميتة ، وقد هلكت ، ولكنها تؤكد لأحد ما بدون كلام وبلوعة وصدق ، انها ليست مذنبة فى شىء ، وان الشمس أحرقتها بلا داع . . . لم تكن مذنبة ، الا انها رغم ذلك كانت تطلب الغفران من أحد ما ، وتقسم انها تتألم ألما لا يطاق ، وانها حزينة وتشعر بالشفقة على نفسها» . . . وفى هذا الوقت يستيقظ دينيسكا قبل بقية المسافرين . ويذهب الى الجدول فيشرب ويغتسل بشهية وهو يطرطش ويزفر . ورغم الحر ، والمنظر الكئيب ، والأغنية الأكثر كآبة ، والتى لا يعرف احد من اين تأتى وهى تتحدث عن الذنب المجهول ، رغم ذلك فدينيسكا مفعم بالحيوية والاحساس بالقوة .

— هيا ، من يصل الى العشب العالى أسرع ! — يقول ليجوروشكا ، البطل الرئيسى للقصة ، ولا يحرز انتصارا على يجوروشكا المرهق من الحر فحسب ، ولكنه ، واذ لم يقنع بذلك ، يقترح عليه العودة ركضا على الفور .

وذات مرة قلت لتشيخوف مازحا انه يشبه بطله دينيسكا . وبالفعل ، ففى خضم الثمانينات ، عندما كانت الحياة الاجتماعية تشبه الى حد كبير هذه السهوب بلوعتها الصامتة واغنيتها الكئيبة ، ظهر تشيخوف مرحا ، خالى البال ، مفعما بالحيوية والقوة . وبين الحين والحين كانت تنبثق فى ذهنه مختلف المشاريع التى لا يعلم أحد من اين جاءت ، وعلاوة على ذلك كانت تظهر فجأة ، مكتملة ، بتفاصيلها الدقيقة . . . وذات مرة راح

يشرح لى خطة مجلة سوف يشارك فيها الأدباء ، حوالى خمسة وعشرين اديبا . «وكلهم مبتدئون ، وعموما من الشباب» . وفى مرة اخرى وجه نحوى عينيه الرائعتين بنظرة تنبئ بفكرة نضجت فى ذهنه توا وقال :

– اسمع يا كورولنكو . . . سآتى اليك فى نيجنى * .

– سأكون فى غاية السعادة . لكن لا تخلف وعدك .

– حتما سآتى . . . وسنعمل معا . سنكتب مسرحية . من اربعة فصول . فى خلال أسبوعين .

وضحكت . لقد عاد تشيخوف ذلك الصبى دينيسكا .

– كلا يا أنطون بافلوفتش ، لن استطيع مجاراتك فى الركض . اكتب المسرحية وحدك . ولكن تعال الى نيجنى .

٤

وأوفى بوعده فجاء الى نيجنى وسحر كل من رآه آنذاك . وعندما جئت الى موسكو من جديد وجدته يكتب مسرحية ، وخرج من غرفة مكتبه ، وعندما رآنى أهم بالانصراف حتى لا أعطله امسك بذراعى . وقال :

– انا بالفعل اكتب مسرحية ، وحتما سأكتبها . . . «ايفان ايفانوفتش ايفانوف» ** . . . أتدرى ؟ هناك الآلاف من أمثال ايفانوف . . رجل عادى للغاية ، ليس بطلا على الاطلاق . . . وهذا بالذات أصعب شيء . هل يواجهك هذا الموقف : اثناء الكتابة ، وبين مشهدين تتصورهما بوضوح فى ذهنك ، تواجه فجأة فراغا . . .

فقلت :

– وعبر هذا الفراغ ينبغى أن تمد جسورا لا بواسطة الخيال بل بالمنطق ؟ . .

– بالضبط ، بالضبط . . .

---

* مدينة نيجنى نوفجورود (جوركى حاليا) . **المعرب** .

** ايفان اسم روسى شائع كاسم «محمد» لدينا ، وايفانوف لقب مشتق من هذا الاسم . **المعرب** .

– نعم يواجهنى ، ولكنى عندئذ أهجر الكتابة وانتظر .
– نعم ، فى المسرحية لا يمكن أن تستغنى عن هذه الجسور ...
بدا لى مشتتا بعض الشيء ، ساخطا ، وكأنما كان متعبا .
وبالفعل فقد واجه تشيخوف صعوبة فى كتابة اول عمل مسرحى ، وجرت عليه هذه المسرحية أولى المتاعب والاحزان الحقيقية ، الادبية الصبغة . فبالاضافة الى هموم الاخراج المسرحى ، وعذاب المؤلف وهو يرى كم تبتعد الكلمة عن الصورة وكم يبتعد الأداء المسرحى عن الكلمة المكتوبة . . بالاضافة الى ذلك ظهر فى هذه المسرحية لأول مرة التحول فى مزاج تشيخوف . وانا اذكر كم كتب وقيل الكثير عن بعض عبارات ايفانوف اللامبالية مثل عبارة : «يا صديقى ، فلتأخذ بنصيحتى ، لا تتزوج يهودية ، او مضطربة عقل ، او طالبة» . صحيح ان ايفانوف هو الذى يقول ذلك ، الا ان الحياة الروسية حساسة بصورة مرضية ازاء بعض القضايا المزمنة بحيث لم يشأ الجمهور ان يفصل الكاتب عن البطل . وللحقيقة فلم يكن فى «ايفانوف» تلك التلقائية والموضوعية الخالية البال التى كانت تبدو فى مؤلفات تشيخوف السابقة . لقد شدت دراما الحياة الروسية الى دوامتها الواسعة هذا الكاتب الذى خرج الى ساحتها . . . وبدا محسوسا فى مؤلفاته روح اتجاه محدد ، بدا محسوسا ان الكاتب يهاجم شيئا ما ويدافع عن شيء ما ، ودار الجدل حول ما هو بالضبط الشيء الذى يدافع عنه وما الذى يهاجمه . وعموما فهذه المسرحية الاولى لتشيخوف ، والتى اعاد كتابتها عدة مرات ، يمكن ان تقدم مادة ثمينة لمن يريد ان يكتب سيرة حياة الكاتب بامعان ويرغب فى تتبع تاريخ التحول الروحى الذى طرأ على تشيخوف فأبعده عن مجلة «نوفويه فريميا»، التى كان ينشر فيها فى البداية عن طيب خاطر ، ثم لم يرسل اليها سطرا واحدا فى السنوات الاخيرة ، وجاء به الى «روسكيى فيدوموستى» و«جيزن» و«روسكايا ميسل» . . . لقد انتهت التلقائية الخالية البال بصورة مشؤومة ، وبدأت بصورة مشؤومة ايضا مرحلة التأمل والاحساس المرهق بمسؤولية الموهبة * .

* نشرت مسرحية «ايفانوف» فى مجلة «سيفيرنى فيستنيك» («بشير الشمال») فى مارس ١٨٨٩ . **ملاحظة كورولنكو .**

ونشرت القصة التالية بعد «السهوب» ، وهى قصة «عيد ميلاد» فى «سيفرنى فيستنيك» ايضا . ثم تبعتها القصة الثالثة («الاضواء») . وقد ازداد تعقد المزاج فيها الى حد كبير ، والأرجح انه ازداد قتامة ببعض النبرات الهازئة والاكثر حزنا وتشاؤما ، وأعرب تشيخوف فى مراسلاته غير مرة عن عدم رضاه عن هذه القصة . أما بقية أعماله فيذكرها بلا شك كل القراء الروس . وبعد مجموعة «قصص منوعة» ظهرت مجموعة اخرى بعنوان مميز : «فى الغسق» ، ثم مجموعة «أناس متجهمون» . وبعد ذلك ظهرت فى «روسكايا ميسل» قصة «عنبر رقم ٦» ، ذلك العمل المذهل بتلك القوة الأخاذة والعمق الذى عبر عن مزاج تشيخوف الجديد ، هذا المزاج الذى اعتبره مزاج المرحلة الثانية . لقد تحددت ملامحه تماما وبات واضحا للجميع هذا التحول المفاجىء : فهذا الشخص الذى كان منذ فترة قريبة جدا يتعامل مع الحياة بضحك سعيد ومزاح ، والذى كان مرحا بلا هموم وحاضر البديهة ، أحس بنفسه فجأة متشائما عندما دقق النظر الى اعماق الحياة . اما المرحلة الثالثة فبوسعى أن أنسب اليها قصص تشيخوف ، وربما مسرحياته ايضا ، التى كتبت فى السنوات الاخيرة ، والتى تجلى فيها سعيه الى الأفضل وايمانه به وأمله . فعبر ضباب الحزن ، الذى يبدو احيانا جميلا للغاية ، واحيانا اخرى لاسعا حادا ، ولكنه دائما شاعرى ، يلوح هذا الأمل كقباب الكنائس فى مدينة بعيدة وهى لا تكاد ترى عبر غبار القيظ والضباب الخانق لطريق وعر . . . ويسيطر على كل شىء احساس حزين بأنه :

أسفا ، فى هذا العهد الرائع
لن يكتب لى او لك ان نحيا . . .

٥

بعد هذه اللقاءات الاولى ، والتى كانت كثيرة فى بداية تعارفنا ، أصبحت التقى بتشيخوف أقل فأقل . كانت علاقاتنا الأدبية وميولنا (وانا اتحدث عن العلاقات الخاصة والميول فى

الاوساط الأدبية) فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات مختلفة ، ولم تكن خطوطها تتقاطع الا نادرا ، حتى عندما اقترب تشيخوف من الدوائر الادبية القريبة الىّ . وكنت آنذاك (أى فى نهاية الثمانينات) قد حاولت ان أجمع تشيخوف بميخايلوفسكى وأوسبنسكى * . وتوجهت معه فى الموعد المحدد الى «بالى-رويال» حيث كان ميخايلوفسكى يعيش آنذاك ، وحيث وجدنا جليب أوسبنسكى والكساندرا دافيدوفا (التى أصدرت فيما بعد مجلة «دنيا الله») . ولكن هذه المحاولة لم تثمر شيئا . فقد ركن أوسبنسكى الى الصمت المتحفظ (فى تلك الفترة بدأت تظهر لديه أعراض ارهاق نفسى شديد ، وربما كانت بوادر مرضه) . وقام ميخايلوفسكى وحده بمجاراة الحديث ، وحتى الكساندرا دافيدوفا، المعروفة عادة بلباقتها وتهذيبها ، فقد آلمت تشيخوف بتعليق حاد على أحد اصدقائه الأدباء آنذاك . وعندما انصرف تشيخوف شعرت ان محاولتى فشلت . ولاحظ جليب اوسبنسكى ، الذى خرجت معه من عند ميخايلوفسكى ، بحساسيته المعهودة أننى محزون ، فسألنى :

— هل تحب تشيخوف ؟

وحاولت أن أصور له مشاعرى نحو تشيخوف ، والانطباع الذى يتركه فى نفسى . واصغى الىّ باهتمامه المستغرق المعروف ثم قال :

— هذا حسن . . . — ولكنه ظل على تحفظه . والآن أدرك أن مرح تشيخوف ذاك ، مؤلف «القصص المنوعة» كان غريبا وكريها بالنسبة لأوسبنسكى . فقد كان اوسبنسكى فى وقت ما مفعما بالفكاهة المميزة العميقة التى تحولت حدتها مبكرا جدا الى مرارة . وقد وصف ميخايلوفسكى ، بدقة فائقة وصواب فائق ، فى مقال عن أوسبنسكى ، ذلك التحفظ الحكيم الذى كان يكبت به عن وعى ميله الى المواقف المضحكة والصور الفكاهية خشية أن

---

* جليب أوسبنسكى (١٨٤٣-١٩٠٢) كاتب وصحفى روسى كتب عن الفئات الفقيرة فى المدينة وعن حياة الفلاحين ، وتميزت كتاباته بالطابع الديمقراطى والروح الانسانية . **المعرب** .

يدنس المواضيع الحزينة للواقع الروسى المنحوس . ولن أتناول هنا ما اذا كان ذلك حسنا أم سيئا . ولكنى اعتقد بالطبع أنه يكون من الرائع لو استطاع أناس لهم مثل هذه الثروة الطبيعية من الفكاهة الكامنة فى روحهم ان يجدوا فى انفسهم وفى الوسط المحيط بهم ما يكفى من القوة لينتصروا على الكآبة العظيمة للحياة الروسية بفكاهتهم الاقوى . ولو حدث ذلك لأصبح لدينا ، ربما ، روائع الادب الهجائى العالمى . . . ولكن . . . بوسع المرء أن يحلم بأى شيء ، لكن الحقيقة هى أن الكآبة الروسية المعاصرة هى التى تنتصر على الفكاهة الروسية ، وقد انعكس ذلك بحتمية القانون المشؤوم – وللأسف فى وقت مبكر جدا – على تشيخوف نفسه .

ولكن فى ذلك الوقت كان الأمر مختلفا ، واذكر بأية دهشة حزينة وبأى تمعن كانت عينا اوسبنسكى العميقتان تتفحصان هذا الوجه الصريح المتهلل لرجل قادم من عالم آخر مجهول حيث ما زال الناس فيه قادرين على الضحك من قلوب لا تعرف الهموم . وكان تشيخوف ايضا ، وبصورة غريزية ، يتحاشى الوقوع فى هذه الحالة المزاجية التى استولت على أوسبنسكى والتى كانت تتربص به هو نفسه فى المستقبل . . فافترقا بنوع من البرود وربما بنفور مبهم .

والآن لم يعد كلاهما على قيد الحياة . مات أوسبنسكى قبل تشيخوف ، وها هو قبر تشيخوف لم يهل عليه التراب بعد وأنا أكتب هذه السطور ... الا انهما غابا عن المسرح بأمل فى المستقبل وبحزن كاو على الحاضر .

وأتذكر ايضا حديثا جرى بينى وبين تشيخوف عن جارشين * . بيد أنى لا أذكر ان كان ذلك بعد وفاة جارشين أم فى أواخر أيامه المتكدرة . . . كنت قد عدت من سيبيريا منذ فترة قريبة ، ولما تزل الانطباعات العميقة عن طبيعتها الجليلة الجهمة وأناسها

* فسيفولود جارشين (١٨٥٥–١٨٨٨) كاتب روسى . زاول كتابة القصة القصيرة متناولا مأساة الفرد فى ظل النظام الرجعى لروسيا القيصرية، كان من دعاة تكريس الفن لخدمة الشعب . **المعرب** .

حية وطازجة فى نفسى . وخيل الىّ انـــــه كان من الممكن صرف جارشين عن الانطباعات الممضة لواقعنا ، وابعاده فترة من الوقت عن الأدب والسياسة ، والأهم من ذلك تخليص روحه المرهقة من الاحساس بالمسئولية العامة ، هذا الاحساس الذى يعذب قلب الانسان الروسى ذى الضمير المرهف . . . لو أمكن بدلا من ذلك وضعه وجها لوجه أمام الطبيعة البدائية والانسان البدائى ، فربما استطاعت روحه المريضـــة أن تشفى . هكذا خيل الىّ . ولكن تشيخوف عارضنى بلهجة طبيب قاطعة :

– كلا ، هذه الحالة لا علاج لهـــا . . فقد تحركت بعض الجسيمات الذرية فى المخ ولا يمكن اعادتها الى وضعها . . .

فيما بعد تذكرت كثيرا كلمات تشيخوف هذه . فبعد عام او عامين «تحركت الجسيمات» لدى أوسبنسكى ، ورغم كل بحثه عن الشفاء فى «الآفاق الشافية» للوطن ، ورغم تجواله فى سهوب وشعاب جنوب الاورال وسلاسل جبال القوقاز وعلى الفولجـــا و«الانهار القاصية» لروسيا الوسطى لم يستطع أن ينفض عن روحه تلك الكآبة التى استشرت فيها ولا الاحساس «بالمسئولية العامة» ازاء واقع الحياة عن كل اكاذيبها . ثم «تحركت الجسيمات» لدى تشيخوف ايضا . صحيح انها كانت جسيمـــات الرئتين * وليس المخ الذى ظل صافيا لديه حتى النهاية . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يحدد مدى الدور الذى لعبه ذلك الحزن العميق الناخر فى مرض تشيخـــوف البدنى ، هذا الحـــزن الذى جـــرت على خلفيتــه كل العمليات الروحيــــة ، وبالتالى البدنيـــة لدى تشيخوف . . .

فى النصف الثانى من التسعينات لم تعد لقاءاتى بتشيخـــوف كثيرة ، وكانت تقع بالصدفة . ففى فترة مرضه الذى بات محددا لم نلتق ســــوى ثلاث او اربع مرات . وكانت احداها فى عام ١٨٩٧ ، فى ادارة تحرير مجلة «روسكايا ميسل» . كنت انا ايضا مريضا فى تلك الفترة . واستفسر تشيخـــوف منى عن صحتى

---

* اشارة الى مرض السل الذى ادى الى وفاة تشيخوف . **المعرب** .

باهتمام رفيق وطبيب ، وعندما خرجنا من دار المجلة الى الشارع ضغط على راحتى بمودة وقال :

– لا بأس . . ستشفى ، أؤكد لك ستشفى .

– وأنت أيضا يا أنطون بافلوفتش ! . . – قلت بايمان نابع من رغبة شديدة فى الايمان .

– نعم ، نعم ، آمل . . . انا الآن أفضل . . . – أجاب تشيخوف ، ثم افترقنا .

ورأيته آخر مرة عام ١٩٠٢ فى مدينة يالطا ، عندما قصدتها للتحدث بشأن أحد الطلبات العامة * . وكان تشيخوف قد كتب الىّ برغبته فى المجىء الى بولتافا ، فحذرته من ذلك لمعرفتى بصعوبة ذلك بالنسبة له . وكان يعيش آنذاك فى منزل صيفى بناه قرب يالطا (بصورة فنية غير عملية) وكانت تعيش معه زوجته وشقيقته . وكما حدث فى اول لقاء استقبلتنى شقيقته فى الطابق الأرضى ، بينما هبط تشيخوف من الطابق العلوى على الدرج . وانقبض قلبى لهذه الذكرى . كان هو نفس تشيخوف ، ولكن أين حيويته الدافقة الواثقة الهادئة ؟ اصبحت ملامحه اكثر حدة ، وبدا كأنما اكثر قسوة ، ولم يبق دون تغير الا عيناه اللتان كانتا احيانا تشعان برقة . ولكن حتى فى هاتين العينين بدا أوضح تعبير حزن مستقر . وروت شقيقته انه يجلس احيانا بالساعات محدقا فى نقطة واحدة . . . واثناء حديثى معه تناول كتابا من على الطاولة ، وهو كتاب قدمه تولستوى مؤخرا للقارئ الروسى ، وقال :

– «الفلاح» لبولنز ** هل قرأته ؟ كتاب جيد . لو أنى تمكنت من وضع كتاب كهذا لاعتبرته كافيا . وبعدها أستطيع أن أموت. ولكنه مات قبل ذلك . . .

---

* كان ذلك بمناسبة قرار تشيخوف وكورولنكو برفض لقب العضوية الفخرية لاكاديمية العلوم احتجاجا على نزع هذا اللقب من مكسيم جوركى بناء على طلب القيصر . **المعرب** .

** ولهلم بولنز (١٨٦١–١٩٠٣) كاتب ألمانى . من اشهر أعماله ثلاثية «القسيس الريفى» و«الفلاح» و«حفار القبور» . قدم تولستوى ترجمة روايته «الفلاح» الى القارئ الروسى عام ١٩٠٢ . **المعرب** .

٦

من جديد ترد المقارنة عفويا : جوجول ، أوسبنسكى ، شيدرين ، والآن تشيخوف . بهذه الاسماء تكتمل تقريبا قائمة الكتاب الروس البارزين ذوى المزاج الفكاهى الواضح . اثنان منهم قضيا نحبهما بداء السوداء ، والاثنان الآخران بالكآبة المطبقة . لقد اطلق بوشكين على جوجول وصف «السوداوى المرح» ، وينطبق هذا الوصف الدقيق بنفس الدرجة على جميع الكتاب المذكورين سالفا . . جوجول ، أوسبنسكى ، شيدرين وتشيخوف . . .

هل صحيح ان فى الضحك الروسى ثمة شيء مشؤوم ؟ أمن المعقول ان رد فعل الفكاهة الأصيلة على الواقع الروسى — اذا استخدمنا مصطلحات الكيميائيين — يترك حتما رواسب سامة تدمر بقوة متزايدة ذلك الوعاء الذى يجرى فيه ، أى روح الكاتب ؟ . .

١٩٠٤

القبلة

فى ٢٠ مايو ، وفى الساعة الثامنة مساء توقفت جميع البطاريات الست من لواء «س» المدفعية الاحتياطى ، التى كانت متجهة الى المعسكر ، للمبيت فى قرية ميستيتشكى . وفى أوار الهرج ، عندما كان بعض الضباط يروحون ويجيئون قرب المدافع ، بينما كان البعض الآخر ، وقد تجمعوا فى الميدان قرب سور الكنيسة ، يستمعون الى تقارير مسئولى الايواء ، ظهر من وراء الكنيسة فارس فى زى مدنى وعلى متن حصان غريب . كان حصانا كميتا ، صغيرا ، بعنق جميل وذيل قصير ، ولم يكن يسير فى خط مستقيم ، بل بجنبه ، ويأتى بحركات قصيرة راقصة بقوائمه ، كأنما كان أحد ما يضربه بالسوط عليها . وعندما اقترب الفارس من الضباط رفع قبعته وقال :

– صاحب السعادة اللفتنانت جنرال فون-رابيك ، الاقطاعى المحلى ، يدعو السادة الضباط للحضور اليه حالا لتناول الشاى . . .

وانحنى الحصان ، ورقص ، وتراجع بجنبه الى الخلف ، ورفع الفارس قبعته مرة اخرى ، وبعد لحظة كان قد اختفى مع حصانه الغريب وراء الكنيسة .

ودمدم بعض الضباط بتذمر وهم ينصرفون الى مساكنهم :

– الشيطان يعلم ما هذا ! نريد ان ننام ، بينما يأتينا هذا الفون-رابيك بشايه ! ما الداعى ، وأى شاى الآن !

وتذكر ضباط البطاريات الست على الفور حادث العام الماضى ، عندما وجهت اليهم الدعوة اثناء المناورات ، هم وضباط أحد ألوية القوزاق ، بمثل هذه الطريقة ، لتناول الشاى عند اقطاعى كونت ،

عسكرى سابق . واستقبلهم الكونت المضياف البشوش برقة ، وأطعمهم وسقاهم ، ولم يدعهم يذهبون الى القرية للنوم بل استبقاهم للمبيت فى داره . وكان كل هذا بالطبع حسنا ، بل وليس هناك أفضل من ذلك ، ولكن المصيبة ان فرحة العسكرى المتقاعد بالضباط الشبان فاقت كل الحدود . فظل حتى الفجر يروى للضباط مشاهد من ماضيه الطيب ، وطاف بهم على الغرف وهو يعرض عليهم لوحاته الثمينة والرسوم القديمة والأسلحة النادرة ، وقرأ لهم رسائل خطية من شخصيات كبيرة ، أما الضباط المعذبون المنهكون فكانوا يستمعون اليه وينظرون الى معروضاته وهم يتحرقون شوقا الى الاسرّة ، ويخفون بحذر تثاؤباتهم فى اكمامهم . وعندما أطلق المضيف سراحهم أخيرا لم يكن هناك وقت للنوم .

ترى أيكون هذا الفون-رابيك مثله ؟ وسواء كان مثله ام لم يكن ، فليس ثمة حيلة . بدل الضباط ملابسهم ، ورتبوا هندامهم ، وانطلقوا جمعا يبحثون عن دار الاقطاعى . وفى الميدان امام الكنيسة قيل لهم انه يمكن الذهاب الى دار السادة من الأسفل . . ان يهبطوا من خلف الكنيسة الى النهر ويسروا على الشاطىء حتى يبلغوا بستان الدار ، وهناك ستقودهم دروبها الى حيث يريدون . أو أن يذهبوا من أعلى . . من الكنيسة مباشرة ، على الطريق الذى يفضى بعد نصف فرسخ من القرية الى مخازن السادة مباشرة . وقـــرر الضباط أن يتبعوا الطريق العلوى .

وتساءلوا اثناء الطريق :

– من هو فون-رابيك هذا ؟ أليس هو الذى كان يقود فرقة الخيالة (س) قرب بليفنا ؟

– كلا ، لم يكن فون-رابيك ، بل رابى ، وبدون فون .

– ما أروع الطقس !

وتفرع الطريق عند أول مخزن من مخازن السادة ، فاتجه فرع منه الى الامام مباشرة حيث اختفى فى ظلام المساء ، بينما انعطف الفرع الثانى الى اليمين ، نحو منزل السادة . ومضى الضباط يمينا وراحوا يتحدثون بصوت خافت . . . وعلى جانبى الطريق امتـــدت مخازن حجرية بأسقف حمراء ، وكانت جهمة ثقيلة ، تشبه كثيرا ثكنات مدينة ريفية . وفى الأمام لاحت اضواء نوافذ بيت السادة .

وقال أحد الضباط :

– يا سادة هذا فأل حسن ! ان كلب صيدنا يسير فى مقدمة الجميع ، اذن فهو يشم رائحة فريسة !

سار الملازم لوبيتكو فى المقدمة ، وكان طويلا وممتلىء الجسم ، ولكنه بلا شوارب على الاطلاق (كان قد جاوز الخامسة والعشرين ، ولكن لسبب ما لم ينبت فى وجهه المستدير الشبعـــان اى شعر) وكان مشهورا فى اللواء بحدسه وقدرته على التكهن بوجود نساء عن بعد . فاستدار قائلا :

– نعم ، هنا ينبغى ان توجد نساء . اننى ادرك ذلك بغريزتى .

واستقبل الضباط عند عتبة الدار فون-رابيك نفسه ، وهو شيخ بهى ، فى حوالى الستين ، فى حلة مدنية . وقال وهو يصافح الضيوف أنه مسرور جدا وسعيد ، ولكنه يرجو السادة الضباط بشـــدة ويستحلفهم بالله أن يعذروه على عدم دعوته لهم للمبيت .. فقد حضرت اليه شقيقتاه وابناؤهما واخوته وجيرانه ، بحيث لم تبق لديه غرفة واحدة خالية .

صافح الجنرال أيدى الجميع وهو يرجو المعذرة ويبتسم ، ولكن بدا على وجهه انه لم يكن أبدا مسرورا الى هذا الحد بهؤلاء الضيوف ، مثلما كان ذلك الكونت فى العام الماضى ، وانه لم يدع اليه الضباط الا لأن اللياقة ، حسب رأيه ، تتطلب ذلك . وأدرك الضبـــاط أنفسهم ، وهم يصعدون الدرج اللين ويصغون الى الكونت أنهـــم لم يدعوا الى هذا البيت الا لأن عدم دعوتهم أمر محرج ، وعندما رأوا الخدم يسارعون الى اشعال المصابيح عند المدخل فى الأسفل ، وفى البهو فى الأعلى ، خيل اليهم أنهم حملوا معهم الى هذا البيت الازعاج والقلق . فهل يمكن ان يكون وجود تسعة عشر ضابطا غرباء أمرا محببا فى مكان اجتمع فيه ، ربما لمناسبة عائلية او لاحتفال ما ، شقيقتان مع ابنائهما وأخوة وجيران ؟

وفى الأعلى ، عند مدخل القاعة ، استقلبت الضيوف عجوز طويلة ممشوقة ، ذات وجه طويل وحاجبين اسودين ، شديدة الشبـــه بالامبراطورة أوجين . قالت وهى تبتسم بترحاب ومهابة انها مسرورة وسعيدة برؤية الضيوف فى بيتها ، واعتذرت لعدم تمكنها هى وزوجها فى هذه المرة من دعوة السادة الضباط للمبيت . وبدا من ابتسامتها

الجميلة المهيبة ، التى كانت تختفى من وجهها على الفور كلما حولته عن الضيوف لأمر ما ، أنها رأت فى حياتها الطويلة كثيرا من السادة الضباط ، وأنها فى شغل عنهم الآن ، واذا كانت قد دعتهم الى دارها ومضت تعتذر لهم ، فانما تفعل ذلك فقط لأن تربيتها ووضعها فى المجتمع يقتضيان هذا .

وفى غرفة الطعام الكبيرة التى دلف اليها الضباط ، جلس الى احد جانبى مائدة طويلة حوالى عشرة رجال ونساء ، كبار وشبان ، يشربون الشاى . ومن خلف مقاعدهم بدت مجموعة من الرجال تغلفهم سحب دخان السيجار الخفيفة . وفى وسطهم وقف شاب نحيل بسالفين صغيرين أحمرين يتحدث عن شىء ما بصوت عال وبالانجليزية وهو يلثغ . ومن خلف المجموعة بدت من خلال الباب غرفة مضيئة بأثاث أزرق .

وقال الجنرال بصوت عال محاولا أن يبدو مرحا جدا :

– ايها السادة ، انكم من الكثرة بحيث يستحيل تقديمكم . فلتتعارفوا بأنفسكم يا سادة ، دون كلفة !

وانحنى الضباط محيين كيفما كان ، بعضهم بوجوه جادة للغاية ، بل وحتى صارمة ، والبعض الآخر بابتسامات متكلفة ، وهم يشعرون جميعا بالحرج الشديد ، وجلسوا لتناول الشاى .

كان اكثر الجميع شعورا بالحرج النقيب ريابوفتش ، وهو ضابط صغير الجسم ، محنى القامة ، يضع نظارة ، وذو سوالف كسوالف الوشق . وبينما كان بعض زملائه يكسبون وجوههم ملامح الجد ، والبعض الآخر يتكلف الابتسام ، كان وجهه هو ، وسوالفه الوشقية ونظارته ، كأنما تقول : «أنا اكثر ضباط اللواء كله خجلا ، وتواضعا ، وأقلهم تميزا !» . وفى اللحظات الاولى ، عندما دخل غرفة الطعام ، ثم بعد ذلك ، وهو جالس يتناول الشاى ، لم يستطع ابدا ان يركز انتباهه على وجه واحد او شىء واحد . فقد امتزجت الوجوه والملابس وأباريق الكونياك المضلعة ، والبخار المتصاعد من اكواب الشاى ، والسلال الخزفية ، امتزج ذلك كله فى انطباع واحد هائل ألقى فى قلب ريابوفتش بالجزع والرغبة فى اخفاء رأسه . وكالممثل الذى يواجه الجمهور لاول مرة ، كان يرى كل شىء امام عينيه ، الا ان ما رآه كان عسير الفهم (تسمى هذه الحالة لدى

الفسيولوجيين بـ«العمى السيكولوجى» وذلك عندما يرى الشخص ولا يفهم ما يراه) . ولكن بعد مضى بعض الوقت تأقلم ريابوفتش فعاد اليه بصره وراح يراقب . وكان اول ما أثار انتباهه ، كشخص خجول منطو ، ذلك الشيء الذى كان يفتقده دائما ، أى تلك الجرأة الفائقة للمعارف الجدد . اذ أن فون-رابيك ، وزوجته ، والسيدتين الكبيرتين ، وتلك الفتاة ذات الثوب البنفسجى ، والشاب ذا السوالف الحمراء ، والذى اتضح أنه الابن الاصغر لرابيك ، قد توزعوا بين الضباط ببراعة شديدة وكأنما تدربوا على ذلك من قبل ، وعلى الفور أثاروا نقاشا حاميا لم يكن بوسع الضيوف الا أن يشاركوا فيه . وراحت الفتاة البنفسجية تؤكد بحرارة ان حياة رجال المدفعية اسهل بكثير من حياة الخيالة او المشاة ، أما رابيك والسيدتان الكبيرتان فكانوا يؤكدون العكس . وبدأ حديث متقاطع . ونظر ريابوفتش الى الفتاة البنفسجية التى كانت تجادل بحرارة فى أمر غريب عنها وغير مثير لاهتمامها ابدا ، وراقب كيف كانت الابتسامات غير الصادقة تظهر على وجهها ثم تختفى .

وجذب فون-رابيك وأسرته الضباط الى الجدال بمهارة ، بينما مضوا فى نفس الوقت يراقبون بيقظة اكواب الضباط وأفواههم ، وهل يشربون جميعا ، وهل شايهم حلو ، ولماذا لا يتناول الضابط الفلانى البسكويت او لا يشرب الكونياك . وكلما أطال ريابوفتش النظر وأصاخ السمع ازداد اعجابه بهذه الأسرة التى وان كانت غير صادقة المشاعر الا انها رائعة الانضباط .

وبعد الفراغ من تناول الشاى اتجه الضباط الى الصالة . ولم يخب حدس الملازم لوبيتكو . . فقد كان فى الصالة كثير من السيدات والنساء الشابات . وكان الملازم-كلب الصيد واقفا بالفعل بجوار شقراء شابة جدا ترتدى فستانا أسود ، وقد انحنى بجسارة كأنما كان يعتمد على سيفه غير مرئى ، وهو يبتسم ويلعّب كتفيه بدلال . كان فى الغالب يقول هراء ما طريفا للغاية ، لأن الشقراء كانت تنظر بتسامح الى وجهه الشبعان وتتساءل بلا اكتراث : «حقا ؟» . ولو كان كلب الصيد ذكيا لما توقع من هذه الـ«حقا» اللامبالية ان يقولوا له : «خذها !» .

ودوت انغام المعزف . وانطلق فالس حزين من الصالة عبر

النوافذ المفتوحة ، ولسبب ما تذكر الجميع ان الربيـــع الآن وراء النوافذ ، وان الليلة امسية من شهر مايو . وأحس الجميع فى الجو برائحة اوراق الحور الشابة والورود والبنفسج . أما ريابوفتش الذى أفصح فيه الكونياك المشروب عن نفسه تحت تأثير الموسيقى ، فقد حول بصره الى النافذة وابتسم ، ثم راح يتابع حركات النســـاء ، وبدا له الآن ان رائحة الورود والحور والبنفسج لا تنبعث مـــن البستان بل من وجوه النساء وفساتينهن .

ودعا ابن رابيك فتاة ما نحيلة الى الرقص ودار معها دورتين . اما لوبيتكو فقد هرول ، وهو ينزلق على الباركيه ، الى الفتـــاة البنفسجية وحلق معها فى الصالة . وبدأ الرقص . . . ووقـــف ريابوفتش بجوار الباب وسط جمهور غير الراقصين وأخذ يراقب . لم يرقص فى حياته كلها مرة واحدة ، ولم يتسنّ له فى حياتـه كلها أن يحتضن خصر سيدة محترمة . كان يعجبه جدا ان يمسك الشخص بخصر فتاة لا يعرفها على مرأى من الجميع ويقدم لها كتفه لتضع عليها يدها ، الا انه لم يستطع ابدا ان يتصور نفســه فى مكان هذا الشخص . وفى وقت ما كان يحسد شجاعة زملائـــه وشطارتهم ويحز ذلك فى نفسه . وكان ادراكه بأنه خجول ، محنى القامة وباهت ، وانـــه طويل الخصر ووشقى السوالـــف يترك فى نفسه احساسا عميقا بالمهانة ، ولكن بمضى الزمن اصبح هذا الاحساس مألوفا ، ولم يعد الآن ، وهو ينظـــر الى الراقصين او المتحدثين بصوت عال ، يشعر بالحسد ، بل باعجاب حزين .

وعندما بدأت رقصة الكادريل اقترب ابن فون-رابيك الشاب من غير الراقصين ودعا اثنين من الضباط الى لعب البلياردو . ووافق الضابطان وخرجا معه من الصالة . ولما لم يكن لدى ريابوفتش ما يفعله ، وبدافع الرغبة فى المشاركة بأى شىء فى الحركة العامة ، فقد مضى فى اثرهم . خرجوا من الصالة الى غرفة الاستقبال ، ثم الى طرقة زجاجية ضيقة ، ومنها دلفوا الى غرفة ، حيث قفز لـــدى ظهورهم ثلاثة من الخدم الناعسين من على الكنبة بسرعة . واخيرا ، وبعد عبور عدد كبير من الغرف ، دخل رابيك الشاب والضبـــاط غرفة غير كبيرة ، امتدت فيها طاولة البلياردو . وبدأ اللعب .

وقف ريابوفتش ، الذى لم يمارس فى حياته أية لعبة سوى

الورق ، بجوار الطاولة وراح ينظر بلا اكتراث الى اللاعبين ، أما هم فكانوا يدورون ، بسترات مفكوكة الأزرار وبالعصى فى أيديهم ، وهم يتبادلون القفشات ويصيحون بكلمات غير مفهومة . لم يلحظه أحد من اللاعبين ، واحيانا فقط ، عندما كان أحدهم يضربه بكوعه او تشتبك عصاه به عفوا ، يستدير اليه ويقول «pardon» . وقبل ان ينتهى الدور الاول كان قد احس بالملل ، وبدأ يتخيل انه زائد عن الحاجة ويعوقهم . . . وراودته رغبة فى العودة الى الصالة فخرج .

وفى طريق العودة تعرض لمغامرة صغيرة . فقد انتبه فى وسط الطريق الى أنه يسير الى غير الجهة التى يقصدها . فقد كان يذكر جيدا انه ينبغى ان يقابل فى الطريق ثلاثة خدم ناعسين ، ولكنه عبر خمس او ست غرف ، ولم يقابل الخدم وكأنما انشقت الارض وابتلعتهم . وعندما ادرك خطأه عاد قليلا الى الوراء وانعطف يمينا ، فوجد نفسه فى غرفة مكتب شبه مظلمة لم يمر بها فى طريقه الى غرفة البلياردو . وقف هنا حوالى نصف دقيقة ، ثم فتح بحزم اول باب وقع عليه بصره ، وولج غرفة مظلمة تماما . وفى مواجهته مباشرة ظهر فرج باب كان يتسرب منه ضوء ساطع . ومن خلف الباب تناهت نغمات مكتومة لرقصة مازوركا حزينة . وهنا ، كما فى الصالة ، كانت جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وانتشرت رائحة الحور والبنفسج والورود . . .

توقف ريابوفتش مترددا . . . وفى تلك اللحظة فوجىء بخطوات عجلى وحفيف ثوب ، وهمس صوت نسائى مختنق : «أخيرا !» وطوقت عنقه ذراعان ناعمتان عطرتان ، لا شك انهما نسائيتان . والتصق خد دافىء بخده ، وفى نفس اللحظة تردد صوت قبلة . وعلى الفور ندت عن صاحبة القبلة صرخة ضعيفة ، وارتدت عنه ، بتقزز ، كما خيل لريابوفتش . وكاد هو ايضا أن يصرخ ، واندفع نحو فرج الباب المضىء . . .

عندما عاد الى الصالة كان قلبه يخفق ويداه ترتعشان بصورة ملحوظة حتى انه سارع باخفائهما وراء ظهره . وفى البداية عذبه الخجل والخوف من ان كل من فى الصالة يعرفون ان امرأة قد عانقته وقبلته الآن ، فانكمش واخذ يتلفت حوله بقلق ، وعندما تأكد

انهم يرقصون ويثرثرون بهدوء فى الصالة كما فى السابق ، استسلم تماما لهذا الاحساس الجديد الذى لم يمر به فى حياته ابدا . كان شىء غريب يحدث له . . . وبدا له ان عنقه الذى طوقته منذ لحظات ذراعان ناعمتان عطرتان قد تلوث بالزيت . وعلى خده ، بجوار شاربه الأيسر حيث قبلته تلك المجهولة ، سرت برودة راعشة خفيفة كبرودة قطرات النعناع ، وكلما أمعن فى حك هذا الموضع ازداد الاحساس بالبرودة ، اما هو فكان مفعما من قمة رأسه الى اخمص قدميه بهذا الشعور الجديد الغريب الذى كان يتنامى اكثر فأكثر . . . وأحس برغبة فى الرقص والحديث والانطلاق الى البستان ، والضحك بصوت عال . . . ونسى تماما أنه محنى القامة ، باهت ، وان سوالفه وشقية و«هيئته غير محددة» (كما وصفته احدى النساء فى حديث سمعه عرضا) . وعندما مرت بجواره زوجة فون-رابيك ابتسم لها ابتسامة عريضة رقيقة حتى انها توقفت ونظرت اليه مستفهمة .

فقال وهو يسوى نظارته :

– بيتكم يعجبنى جدا ! . .

ابتسمت زوجة الجنرال وأخبرته ان هذا البيت كان فى زمانه ملكا لأبيها ، ثم سألته هل والداه على قيد الحياة ، ومنذ متى وهو فى الخدمة ، ولماذا هو نحيل هكذا وغير ذلك من الاسئلة . . . وبعد أن تلقت الاجابة على اسئلتها استأنفت سيرها ، أما هو ، فبعد حديثه معها ، أصبح يبتسم بصورة أرق ويفكر فى انه محاط بأناس رائعين . . .

وعلى العشاء كان ريابوفتش يأكل آليا كل ما يقدم له ويشرب ، ودون أن يصغى الى شىء ، مضى يحاول ان يفسر لنفسه تلك المغامرة القريبة . . . كان لهذه المغامرة طابع غامض ورومانسى ، الا أن تفسيرها كان امرا سهلا . ربما ضربت احدى الفتيات او السيدات موعدا لشخص ما فى تلك الغرفة المظلمة ، وانتظرته طويلا ، ولما كانت مستثارة الأعصاب فقد ظنت ريابوفتش بطلها المنشود . ويبدو ذلك اقرب احتمال ، خاصة وأن ريابوفتش ، عندما مر عبر الغرفة المظلمة ، توقف مترددا ، اى انه كان يبدو كشخص ينتظر ايضا شيئا ما . . . وهكذا فسر ريابوفتش لنفسه سبب القبلة التى تلقاها .

وفكر وهو يطوف بوجوه النساء : «ولكن من هى ؟ ينبغى ان تكون شابة ، لأن العجائز لا يذهبن الى المواعيد الغرامية . ثم انها مهذبة ، فقد ظهر ذلك من حفيف ثوبها ، ورائحة عطرها ، وصوتها . . .» .

وتوقفت نظراته على الفتاة البنفسجية فأعجبته للغاية . كانت كتفاها وذراعاها جميلة ، ووجهها ذكيا ، وصوتها رائعا . وشعر ريابوفتش ، وهو يتطلع اليها ، برغبة فى أن تكون هى بالذات ، وليس غيرها ، تلك المجهولة . . . ولكنها ضحكت ضحكة ما غير صادقة ، وقطبت أنفها الطويل الذى بدا له كأنف العجائز . عندئذ حول بصره الى الشقراء ذات الفستان الأسود . كانت اكثر شبابا وبساطة وصدقا ، وكان صدغاها ساحرين ، وكانت ترشف الكأس بطريقة جميلة جدا . واراد ريابوفتش الآن ان تكون هى تلك المرأة . ولكنه سرعان ما وجد أن وجهها مسطح ، فحول بصره الى جارتها . . .

وفكر وهو يحلم : «من الصعب ان تخمن . لو أخذنا من البنفسجية كتفيها وذراعيها فقط ، وأضفنا اليها صدغى الشقراء ، واخذنا العينين من تلك التى تجلس الى يسار لوبيتكو ، فان . . .»

وجمع ذلك فى ذهنه فظهرت لديه صورة الفتاة التى قبلته ، تلك الصورة التى ارادها ولكنه لم يستطع ابدا ان يجدها على المائدة . . .

وبعد العشاء مضى الضيوف وقد شبعوا وانتشوا يودعون ويشكرون . وعاد اصحاب الدار يعتذرون ثانية عن عدم استطاعتهم استقباءهم للمبيت .

- مسرور ، مسرور جدا يا سادة ! - قال الجنرال بصدق فى هذه المرة (ربما لأن الناس عندما يودعون الضيوف يكونون اكثر صدقا وطيبة مما عند استقبالهم) - سعيد جدا ! شرفونا بالزيارة فى طريق العودة ! بلا كلفة ! الى أين ؟ تريدون العودة من أعلى ؟ كلا ، اذهبوا عبر البستان ، فى الأسفل ، فهناك أقرب .

خرج الضباط الى البستان . وبعد الضوء الساطع والصخب بدا لهم البستان مظلما وهادئا للغاية . وساروا الى باب السور فى صمت . كانوا شبه سكارى ، مرحين ، راضين ، ولكن الظلام والسكون جعلاهم يخلدون لحظة الى التفكير . وتبادرت الى ذهن كل

منهم ، كما الى ذهن ريابوفتش ، فى الغالب نفس الفكرة : ترى هل سيأتى ذلك اليوم الذى سيكون لديهم ، كما لدى رابيك ، منزل كبير ، وأسرة ، وبستان ، ويصبح لديهم ايضا امكانية ملاطفة الضيوف ، ولو عن غير صدق ، وجعلهم شبعى ، سكارى ، راضين ؟

وعندما خرجوا من باب السور تحدثوا جميعا على الفور ، وراحوا يضحكون بصوت عال دونما سبب . كانوا الآن يسيرون على الدرب الذى ينحدر الى النهر ثم يمتد بجوار المياه مباشرة ملتفا حول دغل الشاطىء والخلجان الصغيرة وأشجار الصفصاف ذات الاغصان المهدلة فوق الماء . كان الشاطىء والدرب لا يكادان يلوحان ، اما الشاطىء الآخر فغرق كله فى الظلمة . وفى بعض الاماكن انعكست النجوم على سطح المياه المظلمة . كانت ترتعش وتتلاشى ، ومن هذا وحده كان يمكن التخمين بأن النهر يتدفق بسرعة . وكان الهدوء يشمل المكان . وعلى الشاطىء الآخر أ ّنت طيور البكاسين الناعسة ، اما على هذا الشاطىء فقد صدح بلبل بصوت عال فى احدى الخمائل غير عابىء بجمهرة الضباط . وتوقف الضباط بجوار الخميلة ، وتحسسوها ، بينما ظل البلبل يصدح .

وسمعت صيحات استحسان :

– هل رأيتم ؟ نحن نقف بجواره وهو لا يعيرنا انتباها ! يا له من شيطان !

فى نهاية المشوار صعد الدرب الى أعلى والتقى بالطريق قرب سور الكنيسة . وهنا جلس الضباط وقد أرهقهم الصعود ، ودخنوا . وعلى الشاطىء الآخر لاح ضوء أحمر كاب ، ولما لم يكن لديهم ما يفعلونه راحوا يخمنون هل هى شعلة نار ، أم ضوء فى نافذة ، أم شىء آخر . . . وتطلع ريابوفتش ايضا الى الضوء ، وخيل اليه أنه يبتسم له ويغمز بطريقة خاصة ، وكأنما يعرف أمر القبلة .

وعندما عاد ريابوفتش الى مسكنه نزع ملابسه بسرعة وأوى الى الفراش . وفى نفس المنزل نزل معه لوبيتكو والملازم ميرزلياكوف ، وهو فتى هادىء ، صموت ، يعتبر فى محيطه ضابطا مثقفا ، يقرأ دائما فى كل مكان يمكن فيه القراءة مجلة «بشير أوروبا» التى كان يحملها معه أينما ذهب . ونزع لوبيتكو ملابسه وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة طويلا ، وبدا كشخص غير راض ، ثم

أرسل جندى المراسلة ليحضر بيرة . وأوى ميرزلياكوف الى الفراش ، ووضع بجوار رأسه شمعة ، وانهمك فى قراءة «بشير أوروبا» .

«ترى من هى ؟» - فكر ريابوفتش وهو ينظر الى السقف المسود من الدخان .

كان لا يزال يخيل اليه ان عنقه ملوث بالزيت ، وبجوار فمه احس بالبرودة الخفيفة كبرودة قطرات النعناع . وومضت فى خياله كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها ، وصدغا الشقراء ذات الفستان الأسود وعيناها الصادقتان ، والخصور والفساتين والبروشات . وحاول أن يركز انتباهه فى هذه الصور ، الا انها كانت تقفز وتتلاشى وتومض . وعندما كانت هذه الصور تختفى تماما على الخلفية السوداء العريضة التى يراها كل من يغمض عينيه ، يسمع خطوات عجلى ، وحفيف فستان وصوت قبلة ، فتتملكه فرحة قوية لا سبب لها . . . وسمع وهو مستسلم لهذه الفرحة كيف عاد جندى المراسلة وأبلغ أنه لا توجد بيرة . واستشاط لوبيتكو غضبا وعاد يروح ويجىء .

وقال وهو يتوقف تارة أمام ريابوفتش وتارة أمام ميرزلياكوف :

- ما رأيكم فى هذا الأبله ؟ أى أحمق وغبى ينبغى أن يكون حتى لا يجد بيرة ! هه ؟ أليس محتالا ؟

فقال ميرزلياكوف دون أن يرفع عينيه عن «بشير أوربا» :

- بالطبع لا يمكن أن تجد بيرة هنا .

فألح عليه لوبيتكو :

- نعم ؟ اهكذا تظن ؟ يا الهى ، يا ربى ، لو ألقيت بى الى القمر فسأجد لك على الفور بيرة ونساء ! حسنا ، سأذهب الآن وأجد . . . فلتعتبرنى نذلا ان لم أجد !

واستغرق وقتا طويلا فى ارتداء ملابسه وشد حذائه الطويل الكبير ، ثم دخن سيجارة فى صمت ومضى .

ودمدم وهو يتوقف فى المدخل :

- رابيك ، جرابيك ، لابيك . يا للشيطان ، لا أشعر برغبة فى الذهاب بمفردى . يا ريابوفتش ، ألا تريد أن تتريض قليلا ؟ هه ؟

وعندما لم يسمع ردا عاد ، ونزع ملابسه ببطء ، وأوى الى

الفراش . وتنهد ميرزليا توف ، ووضع «بشير أوروبا» جانبا ، واطفأ الشمعة .

ودمدم لو بيتكو وهو يشعل سيجارة فى الظلام :

— نعم . . .

وتغطى ريا بوفتش الى ما فوق رأسه ، وانطوى على نفسه كالكعكة وراح يجمع فى خياله الصور الوامضة ويركب منها صورة متكاملة . الا انه لم يوفق الى شيء . وسرعان ما نام ، وكانت آخر فكرة طافت بذهنه ان شخصا ما قد لاطفه وأبهجه ، وان شيئا ما قد وقع فى حياته ، شيئا أحمق ولكنه حسن وبهيج الى اقصى حد . ولم تفارقه هذه الفكرة حتى فى المنام .

عندما استيقظ لم يعد يشعر بالزيت على عنقه وبالبرودة النعناعية قرب شفتيه ، ولكن الفرحة ، مثلما بالأمس ، كانت تغمر قلبه كالموجة . وتطلع باعجاب الى اطر النوافذ التى ذهّبتها الشمس البازغة ، وأصاخ السمع الى الحركة الدائرة فى الخارج . كان هناك من يتحدث بصوت عال تحت النوافذ مباشرة . كان قائد اللواء ريا بوفتش ، ويدعى ليبيديتسكى ، الذى لحق بالبطارية لتوه ، يتحدث مع رقيبه بصوت عال جدا لعدم تعوده على الحديث بصوت خافت .

صاح القائد :

— وماذا ايضا ؟

— عند تغيير الحدوات بالامس يا صاحب المعالى ركبنا حدوات لـ«عزيز» . ووضع الحكيم له طينا وخلا . والآن يسحبونه من اللجام بدون حمولة . وبالأمس ايضا يا صاحب المعالى شرب الاسطى أرتيميبف حتى السكر ، وأمر الملازم بأن نحمله على مقدمة عربة المدفع الاحتياطية .

وأبلغ الرقيب ايضا ان كاربوف نسى خيوط الابواق الجديدة وأوتاد الخيام ، وان السادة الضباط كانوا مساء الأمس فى ضيافة الجنرال فون-رابيك . وخلال الحديث ظهر فى النافذة رأس ليبيديتسكى بلحيته الحمراء . وزر عينيه القصيرتى النظر وهو ينظر الى الضباط الناعسين وحياهم . ثم سأل :

— كل شيء على ما يرام ؟

فأجاب لوبيتكو متثائبا :
— فرس السرج الرئيسية جرحت عنقها . . بالنير الجديد .
فتنهد القائد ، وفكر قليلا ، ثم قال بصوت عال :
— انني افكر فى الذهاب الى الكساندرا يفجرافوفنا . ينبغى ان أزورها . حسنا ، وداعا . سألحق بكم فى المساء .
وبعد ربع ساعة تحرك اللواء . وعندما مر فى الطريق بجوار مخازن السادة ، نظر ريابوفتش يمينا الى البيت . كانت حصر النوافذ مسدلة . يبدو أن أهل البيت ما زالوا نائمين . وتلك التى قبّلت ريابوفتش بالأمس كانت ايضا نائمة . وأراد ان يتصورها نائمة . النافذة المفتوحة على مصراعيها فى غرفة النوم ، والغصون الخضراء المطلة فى هذه النافذة ، وبرودة الصباح المنعشة ، وأريج الحور والبنفسج والورود ، والسرير ، والكرسى وعليه الفستان الذى هفهف بالأمس ، والحذاء والساعة على الطاولة . . . كل ذلك تخيله بوضوح ودقة ، أما ملامح الوجه ، والابتسامة الناعسة الرقيقة ، أى بالضبط ما كان هاما ومميزا ، فقد انزلق من خياله كما ينزلق الزئبق تحت الاصابع . وبعد ان قطعوا نصف فرسخ نظر الى الوراء : كانت الكنيسة الصفراء ، والبيت ، والنهر ، والبستان مغمورة بالنور . وكان النهر جميلا للغاية بشواطئه الخضراء اليانعة وانعكاس السماء الزرقاء فيه وتموجه الفضى تحت اشعة الشمس فى بعض المواضع . وتطلع ريابوفتش لآخر مرة الى ميستيتشكى وداهمه الحزن ، كأنما كان يفارق شيئا قريبا حبيبا .
وعلى الطريق لم يكن أمام بصره سوى الصور المألوفة من زمان وغير الشيقة . . . فعن اليمين وعن اليسار حقول الجودار الفتى والحنطة السوداء بالغربان القافزة فيها . فاذا نظرت امامك رأيت الغبار ومؤخرات الرؤوس ، واذا نظرت الى الخلف ترى نفس الغبار والوجوه . . . وفى مقدمة الجميع يسير اربعة اشخاص بسيوف . . انهم الطليعة . ومن خلفهم جمع المنشدين ، ومن خلف المنشدين نافخو الأبواق على متن الخيول . وكانت الطليعة والمنشدون ، مثل حاملى المشاعل فى مواكب الجنائز ، ينسون بين الحين والحين المسافة المنصوص عليها فى اللوائح ، فيبتعدون كثيرا الى الأمام . . . وكان ريابوفتش بجوار المدفع الأول فى البطارية الخامسة . ولذلك فهو

يرى كل البطاريات الأربع السائرة أمامه . وبالنسبة لشخص غير عسكرى يبدو هذا الطابور الطويل الثقيل الذى يمثله لواء مدفعية متحرك ، خليطا معقدا وصعب الفهم . فليس مفهوما لماذا يتجمهر هذا العدد من الاشخاص حول مدفع واحد ، ولماذا يجره كل هـــذا العدد من الخيول الملفوفة بعدة غريبة ، وكأنما هذا المدفع بالفعل رهيب وثقيل الى هذه الدرجة . اما بالنسبة لريابوفتش فكل شيء مهوم ، ولهذا فهو غير طريف على الاطلاق . انه يعرف منذ زمن بعيد لماذا يسير فى مقدمة كل بطارية ، بجوار الضابط ، صف ضابط رزين ولماذا يسمى «الشداد» . ومن خلف ظهر هذا الصف ضابط يبدو ساسة خيول الشدة الأولى والوسطى . ويعرف ريابوفتش ان الخيول اليسرى ، والتى يركبونها تسمى السروجية ، اما الخيول اليمنى فتسمى المقودة ، وهذا غير طريف أبدا . ومن وراء السائس تأتى الفرسان الرئيسيتان . ويمتطى السائس صهوة احديهما وعلى ظهره غبـــار الأمس ، وعلى ساقه اليمنى خشبة خرقاء مضحكة جدا . ويعـــرف ريابوفتش الغرض من هذه الخشبة ، ولا تبدو له مضحكة . وجميع الساسة ، عن بكرة أبيهم ، يلوحون بالسياط بطريقة آلية واحيانا يصيحون . أما المدفع فيبدو قبيحا . فعلى مقدمة عربته تتكوم أجولة الشعير المغطاة بالمشمع ، بينما تتدلى منه غلايات الشاى واكياس الجنود والصرر الصغيرة ، ويبدو كحيوان صغير أليف لا يعرف لأى غرض أحاط به الناس والخيول . وعلى جانبى المدفع يسير ستة من افراد الطاقم وهم يهزون أذرعتهم . وبعد المدفع يظهر ثانية «الشداد» جدد ، وساسة ، وخيول رئيسية ، ثم يتبعهم مدفع آخر ، ايضا قبيح وغير مهيب كالمدفع الأول . وبعد المدفع الثانى يأتى الثالـــث ، والرابع ، وبجوار الرابع ضابط ، وهكذا دواليك . ويضم اللواء ست بطاريات ، فى كل بطارية أربعة مدافع . ويمتد الطابور نصف فرسخ . وينتهى بالحملة ، التى تسير بجوارها سحنة لطيفة الى أقصى حد ، وقد طأطأت رأسها مستغرقة . . انه الحمار «مجار» ، الذى أتى به أحد قادة البطاريات من تركيا .

تطلع ريابوفتش بلا اكتراث الى الأمام والى الخلف ، الى مؤخرات الرؤوس والى الوجوه . ولو كان فى حال أخرى لاستسلم للنعاس ، ولكنه الآن غارق فى افكاره الجديدة السارة . ففى البداية ، عندما

بدأ اللواء تحركه ، أراد ان يقنع نفسه بأن حادث القبلة لا يمكن ان يكون طريفا الا باعتباره مغامرة صغيرة غامضة ، وانه فى الواقع حادث تافه ، ومن الغباء ، على أقل تقدير ، التفكير فيه جديا . الا أنه سرعان ما ترك عنه المنطق واستسلم للأحلام . . . فتـــارة يتخيل نفسه فى غرفة الجلوس فى دار رابيك ، جالسا بجوار فتاة تشبه الفتاة البنفسجية والشقراء ذات الفستان الأسود ، وتــــارة يغمض عينيه فيرى نفسه مع أخرى ، غير معروفة له ابدا ، بملامح غير محددة اطلاقا . وكان يتحدث فى سره ، ويلاطف ، ويميل الى الكتف ، ويتخيل الحرب والفراق ، ثم اللقاء والعشاء مع الزوجة ، والأولاد . . .

— الى الاستندات * ! — كانت هذه الصيحة تتردد كلما انحدر الطريق الى أسفل .

فكان هو ايضا يصيح «الى الاستندات !» ويخشى ان تقطع هذه الصيحة عليه أحلامه وتعيده الى الواقع . . .

وعندما مروا بجوار ضيعة أحد الاقطاعيين تطلع ريابوفتش عبر الحديقة الصغيرة الى البستان . ووقعت عيناه على ممر طويل مستقيم كالمسطرة ، مفروش بالرمل الأصفر وقد غرست على جانبيه اشجار بتولا فتية . . . وبنهم شخص أوغل فى الأحلام تخيل ساقين نسائيتين تخطوان على الرمل الأصفر ، ودون أن يتوقع تماما ارتسمت فى خياله بوضوح تلك التى قبلته ، والتى استطاع أن يتصورها بالأمس اثناء العشاء . وتوقفت هذه الصورة فى ذهنه ولم تتركه .

وفى منتصف النهار ، ترددت صيحة فى المؤخرة ، قرب الحملة :

— انتباه ! الى الشمال انظر ! السادة الضباط !

وفى عربة يجرها زوج من الخيول البيضاء ، مر الجنرال قائـــد اللواء . وتوقف بجوار البطارية الثانية ، وصاح بشىء لم يفهمـــه أحد . وهرول اليه عدة ضباط ، ومن بينهم ريابوفتش .

وسأل الجنرال وهو يطرف بعينين حمراوين :

— هه ، كيف الحال ؟ ماذا ؟ هل هناك مرضى ؟

* استندة العربة هى العمود الافقى المتحرك الذى تشد اليه العربة . المعرب .

وبعد أن سمع هذا الجنرال الصغير الرفيع الرد على الأسئلة ، مضغ قليلا ، وفكر ، ثم قال مخاطبا أحد الضباط :

– سائس الشدة الرئيسية فى المدفع الثالث لديك خلع وقاء الركبة وعلقه ، هذا الوغد ، على عربة المدفع . وقع عليه جزاء .

ورفع عينيه الى ريابوفتش واستطرد :

– اما أنت ، على ما أظن ، فسيور الصدر عندك طويلة . . .

وبعد أن أبدى الجنرال بعض الملاحظات الأخرى المملة ، تطلع الى لوبيتكو وضحك ضحكة قصيرة .

وقال :

– اما أنت يا ملازم لوبيتكو فمنظرك اليوم حزين جدا . هل أوحشتك لوبوخوفا ؟ هه ؟ يا سادة ، لقد أوحشته لوبوخوفا !

كانت لوبوخوفا سيدة بدينة ، طويلة جدا ، قد تجاوزت الاربعين منذ زمن بعيد . ولما كان الجنرال مولعا بالسيدات ذوات الاجساد الضخمة ، مهما كان عمرهن ، فقد كان يتوهم فى ضباطه ايضا هذا الولع . وابتسم الضباط باحترام . وقهقه الجنرال بصوت عال وقد أرضاه انه قال شيئا مضحكا جدا ولاذعا ، ثم لمس ظهر الحوذى ورفع يده بالتحية . واستأنفت العربة سيرها . . .

وفكر ريابوفتش وهو ينظر الى سحب الغبار الراكضة خلف عربة الجنرال : «ان كل ما أحلم به الآن ، وما يبدو مستحيلا وسماويا ، هو فى الواقع عادى جدا . كل هذا عادى جدا والجميع يخبرونه . . . مثلا هذا الجنرال . . قد أحب فى زمانه ، وهو الآن متزوج ولديه اولاد . والنقيب فاختير متزوج ايضا ومحبوب ، رغم ان قفاه قبيح جدا وأحمر ، وليس لديه خصر . . . وسلمانوف فظ وتترى جدا ، ولكنه عاش ايضا قصة غرام انتهت بالزواج . . . وأنا مثلى مثل الآخرين ، وسأخبر عاجلا ام آجلا ما خبروه . . .» .

وأسعدته ورفعت من معنوياته فكرة انه شخص عادى وان حياته عادية . ومضى بجرأة ، وكيفما شاء ، يرسم حياته وسعادته ، ولم يضع أية قيود على خياله . . .

وعندما بلغ اللواء فى المساء المكان المنشود ، وأخلد الضباط الى الراحة فى الخيام ، جلس ريابوفتش ولوبيتكو وميرزلياكوف حول صندوق يتناولون العشاء . كان ميرزلياكوف يأكل على مهل ويمضغ

ببطء وهو يقرأ «بشير أوروبا» الموضوعة على ركبتيـــــه . وكان لوبيتكو يتحدث بلا توقف ويملأ كأسه بالبيرة كلما فرغ ، أمـا ريابوفتش الذى امتلأ رأسه بالضباب من الاحلام طوال النهار فكان يشرب فى صمت . وبعد ثلاث اكواب انتشى وخار ، واستبدت بـه رغبة جارفة فى الافضاء لرفاقه بما يحسه .

وبدأ يحكى محاولا ان يضفى على صوته نبرة لامبالية هازئة :

– وقعت لى حادثة غريبة عند آل رابيك هؤلاء . . . فقد توجهت هناك الى غرفة البلياردو . . .

وراح يحكى بالتفصيل حادثة القبلة ثم صمت بعد دقيقة . . . فقد روى فى هذه الدقيقة كل شيء ، وأدهشه للغاية ان الرواية لم تتطلب الا هذا الوقت القصير . كان يخيل اليه انه يستطيع ان يحكى عن القبلة حتى الصباح . وبعد ان استمع اليه لوبيتكو ، الذى كان يكذب كثيرا ولهذا لم يكن يصدق أحدا ، نظر اليه بارتياب ثم ضحك ضحكة قصيرة . أما ميرزلياكوف فلعّب حاجبيه ، ثم قـال بهدوء شديد ، ودون أن يحول بصره عن «بشير أوروبا» :

– الله يعلم ما هذا ! . . ترتمى على عنقه قبل أن تناديه . . . يبدو أنها مضطربة العقل .

فقال ريابوفتش موافقا :

– نعم ، يبدو انها مضطربة العقل . . .

وقال لوبيتكو متصنعا الخوف بعينيه :

– وقع لى حادث مماثل ذات مرة . . . كنت مسافرا فى العام الماضى الى كوفنو . . . ابتعت بطاقة الدرجة الثانية فى القطار . . . وكانت العربة مزدحمة الى درجة يستحيل معها ان تجد مكانا للنوم . . فأعطيت للمحصل نصف روبل . . . فأخذ حقائبى وقادنى الى احدى المقصورات . . . وآويت الى الفراش وتغطيت بالبطانية . . . وكانت المقصورة مظلمة . وفجأة وجدت شخصا يلمس كتفى وانفاســـــه تتردد فى وجهى . ومددت ذراعى فلمست مرفق شخص مـــا . . . وفتحت عينى فرأيت امرأة ، تصوروا ! عينان سوداوان ، وشفتان حمراوان كسمكة سلمون طيبة ، ومنخاران يتنفسان بشهوة ، وصدر نافر . . . .

فقاطعه ميرزلياكوف بهدوء :

– عفوا ، بخصوص الصدر أستطيع ان أفهم ، ولكن كيف استطعت ان ترى لون شفتيها والمقصورة مظلمة ؟

وأخذ لوبيتكو يراوغ ويسخر من عدم فطنة ميرزلياكوف . وأثار هذا نفور ريابوفتش ، فابتعد عن الصندوق ، واستلقى ، وعاهد نفسه ألا يصارح احدا بما فى نفسه ابدا .

وبدأت حياة المعسكر . . . ومرت الايام ، كل يوم يشبه الآخر كثيرا . وطوال هذه الايام كان ريابوفتش يحس ويفكر ويتصرف كشخص عاشق . وكل صباح ، عندما كان جندى المراسلة يصب له الماء ليغتسل ، كان ريابوفتش يتذكر ، وهو يغمر رأسه بالماء البارد ، أن فى حياته شيئا طيبا ودافئا .

وفى الامسيات ، عندما يشرع رفاقه فى الحديث عن الحب والنساء ، كان يصغى ، ويقترب منهم ، ويرتسم على وجهه تعبير كالذى يرتسم على وجوه الجنود عندما يسمعون رواية عن معركة شاركوا فيها هم أنفسهم . أما فى الامسيات التى كان فيها الضباط المنتشون ، وعلى رأسهم كلب الصيد لوبيتكو ، يقومون بغزوات دون جوانية على «المحلة» ، كان ريابوفتش ، المشارك فى الغزوات يصبح بعدها حزينا ، ويحس بشعور عميق بالذنب ، ويرجو منها المغفرة فى دخيلته . . . وفى ساعات الفراغ ، او فى ليالى الأرق ، عندما تواتيه الرغبة فى تذكر طفولته وأبيه وأمه ، وعموما كل ما هو قريب وعزيز ، كان يتذكر حتما ميستيتشكى ايضا ، والحصان الغريب ، ورابيك ، وزوجته التى تشبه الامبراطورة أوجين ، والغرفة المظلمة ، وفرج الباب الساطع . . .

وفى ٣١ أغسطس غادر المعسكر ، ولكن ليس مع اللواء كله ، بل مع بطاريتين . وظل طوال الطريق يحلم ويشعر بالاضطراب وكأنما كان عائدا الى دياره . واستبدت به رغبة جارفة فى رؤية الحصان الغريب ، والكنيسة ، وأسرة رابيك غير الصادقة ، والغرفة المظلمة . ولسبب ما همس له «الصوت الداخلى» ، الذى كثيرا ما يخدع العاشقين ، بأنه حتما سيراها . . . وعذبته الأسئلة : كيف سيلقاها ؟ وعمّ سيتحدث معها ؟ ترى ألم تنس القبلة ؟ وقال لنفسه انه اذا حدث على اسوأ الاحوال ولم يقابلها ، فيكفيه سرورا انه سيجوس فى الغرفة المظلمة ويتذكر . . .

وقبيل المساء لاحت فى الأفق الكنيسة المألوفة والمخازن البيضاء وخفق قلب ريابوفتش . . . ولم يسمع ما كان يقوله له الضابط الراكب حصانه الى جوراه ، ونسى كل شيء فى الوجود ، وأخذ يحدق بنهم فى النهر اللامع بعيدا فى الامام ، وفى سقف المنزل ، وفى برج الحمام الذى حوّم الحمام فوقه وقد اضاءته اشعة الشمس الغاربة .

وعندما بلغوا الكنيسة ، وفيما بعد ، وهو يستمع الى تقرير مسئول الايواء ، كان يتوقع فى كل لحظة ان يظهر الفارس من وراء السور ويدعو الضباط الى تناول الشاى ، ولكن . . . انتهى تقرير مسئول الايواء ، وترجل الضباط وتفرقوا فى القرية ، بينما لم يظهر الفارس . . .

«سيعرف رابيك الآن من الفلاحين أننا وصلنا فيرسل من يدعونا» – فكر ريابوفتش وهو يدلف الى مسكنه ولا يفهم لماذا يشعل رفاقه شمعة ويسرع جندى المراسلة الى تجهيز السماور . . .

واستولى عليه قلق مقبض . ورقد ، ثم نهض ، ونظر من النافذة ليرى هل الرسول قادم ام لا . ولكن الرسول لم يظهر . فرقد ثانية ، وبعد نصف ساعة نهض ، ولم يستطع مغالبة قلقه فخرج من البيت واتجه نحو الكنيسة . كان الميدان بجوار السور مظلما ومقفرا . . . ووقف ثلاثة جنود عند المهبط تماما وقد لزموا الصمت . وعندما رأوا ريابوفتش انتفضوا وأدوا التحية العسكرية . فرفع يده رادا التحية ومضى يهبط على الدرب المعروف .

كانت السماء كلها فوق الشاطئ الآخر مصبوغة بلون أحمر ، فقد بزغ القمر . وكانت ثمة فلاحتان تتحدثان بصوت عال وتسيران فى مزرعة الخضروات وهما تقطفان أوراق الكرنب . ولاحت خلف المزرعة عدة بيوت ريفية متشحة بالسواد . . . اما على هذا الشاطئ فكان كل شيء مثلما فى شهر مايو : الدرب ، والخمائل ، والصفصاف المتدلى فوق الماء . . . الا ان ذلك البلبل الشجاع لم يكن يصدح ، كما لم تنتشر رائحة الحور والعشب الفتى .

وعندما بلغ ريابوفتش البستان اطل من باب السور . كان البستان مظلما وهادئا . . . ولم تظهر الا جذوع اشجار البتولا البيضاء القريبة وقسم من الممر ، اما ما عدا ذلك فقد اختلط بكتلة الظلام . وأصاخ ريابوفتش وحدق بنهم ، ولكنه بعد ان وقف

حوالى ربع ساعة دون أن يسمع صوتـــا أو يرى ضوءا ، عـــاد أدراجه . . .

واقترب من النهر . ولاح أمامه مسبح الجنرال وملاءات بيضاء منشورة على حاجز الجسر . . . ارتقى الجسر ووقف ، ودونما داع لمس ملاءة . كانت الملاءة خشنة وباردة . ونظر الى المـــاء فى الأسفل . . . كان النهر ينساب بسرعة ويخرخر بصـــوت لا يكاد يسمع بجوار قوائم المسبح . وانعكس القمر الأحمر قرب الشاطىء الأيسر . وركضت أمواج صغيرة فوق انعكاسه وهى تمطه وتمزقه قطعا ، وبدا انها تريد ان تجرفه معها . . .

وفكر ريابوفتش وهو يحدق فى المياه الجارية : «يا للحماقة ! يا للحماقة ! ما أغبى كل هذا !» .

الآن ، عندما لم يعد ينتظر شيئا ، تبدت له حادثة القبلة ، ولهفته ، والآمال الغامضة ، وخيبة الأمل ، فى ضوء واضح . لـــم يعد يبدو له غريبا ان رسول الجنرال لم يأت ، وانه لن يرى ابدا تلك التى قبلته صدفة بدلا من شخص آخر . بالعكس ، كان سيكون غريبا لو رآها . . .

كانت المياه تتدفق الى جهة غير معلومة ولغرض غير معروف . وتدفقت بهذه الصورة ايضا فى شهر مايو . ومن نهير فى مايـــو تحولت الى نهر كبير ، ومن نهر الى بحر ، ثم تبخرت ، وتحولت الى مطر ، وربما كانت الآن ، نفس تلك المياه ، هى التى تتدفق ثانية أمام عينى ريابوفتش . . . فما الداعى ؟ ولأى غرض ؟

وبدت له الدنيا والحياة كلها مزحة غير مفهومة وبـــلا معنى . . . وعندما حول عينيه عن المياه وتطلع الى السماء ، تذكر ثانية كيف لاطفه القدر عرضا فى شخص المرأة المجهولة ، وتذكر أحلامه الصيفية وصوره ، فبدت له حياته شحيحـــة للغايـــة وبائسة ولا لون لها . . .

وعندما عاد الى مسكنه لم يجد أحدا من زملائه . وأخبره جندى المراسلة انهم قد ذهبوا جميعا الى «الجنرال فون ترابكين» الذى بعث رسولا لدعوتهم . . . وللحظة توهجت الفرحة فى قلب ريابوفتش ، الا انه أخمدها على الفور ، واستلقى فى الفراش ، وكيدا فى حظه ، كأنما كان يبغي ان يغيظه ، لم يذهب الى الجنرال .

الصبيان

صاح احدهم فى الفناء :

– فولوديا وصل !

وصرخت نتاليا وهى تندفع الى غرفة الطعام :

– فولوديا وصل ! آه ، يا إلهى !

وهرولت اسرة كوروليف ، التى كانت تنتظر وصول ابنها فولوديا بين لحظة واخرى ، الى النوافذ . كانت هناك عربة واسعة تقف بجوار المدخل ، ومن الخيول الثلاثة البيضاء تصاعد بخار كثيف . كانت العربة خاوية ، لان فولوديا كان يقف الآن فى المدخل وهو يفك القلنسوة بأصابع محمرة من البرد . وكان معطفه المدرسى والكاب وخف حذائه وشعر فوديه مغطاة بالحبب الثلجى ، وانبعثت منه كله ، من قمة رأسه حتى اخمص قدميه ، رائحة صقيع لذيذة ، بحيث تراودك الرغبة وانت تتطلع اليه ان تنتفض من البرد وتقول : «بررر !» واندفعت أمه وعمته نحوه تعانقانه وتقابلانه ، وارتمت نتاليا على قدميه وبدأت تنزع حذاءه اللباد ، واطلقت شقيقاته صراخا ، وصرت الابواب واصطفقت ، اما والد فولوديا ، فقد هرول الى الدهليز فى الصديرى وقد أمسك بمقص فى يده ، وصاح بخوف :

– كنا ننتظر مجيئك امس ! أكان السفر طيبا ؟ على ما يرام ؟ آه ، يا إلهى ، هلا تركتموه يسلم على ابيه ؟ ام اننى لست اباه ، هه ؟

– هَوْ ! هَوْ !

نبح «ميلورد» الكلب الضخم الاسود بصوت غليظ ، وهو يخبط بذيله على الاثاث والجدران .

واختلطت كل الاصوات فى صوت واحد شامل ، فرح ، استمر حوالى دقيقتين . وعندما مرت اول موجة فرح ، لاحظ آل كوروليف انه بالاضافة الى فولوديا ، كان هناك فى الدهليز شخص صغير آخر ، ملتف بالمناديل والشيلان والقلنسوات ومغطى بحبب الثلج . كان واقفا فى الركن بلا حراك ، يحجبه ظل معطف كبير من فراء الثعلب .

وسألت الأم بهمس :

– فولوديا ، ومن هذا ؟

واستدرك فولوديا فقال :

– آه ! يشرفنى ان اقدم لكم رفيقى تشيتشيفيتسين ، التلميذ بالصف الثانى . . . لقد احضرته معى ليمكث فى ضيافتنا قليلا . . .

وقال الأب بفرح :

– تشرفنا ، اهلا وسهلا . . . عفوا ، فاننى بملابس البيت بدون سترة . . . تفضل ! يا نتاليا ، ساعدى السيد تشيربيتسين على خلع ملابسه ! يا إلهى ، اطردوا هذا الكلب من هنا ! يا للعنة !

وبعد قليل ، جلس فولوديا وصديقه تشيتشيفيتسين الى المائدة لتناول الشاى وقد اذهلهما صخب اللقاء ، وحمرة البرد لم تذهب بعد من وجهيهما . وكانت شمس الشتاء تمر عبر الثلج وتعاريج الجليد على النوافذ وتتراقص على السماور وتغسل اشعتها الصافية فى طبق الغسيل . كانت الغرفة دافئة ، وأحس الصبيان فى جسديهما بالدفء يصارع البرد ، وكل منهما لا يريد ان يتنحى للآخر .

وقال الأب بصوت منغم ، وهو يدير بين اصابعه سيجارة من التبغ الاشقر الغامق :

– ها هو عيد الميلاد يقترب ! ألم نكن فى الصيف منذ وقت قريب ، عندما بكت امك وهى تودعك ؟ وها انت ذا قد عدت . . . نعم ، الزمن يا أخى يمضى بسرعة ! وقبل ان تفتح فمك دهشة تجد الشيخوخة قد دهمتك . كُلْ يا سيد تشيبيسوف ، ارجوك ، لا تستح ! نحن بسطاء .

كانت شقيقات فولوديا الثلاث : كاتيا وسونيا وماشا – اكبرهن فى الحادية عشرة – جالسات الى المائدة لا يحولن أعينهن عن الشخص الجديد . كان تشيتشيفيتسين من عمر اخيهن وطوله ، ولكنه لم يكن مثله مليئـــا ولا أبيض ، بل نحيلا ، اسمر ، وجهه مغطى بالنمش ، وكان شعره خشنا مجعدا ، وعيناه ضيقتين ، وشفتاه غليظتين ، وعموما فقد كان قبيحـا جدا ، ولو لا انه كان يرتدى سترة التلاميذ لكان من الممكن ان تظنـــه ابن الطاهية . وكان عبوسا ، وظل صامتا طوال الوقت ، ولم يبتسم مرة واحدة . وقررت الفتيات وهن ينظرن اليه ، انه على الارجح شخص ذكى جدا وعالم . كان يفكر طوال الوقت فى شىء ما ، وكان مشغولا بأفكاره حتى انه كان ينتفض عندما يسألونه عن شىء ما ، ويهز رأسه ويطلب اعادة السؤال .

ولاحظت الفتيات ان فولوديا الذى كان دائما مرحا وثرثارا ، اصبح قليل الكلام ، ولم يبتسم ابتسامة واحدة ، وكأنما لم يكن مسرورا بعودته الى البيت . واثناء تناول الشاى لم يخاطب شقيقاته سوى مرة واحدة ، بكلمات غريبة . فقد اشار باصبعه الى السماور وقال :

– فى كاليفورنيا يشربون الجن بدلا من الشاى .

كان هو ايضا مشغولا بأفكار ما ، ويبدو من النظرات القليلة التى تبادلها مع صديقه تشيتشيفيتسين انه كان هناك بين الصبيين شىء مشترك .

وبعد تناول الشاى ذهب الجميع الى غرفة الاطفال . وجلس الأب والبنات الى المائدة وانكبـوا على العمل الذى قطعـــه مجىء الصبيين . كانوا يصنعون ازهارا وشرائط زينة من الورق الملون لتزيين شجرة عيد الميلاد . كان ذلك عملا ممتعا وصاخبا . وكانت الفتيات يستقبلن كل زهرة جديدة بصيحات الاعجاب ، بل وبصيحات الذعر وكأن هذه الزهرة سقطت من السمـــاء . وكان الأب ايضا يبدى اعجابه ، ويلقى احيانا بالمقص على الارض فى غضب لانه ليس حادا . وكانت الام تهرول الى غرفة الاطفال بوجه يبدو عليه الهم الشديد فتسأل :

– من اخذ مقصي ؟ هل أخذته مرة اخرى يا ايفان نيقولايفيتش؟

فيرد ايفان نيقولايفيتش بصوت باك ويرتمى بظهره على مسند المقعد متخذا وضع شخص مهان :

– يا إلهى ، حتى المقص يأخذونه منى .

ولكنه بعد دقيقة يعود الى ابداء اعجابه .

كان فولوديا فى المرات السابقة يشارك ايضا فى اعداد زينة شجرة عيد الميلاد ، او ينطلق الى الفناء ليتفرج على الحوذى والراعى وهما يصنعان تلا من الثلج ، ولكنه الآن ، هو وتشيتشيفيتسين ، لم يلقيا بالا الى الورق الملون ، ولم يذهبا الى الاسطبل مرة واحدة ، بل جلسا بقرب النافذة وأخذا يتهامسان . ثم فتحا الاطلس الجغرافى وصارا يتأملان خريطة ما .

وقال تشيتشيفيتسين بصوت خافت :

– اولا الى بيرم . . . ومن هناك الى تيومين . . . ثم تومسك . . . ثم . . ثم . . الى كامتشاتكا . . . ومن هناك ينقلنا الادلاء بالقوارب عبر مضيق بيرينغ . . . وها هى امريكا . . . هنا الكثير من حيوانات الفراء . . .

وسأل فولوديا :

– وكاليفورنيا ؟

– كاليفورنيا اسفل قليلا . . . المهم ان نصل الى امريكا ، اما كاليفورنيا فليست بعيدة . ويمكننا ان نحصل على الطعام بالصيد والنهب .

وظل تشيتشيفيتسين طوال اليوم يتحاشى الفتيات ، ويتطلع اليهن شزرا . وبعد شاى المساء تصادف ان بقى بمفرده مع الفتيات خمس دقائق لا اكثر . كان الصمت محرجا . فسعل بصرامة ، وفرك يده اليسرى براحته اليمنى ، ونظر الى كاتيا عابسا وسأل :

– هل قرأت ماين ريد ؟

– كلا ، لم اقرأه . . اسمع ، هل تجيد التزحلق على الجليد ؟

كان تشيتشيفيتسين غارقا فى افكاره ، فلم يجب على هذا السؤال ، بل نفخ شدقيه بشدة ، واطلق زفرة وكأنه يشعر بحر شديد . ورفع عينيه مرة اخرى الى كاتيا وقال :

– عندما يركض قطيع البيسون عبر البمباس ترتج الارض ،

وفى تلك الاثناء تصهل الموستانغ وترفس بارجلها وهى مذعورة .
وابتسم تشيتشيفيتسين بحزن وأضاف :
– والهنود الحمر ايضا يهاجمون القطارات . ولكن اسوأ شيء هو الموسكيتو والترميت * .
– وما هذا ؟
– انها اشبه بالنمل ولكنهـــا باجنحة . ولدغاتهـا مؤلمة . أتعرفين من أنا ؟
– السيد تشيتشيفيتسين .
– كلا . انا مونتيغومو ، مخلب الصقر ، زعيم المنتصرين .
وتطلعت ماشا ، أصغر الفتيات ، اليه ، ثم حولت نظرهـــا الى النافذة التى كان المساء هبط وراءها ، وقالت وهى شاردة :
– مساء الامس طبخنا طبخة عدس ** .
كانت عبارات تشيتشيفيتسين غير المفهومة أبدا ، وكذلك همسه المستمر مع فولوديا ، وعدم انخراط فولوديـا فى اللعب واستغراقه فى التفكير . . كل ذلك كان غامضا وغريبا . فأخذت الشقيقتان الاكبر ، كاتيا وسونيا ، تراقبان الصبيين بيقظة . . وعندما أوى الصبيان الى فراشهما فى المساء ، تسللت الفتاتان الى باب غرفتهما وأخذتا تسترقان السمع الى حديثهما . أوه ، ماذا سمعتا ! لقد كان الصبيان يستعدان للهرب الى مكان ما فى امريكا للبحث عن الذهب . كان لديهما كل ما يلزم للرحلة : مسدس ، ومديتان ، وخبز مجفف ، وعدسة لاشعال النار ، بوصلة ، واربعة روبلات . وعلمتا انه على الصبيين قطع عدة آلاف من الكيلومترات سيرا على الاقدام ، وسيكون عليهما اثناء الطريق ان يصارعا النمور والمتوحشين ، ثم ان ينقبـا عن الذهب والعاج ، ويقتلا الاعداء ، وينضما الى قراصنة البحر ، ويشربا الجن ، وفى نهاية المطاف ان

---

* البيسون هو الثور البرى الامريكى ؛ والبمباس اقليم البرارى فى امريكا الجنوبية ، والموستانغ هو الحصان البرى والموسكيتو هو البعوض ، والترميت هو النمل الابيض . **المعرب** .

** الاسم : تشيتشيفيتسين مشتق من كلمة : «تشيتشيفيتســـــا» ، وتعنى فى الروسية : «عدس» . **المعرب** .

يتزوجا حسناوين وان يعملا فى فلاحة المزارع . كان فولوديا وتشيتشيفيتسين يتحدثان بحماس وكل منهما يقاطع الآخر . وكان تشيتشيفيتسين يسمى نفسه اثناء الحديث «مونتيغومو ، مخلب الصقر» وينادى فولوديا «يا أخى الاصفر الخدين» .

وقالت كاتيا لسونيا وهما تأويان الى الفراش :

– اياك ان تقولى لماما . سيحضر لنا فولوديا من امريكا ذهبا وعاجا ، ولو قلت لماما فلن يسمحوا له بالذهاب .

وقبيل ليلة الميلاد ظل تشيتشيفيتسين يفحص خريطة آسيا طوال النهار ويسجل اشياء ما ، بينما مضى فولوديا يطوف بالغرف عابسا ، شاردا ومنتفخا كأنما لدغته نحلة . وفى احدى المرات توقف امام الايقونة فى غرفة الاولاد ورسم علامة الصليب وقال :

– يا إلهى ، سامح عبدك المذنب ! يا إلهى ، احفظ أمى المسكينة البائسة !

وفى المساء اجهش بالبكاء . وعندما مضى الى فراشه عانق أباه وامه واخواته طويلا . كانت كاتيا وسونيا تدركان الامر ، اما الاخت الصغرى ماشا فلم تفهم شيئا ، لم تفهم شيئا على الاطلاق ، ولكنها عندما نظرت الى تشيتشيفيتسين شردت وقالت وهى تتنهد :

– دادة تقول عندما يأتى الصيام ينبغى ان نأكل الحمص والعدس .

وفى يوم الميلاد نهضت كاتيا وسونيا فى ساعة مبكرة ، وذهبتا لتريا كيف سيهرب الصبيان الى امريكا . وتسللتا الى باب غرفتهما .

– اذن فلن تذهب ؟ – قال تشيتشيفيتسين بغضب – قل : لن تذهب ؟

وبكى فولوديا بصوت خافت وهو يقول :

– يا إلهى ! كيف اذهب ؟ اننى اشفق على ماما .

– يا أخى الاصفر الخدين ، أرجوك ، هيا نذهب ! ألم تؤكد لى بانك ستذهب . تغرينى بالذهاب وعندما تحين الساعة تجبن !

– أنا . . . أنا ، . . . لم أجبن ، ولكننى . . . اشفق على ماما .

– قل : ستذهب أم لا ؟

– سأذهب ، ولكن . . . انتظر . أريــــد ان أبقى قليلا فى البيت .

فقال تشيتشيفيتسين بحزم :

– اذن سأذهب وحدى ! سأمضى بدونك . كان يدعى انــه يريد ان يصيد النمور ويحارب ، اذن اعطنى طلقاتى !

واجهش فولوديا ببكاء مرير ، حتى ان شقيقتيه لـم تتمالكا نفسيهما وبكيتا ايضا . وساد الصمت .

وعاد تشيتشيفيتسين يسأل :

– اذن فلن تذهب ؟

– سأ . . سأذهب .

– هيا ألبس اذن !

ومضى تشيتشيفيتسين ، لكى يقنــع فولوديـــا ، يثنى على امريكا ، ويزأر كالنمر ، ويقلد الباخرة ، ويسب ، ووعد فولوديا بأن يعطيه كل ما يحصل عليه من عاج وجلود الاسود والنمور .

وبدا هذا الصبى النحيل الاسمر ، ذو الشعر الخشن والوجه المغطى بالنمش ، بدا للفتاتين صبيا رائعا لا مثيل له . لقد كان بطلا ، شخصا حازما مقداما ، وكان يزأر بحيث يخيل اليك وانت خلف الباب انه نمر او اسد حقيقى .

وعندما عادت الفتاتان الى غرفتهما لتبدلا ملابسهما قالت كاتيا بعينين مليئتين بالدموع :

– آوه ، كم انا خائفة !

وقبل ان يجلسوا الى الغداء فى الساعة الثانية كان كل شىء هادئا ، ولكن عندما جلسوا الى المائدة اكتشفوا ان الصبيين غير موجودين فى المنزل . وأرسلوا من يبحث عنهما فى غرفة الخدم ، وفى الاسطبل ، وفى بيت الخولى ، ولكنهما لم يكونا هناك . وارسلوا فى اثرهما الى القرية فلم يجدوهما هناك . ثم تناولوا الشاى بعد ذلك بدون الصبيين . وعندمــا جلسوا الى العشاء كانت الأم فى غاية القلق حتى انها بكت . وفى الليل ارسلوا من يبحث عنهما فى القرية ثانية ، ثم بحثوا عند النهر بالمصابيح . يا إلهى ، اى هرج حدث !

3*

وفى اليوم التالى جاء رئيس الشرطة ، وجلس فى غرفة الطعام يكتب ورقة ما . وبكت الام .

ولكن ها هى عربة تتوقف بجوار المدخل . ويتصاعد البخار من ثلاثة خيول بيضاء .

وصاح احدهم فى الفناء :

– فولوديا وصل !

وصرخت نتاليا وهى تندفع الى غرفة الطعام :

– فولوديا وصل !

ونبح «ميلورد» بصوته الغليظ : «هَوْ ! هَوْ !» . واتضح ان الصبيين استوقفوا فى المدينة ، فى نزل المسافرين (راحوا هناك يسألون أين يباع البارود) . وما ان دلف فولوديا الى الدهليز حتى انفجر منتحبا وارتمى على صدر امه .

واخذت الفتاتان ترتعشان وهما تفكران فيما سيحدث بعد ذلك ، وسمعتا الأب وهو يسوق فولوديا وتشيتشيفيتسين الى غرفة مكتبه ، حيث تحدث اليهما طويلا . وتحدثت الأم ايضا وهى تبكى .

قال الاب :

– هل هذا ممكن ؟ لو علموا ، لا قدر الله ، فى المدرسة ، فسوف تفصلان . وأنت يا سيد تشيتشيفيتسين ، ألا تخجل ؟ عيب عليك ! أنت المحرض ، وآمل ان يعاقبك والداك . هل هذا ممكن ؟ أين قضيتما الليل ؟

فأجاب تشيتشيفيتسين بفخر :

– فى المحطة !

وبعد ذلك تمدد فولوديا وأخذوا يضعون على رأسه المناشف المبللة بالخل . وارسلوا برقية الى مكان ما ، وفى اليوم التالى وصلت امرأة ، هى أم تشيتشيفيتسين ، واخذت ابنها .

وعندما كان تشيتشيفيتسين يستعد للرحيل ارتسمت على وجهه ملامح الصرامة والكبرياء ، وودع الفتيات دون كلمة ، غير انه أخذ من كاتيا كراسة وكتب فيها للذكرى :

«مونتيغومو ، مخلب الصقر» .

كاشتانكا

الفصل الاول

سلوك مشين

أخذت كلبة حمراء شابة – خليط من فصيلة الهجين والدشهند – سحنتها قريبة الشبه جدا بسحنة الثعلب ، تجرى الى الامام والى الخلف على الرصيف وتتلفت حولها بقلق ، واحيانا كانت تتوقف ، وترفع باكية تارة هذه الكف المقرورة وتارة تلك ، وهى تحاول ان تفهم : كيف حدث ان ضلت الطريق ؟

كانت تذكر جيدا كيف قضت النهار ، وكيف اصبحت اخيرا على هذا الرصيف المجهول .

بدأ النهار بأن ارتدى سيدها ، صانع الاثاث لوقا الكسندريتش ، الطاقية الفراء ، واخذ تحت ابطه قطعة خشبية ما ، ملفوفة فى منديل احمر ، وصاح :

– كاشتانكا ، هيا !

وعندما سمعت الكلبة الخليط من فصيلة الهجين والدشهند اسمها ، خرجت من تحت نضد النجارة حيث كانت ترقد على نشارة الخشب ، وتمطت بتلذذ وركضت خلف سيدها . كان زبائن لوقا الكسندريتش يعيشون بعيدا جدا ، حتى انه كان على صانع الاثاث قبل ان يصل اليهم ، ان يعرج عدة مرات على الحانة ليتناول ما ينعش به نفسه . وكانت كاشتانكا تذكر ان سلوكها اثناء الطريق كان غير لائق ابدا . فقد راحت تقفز ، اذ سرها ان سيدها اخذها للتريض ، وتنقض على عربات ترام الخيول



بالنبــاح ، وتعرج على الافنيــة وتطارد الكلاب . وكانت بين الحين والحين تغيب عن انظار صانع الاثاث فيتوقف ويصرخ فيها بغضب . بل انه ذات مرة ضم اذنها الثعلبية فى قبضته بينمـا ارتسم على وجهه تعبير نهم ، وهزها وقال وهو يشدد على مقاطع الكلمات :

— ان شا — الله — تأ — خذك بلوى . . . يا — ملعو — نة !

وبعد ان زار لوقـا الكسندريتش زبائنـه ، عرج لحظة على اخته حيث شرب عندها وأكل . ومن اخته توجه الى عامل تجليد من معارفه ، ومن عامل التجليد الى الحانــة ، ومن الحانـة الى الاشبين وهكذا . . . وباختصار ، عندما اصبحت كاشتانكا على هذا الرصيف المجهول كان المساء قد حل ، واصبح عامل الاثاث ثملا كاسكافى . واخذ يلوح بذراعيه ، ويزفر بعمق ، ويدمدم :

— ولدتنى امى فى رحم الذنوب ! آه ، الذنوب ، الذنوب ! اليوم نسير فى الشوارع وننظر الى المصابيح ، فاذا متنا فسنصلى عذاب السعير . . .

او كانت تداهمه نوبة طيبة ، فيدعو اليه كاشتانكا ويقول لها :

— انت يا كاشتانكا لست سوى حشرة وليس اكثر من ذلك . وانت بالمقارنة مع الانسان مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الاثاث . . .

وبينما كان يتكلم معها بهذه الطريقة دوت الموسيقى فجأة . والتفتت كاشتانكا فرأت فوج جنود يسير فى الشارع نحوهــا مباشرة . ولما كانت لا تطيق سماع الموسيقى التى تثير أعصابها ، فقد اندفعت جانبا وهى تعوى . ولدهشتها البالغة رأت صانع الاثاث ، بدلا من ان يفزع ويصرخ وينبح ، يبتسم ابتسامــــة عريضة ، وينتصب شادا قامته ، ويرفع اصابعه الخمس مؤديا التحية . وعندما رأت كاشتانكا ان سيدها لا يحتج ، عوت بصوت أعلى ، وانطلقت عبر الشارع الى الرصيـــف الآخر وهى لا تعى شيئا .

وعندما أفاقت لم تعد الموسيقى تصدح ، واختفى الفوج . فركضت عبر الطريق الى المكان الذى تركت فيه سيدها ، ولكن

هيهات ! لم يكن صانع الاثاث هناك . فاندفعت الى الامام ، ثم الى الخلف ، وعبرت الطريق ثانيـــة ، ولكن لم يكن هناك اثر لصانع الاثاث ، وكأنما ابتلعته الارض . . . واخذت كاشتانكا تتشمم الرصيف ، على أمل ان تعثر على سيدها عن طريق آثاره ، ولكن أحد الاوغاد كان قد مر فى خف جديد من المطاط ، فاختلطت الآن كل الروائح الرهيفـة برائحة الكاوتشوك القوية الكريهة ، بحيث لم يعد من الممكن تمييز شيء .

ركضت كاشتانكا الى الامام والى الخلف دون ان تعثر على سيدها ، وفى تلك الاثنـاء أظلمت الدنيا . وعلى جانبى الشارع اضيئت المصابيح ، وظهرت الانوار فى نوافذ المنازل . وتساقط الثلج ندفا كبيرة زغبيـة ، فطلى باللون الابيض ارض الشارع وظهور الخيول وطواقى الحوذية ، وكلما ازداد الجو ظلاما تبدت الاشياء اكثر بياضا . ومر بجوار كاشتانكـا بلا توقف ، الى الامام والى الخلف ، زبائن مجهولون ، وهم يحجبون عنها الرؤية ويدفعونها بأقدامهـم . (كانت كاشتانكا تقسم البشر الى قسمين غير متساويين ابدا : الى سادة وزبائن . وكـان هناك فرق جوهرى بين هؤلاء واولئك : فقد كان من حق الفريق الاول ان يضربوها ، اما الفريق الثانى فكان من حقهـا هى ان تطبق على سمانات سيقانهم) . وكان الزبائن يسرعون الى جهة ما ، دون ان يعيروها اى انتباه .

وعندما اطبق الظلام تمامـا استولى اليـأس والرعب على كاشتانكا . فانزوت عند مدخل احد المنازل وراحت تبكى مرارة . لقـد هدها التعب من التجوال مع لوقا الكسندريتش طـول النهار ، وبردت اذناها واكفها ، وعلاوة على ذلك كانت جائعة الى درجة رهيبة . فلم تمضغ طوال النهار سوى مرتين : عند عامل التجليد أكلت قليلا من الصمغ ، وفى احدى الحانات وجدت بجوار النضد قشر سجق . . وهذا كل ما هناك . ولو كانت انسانـا لفكرت على الارجح :

«كلا ، هذه حياة لا تطاق ! ينبغى ان انتحر !»

الفصل الثانى

الرجل الغريب الغامض

ولكنها لم تفكر فى شىء بل كانت تبكى فحسب . وعندما غطى الثلج الزغبى الناعم ظهرها ورأسها تماما وغابت فى نعاس ثقيل بسبب الارهاق فرقع باب المدخل فجأة وتحشرج ولطمها فى جنبها ، فقفزت . ومن الباب المفتوح خرج رجل ما ، ينتمى الى فريق الزبائن . ولما كانت كاشتانكا قد عوت واصطدمت بقدمه فلم يكن من الممكن الا ان تلفت انتباهه . فانحنى عليها وسألها :

– من اين انت ايتها الكلبة ؟ هل آذيتك ؟ آه يا مسكينة . . . حسنا ، لا تغضبى ، لا تغضبى . . . انا آسف .

ونظرت كاشتانكا الى الرجل الغريب من خلال ندف الثلج العالقة برموشها ، فرأت امامها رجلا قصيرا وبدينا ، بوجه حليق مكتنز ، وبقبعة اسطوانية ومعطف فراء مفتوح .

ومضى يقول وهو ينفض الثلج عن ظهرها باصبعه :

– لماذا تعولين ؟ أين سيدك ؟ يبدو انك فقدت ؟ آه ، يا للكلب المسكين ! وماذا سنفعل الآن ؟

وعندما احست كاشتانكا فى صوت الرجل الغريب بنبرة دافئة قلبية ، لعقت يده ، وأعولت بصوت اكثر شكاية .

فقال الرجل الغريب :

– ولكنك لطيفة ، مضحكة ! كالثعلب تماما ! طيب ، ما العمل ، هيا معى ! ربما تنفعين فى شىء ما . . . هيا ، فويت !

ومصمص بشفتيه ولوح لكاشتانكا بذراعه بحركة لا يمكن الا ان تعنى شيئا واحدا : «هيا !» . فمضت كاشتانكا .

ولم يمر اكثر من نصف ساعة حتى كانت جالسة على الارض فى غرفة كبيرة مضيئة ، تنظر بتأثر وفضول ، وقد أمالت رأسها جانبا ، الى هذا الرجل الغريب ، الذى كان جالسا الى الطاولة يتناول طعامه . كان يأكل ويلقى اليها بقطع . . . فى البداية اعطاها قطعة خبز وقشرة جبن خضراء ، ثم قطعة لحم ، ونصف شطيرة ، وعظام دجاج ، فأكلت من الجوع كل ذلك بسرعة حتى

انها لم تتمكن من معرفة طعمه . وكلما أكلت اكثر ازداد احساسها بالجوع .

وقال الغريب وهو يرى بأى نهم وحشى تزدرد القطع دون مضغ :

– ولكن أصحابك يطعمونك بصورة سيئة ! يا لك من نحيلة ! جلد على عظم . . .

أكلت كاشتانكا كثيرا ولكنها لم تشبع ، بل ثملت فقط من الطعام . وبعد الأكل تمددت فى وسط الغرفة وفردت سيقانها ، وهزت ذيلها وقد احست بضعف لذيذ فى جسدها كله . وبينما كان سيدها الجديد مضطجعا فى الفوتيل يدخن السيجار ، مضت تهز ذيلها وتقرر مسألة : أين الافضل – عند الرجل الغريب ام عند صانع الاثاث ؟ كان الفرش عند الرجل الغريب فقيرا وقبيحا . فبخلاف الفوتيلات والكنبة والمصباح والسجاجيد لم يكن لديه شيء وبدت الغرفة خاوية . اما لدى صانع الاثاث فالشقة كلها غاصة بالاشياء . فلديه طاولة ، ونضد نجارة وكوم من النشارة ، ومساحيج وأزاميل ومناشير وقفص به عصفور ، وبرميل . . . ولا تنبعث لدى الغريب اية روائح ، اما لدى صانع الاثاث فالضباب يملأ دائما شقته وتفوح رائحة رائعة من الصمغ وورنيش اللّك والنشارة . ولكن لدى الغريب ميزة هامة للغاية ، فهو يقدم طعاما كثيرا ، وهو وللانصاف ، عندما كانت كاشتانكا جالسة امام الطاولة تتطلع اليه بتأثر ، لم يركلها مرة واحدة ، ولم يدق بقدمه مرة ولم يصرخ : «غورى من هنا يا ملعونة !» .

وبعد ان فرغ السيد الجديد من تدخين سيجاره خرج ، ثم عاد بعد دقيقة ممسكا فى يده بفرشة .

وقال وهو يضع الفرشة فى الركن بجوار الكنبة :

– تعال هنا يا كلب . ارقد هنا ونم !

ثم اطفأ المصباح وخرج . وتمددت كاشتانكا على الفرشة واغمضت عينيها . وتناهى نباح من الشارع فارادت ان ترد عليه ، ولكن الحزن داهمها فجأة . تذكرت لوقا الكسندريتش وابنه فيدوشكا ، ومكانها المريح تحت نضد النجارة . . . وتذكرت انه فى أمسيات الشتاء الطويلة ، عندما كان سيدها

ينجر او يقرأ الصحف بصوت مسموع ، كان فيدوشكا يلعب معها عادة . . . كان يسحبها من ساقيها الخلفيتين من تحت النضد ويصنع بها من الألاعيب ما يجعل عينيها تغيمان ومفاصلها كلها تؤلمها . كان يجعلها تسير على ساقيها الخلفيتين ، ويلعب بها لعبة الناقوس ، اى يشدها بقوة من ذيلها فتصرخ لذلك وتنبح ، ويدس فى انفها التبغ . . وكانت اللعبة التالية اشدها تعذيبا : كان فيدوشكا يربط قطعة لحم بخيط ويلقى بها الى كاشتانكا ، وبعد ان تبتلعها يسحب القطعة فيخرجها من معدتها وهو يقهقه عاليا . وكلما توهجت الذكريات ازداد نحيب كاشتانكا ارتفاعا ووحشة .

ولكن سرعان ما تغلب الارهاق والدفء على الحزن . . . وبدأت تنعس . وفى خيالها ركضت كلاب . وركض بالمناسبة ذلك البودل العجوز الاشعث الذى رأته اليوم فى الشارع ، ذو السحابة على عينه وخصل الشعر حول أنفه . وطارد فيدوشكا البودل بمعول فى يده ، وفجأة اكتسى هو بشعر اشعث ، ونبح بمرح وظهر بجوار كاشتانكا . وتشمم كل منهما أنف الآخر بمودة وركضا الى الشارع . . .

الفصل الثالث

تعارف جديد سار جدا

عندما استيقظت كاشتانكا كان النور قد انتشر ، وتناهى من الشارع ضجيج النهار المميز . ولم يكن هناك احد فى الغرفة . وتمطت كاشتانكا وتثاءبت واخذت تطوف بالغرفة غاضبة متجهمة . وتشممت الاركان والاثاث واطلت فى المدخل ، فلم تجد اى شىء طريف . وكان هناك باب آخر بخلاف الباب المفضى الى المدخل . وفكرت كاشتانكا قليلا ثم مضت تخمشه باظافر كفيها دفعة واحدة ففتحته ، ودلفت الى الغرفة التالية . وهنا ، على السرير ، كان الزبون ، ذلك الرجل الغريب الذى رأته بالامس نائما وقد تغطى ببطانية .

— هر — ر — ر . . . — زمجرت ، ثم تذكــرت غداء الامس فهزت ذيلها وبدأت تتشممه .

تشممت ملابس الرجل الغريب وحذاءه ، فوجدت انه تفــوح منها بشدة رائحة خيول . وفى غرفة النوم ايضا كان ثمة بــاب يفضى الى مكان ما ، وكان ايضا مغلقا . وخمشت كاشتانكا هـذا الباب ، واتكأت عليه بصدرها ففتحته ، وعلى الفور احســت برائحة غريبة ،مريبة جدا . وتوقعت كاشتانكا لقاء غير ســار فزمجرت وتلفتت وهى تدلف الى غرفة صغيــرة ، بورق جدران قذر ، ثم تقهقرت مذعورة . فقد رأت شيئا غير متوقع ومخيفا . فنحوها مباشرة تقدم ذكر اوز رمادى وهو يفح ، وقد أمال رأسه وعنقه الى الارض ونشر جناحيه . وغير بعيد عنه تمدد قط ابيض على فرشة . وعندما رأى كاشتانكا قفز من مكانــه ، وقوّس ظهره ، ورفع ذيله ونفش شعره وفحّ هو الآخر . وخافت الكلبة عن حق ، ولكنها لم تشأ ان تفصح عن خوفها فنبحت بصوت عال وانقضت على القط . . . وقوس القط ظهره اكثر وفح ، وضرب كاشتانكا بكفه على رأسها . وقفزت كاشتانكا مرتدة ، وجلســت على اكفها الاربع ، ومدت بوزها نحو القط وانفجرت فى نباح عال حاد . وفى تلك الاثناء اقترب ذكر الاوز من الخلف ، ونقرهــا بمنقاره فى ظهرها بقوة . فهبت كاشتانكا وانقضت على ذكر الاوز . . .

— ما هذا ؟ — تردد صوت عال غاضب ، ودخل الرجــل الغريب الى الغرفة مرتديا روبا وبين اسنانه سيجار . — ما معنى هذا ؟ الزم مكانك !

اقترب من القط ، ولكزه فى ظهره المقوس قائلا :

— ما معنى هذا يا فيودور تيموفييتش ؟ تثيرون شجارا ؟ يا لك من محتال عجوز ! نم !

واستدار نحو ذكر الاوز وصاح :

— ايفان ايفانيتش ، الزم مكانك !

رقد القط باذعان على فرشته واغمض عينيه . وبدا مــن تعبير سحنته وشواربه انه هو نفسه لم يكن راضيا عن احتداده واشتراكه فى المشاجرة . وعوت كاشتانكا باحساس بالاهانة ، اما

ذكر الاوز فقد مد عنقه وانطلق متحدثا عن شيء ما بسرعة وحرارة ووضوح ، ولكن بصورة غير مفهومة ابدا .

فقال رب الدار متثائبا :

– حسنا ، حسنا ! ينبغي ان تعيشوا في سلام ومودة . – وربت ظهر كاشتانكا واستطرد – اما انت ايتها الحمراء فلا تخافي . . . هذه جماعة طيبة ، لن تمسك بسوء . ولكن مهلا ، كيف سنسميك ؟ لا يليق ان تظلي بلا اسم يا اختاه .

وفكر الغريب قليلا ثم قال :

– اسمعي . . سيكون اسمك : خالة . . . مفهوم ؟ خالة !

وبعد ان كرر كلمة «خالة» عدة مرات خرج . وجلست كاشتانكا وراحت تراقب الموقف . كان القط جالسا على الفرشة بلا حراك ، متظاهرا بالنوم . ومضى ذكر الاوز يتحدث عن شيء ما بسرعة وحرارة ، وهو يمد عنقه ويراوح في مكانه . ويبدو انه كان ذكر أوز ذكيا جدا . فبعد كل عبارة من عباراته الطويلة كان يتراجع الى الخلف بدهشة ، ويتظاهر انه يعجب بكلامه . . . وبعد ان استمعت كاشتانكا اليه واجابته بـ «هر – ر – ر» اخذت تتشمم الاركان . كان في احد الاركان طست صغير رأت فيه حمصا منقوعا وكسرات مبلولة من خبز الجودار . وتذوقت الحمص فلم تجده لذيذا ، وتذوقت الكسرات وبدأت تأكل . ولم يغضب ذكر الأوز على الاطلاق من ان كلبة غريبة تأكل طعامه ، بالعكس ، تحدث بحرارة اكثر ، ولكي يظهر لها ثقته ، تقدم الى الطست وأكل عدة حمصات .

الفصل الرابع

عجائب مذهلة

بعد فترة قصيرة عاد رب الدار حاملا معه شيئا غريبا يشبه البوابة او حرف Π . وتدلى من عارضة هذا الحرف الخشبي السيئ الصنع ناقوس وشد اليها مسدس . ومن لسان الناقوس وحرك المسدس امتدت خيوط . ووضع الغريب حرف Π

فى وسط الغرفة ، وامضى وقتا طويلا فى فك وربط اشيـــاء ما ، ثم نظر الى ذكر الاوز وقال :

– تفضل يا ايفان ايفانيتش !

فاقترب منه ذكر الاوز ووقف فى وضع ترقب .

فقال الغريب :

– حسنا . . فلنبدأ من البداية . قبل كل شىء يجـــب ان تحيى الجمهور وتنحنى احتراما . بسرعة !

فمد ايفان ايفانيتش عنقه ، واومأ فى جميع الجهات ، وحك الارض بساقه .

– حسنا ، شاطر . . . والآن مُت !

فرقد ذكر الاوز على ظهره ورفع ساقيه عاليا . وبعد ان قام الغريب بعدة نمر تافهة كهذه ، أمسك برأسه فجأة ، راسما على وجهه الرعب ، وصاح :

– النجدة ! حريق ! النار !

فركض ايفان ايفانيتش نحو حرف ، وامسك بمنقـــاره الخيط وقرع الناقوس .

وأحس الغريب بالرضى تماما ، فمسد عنق ذكر الاوز وقال :

– شاطر يا ايفان ايفانيتش ! والآن تصور انك مجوهراتى تبيع الذهب والماسات . وتصور الآن انك ذهبت الى متجـــرك فوجدت فيه لصوصا . فكيف تتصرف فى هذه الحالة ؟

فأمسك ذكر الأوز فى منقاره بخيط آخر وشده ، فدوت على الفور طلقة تصم الآذان . وأعجبت كاشتانكا جدا بالرنين ، اما الطلقة فسلبت لبها حتى انها دارت حول حرف II ونبحت .

فصاح بها الرجل الغريب :

– يا خالة ، الزمى مكانك ! صمتا !

ولم ينته عمل ايفان ايفانيتش عند حد اطلاق النار . فقد ظل الرجل الغريب يديره حوله ساعة كاملة وقد ربطه اليه بحبل ، ويفرقع بالسوط ، وكان على ذكر الاوز اثناء ذلك ان يقفـــز فوق حاجز وعبر حلقة ، ويشب على اطرافه ، اى يقعـــى علـى مؤخرته ويلوح بساقيه . ولم تحول كاشتانكا نظرها عن ايفـــان ايفانيتش ، وعوت من شدة الاعجاب ، وركضت خلفه عدة مرات

وهى تطلق نباحا رنانا . وبعد ان ارهق الغريب ذكر الاوز وارهق نفسه ، مسح العرق عن جبينه وصاح :

– يا ماريا ، هاتى خفرونيا ايفانوفنا الى هنا !

وبعد لحظات تردد نخير . . . فزمجرت كاشتانكا ، واتخذت مظهر الشجاعة الفائقة ، وتحوطا للأمر ، اقتربت اكثر من الرجل الغريب . وفتح الباب ، واطلت امرأة عجوز ما ، وقالت شيئا ما ، ثم دفعت الى الداخل بخنزيرة سوداء قبيحة للغاية . ودون ان تعير الخنزيرة اى اهتمام لزمجرة كاشتانكا ، رفعت نخرتها الى أعلى ونخرت بصوت مرح . يبدو انها كانت مسرورة جدا برؤية سيدها والقط وايفان ايفانيتش . وعندما اقتربت من القط ودفعته بنخرتها برفق فى بطنه ، ثم تحدثت عن شىء ما مع ذكر الاوز ، تجلى فى حركاتها وصوتها وفى ارتعاش ذيلها الكثير من الطيبة . وادركت كاشتانكا على الفور انه لا جدوى من النباح والزمجرة مع مخلوقات كهذه .

ونحى السيد حرف Π وصاح :

– تفضل يا فيودور تيموفييتش .

فنهض القط ، وتمطى بكسل ، واقترب من الخنزيرة بلا رغبة كأنما يصنع معروفا .

وقال السيد :

– فلنبدأ بالهرم المصرى .

ومضى يوضح شيئا ما مدة طويلـــــة ، ثم امر : «واحد . . اثنان . . ثلاثة !» . ولدى سماع ايفان ايفانيتش كلمة «ثلاثة» خفق بجناحيه وقفز على ظهر الخنزيرة . . . وعندما استقر على الظهر الاهلب وهو يحفظ توازنه بجناحيه وعنقه ، صعد فيودور تيموفييتش الى ظهر الخنزيرة بتراخ وكسل ، وباستهتار واضح ، وبدا وكأنما يحتقر فنه ولا يكن له ادنى تقدير ، ثم تسلق بلا رغبة ظهر ذكر الاوز ووقف على ساقيـــه الخلفيتين . وتكوّن ما سماه الرجل الغريب بالهرم المصرى . وعوت كاشتانكا من شدة الاعجاب ، ولكن فى تلك اللحظة تثاءب القط العجوز فاختل توازنه وسقط من على ظهر ذكر الاوز . وترنح ايفان ايفانيتش وسقط هو الآخر . وصرخ الرجل الغريب ، ولوح بيديه ، وعاد يشرح

شيئا ما . وبعد ان انفق ساعة كاملة فى نمرة الهرم ، بدأ رب الدار الذى لا يكل فى تعليم ايفان ايفانيتش كيف يمتطى صهوة القط ، ثم بدأ فى تعليم القط كيف يدخن وما الى ذلك .

وانتهى التعليم بان مسح الرجل الغريب العرق عن جبينه وخرج . ونفخ فيودور تيموفييتش بأنفه فى اشمئزاز ، ورقد على الفرشة واغمض عينيه ، وتوجه ايفان ايفانيتش الى الطست ، اما الخنزيرة فساقتها المرأة العجوز . وبفضل هذه الكثرة من الانطباعات الجديدة انقضى النهار بسرعة بالنسبة لكاشتانكا ، وفى المساء انزلت مع فرشتها فى الغرفة ذات ورق الجدران القذر ، وباتت فى صحبة فيودور تيموفييتش وذكر الاوز .

الفصل الخامس

موهبة ! موهبة !

ومر شهر .

وتعودت كاشتانكا على انهم كل مساء يطعمونها عشاء لذيذا وينادونها بـ«الخالة» . وتعودت ايضا على الرجل الغريب وعلى شركائها فى المسكن . ومضت الحياة فى يسر وسهولة .

كانت الايام كلها تبدأ بداية متشابهة . وكان ايفان ايفانيتش يستيقظ عادة قبل الجميع ، وعلى الفور يتوجه الى الخالة او الى القط ، ويلوى عنقه ويبدأ فى الحديث عن شىء ما بحرارة ويقين ، ولكن بصورة غير مفهومة كما فى السابق . واحيانا كان يرفع رأسه ويلقى منولوجات طويلة . وفى الايام الاولى لتعارفهما ظنت كاشتانكا انه يتحدث كثيرا لانه ذكى جدا ، ولكن ما ان مرت فترة قصيرة حتى فقدت له كل احترام . وعندما كان يتوجه اليها بحديثه الطويل لم تعد تهز ذيلها ، بل كانت تزدريه باعتباره ثرثارا مملا يزعج نوم الآخرين ، ودون ادنى كلفة كانت تجيبه بـ«هر — ر — ر» . . .

اما فيودور تيموفييتش فكان سيدا من طراز آخر . فعندما يستيقظ لا يصدر اي صوت ، ولا يتحرك ، بل حتى لم يكن

يفتح عينيه . ولو كان بمستطاعه لما استيقظ ، لانه كما يبدو لم يكن يحب الحياة . لم يكن ثمة ما يثير اهتمامه ، وكان ينظر الى كل شيء بتراخ واستخفاف ويحتقر كل شيء ، وحتى حينما يتناول طعامه اللذيذ ينفخ بانفه فى اشمئزاز .

وكانت كاشتانكا عندما تستيقظ تبدأ فى الطواف على الغرف وتشمم الاركان . ولم يكن مسموحا الا لها وللقط فقط بالطواف فى الشقة ، اما ذكر الاوز فلم يكن يحق له ان يتخطى عتبة الغرفة ذات ورق الجدران القذر ، بينما كانت خفرونيا ايفانوفنا تقطن حظيرة فى مكان ما فى الفناء ، ولا تظهر الا فترة التدريب . وكان السيد يستيقظ متأخرا ، وما ان يشرب الشاى حتى يشرع على الفور فى شعوذته . وكل يوم يحمل الى الغرفة حرف Π والسوط ، والحلقات ، وكل يوم تجرى نفس التدريبات تقريبا . كان التدريب يستمر ثلاث او اربع ساعات ، حتى ان فيودور تيموفييتش كان يترنح احيانا كالثمل من شدة الارهاق ، ويفتح ايفان ايفانيتش منقاره لاهثا ، اما السيد فيصبح احمر الوجه ولا يتمكن ابدا من مسح العرق عن جبينه .

كان التدريب والطعام يجعلان اوقات النهار شيقة جدا ، ولكن الامسيات كانت تمضى فى ملل . وفى العادة كان رب الدار يرحل كل مساء الى مكان ما ويأخذ معه ذكر الاوز والقط . وحينما تصبح الخالة وحدها ترقد على الفرشة ويتولاها الحزن . . . كان الحزن يتسلل اليها بصورة لا تلحظ ، ويشملها تدريجيا ، كما تشمل العتمة الغرفة . ويبدأ ذلك بأن تفقد الكلبة اية رغبة فى النباح او الاكل او الركض فى الغرف او حتى التطلع ، ثم تلوح فى مخيلتها صورتان غير واضحتين لكلاب او بشر ، بوجهين لطيفين رقيقين ولكن غير مفهومين . وعند ظهورهما تهز الخالة ذيلها ، ويخيل اليها انها رأتهما فى وقت ما وفى مكان ما واحبتهما . . . وعندما يداعبها النعاس كانت تشعر برائحة الصمغ ونشارة الخشب وورنيش اللّك تفوح من هاتين الصورتين .

وعندما ألفت تماما حياتها الجديدة وتحولت من كلبة نحيلة معروقة الى كلبة شبعانة معتنى بها ، ربت السيد على ظهرها ذات مرة قبل بدء التدريب وقال :

– آن الاوان يا خالة ان تزاولى عملا . كفاك تسكعا . اريد ان اجعل منك فنانة . . . أتريدين ان تصبحى فنانة ؟

وبدأ يعلمها شتى العلوم . فى الدرس الاول تعلمت كيف تقف وتمشى على ساقيها الخلفيتين ، الامر الذى اعجبها للغاية . وفى الدرس الثانى كان عليها ان تقفز على ساقيهـــا الخلفيتين وتخطف السكر الذى كان معلمها يمسك به عاليا فوق رأسها . وفى الدروس التالية رقصت ، ودارت وهى مربوطة بحبل ، وعوت على انغام الموسيقى ، وقرعت الناقوس واطلقت النار ، وبعد شهر اصبح بوسعها ان تحل باقتدار محل فيودور تيموفييتش فى «الهرم المصرى» . كانت تقبل على التعليـــــم عن طيب خاطر ، وارضاها نجاحها . اما الدوران بالحبل بلسان مدلى ، والقفز عبر الحلقة ، وامتطاء صهوة فيودور تيموفييتش العجوز ، فكان يجلب لها متعة عظيمة . وكانت تصاحب كل نمرة ناجحة بنباح رنان حماسى ، اما المعلم فيدهش ، ويتولاه الحماس هو ايضا فيفرك راحتيه قائلا :

– موهبة ! موهبة ! موهبة حقيقيـــة ! بالتأكيد ستحظين بالنجاح !

وتعودت الخالة على كلمة «موهبة» حتى انها كانت تقفز ، كلما سمعت السيد يرددها وتتلفت حولها ، كأنما كانت هذه الكلمة اسمها .

الفصل السادس

ليلة مزعجة

رأت الخالة فى المنام حلما كلابيا ، اذ طاردها البواب بمكنسة ، فاستيقظت من الخوف .

كانت الغرفة مظلمة ، ساكنة وخانقة جدا . وكانت البراغيث تلدغ . ولم يسبق للخالة ان شعرت بالخوف من الظلام ولكنها الآن احست لسبب ما بالرعب وارادت ان تنبح . وفى الغرفة المجاورة زفر رب الدار عاليا . وبعد ذلك بقليل نخرت الخنزيرة فى حظيرتها ،

ثم لف الصمت كل شيء . عندما تفكر فى الطعام تشعر فى نفسك بالراحة ، ومن ثم اخذت الخالة تفكر فى انها سرقت من فيودور تيموفييتش اليوم ساق دجاجة وخبأتها فى غرفة الجلوس بين الصوان والحائط ، حيث تتراكم خيوط عنكبوت وغبار كثير جدا . ولا بأس لو مضت الآن لتنظر هل هذه الساق بخير ام لا ؟ من المحتمل جدا ان يكون رب الدار قد عثر عليها واكلها . ولكنها ، حسب القواعد ، لاتستطيع الخروج من الغرفة قبل الصباح . واغمضت الخالة عينيها لتنعس بسرعة ، اذ كانت تعرف بخبرتها انه كلما اسرعت فى النوم اسرع الصباح بالمجىء . ولكن دوت فجأة بجوارها صرخة غريبة جعلتها تنتفض وتقفز واقفة على سيقانها الاربع . كانت تلك صرخة ايفان ايفانيتش ، ولم تكن صرخته ثرثارة ومقنعة كالعادة ، بل رهيبة ، ثاقبة غير طبيعية ، تشبه صرير بوابة تفتح . وعندما لم تميز الخالة او تفقه شيئا فى الظلام ، احست بمزيد من الخوف فزمجرت :

– هر – ر – ر . . .

ومر بعض الوقت ، بقدر ما يكفى للعق عظمة طيبة . ولم تتكرر الصرخة . وشيئا فشيئا هدأت الخالة وادركها النعاس . ورأت فى المنام كلبين اسودين كبيرين بخصائل من شعر العام الماضى على افخاذهما واجنابهما . كانا يأكلان بشراهة من برميل كبير فضلات طعام تصاعد منها بخار ابيض ورائحة لذيذة جدا . واحيانا يتطلعان الى الخالة ويكشران عن انيابهما ويزمجران : «لن نعطيك شيئا !» . ولكن رجلا يرتدى معطف فراء خرج من البيت ركضا وطردهما بالسوط . عندئذ ذهبت الخالة الى البرميل وشرعت تأكل . ولكن ما أن غاب الرجل وراء البوابة حتى انقض الكلبان الاسودان على الخالة وهما يزأران ، وفجأة دوت من جديد الصرخة الثاقبة .

صرخ ايفان ايفانيتش :

– كيك – كيكى . . ى . . ى !

واستيقظت الخالة وقفزت واقفة ، ودون ان تغادر الفرشة انفجرت فى نباح معول . اصبح يخيل اليها ان من يصرخ ليس ايفان ايفانيتش بل احد آخر غريب . ولسبب ما نخرت الخنزيرة مرة اخرى فى الحظيرة .

ولكن ها هى تتردد خشخشة حذاء ، ودلف السيد الى الغرفة مرتديا روبا وفى يده شمعة . وتراقص النور المتذبذب على ورق الجدران القذر وعلى السقف وطرد الظلمة . ورأت الخالة انه لا يوجد احد غريب فى الغرفة . كان ايفان ايفانيتش جالسا على الارض ، ولم يكن نائما . وكان جناحاه ممدودين ومنقاره مفتوحا ، وعموما بدا وكأنه متعب جدا ويريد ان يشرب . ولم يكن فيودور تيموفييتش العجوز نائما هو الآخر . يبدو ان الصرخة ايقظته هو ايضا .

وسأل السيد ذكر الاوز :

— ايفان ايفانيتش ، ماذا بك ؟ لماذا تصرخ ؟ هل انت مريض ؟

وصمت ذكر الاوز . وتحسس السيد عنقه ، وربت على ظهره وقال :

— يا لك من غريب الاطوار . لا تنام ولا تدع الآخرين ينامون .

وعندما خرج السيد واخذ معه الضوء حل الظلام ثانية . واحست الخالة بالخوف . ولم يصرخ ذكر الاوز ، ولكن عاد يخيل اليها ان احدا غريبا يقف فى الظلام . وكان افظع شىء انها لا تستطيع ان تعض هذا الغريب ، لانه لم يكن مرئيا وليس له شكل محدد . ولسبب ما فكرت انه فى هذه الليلة حتما سيحدث شىء ما سيىء جدا . وكان فيودور تيموفييتش هو الآخر قلقا . فقد سمعته الخالة يتقلب فى مرقده ويتثاءب وينفض رأسه .

وفى مكان ما فى الخارج تردد طرق على بوابة ، ونخرت الخنزيرة فى الحظيرة . وعوت الخالة ، ومدت ساقيها الاماميتين واسندت اليهما رأسها . وخيل اليها ان ثمة فى الطرق على البوابة ، وفى نخير الخنزيرة المستيقظة لسبب ما ، وفى الظلام والسكون ، شيئا موحشا ورهيبا كما فى صرخة ايفان ايفانيتش . كان كل شىء فى اضطراب وقلق ، ولكن ما السبب ؟ ومن هو ذلك الغريب الذى لم يكن مرئيا ؟ وها هى تومض بجوار الخالة للحظة شرارتان خضروان كابيتان . كانت تلك اول مرة يقترب منها فيودور تيموفييتش طوال فترة تعارفهما . ترى ماذا يريد ؟ ولعقت الخالة كفه ، ودون ان تسأله عن سبب مجيئه ، اعولت بصوت خافت وبنغمات متنوعة .

وصرخ ايفان ايفانيتش :
– كيكى – ى ! كيكى – كى !
وفتح الباب مرة اخرى ودخل السيد بالشمعة . كان ذكر الاوز جالسا فى وضعه السابق بمنقار مفتوح وجناحين ممدودين . وكانت عيناه مغمضتين .
وناداه السيد :
– ايفان ايفانيتش !
فلم يتحرك ذكر الاوز . وجلس السيد امامه على الارض ، ونظر اليه دقيقة فى صمت ثم قال :
– يا ايفان ايفانيتش ! ماذا جرى لك ؟ هل نويت ان تموت ؟ – صاح وامسك رأسه بيديه – آه ، الآن تذكرت ، تذكرت ! عرفت لسبب ! هذا لان الحصان اليوم داسك ! يا إلهى ، يا إلهى !
لم تفهم الخالة ما قاله سيدها ، ولكن رأت فى وجهه انه يتوقع شيأ رهيبا . فمدت بوزها نحو النافذة المظلمة التى خيل اليها ان شخصا غريبا يطل منها ، واعولت .
وقال السيد وهو يشيح بيديه :
– انه يحتضر يا خالة ! نعم ، نعم ، يحتضر ! الموت جاء الى غرفتكم ، فما العمل ؟
وعاد السيد الشاحب المنزعج الى غرفة نومه وهو يتنهد ويهز رأسه . واحست الخالة بالرعب من البقاء فى الظلام ، فتبعته . وجلس على السرير وردد عدة مرات :
– يا إلهى ، ما العمل ؟
ودارت الخالة حول ساقيه وهى لا تفهم سر هذه الوحشة التى تحس بها ، ولماذا يسيطر الانزعاج على الجميع ، ولكى تفهم راحت تراقب كل حركة تصدر عنه . اما فيودور تيموفييتش ، الذى كان نادرا ما يغادر فرشته ، فقد جاء هو الآخر الى غرفة السيد ، وأخذ يتمسح بقدميه . وراح ينفض رأسه ، كأنما كان يريد ان ينفض منها الافكار المزعجة ، ويتطلع تحت السرير بارتياب .
وتناول السيد طبقا صغيرا وصب فيه ماء من صنبور المغسل ، وذهب الى ذكر الاوز مرة اخرى .
وقال برقة وهو يضع الطبق امامه :

— اشرب يا ايفان ايفانيتش ! اشرب يا عزيزى .

ولكن ايفان ايفانيتش لم يتحرك ولم يفتح عينيه . واحنى السيد رأس ذكر الاوز الى الطبق ووضع منقاره فى الماء ولكنه لم يشرب ، بل بسط جناحيه اكثر ، وبقى رأسه ممددا فى الطبق .

فتنهد السيد قائلا :

— كلا ، لم يعد من الممكن عمل شيء ! كل شيء انتهى . هلك ايفان ايفانيتش !

وانحدرت على خديه قطرات براقة كتلك التى تسيل على النوافذ اثناء المطر . والتصقت الخالة وفيودور تيموفييتش بسيدهما وهما لا يفهمان شيئا ، وتطلعا الى ذكر الاوز برعب .

وقال السيد وهو يتنهد بأسى :

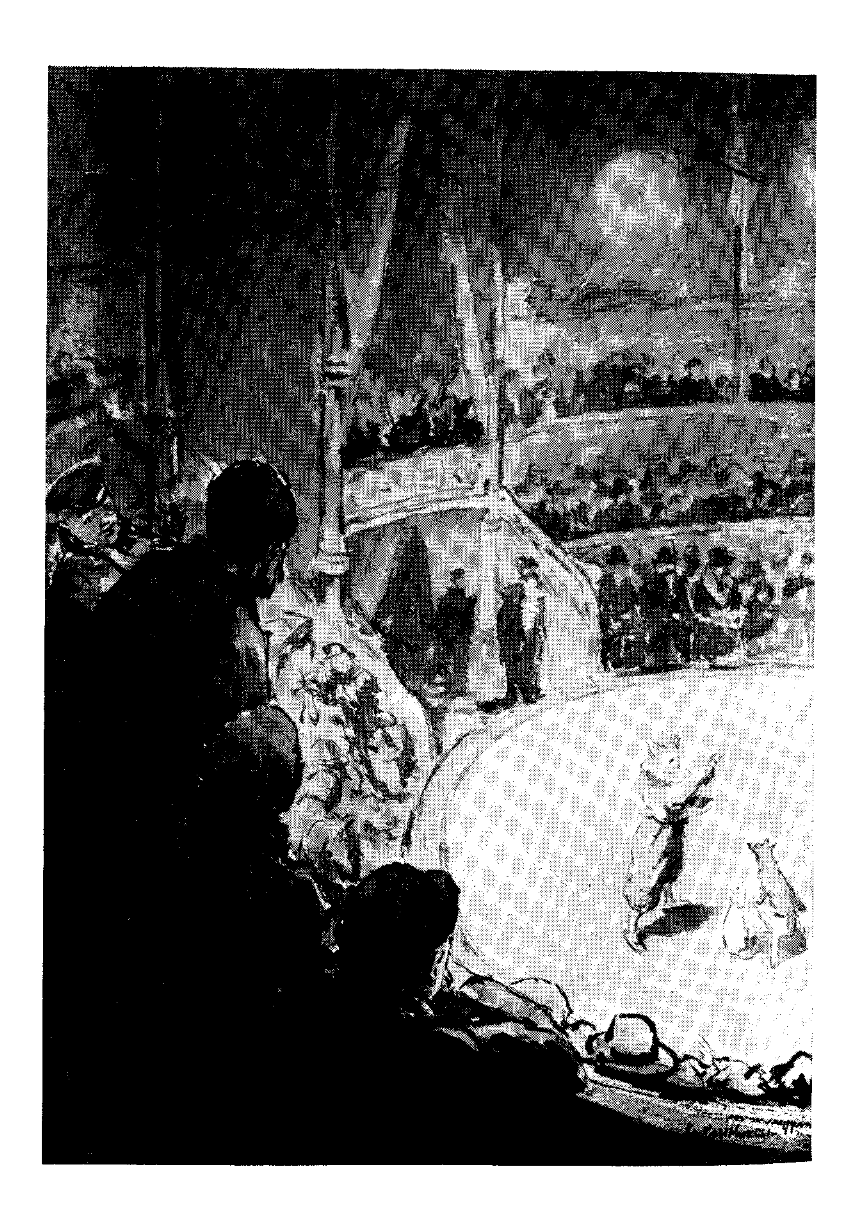
— مسكين يا ايفان ايفانيتش ! كنت احلم بان آخذك فى الربيع الى الدار الريفية واتجول معك على العشب الاخضر . ايها الحيوان العزيز ، يا رفيقى الطيب ، لقد فقدتك ! كيف سأعمل الآن بدونك ؟

وخيل للخالة انه سيحدث لها نفس الشيء ، اى انها هى ايضا ستغمض عينيها هكذا ، لسبب غير معروف ، وتمد ساقيها ، وتكشر عن انيابها ، وسوف ينظر اليها الجميع برعب . ويبدو ان مثل هذه الافكار جالت بخاطر فيودور تيموفييتش ايضا . ولم يسبق ان كان القط العجوز مكفهرا وعبوسا كما هو الآن . . .

وبدأ الفجر يلوح ، ولم يعد موجودا فى الغرفة ذلك الغريب الذى ارعب الخالة الى تلك الدرجة . وعندما طلع الفجر تماما جاء البواب فرفع ذكر الاوز من ساقيه وحمله الى مكان ما . وبعده بقليل جاءت العجوز فحملت الطست .

وذهبت الخالة الى غرفة الجلوس واطلت وراء الصوان : لم يأكل السيد ساق الدجاجة ، وكانت فى مكانها وسط الغبار وخيوط العنكبوت . ولكن الخالة كانت تشعر بالوحشة والحزن وبرغبة فى البكاء . ودخلت تحت الكنبة حتى دون ان تشم الساق ، وأخذت تعول هناك بصوت خافت رفيع :

— عو — عو — . . .



الفصل السابع

بداية غير موفقة

ذات مساء دلف السيد الى الغرفة ذات ورق الجدران القذر وقال وهو يفرك يديه :

– حسنا . . .

كان يريد ان يقول شيئا آخر ولكنه لم يقل وخرج . وخمنت الخالة ، التى درست جيدا وجهه ونبراته اثناء التدريبات ، انه منفعل ومهموم ، بل وعلى ما يبدو ، غاضب . وعاد بعد قليل وقال :

– اليوم سآخذ معى الخالة وفيودور تيموفييتش . انت يا خالة ستحلين اليوم محل المرحوم ايفان ايفانيتش فى الهرم المصرى . الشيطان يعلم ما هذا ! لم نستعد ابدا ، ولم نحفظ شيئا ، والتدريبات كانت قليلة ! سننفضح ونفشل !

ثم خرج مرة أخرى وعاد بعد دقيقة فى معطف الفراء والقبعة الاسطوانية . واقترب من القط فرفعه من ساقيه الاماميتين وخبأه فى صدره تحت المعطف ، بينما بدا فيودور تيموفييتش غير مبال ابدا ، وحتى لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه . والظاهر انه كان يستوى عنده تماما سواء رقد او رفع من ساقيه ، او تمدد على الفرشة ، او استقر على صدر سيده تحت المعطف . . .

وقال السيد :

– يا خالة ، هيا بنا .

وسارت الخالة خلفه وهى لا تفهم شيئا وتهز ذيلها . وبعد دقيقة كانت جالسة فى الزحافة عند قدمى سيدها تصغى الى دمدمته وهو ينكمش من البرد والقلق :

– سننفضح ! سنفشل !

توقفت الزحافة امام بيت كبير غريب ، يشبه قصعة حساء مقلوبة . وكان المدخل الطويل لهذا المنزل ، ذو الابواب الزجاجية الثلاثة ، مضاء بدستة مصابيح قوية . وكانت الابواب تفتح برنين ، وكالأشداق تبتلع الناس الذين كانوا يتزاحمون عند المدخل . كان الناس كثيرين جدا ، والخيول ايضا كثيرا ما كانت تفد راكضة الى المدخل ، ولكن لم يبد أثر للكلاب .

وحمل السيد الخالة على يديه ودسها فى صدره تحت المعطف حيث كان فيودور تيموفييتش . وكان المكان هنا مظلما خانقا ولكنه دافئ . وللخطة توهجت شرارتان خضراوان كابيتان ، اذ فتح القط عينيه وقد ازعجته اكف جارته الباردة الصلبة . ولعقت الخالة أذنه ، وأرادت ان تتخذ وضعا مريحا فتحركت بقلق وداسته تحتها بأكفها الباردة ، وأطلت برأسها عفوا من فتحة المعطف ، ولكنها زمجرت على الفور بغضب وغاصت تحت المعطف . وخيل اليها أنها رأت غرفة ضخمة ، سيئة الاضاءة ، مليئة بالكائنات الخرافية المخيفة . ومن وراء الحواجز والشباك التى امتدت على جانبى الغرفة أطلت سحن رهيبة : سحن خيول ، وسحن بقرون ، وبآذان طويلة ، وسحنة ضخمة سمينة بذيل فى مكان الأنف ، وبعظمتين طويلتين معروقتين تبرزان من فمها .

وماء القط بصوت أبح تحت اكف الخالة ، ولكن المعطف انفتح فى تلك اللحظة ، وقال السيد «هوب !» فقفز فيودور تيموفييتش والخالة الى الارض . كانوا الآن فى غرفة صغيرة بجدران رمادية من الواح الخشب . ولم يكن هنا ، بخلاف طاولة صغيرة بمرآة ومقعد بلا ظهر ، وخرق معلقة فى الاركان ، اى أثاث آخر ، وبدلا من المصباح او الشمعة توهج نور ساطع على شكل مروحة كان موضوعا فى انبوب مدقوق فى الحائط . ولعق فيودور تيموفييتش فروته التى جعدتها الخالة ، ومضى فرقد تحت المقعد . وبدأ السيد يخلع ملابسه وهو لا يزال مضطربا يفرك يديه . . . خلع ملابسه كما يفعل عادة فى البيت عندما يستعد للنوم تحت البطانية الخفيفة ، اى نزع عنه كل شيء عدا الملابس الداخلية ، ثم جلس على المقعد ، وراح يصنع بنفسه اشياء عجيبة وهو يتطلع الى المرآة . قبل كل شيء وضع على رأسه باروكة بمفرق وقصتين تشبهان القرنين ، ثم طلى وجهه بطبقة كثيفة من مادة بيضاء ، ورسم فوق الطلاء الابيض حاجبين وشوارب ووجنتين حمراوين . ولم تنته أفعاله عند هذا الحد . فبعد أن لوث وجهه وعنقه بدأ يرتدى حلة غير عادية لا يمكن مقارنتها بشيء ، حلة لم ترها الخالة من قبل ابدا لا فى البيوت ولا فى الشوارع . تصوروا مثلا سروالا واسعا للغاية محاكا من قماش الشيت المنقوش بالازهار ، من ذلك النوع المستخدم فى بيوت صغار البرجوازيين

للستائر وتنجيد الأثاث ، سروالا يزرر عند الأبطين تماما . واحدى ساقى السروال محاكة من شيت بنى والاخرى من شيت أصفر فاقع . وغرق السيد فى هذا السروال ، ثم ارتدى ايضا سترة من الشيت بياقة كبيرة مسننة ونجمة ذهبية على الظهر ، وجوربا مختلف الالوان وحذاء أخضر . . .

ومن كثرة الالوان زاغ بصر الخالة وقلبها . وانبعثت من هذا الجسد المترهل الابيض الوجه رائحة السيد ، وكان صوته ايضا مألوفا ، صوت السيد ، ولكن الشكوك كانت تعذب الخالة احيانا ، وعندئذ كانت على استعداد لأن تهرب بعيدا عن هذا الجسد المزركش وتنبح . فالمكان الجديد ، والنور المروحى ، والرائحة ، والتحول الذى طرأ على السيد . . كل ذلك بعث فى نفسها خوفا مبهما واحساسا بأنها سوف تقابل حتما شيئا مرعبا ، مثل تلك السحنة السمينة ذات الذيل فى مكان الأنف . وعلاوة على ذلك فقد دوت الموسيقى الكريهة فى مكان ما بعيدا خلف الجدار ، وتناهى احيانا زئير غير مفهوم . شيء واحد فقط هدأ من روعها : برود فيودور تيموفييتش . فقد كان نائما فى هدوء تحت المقعد ، ولم يفتح عينيه حتى عندما كانوا يزحزحون المقعد .

وأطل فى الغرفة شخص ما يرتدى حلة الفراك وصديريا أبيض وقال :

— الآن نمرة ميس أرابيللا ، وأنتم بعدها .

فلم يرد السيد بشيء . واخرج من تحت الطاولة حقيبة غير كبيرة ، وجلس ، وراح ينتظر . وكان واضحا من شفتيه ويديه أنه منفعل ، وسمعت الخالة تهدج أنفاسه .

وصاح أحد ما وراء الباب :

— مسيو جورج ، تفضل !

ونهض السيد ، ورسم علامة الصليب ثلاث مرات ، ثم أخرج القط من تحت المقعد ودسه فى الحقيبة . وقال بصوت خافت :

— هيا يا خالة !

واقتربت الخالة من يديه وهى لا تفهم شيئا ، فقبلها فى رأسها ووضعها بجوار فيودور تيموفيتييش . ثم حل الظلام . . . وداست الخالة على القط ، وخدشت جدران الحقيبة ولم تستطع من الرعب أن

نتفوه بصوت ، بينما كانت الحقيبة تتأرجح كأنها فوق مـــوج وترتعش . . .

وصاح السيد بصوت عال :

– انا هنا ! انا هنا !

وشعرت الخالة بعد هذه الصيحة بالحقيبة تصطدم بشيء صلب وتكف عن التأرجح . وتردد زئير عال غليظ ، وربت احدهم علـى شخص ما ، فزأر هذا الشخص ، الذى كان فى الغالب تلك السحنة ذات الذيل فى مكان الأنف ، وقهقه بصوت عال حتى ان اقفال الحقيبة ارتعشت . ورد السيد على الزئير بضحك رفيع ثاقب ، لم يضحك مثله أبدا فى البيت .

وصاح محاولا أن يطغى على الزئير :

– ها ! حضرة الجمهور المحترم ! ! وصلت حالا من المحطة ! جدتى ماتت فى داهية وتركت لى ميراثا ! فى الحقيبة شيء ثقيل . . يبدو انه ذهب . . . ها – ها ! ربما فيها مليون ! سنفتحها الآن ونرى . . .

وفرقع قفل الحقيبة . وتسلط ضوء ساطع على عينى الخالة ، فقفزت من الحقيبة وتراكضت حول سيدها بكل ما فى وسعها من سرعة ، وقد أصمّها الزئير ، وانفجرت فى نباح رنان .

فصاح السيد :

– ها ! خالى فيودور تيموفييتش ! خالتى العزيزة ! اقربائى الأعزاء ، فلتخطفكم الأبالسة !

وارتمى على بطنه فوق الرمل ، وأمسك بالقط والخالة وراح يحضنهما . وبينما كان السيد يعصر الخالة فى احضانه نظرت هـى بطرف عينها الى ذلك العالم الذى القاها فيه القدر ، وأذهلتهــا ضخامته ، فتسمرت لحظة من الدهشة والاعجاب ، ثم افلتت مـن احضان سيدها ، ودارت كالخذروف فى مكانها من قوة الانطباع . كان العالم الجديد كبيرا ومليئا بالاضواء الساطعة . وأينما نظرت بدت فى كل مكان ، من الارض حتى السقف ، وجوه ، ووجوه فقط ، ولاشيء آخر .

وصاح السيد :

– يا خالة ، اجلسى أرجوك .

ولما كانت الخالة تذكر ما معنى هذا فقد قفزت على الكرسى

وجلست . ونظرت الى سيدها . كانت نظرة عينيه جادة ورقيقة كالعادة ، ولكن وجهه ، وخاصة فمه وأسنانه ، كانت تشوهها ابتسامة واسعة جامدة . اما هو نفسه فكان يقهقه ويقفز ويهز كتفيه ، ويتظاهر بأنه مسرور للغاية فى حضرة آلاف الوجوه . وصدقت الخالة سروره ، وفجأة احست بكل كيانها ان آلاف الوجوه هذه تحدق فيها ، فرفعت بوزها الثعلبى الى أعلى وعوت بمرح .

فقال لها السيد :

- اجلسى انت يا خالة أما أنا وخالى فسنرقص كمارينسكى * .

كان فيودور تيموفييتش واقفا وهو يتطلع حوله بلا اكتراث ، فى انتظار اللحظة التى سيجبرونه فيها على القيام باشياء حمقاء . ورقص بفتور ، وباستهتار وعبوس ، وبدا واضحا من حركاته ، ومن ذيله وشواربه ، أنه يحتقر الى حد بعيد هذا الجمهور ، والضوء الساطع ، وسيده ، ونفسه . . . وبعد أن رقص دوره تثاءب وجلس .

وقال السيد :

- طيب يا خالة . فى البداية سنغنى معا ، وبعد ذلك سنرقص . حسنا ؟

واخرج من جيبه مزمارا وعزف عليه . وتململت الخالة ، التى لم تكن تطيق الموسيقى ، على الكرسى بقلق وعوت . وتناهى الزئير والتصفيق من كل مكان . فانحنى السيد محييا ، وبعد ان سكن كل شيء استأنف العزف . . . واثناء عزفه نوتة عالية جدا ندت أحد المتفرجين في أعلى الصالة آهة عالية .

وصاح صوت طفولى :

- بابا ! هذه كاشتانكا !

فأكد صوت «تينور» ثمل مرتعش :

- بالضبط كاشتانكا ! كاشتانكا ! يا فيدوشكا فليعاقبنى الله ان لم تكن كاشتانكا ! فويت !

وصفر أحد ما فى أعلى الصالة ، وصاح صوتان عاليان ، احدهما طفولى والآخر لرجل :

* رقصة شعبية روسية بطلها فلاح ثمل . **المعرب** .

- كاشتانكا ! كاشتانكا !

وانتفضت الخالة ونظرت الى الموضع الذى تردد منه الصياح . كان هناك وجهان ، أحدهما أشعر ، ثمل ، ضاحك باستهزاء ، وآخر مكتنز أحمر الخدين ومذعور تسلطا على عينى الخالة كما تسلط الضوء الساطع من قبل . . . فتذكرت ، وسقطت من الكرسى وتقلبت على الرمل ، ثم قفزت واقفة واندفعت نحو هذين الوجهين وهى تعــوى بفرح . ودوى زئير يصم الآذان تخلله الصفير وصيحة طفل ثاقبة :

- كاشتانكا ! كاشتانكا !

وقفزت الخالة عبر الحاجز ، ثم فوق كتف ما ، وأصبحت فــى المقصورة . ولكى تبلغ الطابق التالى كان عليها أن تقفز من فوق جدار مرتفع . وقفزت الخالة ولكنها لم تصل فانزلقت عن الجدار الى أسفل . ثم انتقلت بعد ذلك من يد الى يد ، وهى تلعق أيــدى ورؤوس اشخاص ما ، وتقدمت صاعدة أعلى فأعلى ، حتى وصلــت اخيرا الى أعلى الصالة . . .

بعد نصف ساعة كانت كاشتانكا تسير فى الشارع خلف شخصين تفوح منهما رائحة الصمغ وورنيش اللّك . وكان لوقا الكسندريتش يترنح ، ويحاول غريزيا ، وقد علمته الخبرة ، أن يسير بعيدا عن خندق الطريق .

ومضى يدمدم :

- فى رحم الذنوب السحيق أتمرغ . . . أما أنت يا كاشتانكا فأمرك عجب . انت ، بالمقارنة مع الانسان ، مثلك مثل النجـــار بالمقارنة مع صانع الأثاث .

وبجوارهما سار فيدوشكا مرتديا عمرة أبيه . ونظرت كاشتانكا الى ظهريهما وخيل اليها انها تسير خلفهما منذ زمن بعيد وتشعــر بالفرحة لأن حياتها لم تتوقف لحظة واحدة .

وتذكرت الغرفة ذات ورق الجدران القذر ، وذكــر الأوز ، وفيودور تيموفييتش ، والطعام اللذيذ ، والتدريب ، والسيرك ، ولكن ذلك كله بدا لها الآن كحلم طويل مشوش مرهق . . .

الحسناوان

١

اذكر اننى ذات مرة ، وأنا بعد تلميذ فى الصــــف الخامس أو السادس ، كنت مسافرا مع جدى من قرية «بلشايا كريبكايا» فى مقاطعة الدون الى مدينة روستوف على الدون . كان نهارا من ايام أغسطس القائظة المملة الى درجة الارهاق . والتصقت جفوننا وجفت حلوقنا من الحر والريح الجافة الساخنة التى كانت تدفع فى وجوهنا سحب الغبار . ولم تكن ثمة اية رغبة فى التطلع او الكـــلام او التفكير . وعندما كان سائق العربة النعسان ، كاربو الاوكرانى ، يلوح بسوطه على الفرس فيقع السوط على عمرتى ، لم اكن احتج او يند عنى صوت ، بل كنت استيقظ من النعاس فأتطلع بكآبــة واستكانة الى الأفق علىّ أرى عبر الغبار قرية . ثم توقفنا لاطعام الخيول فى قرية أرمنية كبيرة تسمى «بخشى – صالى» عند أرمنى ثرى من معارف جدى . لم أر فى حياتى صورة اكثر كاريكاتيرية مــــن مظهر هذا الأرمنى . تصوروا رأسا صغيرا حليقا ، بحاجبين كثيفين مهدلين الى اسفل كثيرا ، وبأنف طائر ، وبشوارب بيضاء طويلة ، وفم واسع تمتد منه قصبة تدخين طويلة من خشب الكرز . وكان هذا الرأس ملتصقا بصورة غير متقنة بجذع نحيل أحدب ، يرتدى حلة خيالية : سترة حمراء قصيرة ، وسروالا واسعا ساطع الزرقة . وكانت هذه القامة تسير مباعدة بين ساقيها وتحك الارض بحذائها ، وتتحدث دون أن تنزع قصبة التدخين من فمها ، وتتصرف بعزة أرمنية أصيلة ، فلا تبتسم ، وتبحلق بعينيها ، وتحاول ان تولى الضيوف أقل قدر من الاهتمام .

ولم يكن فى غرف الارمنى ريح او غبار ، ولكن جوها كان منفرا

وخانقا ومملا كما فى السهوب وفى الطريق . واذكر اننى جلست على صندوق اخضر فى الركن ، وقد غطانى التراب وعذبنـــى القيظ . وانبعثت من الجدران الخشبية غير المطلية ومن الأثاث والارضيـــة المدهونة بالمغرة رائحة خشب جاف أحرقته الشمس . . . وذباب ، ذباب ، ذباب . . حيثما نظرت وجدت ذبابا . وراح جدى والأرمنى يتحدثان بصوت خافت عن المراعى والأعشاب والغنم . . . وكنت أعرف انهم سيستغرقون ساعة كاملة فى اعداد السماور ، وان جدى سيظل يشرب الشاى ما لا يقل عن ساعة ، ثم يرقد لينام ساعتين او ثلاث ، وانى سأضيع ربع النهار فى انتظار أعود بعده ثانية الى القيظ والغبار والطرق الحفرية . وأصغيت لهمهمة الصوتين وبدأ يخيل الىّ اننى ارى منذ زمن بعيد بعيد هذا الأرمنى ، وصـــوان الآنية ، والذباب ، والنوافذ التى تلفحها الشمس اللاهبة ، واننى لن اكفّ عن رؤيتها فى المستقبل البعيد جدا ، فتملكتنى كراهيـــة للسهوب ، وللشمس وللذباب . .

ودخلت امرأة اوكرانية بمنديل رأس تحمل آنية الشـــاى ، ثم أحضرت السماور . وخرج الأرمنى على مهل الى ردهة المدخل وصاح :

— يا ماشيا ! تعالى صبى الشاى ! أين انت ؟ يا ماشيا * !

وتناهى وقع خطوات عجلى ، ودخلت الغرفـــة فتاة فى حـــوالى السادسة عشرة ، فى فستان بسيط من الشيت ، وفى منديل أبيض . وكانت مدلية ظهرها الىّ وهى تغسل الآنية وتصب الشاى ، فلم ألحظ الا انها دقيقة الخصر ، حافية القدمين ، وأن كعبيها الصغيرين العاريين يغطيهما سروال مسدل .

ودعانى رب الدار الى تناول الشاى . وعندما جلست الى المائدة تطلعت الى وجه الفتاة التى ناولتنى الكوب ، وفجأة أحسست وكأن نسمة هبت على روحى ونفخت عنها كل انطباعات النهار بمللهـــا وغبارها . رأيت قسمات ساحرة لأروع وجه صادفنى من قبل فى اليقظة او راودنى فى الأحلام . كانت أمامى حسناء ، وقد أدركـت ذلك من أول نظرة كما أدرك البرق .

اننى مستعد ان اقسم بأن ماشا ، او كما دعاها أبوها ماشيا ،

---

* النطق الصحيح هو : ماشا (تدليل لاسم ماريا) . اما كتابتـــه «ماشيا» فهى اشارة من المؤلف الى لكنة العجوز الارمنى . **المعرب** .

كانت حسناء بالفعل ، ولكنى لا استطيع أن أبرهن على ذلك . وقد يحدث أحيانا ان تتزاحم السحب عند الأفق فى اضطراب ، وتحتجب الشمس خلفها فتلونها بشتى الالوان : بالأحمر القانى ، وبالبرتقالى ، وبالذهبى ، وبالليلكى ، وبالوردى الداكن . وتبدو احدى السحب كالراهب ، والأخرى كالسمكة ، والثالثة كالتركى المعمم . ويحتل لهب المغيب ثلث صفحة السماء ، ويتوهج على صليب الكنيسة وعلى زجاج نوافذ دار السادة ، وينعكس فى النهر وفى برك المياه ، ويتذبذب على الاشجار . وبعيدا على صفحة الشفق يحلق سرب من البط البرى ليبيت فى مكان ما ... ويتطلع الراعى الذى يسوق البقر ، والمسّاح العابر فى عربته فوق السد ، والسادة المتنزهون . . يتطلعون كلهم الى الغروب فيجدونه جميعا فائق الجمال ، ولكن احدا لا يعرف ولن يخبرنا بسر جماله .

ولم اكن وحدى الذى وجدت الأرمنية جميلة . فقد ظل جدى ، العجوز ذو الثمانين عاما ، هذا الرجل الصارم الطباع ، اللامبالى بالنساء ومفاتن الطبيعة ، يحدق فى ماشا برقة دقيقة كاملة ثم سأل :

— هل هذه ابنتك يا أفيت نزاريتش ؟

فأجاب رب الدار :

— ابنتى . نعم ابنتى .

فامتدحها جدى :

— آنسة طيبة .

ولو نظر فنان الى جمال هذه الفتاة الأرمنية لاعتبره جمالا كلاسيكيا صارما . كان بالضبط ذلك الجمال الذى يدخل تمليه فى قلبك ، من حيث لا تعلم ، الثقة بأنك ترى ملامح سوية ، وأن الشعر ، والعينين ، والأنف ، والفم والعنق والصدر ، وكل حركات هذا الجسد الشاب قد اتحدت كلها فى نغمة هارمونية متكاملة ، لم تخطئ الطبيعة فيها خطأ صغيرا واحدا . ولسبب ما يخيل اليك ان المرأة المثالية الجمال ينبغى ان يكون لها أنف مثل أنف ماشا بالضبط ، انف مستقيم محدودب قليلا ، ومثل هاتين العينين السوداوين الواسعتين ، ومثل هذه الرموش الطويلة ، وهذه النظرة الساهمة ، وأن شعرها الأسود المتموج وحاجبيها تنسجم ايضا مع

لون جبينها وخديها الأبيض الرقيق ، كما تنسجم اعواد القصب الخضراء مع النهير الهادئ . وعنق ماشا الأبيض وصدرها الفتى غير مكتملي التكوين ، ولكن يخيل اليك أن تشكيلهما يتطلب موهبة فنية هائلة . وتتطلع الى ماشا ، وشيئا فشيئا تحس بالرغبة فى ان تقول لها شيئا غير عادى ، سارا ، صادقا ، جميلا كجمالها .

فى البداية احسست بالاهانة والخجل من أن ماشا لا تعيرنى أدنى اهتمام ، وتنظر طوال الوقت الى أسفل . وخيل الى أن هواء خاصا ، سعيدا ومتعاليا ، يفصلها عنى ويحميها بغيرة من نظراتى .

وفكرت بينى وبين نفسى : «هذا لأننى ملوث بالغبار ، وملوح البشرة ، وايضا لأننى ما زلت صبيا» .

ولكنى فيما بعد ، وشيئا فشيئا ، نسيت نفسى واستغرقت تماما فى الاحساس بالجمال . لم أعد اذكر ملل السهوب والغبار ، ولم أعد اسمع طنين الذباب او ادرك مذاق الشاى بل كنت اشعر فقط بأنه عبر المائدة تقف أمامى فتاة جميلة .

ولكن احساسى بالجمال كان غريبا . لم تثر ماشا فىّ الرغبة او الانبهار او المتعة ، بل حزنا ثقيلا ، وان كان لطيفا . كان هذا الحزن مبهما ، غامضا كالحلم . ولسبب ما أحسست بالأسى لنفسى ، ولجدى ، وللأرمنى ، وللأرمنية الصبية ذاتها ، وراودنى شعور كأنما فقدنا نحن الأربعة شيئا هاما وضروريا للحياة ، شيئا لن نجده بعد ذلك أبدا . وجدى ايضا بدا محزونا . لم يعد يتحدث عن المراعى والأغنام ، بل ركن الى الصمت وهو يسترق النظر الى ماشا بين الحين والحين فى تأمل .

وبعد تناول الشاى تمدد جدى لينام ، أما أنا فخرجت من البيت وجلست على درج المدخل . كان البيت ، ككل البيوت فى «بخشى-صالى» ، يصلى لهب الشمس . لم تكن هناك اشجار او عرائش او ظلال . وكان فناء الأرمنى الواسع ، المغطى بحشائش رجل الوزة عامرا بالحركة والمرح رغم القيظ الشديد . فخلف أحد الأسيجة المنخفضة ، التى كانت تخترق الفناء الواسع هنا وهناك ، كانت تجرى عملية دراس . وحول عمود دقّ فى وسط البيدر تماما دار اثنا عشر حصانا مسرجين صفا واحدا ومشكلين نصف قطر دائرة طويلا . وبجوارها سار فلاح اوكرانى فى صديرى طويل وسروال واسع ،

وهو يفرقع بالسوط ويصيح بنبرة خاصة ، وكأنما يريد أن يغيظ الخيول ويتباهى بسلطانه عليها :

– حا-ا يا ملاعين ! حا-ا-ا . . . ان شا الله تأخذكم بلوى ! خائفون ؟

كانت الخيول الشهب والبيض والبلق ، وهي لا تفهم لماذا يجبرونها على الدوران في مكان واحد وهرس سيقان القمح ، تركض بلا رغبة ، كأنما فقدت قواها ، وتهز ذيولها بغضب . وأثارت الريح من تحت قوائمها سحبا من التبن الذهبي وحملتها بعيدا عبر السياج . وبجوار العرمات العالية الجديدة عملت نساء بالمذارى وتحركت عربات ، ومن وراء العرمات ، في فناء آخر ، ركضت دستة من الخيول المماثلة حول عمود آخر ، وفرقع اوكراني مماثل بالسوط هازئا بالخيول .

كانت الدرجات التي أجلس عليها ساخنة . ومن الحر ظهرت على عوارض الدرابزين المخلخلة ، وعلى أطر النوافذ هنا وهناك قطرات صمغ الخشب . وتحت الدرجات ، وتحت شيش النوافذ ، في خطوط الظل ، تلاصقت برغشات حمراء . وكانت الشمس تلهب رأسي وصدري وظهري ، ولكنني لم أشعر بذلك ، بل كنت اشعر فقط بأقدام عارية تخطو من خلفي على الواح الارضية الخشبية في ردهة المدخل وغرف المنزل . وبعد أن جمعت ماشا آنية الشاي ركضت هابطة على الدرج فهبت عليّ دفقة هواء ، وحلقت كطائر نحو مبنى صغير مسود ، يبدو انه المطبخ ، حيث تصاعدت رائحة الضأن المشوي وتناهت رطانة أرمنية غاضبة . واختفت في فتحة الباب المظلمة ، وظهرت بدلا منها على العتبة أرمنية عجوز محدودبة ، بوجه أحمر وسروال أخضر . كانت العجوز غاضبة تسب أحدا ما . ثم سرعان ما ظهرت ماشا على العتبة ، وقد أحمرت من حرارة المطبخ ، حاملة على كتفها رغيفا كبيرا من الخبز الأسود . وركضت عبر الفناء نحو البيدر ، وهي تنثني بجمال تحت ثقل الخبز ، وانسلّت عبر السياج ، وغاصت في سحابة التبن الذهبي ، فاختفت وراء العربات . وأنزل الاوكراني الذي كان يسوق الخيول سوطه وصمت ، وظل ينظر صامتا حوالي دقيقة نحو العربات ، وعندما مرقت

الفتاة الأرمنية ثانية بجوار الخيول وقفزت عبر السياج شيعها بنظراته ثم صاح فى الخيول بنبرة كأنما كان فى غاية الكدر :

– فلتخطفكم مصيبة ، يا اولاد الأبالسة !

وبعد ذلك ظللت اسمع طول الوقت بلا انقطاع وقع اقدامها العارية ، وأراها وهى تركض فى الفناء بوجه جاد مهموم . كانت تركض تارة على الدرج فتهب علىّ دفقة هواء ، وتارة الى المطبخ ، وتارة الى البيدر ، وتارة الى البوابة ، فلم اكد ألاحق الدوران برأسى كى اتابعها .

وكلما لاحت اكثر أمام عينى ، ازداد حزنى وطأة . وشعرت بالأسى لنفسى ، ولها ، وللأوكرانى الذى كان يشيعها بنظراته فى حزن كلما ركضت الى العربات خلال سحابة التبن . ترى أكان ما أشعر به غيرة من جمالها ، ام اننى كنت آسى لأن هذه الفتاة ليست فتاتى ولن تكون أبدا ، واننى بالنسبة لها غريب ، ام اننى كنت اشعر شعورا مبهما بأن جمالها النادر شيء عارض ، لا حاجة اليه ، وككل ما فى الدنيا زائل ، أم ربما كان حزنى هو ذلك الاحساس الخاص الذى يثيره فى الانسان تأمل الجمال الحقيقى . . الله أعلم !

مرت ساعات الانتظار الثلاث دون أن اشعر . وخيل الىّ اننى لم اكد اشبع من تملى ماشا ، حتى كان كاربو قد ذهب الى النهر وحمم الفرس وبدأ يسرجها . وكانت الفرس المبتلة تنخر من السرور وتضرب العدة بحوافرها . وكاربو يصيح فيها : «ارجعى !» . واستيقظ جدى . وفتحت لنا ماشا البوابة ذات الصرير ، وجلسنا فى العربة وخرجنا من الفناء . وسرنا فى صمت كأنما كان كل منا غاضبا من الآخر .

وعندما لاحت روستوف وناخيتشيفان بعد ساعتين او ثلاث ، التفت كاربو بسرعة ، بعد أن ظل طوال الوقت صامتا ، وقال :

– يا لها من فتاة رائعة لدى الأرمنى !

وألهب الفرس بالسوط .

٢

فى مرة أخرى ، وقد اصبحت طالبا ، كنت مسافرا بالقطار الى الجنوب . كان ذلك فى مايو . وفى احدى المحطات ، اظن بين

بيلجورود وخاركوف ، خرجت من العربة لأتمشى على الرصيف .
كانت ظلال الغروب ترتمى على حديقة المحطة ، وعلى الرصيف وعلى الحقل . وحجب مبنى المحطة المغيب ، غير انه ظهر من قمم سحب الدخان المتصاعدة من القاطرة والمصبوغة بلون وردى رقيق ان الشمس لم تغب بعد .
ولاحظت وأنا اتمشى على الرصيف ، ان معظم الركاب المتجولين يتمشون ويتوقفون فقط بجوار عربة واحدة من عربات الدرجة الثانية ، ويرتسم على وجوههم تعبير كأنما هناك شخصية شهيرة تجلس فى العربة . وكان بين الفضوليين بجوار هذه العربة ايضا رفيقى فى الرحلة ، وهو ضابط مدفعية ، فتى ذكى ، دافئ وظريف ، ككل من نتعرف بهم فى الطريق صدفة ولفترة قصيرة .
وسألته :
-فيم تحدق هنا ؟
فلم يرد بشىء بل أشار بعينيه الى احدى النساء . كانت فتاة شابة ، فى حوالى السابعة عشرة او الثامنة عشرة ، ترتدى تاييرا روسيا ، حاسرة الرأس ، تضع على احدى كتفيها باهمال مانطو صغيرا . ولم تكن من الركاب ، بل يبدو انها ابنة ناظر المحطة او أخته . كانت واقفة بجوار نافذة العربة تتحدث مع راكبة كبيرة السن . وقبل أن استوعب ما رأته عيناى تملكنى فجأة ذلك الاحساس الذى راودنى فى القرية الأرمنية .
كانت الفتاة حسناء رائعة ، ولم يشك فى ذلك أحد ، لا أنا ، ولا من كانوا يتطلعون معى اليها .
ولو وصفت هيئتها ، كما هو متبع ، جزءا جزءا ، فلن تجد فيها جميلا بالفعل سوى شعرها الأشقر المتموج الغزير المسدل والمعقود على الرأس بشريط أسود ، أما عدا ذلك من الملامح فكانت اما غير سوية ، واما عادية للغاية . وربما بسبب طريقتها الخاصة فى التدلل ، او لقصر نظرها كانت عيناها مزرورتين ، وأنفها مشرئبا بتقاعس ، وفمها صغيرا ، وكان بروفيلها مرسوما بخطوط واهنة متراخية ، وكتفاها ضيقتين بما لا يتفق وسنها ، ومع ذلك كانت الفتاة تترك انطباعا بحسناء حقيقية ، وتأكدت وانا اتطلع اليها ان الوجه الروسى ، لكى يبدو رائعا ، ليس بحاجة الى تقاطيع سوية

صارمة ، بل والاكثر من ذلك انه لو كان للفتاة ، بدلا من انفها المشرئب ، انف آخر سوى وخال من عيوب التكوين ، كأنف الفتاة الأرمنية ، فربما فقد وجهها بسبب ذلك كل روعته .

كانت الفتاة وهى واقفة بجوار النافذة تتحدث وتنكمش من رطوبة المساء ، تلتفت الينا بين الحين والحين ، وتارة تنثنى واضعة يدها فى خصرها ، وتارة ترفع يديها الى رأسها لتسوى شعرها ، وكانت تتحدث وتضحك ، وترسم على وجهها الدهشة حينا والرعب حينا آخر ، ولم أذكر لحظة ركن فيها جسدها ووجهها الى السكون . كان كل سر جمالها وسحره يكمن بالضبط فى هذه الحركات الصغيرة ، الرشيقة بلا حدود ، وفى ابتسامتها ، وفى تعابير وجهها ، وفى نظراتها السريعة نحونا ، وفى الجمع بين الرشاقة الرهيفة لهذه الحركات وبين الصبا والنضارة وثقاء الروح الذى كان يتجلى فى ضحكها وصوتها ، وذلك الضعف الذى نعشقه فى الاطفال ، والطيور ، والغزلان الصغيرة ، والاشجار الوليدة .

كان جمالا فراشيا ، تنسجم معه تماما أنغام الفالس وخفقان الاجنحة فى البستان والضحك والمرح ، ولا يمكن تصوره فى ارتباط مع الفكر الجاد او الحزن او السكينة . وبدا انه يكفى أن تهب على الرصيف دفقة ريح نشطة او يسقط المطر كى يذبل هذا الجسد الهش فجأة ويتناثر هذا الجمال النزق كدقيق الأزهار .

ودمدم الضابط متنهدا عندما توجهنا الى عربتنا بعد ان دق الجرس للمرة الثانية :

– هكذا . . .

أما ماذا كانت تعنى «هكذا» هذه فلا أستطيع أن أقرر .

ربما كان يشعر بالحزن ولا يريد أن يمضى عن الحسناء والمساء الربيعى الى العربة الخانقة ، أو ربما كان ، مثلى ، يشعر بأسى غير مفهوم على الحسناء وعلى نفسه وعلىّ ، وعلى جميع الركاب الذين جروا أقدامهم بتراخ ودون رغبة متوجهين الى عرباتهم . وعندما مررنا بجوار نافذة المحطة ، حيث جلس وراءها الى جوار جهازه عامل تليغراف شاحب أحمر الشعر ، بخصلات عالية ووجه باهت ناتئ الوجنتين ، تنهد الضابط قائلا :

– أراهن على ان عامل التليغراف هذا يعشق تلك الحسناء .

فأن تعيش فى حقل ، تحت سقف واحد مع هذا المخلوق الهفهاف ولا تعشقه لشيء فوق طاقة البشر . ويالها من تعاســـة يا صديقى ، يالها من سخرية أن تكون محنى القامة ، مشعثا ، رماديا ، مستقيما ، وغير غبى ، وأن تعشق هذه الفتاة الحسناء اللاهية التى لا تعيرك أدنى اهتمام ! او ، وهذا هو الأسوأ : تصور أن هذا العامل عاشق ، وفى الوقت نفسه متزوج ، وأن زوجته ايضا محنية القامة ، مشعثة ، ومستقيمة مثله . . . يا للعذاب !

بجوار عربتنا وقف المحصل معتمدا على حاجز البسطة وهو يتطلع الى الجهة التى كانت الحسناء تقف فيها ، وكان وجهه المنهوك الرخو ، الشبعان الى درجة منفرة ، والمتعب من ليالى السهـــــاد واهتزاز العربة ، يعبر عن التأثر والحزن العميق ، كأنما كان يرى فى الفتاة شبابه وسعادته وصحوه وطهارته وزوجته وأولاده ، كأنما كان يندم ويحس بكل كيانه ان هذه الفتاة ليست له ، وانه بشيخوخته المبكرة ، وهيئته الخرقاء ، ووجهه السمين بعيد عن السعـــــادة الانسانية العادية ، سعادة اى راكب ، بعده عن السماء .

ودق الجرس لثالث مرة ، وترددت الصفارات ، فتحرك القطار بكسل . ومرق من امام نوافذنا أولا المحصل ، فناظر المحطة ، ثم البستان ، فالحسناء بابتسامتها الساحرة الماكرة كمكر الأطفال . . .

وأخرجت رأسى من النافذة ونظرت الى الوراء فرأيتها وهى تشيع القطار بنظراتها ثم تسير على الرصيف مارة امام نافذة عامـــــل التليغراف ، وسوت شعرها ثم ركضت الى البستان . ولم يعد مبنى المحطة يحجب الغروب ، وبدا الحقل مكشوفا ، الا ان الشمس كانت قد غربت ، وارتمى الدخان سحبا سوداء فوق نبتات القمح المخملية الخضراء . وانتشر الحـــــزن فى هواء الربيع ، وفى السمـــــاء المعتمة ، وفى العربة .

ودخل المحصل المذكور العربة وراح يشعل الشموع .

حكاية مملة

(من مذكرات رجل عجوز)

١

يوجد فى روسيا استاذ بـــارز هو نيقـــولاى ستيبانوفتشر (الفلانى) ، وهو مستشار سرى * وحامل أوسمة . ولديه العديد من الاوسمة الروسية والاجنبية ، حتى انه عندما يضطر الى حملها يلقبه الطلبة بـ«الحاجز الايقونى» ** . ومعارفه من أرقى الأوساط الارستقراطية . . وعلى أية حال فخلال الخمسة والعشرين او الثلاثين عاما الأخيرة لم يوجد فى روسيا ولا يوجد عالم شهير إلا ويعرفه الاستاذ معرفة قريبة . أما الآن فليس هناك من يصادقه ، ولكن اذا تحدثنا عن الماضى فان قائمة اصدقائه العظام تنتهى باسماء مثل : بيروجوف ، وكافيلين ، والشاعر نيكراسوف *** ، الذين وهبوه أخلص وأحر صداقة . وهو زميل فى جميع الجامعات الروسية وفى ثلاث جامعات أجنبية . وهلم جرا وهلم جرا . كل هذا ، وكثير غيره مما كان يمكن ان يقال ، يشكل ما يعرف باسمى .

واسمى هذا مشهور على نطاق واسع . ففى روسيا يعرفه كل

* رتبة مدنية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة الجنرال . **المعرب** .

** وهو حاجز مزدان بالأيقونات يفصل الجزء الاساسى من الكنيســة الشرقية عن المذبح . **المعرب** .

*** نيقولاى بيروجوف (١٨١٠ـ١٨٨١) جراح شهير وعالم كبيــر وضع أسس الجراحة الميدانية الحربيــة . وقسطنطين كافيلين (١٨١٨ـ١٨٨٥) مؤرخ وقانونى وكاتب برجوازى ، ونيقولاى نيكراسوف (١٨٢١ـ١٨٧٨) شاعر ثورى كبير صور بؤس الفلاحين ونادى بالثورة على الحكم المطلق . **المعرب** .



شخص متعلم ، وفى الخارج يذكرونه من فوق منصات الجامعات مقرونا بنعت : شهير وموقر . وينتمى هذا الاسم الى عداد تلك الاسماء المحظوظة القليلة التى يعتبر سبها او ذكرها بسوء بين الناس او فى الصحف دليلا على قلة الذوق . وهذا هو المفروض . فباسمى يرتبط اوثق ارتباط مفهوم الانسان الشهير ، السخى المواهب والمفيد بلا شك . وأنا دؤوب وذو جلد كالجمل ، وهذا مهم ، وموهوب ، وهذا أهم . وفوق ذلك ، وبالمناسبة ، فأنا مهذب ، متواضع ، وانسان شريف . لم أحشر ابدا فى الادب والسياسة ، ولم أبحث عن الشهرة فى مجادلة الجهلاء ، ولم ألق خطبا فى المآدب او على قبور رفاقى . . . وعموما فاسمى لا تشوبه اية شائبة وليس له ان يشكو من شىء . انه محظوظ .

وحامل هذا الاسم ، اى انا ، أبدو رجلا فى الثانية والستين ، أصلع الرأس ، باسنان صناعية وشقيقة * لا برء منها . وبقدر ما اسمى باهر وجميل بقدر ما انا نفسى كاب وقبيح . فرأسى ويداى ترتعش من الضعف . وعنقى ، كعنق احدى بطلات تورجينيف ، يشبه ذراع الكونتراباص ، وصدرى غائر وظهرى ضيق . وعندما أتحدث او اقرأ ينحرف فمى جانبا ، وعندما ابتسم يمتلىء وجهى كله بتجاعيد شيخوخة ميتة . وليس هناك اى شىء مهيب فى هيئتى التعيسة ، اللهم الا عندما تنتابنى الشقيقة فيظهر على وجهى تعبير خاص ، لا بد انه يثير فى نفس كل من ينظر الىّ فكرة مهيبة قاسية : «يبدو ان هذا الرجل سيموت قريبا» .

وما زلت ، كما فى السابق ، القى المحاضرات بصورة لا بأس بها . وكما فى السابق استطيع ان اشد انتباه السامعين على مدى ساعتين . فحماستى ، ولغة عرضى الادبية ، وروح الفكاهة تجعل عيوب صوتى غير ملحوظة تقريبا ، فصوتى جاف ، حاد ، أخنّ منفر كصوت المنافق . وانا اكتب بصورة سيئة . فذلك الجزء من مخى الذى يشرف على الملكة الكتابية قد توقف عن العمل . وضعفت ذاكرتى ، وتفتقر افكارى الى المنهجية اللازمة ، وعندما أصوغها على

* الشقيقة (tic) : صداع تقلصى فى الوجه يتمثل فى تقلص متكرر ولاارادى لعضلات الوجه نتيجة صدمة نفسية او مرض فى الجهاز العصبى . **المعرب .**

الورق يبدو لى دائما اننى فقدت الاحساس بترابطها العضوى ، وتأتى التراكيب رتيبة ، والعبارة شحيحة مترددة . وكثيرا ما اكتب غير ما أريد ، وعندما اكتب النهاية لا أعود اذكر البداية . وكثيرا ما أنسى الكلمات العادية ، ودائما ما اضطر الى بذل جهد كبير كى اتجنب فى الكتابة العبارات الزائدة والجمل التمهيدية التى لا ضرورة لها ، فهذه وتلك تدلان بوضوح على انحطاط النشاط العقلى . ومن الملفت للانتباه انه كلما كانت الكتابة أبسط ازداد توترى ارهاقا . وعندما اكتب مقالة علمية اشعر اننى اكثر حرية وذكاء بكثير مما عندما أسطر رسالة تهنئة او مذكرة تقريرية . وهناك أمر آخر : فمن الأسهل بالنسبة لى ان اكتب بالالمانية او الانجليزية من ان اكتب بالروسية .

أما بخصوص نمط حياتى الحالى فينبغى أن اشير قبل كل شىء الى الارق ، الذى أعانى منه فى الآونة الاخيرة . ولو سئلت : ما الذى يشكل الآن القسمة الرئيسية والاساسية لوجودك ؟ لأجبت : الأرق . فكما فى السابق ، وحسب العادة اخلع ملابسى فى منتصف الليل تماما وآوى الى الفراش . وأنعس بسرعة ، ولكنى استيقظ والساعة تدور فى الثانية باحساس كأنى لم أنم أبدا . واضطر الى النهوض من الفراش واشعال المصباح . وأمضى أذرع الغرفة من ركن لركن ساعة او ساعتين واتفحص اللوحات والصور المعروفة لى منذ زمن بعيد . وعندما أمل من المشى أجلس الى مكتبى . اجلس بلا حراك، دون أن افكر فى شىء او أشعر باية رغبات . واذا كان هناك كتاب امامى ، أقربه منى آليا واقرأ دون ادنى اهتمام . وهكذا قرأت آليا منذ فترة قريبة ، فى ليلة واحدة ، رواية كاملة بعنوان غريب : «عمّ غنت السنونوة» . او أروح ، لكى أشغل نفسى ، أعد حتى الألف ، او اتصور وجه زميل من زملائى وأمضى اتذكر : فى اية سنة ، وفى اية ظروف التحق بالوظيفة ؟ وأحب الاصغاء الى الاصوات . فتارة تهذى ابنتى ليزا بشىء ما فى الحلم بسرعة على بعد غرفتين منى . وتارة تعبر زوجتى الصالة حاملة شمعة ، ولا بد ان تسقط منها علبة الكبريت ، وتارة يصر صوان جف خشبه ، او تطن فجأة ترمسة المصباح . . . ولست ادرى لماذا تهيجنى هذه الاصوات .

ألا" تنام ليلا يعنى أن تدرك كل لحظة أنك لست طبيعيا ، ولذلك انتظر بفارغ الصبر مجىء الصباح والنهار حيث يكون من حقى ألا أنام . ويمر وقت مرهق طويل قبل أن يصيح الديك فى الفناء . وهذا أول بشير لى . فما أن يصيح حتى اعرف انه بعد ساعة سيستيقظ البواب فى الطابق الأسفل ، ولغاية ما سيصعد الدرج وهو يسعل بغضب . وبعد ذلك يبدأ الهواء خلف النوافذ فى الشحوب شيئا فشيئا ، وتتردد الاصوات فى الشارع . . .

ويبدأ نهارى بمجىء زوجتى . تدخل غرفتى مرتدية تنورة ، غير مصففة ، ولكنها مغتسلة ، وتفوح منها رائحة كولونيا الزهور ، ويبدو على هيئتها كأنما دخلت عرضا ، وفى كل مرة تقول نفس الشىء :

– عفوا ، سأبقى دقيقة واحدة . . . مرة اخرى لم تنم ؟

وتطفىء المصباح ، وتجلس بجوار المكتب ، وتشرع فى الكلام . وانا لست نبيا ولكنى أعرف مسبقا عمّ سيدور الحديث . كل صباح نفس الشىء . فعادة ، وبعد الاسئلة القلقة عن صحتى ، تتذكر فجأة ابننا الضابط الذى يخدم فى وارسو . فبعد اليوم العشرين من كل شهر نرسل له خمسين روبلا ، وهذا فى الاساس ما يشكل موضوع حديثنا .

تقول زوجتى متنهدة :

– طبعا هذا مرهق لنا ، ولكن واجبنا ان نساعده طالما لم يقف بعد على قدميه تماما . فالولد فى بلد غريب ، والراتب قليل . . . وعموما فاذا شئت ، يمكننا ان نرسل له فى الشهر القادم اربعين روبلا بدلا من خمسين . ما رأيك ؟

كان من الممكن أن تستخلص زوجتى من الخبرة اليومية أن النفقات لا تصبح أقل بسبب كثرة الكلام عنها ، ولكن زوجتى لا تعترف بالخبرة ، وتتحدث كل صباح بانتظام عن ابننا الضابط ، وعن ان الخبز ، والحمد لله ، أصبح أرخص ، أما السكر فارتفع سعره كوبيكين . . . تقول كل ذلك بنبرة كأنما تفضى الى بخبر جديد .

وأصغى اليها وأومىء آليا ، وربما لأننى لم أنم الليل تنتابنى افكار غريبة لا داعى لها . انظر الى زوجتى وأدهش كالطفل . واسأل

نفسى فى حيرة : أصحيح ان هذه المرأة العجوز ، البدينـــة جدا ، الخرقاء الهيئة ، والتى يلوح على وجهها تعبير الهموم الصغيرة والخوف على لقمة الخبز ، والنظرة الغائمة من التفكير الدائم فى الديـــون والحاجة ، هذه المرأة التى لا تجيد الكلام الا عن النفقات والابتسام فقط لرخص الأسعار ، أصحيح أنها كانت فى وقت ما هى فاريـــا الدقيقة القوام ، تلك التى احببتها بهيام لعقلها الصافى الطيب ، وروحها الطاهرة وجمالها ، وكما أحب عطيل ديدمونة ، «لشفقتها» على علمى ؟ أصحيح ان هذه المرأة هى نفسها زوجتى فاريـــا ، التى انجبت لى فى وقت ما ابنا ؟

وأتفحص بتوتر وجه العجوز الخرقاء المترهلة ، وأبحث فيها عن فاريا ، ولكن لم يبق من الماضى فيها سوى الخـــوف على صحتى وعادة أن تسمى راتبى راتبنا ، وقبعتى قبعتنا . واتألم وانا انظر اليها ، ولكى أعزيها ولو قليلا ، اسمح لها بان تقول اى شىء ، بل حتى اصمت عندما تظلم احدا فى احكامها او تبكتنى لأننى لا أمارس العلاج ولا أؤلف كتبا مدرسية .

وينتهى حديثنا دائما بنفس الصورة . فجأة تتذكر زوجتى اننى لم أتناول الشاى بعد ، فتفزع . وتقول ناهضة :

– ما لى أجلس هكذا ؟ السماور على الطاولة من زمان وأنـــا أثرثر هنا . يا الهى ، كم أصبحت بلا ذاكرة !

وتمضى بسرعة ، ثم تتوقف عند الباب لتقول :

– اننا مدينون ليجور براتب خمسة أشهر . هل تعرف ؟ كـم مرة قلت لك ، لا يصح ان نتأخر فى سداد رواتب الخدم ! الاسهل كثيرا ان نعطى كل شهر عشرة روبلات من أن نعطى خمسين روبـلا لخمسة أشهر !

وبعد أن تخرج من الغرفة تتوقف عند الباب مرة اخرى وتقول:

– لا أرثى لأحد مثلما أرثى لابنتنا ليزا المسكينة . البنـــت تدرس فى الكونسرفتوار ، وتتحرك دائما فى وسط راق ، ولكن اية ملابس ترتديها ، الله أعلم . شىء مخجل الظهور فى الشارع بمعطف كمعطفها . لو كانت ابنة أحد آخر ، ولكن الجميع يعرفون ان اباها استاذ مشهور ، مستشار سرى !

وبعد أن تعيّرني باسمي ورتبتي تنصرف أخيرا . هكذا يبدأ نهاري . ويستمر بصورة ليست أفضل .
عندما أجلس لتناول الشاي تأتي اليّ ابنتي ليزا في المعطف والقبعة ، حاملة نوت الموسيقى ، ومستعدة تماما للذهـــاب الى الكونسرفتوار . انها في الثانية والعشرين . وتبدو أصغر من ذلك ، جميلة ، تشبه قليلا زوجتي في شبابها . تقبلني برقة في صدغي وتلثم يدي قائلة :
– مرحبا يا بابي ، هل أنت بخير ؟
كانت في طفولتها تعشق الآيس كريم ، فكنت آخذها كثيرا الى محلات الحلوى . وكان الآيس كريم بالنسبة لها معيارا لكل ما هو رائع . فاذا أرادت أن تمتدحني قالت : «انت يا بابا مثل الكريمة» . وكان أحد اصابعها يسمى كريمة والثاني فستق ، والثالـــــث فراولة . . . حسب انواع الآيس كريم . وفي العادة ، عندما كانت تأتي في الصباح لتسلم عليّ ، كنت اجلسها على ركبتي وأقبـــل أصابعها مرددا :
– «الفستق . . . الكريمة . . . الليمون . . .»
والآن ايضا ، كما في ايام زمان ، الثم اصابع ليزا وادمدم : «الفستق . . . الكريمـــة . . . الليمـــون . . .» ولكـــن ذلك يصدر عني بصـــورة أخرى تماما . اننـــي بارد كالآيس كريم ، وأشعر بالخجل . وعندما تأتي ابنتي وتمس صدغي بشفتيها انتفض كما لو ان نحلة لسعتني في صدغي ، وابتسم بتوتر ، وأدير وجهي . فمنذ ان أصبت بالأرق وهناك مسألـــة تنتصب في ذهني كالمسمار : ان ابنتي كثيرا ما تراني ، أنا الرجل العجوز ، الشهير ، اتعذب خجلا من انني مدين للخادم ؛ وهي كثيرا ما ترى ان هموم الديون الصغيرة تضطرني الى ان اترك عملي واذرع الغرفة ساعـات طويلة وافكر ، فلماذا لم تأت مرة واحدة ، خفية عن أمها ، لتهمس : «يا أبي ، خذ هذه ساعتي ، وأساوري ، واقراطي ، وفساتيني . . . ارهن هذا كله فانت بحاجة الى نقود . . .» ؟ ولماذا ، وهي ترى انني وأمها ، وقد استسلمنا لاحساس كاذب ، نحاول أن نخفي فقرنا عن الناس ، لماذا لا تتخلى عن هذه المتعة المكلفة : دراسة الموسيقى ؟ وما كنت لأقبل منها لا الساعة ، ولا الاســـاور ، ولا التضحيات ، حاشا لله ، فليس هذا ما احتاجه .

وبهذه المناسبة اتذكر ابنى ، الضابط العامل فى وارسو . انه انسان ذكى وشريف وراجح التفكير . ولكن ذلك قليل عندى . اننى افكر : لو كان لدى أب عجوز ، ولو كنت اعرف انه يواجه لحظات خجل من فقره ، لأعطيت مكانى كضابط لأى شخص آخر والتحقت بعمل ما اجيرا . ومثل هذه الافكار عن ابنائى تسمم حياتى . فما جدواها ؟ فالانسان الضيق الافق او الحاقد هو وحده الذى يكنّ مشاعر الكراهية للاناس العاديين لأنهم ليسوا ابطالا . ولكن دعونا من هذا .

فى العاشرة الا ربعا ينبغى ان أذهب الى ابنائى الاعزاء لأقرأ المحاضرة . ارتدى ملابسى وأسير فى الطريق الذى أعرفه منذ ثلاثين عاما والذى له عندى تاريخه الخاص . ها هو البيت الرمادى الكبير وبه الصيدلية . فى وقت ما كان هنا بيت صغير به حانة بيرة . وفى هذه الحانة كنت افكر فى رسالة الدكتوراة ، وكتبت اول رسالة حب الى فاريا . كتبتها بالقلم الرصاص ، على ورقة مطبوع أعلاها : «Historia morbi» * . وها هو دكان البقال . فى وقت ما كان صاحبها يهوديا صغيرا يبيعنى السجائر بالدين ، ثم حلت محله امرأة بدينة كانت تحب الطلبة «لأن كلا منهم لديه أم» . والآن يجلس تاجر أحمر الشعر ، رجل غير مبال تماما ، يشرب الشاى من ابريق نحاسى . وها هى بوابة الجامعة القاتمة ، التى لم ترمم منذ زمن بعيد ، والبواب السأمان فى معطف فروى ضخم ، والمكنسة ، واكوام الثلج . . . ان مثل هذه البوابة لا يمكن ان تترك انطباعا طيبا فى نفس الصبى الطازج ، القادم من الأقاليم ، والمتصور ان محراب العلم هو حقا محراب . . . وعموما فقدم المبانى الجامعية ، وظلام طرقاتها ، والسناج على جدرانها ، وضعف الاضاءة ، ومنظر الدرجات والمشاجب والأرائك الكئيب تحتل فى تاريخ التشاؤم الروسى أحدى المراتب الاولى بين الاسباب المساعدة عليه . . . وها هى حديقتنا . ومنذ ان كنت طالبا لم تصبح ، على ما يبدو ، أفضل او اسوأ . انا لا أحبها . فقد كان من الاصوب كثيرا لو نمت هنا ، بدلا من اشجار الزيزفون المسلولة والاكاسيا الصفراء والبنفسج المقصوص المتناثر ، اشجار الصنوبر الفارعة والبلوط القوى . ان الطالب ،

* ـ تاريخ المرض (باللاتينية) .

الذى يتأثر مزاجه فى معظم الاحوال بالوضع المحيط به ، ينبغى ألا يرى امامه حيث يدرس ، وفى كل خطوة ، الا الاشياء السامية ، القوية ، الرشيقة . . . وليحفظه الله من شر الاشجار الهزيلة ، والنوافذ المكسورة ، والجدران الرمادية ، والابواب المبطنة بمشمع ممزق .

وعندما اقترب من مدخلنا يفتح الباب على مصراعيه ، ويستقبلنى زميلى القديم فى العمل وتربى وسميى الحاجب نيقولاى . وبعد أن يدخلنى يزحر ويقول :

– صقيع يا صاحب المعالى !

فاذا كان معطفى مبتلا يقول :

– مطر يا صاحب المعالى !

ثم يركض أمامى ويفتح جميع الابواب فى طريقى . وفى غرفة المكتب ينزع عنى بحرص معطف الفراء ، واثناء ذلك يتمكن من الافضاء الى بخبر من اخبار الجامعة . فبفضل المعرفة الوثيقة القائمة بين جميع حجاب الجامعة وحراسها ، يعرف نيقولاى كل ما يحدث فى الكليات الاربع وفى الادارة وفى مكتب مدير الجامعة وفى المكتبة . وما اكثر ما يعرف ! فمثلا عندما تصبح مسألة احالة مدير الجامعة او العميد الى المعاش قضية الساعة ، أسمع نيقولاى ، وهو يتحدث مع الحراس الشبان ، يذكر اسماء المرشحين ، ويوضح على الفور ان فلان الفلانى لن يعتمد الوزير ترشيحه ، أما فلان الفلانى فسيعتذر هو نفسه ، ثم يتطرق الى تفاصيل خرافية عن اوراق غامضة وردت الى الادارة ، وعن حديث سرى ، جرى ، كما يدعى ، بين الوزير وأحد الوكلاء . . الخ . واذا استبعدنا هذه التفاصيل فان تقديراته بشكل عام تكون دائما سليمة . والتشخيصات التى يضعها لهذا المرشح او ذاك ذات طابع خاص ، ولكنها ايضا صادقة . ولو أردت ان تعرف من ناقش رسالة الدكتوراة وفى اى عام ، ومن التحق بالوظيفة ، ومن أحيل الى المعاش او توفى ، فلتستعن بذاكرة هذا الجندى الهائلة ، وعندئذ لن يذكر لك السنة والشهر واليوم فحسب ، بل والتفاصيل المحيطة بهذا الظرف او ذاك . ان من يحب هو وحده الذى يستطيع ان يذكر بمثل هذه القوة .

وهو حافظ الاساطير الجامعية . فقد ورث عن اسلافه الحجاب

كثيرا من اساطير الحياة الجامعية ، وأضاف الى هذه الثروة من عنده الكثير مما حصل عليه اثناء الخدمة ، واذا شئت فسوف يروى لك العديد من الحكايات الطويلة والقصيرة . وبوسعه أن يحكى عن الحكماء الأفذاذ الذين كانوا يعرفـــون كل شيء ، وعن الكادحين الرائعين ، الذين لم يناموا أسابيع ، وعن شهداء العلم وضحاياه العديدين . والخير عنده ينتصر على الشر ، والضعيف يتغلب دائما على القوى ، والحكيم على الاحمق ، والمتواضع على المتكبر ، والشاب على العجوز . . . . ولا حاجة للتسليم بصحة كل هذه الأساطير والخرافات ، ولكن لو رشحتها فسيترسب لديك فى المرشـــح الشيء المطلوب : تقاليدنا الطيبة واسماء الابطال الحقيقيين المعترف بهم من الجميع .

وفى مجتمعنا تنحصر كل المعلومات عن دنيا العلماء فى بعض النكات عن شرود ذهن الاساتذة العجائز غير العادى ، وفى مزحتين حادتين او ثلاث ، تنسب اما الى جروبر واما الىّ ، وامـــا الى بابوخين * . وهذا قليل بالنسبة للمجتمع المثقف . ولو كان هذا المجتمع يحب العلم والعلماء والطلبة كما يحبهم نيقولاى ، لكان لدى أدبه منذ زمن بعيد ملاحم وروايات وسير كاملة ليست لديه الآن للأسف .

بعد أن يفضى الىّ نيقولاى بالخبر ، يرتسم على وجهه تعبير صارم ومن ثم يبدأ بيننا حديث العمل . ولو سمع شخص غريـب فى تلك اللحظة كيف يتعامل نيقولاى بطلاقة مع المصطلحات فلربمـا ظنه عالما متنكرا فى هيئة جندى . وبالمناسبة فالشائعات عن معارف الحراس الجامعيين مبالغ فيها الى حد كبير . صحيح ان نيقـولاى يحفظ اكثر من مائة تسمية لاتينية ، ويعرف كيف يركب الهيكل العظمى ، وأحيانا يعد أحد المستحضرات ، ويضحك الطلبـــة

---

* فنتسيسلاف جروبر (١٨١٤ـ١٨٩٠) كان أستـــاذ تشريح فى اكاديمية بطرسبرج الطبيـــة الجراحيـــة ، والكسندر بابوخين (١٨٣٥ـ ١٨٩١) عالم فسيولوجيا روسى ، له أعمال هامة فى مجال فسيولوجيـا الجهاز العصبى-العضلى . **المعرب** .

بالاستشهاد بمقطع علمى طويل ، ولكن نظرية الدورة الدموية البسيطة مثلا ما زالت بالنسبة له حتى الآن مجهلا كما كانت منذ عشرين عاما .

وفى غرفة المكتب يجلس الى الطاولة مساعدى فى التشريح بيوتر اجناتيفتش منحنيا بشدة فوق كتاب او مستحضر . وهو رجل دؤوب ، متواضع ، ولكنه غير موهوب ، فى حوالى الخامسة والثلاثين وقد أصبح أصلع وبكرش كبيرة . وهو يعمل من الصباح الى المساء ، ويقرأ كمية هائلة من الكتب ، ويذكر جيدا كل ما قرأه ، ومن هذه الناحية فهو كنز وليس رجلا . اما فيما عدا ذلك فهو حصان جر ، او كما يقال بتعبير آخر ، بليد عالم . ان الملامح الاساسية التى تميز حصان الجر عن الموهبة الحقيقية هى ان افقه ضيق ومحدود جدا بحدود التخصص ؛ وهو خارج تخصصه ساذج كطفل . واذكر اننى دخلت مرة ذات صباح غرفة المكتب وقلت :

– تصوروا ، يا للمصيبة ! يقال ان سكوبليف توفى * .

فرسم نيقولاى علامة الصليب ، أما بيوتر اجناتيفتش فقد التفت نحوى وسأل :

– من هو سكوبليف هذا ؟

وفى مرة أخرى – وكان ذلك قبلها بقليل – أعلنت أن الأستاذ بيروف ** توفى ، فسألنى بيوتر اجناتيفتش العزيز :

– وفيم كان يحاضر ؟

ويبدو لو أن باتى *** غنّت فوق أذنه تماما ، ولو هجمت جحافل الصينيين على روسيا ، ولو وقع زلزال ، فلن يتحرك فيه عضو ، وسوف يواصل النظر فى مجهره بهدوء وبعين مزرورة . وباختصار فلا يهمه من أمر الكون شيء . اننى مستعد أن ادفع غاليا كى أري كيف يضاجع هذا البارد زوجته .

---

* ميخائيل سكوبليف (١٨٤٣–١٨٨٢) جنرال روسى أصبح ذائع الصيت بعد الحرب الروسية–التركية (١٨٧٧–١٨٧٨) . **المعرب** .

** فاسيلى بيروف (١٨٣٣–١٨٨٢) رسام روسى شهير ، كان استاذا بمدرسة التصوير والنحت والعمارة بموسكو . **المعرب** .

*** باتى اديلينا (١٨٤٣–١٩١٩) مطربة ايطالية زارت روسيا عدة مرات حيث أحيت حفلات غنائية . **المعرب** .

ولديه سمة اخرى : الايمان الأعمى بعصمة العلم وبالدرجة الاولى كل ما يكتبه الألمان . وهو واثق من نفسه ، ومن مستحضراته ، ويعرف غاية الحياة ، ولكنه لا يعرف أبدا الشكوك وخيبة الأمل التى تشيب منها المواهب . ثم التبجيل الذليل للاسماء الشهيرة وانعدام الحاجة الى التفكير المستقل . ومن الصعب ان تقنعه بالعدول عن رأى ما ، ومن المستحيل أن تجادله . فلتحاول أن تجادل شخصا يؤمن ايمانا عميقا بأن افضل العلوم : الطب ، وافضل الناس : الاطباء وافضل التقاليد : التقاليد الطبية . فمن الماضى الطبى السيئ لم يبق الا تقليد واحد : رباط العنق الأبيض الذى يحمله الأطباء الآن . وبالنسبة للعالم ، وللشخص المتعلم عموما لا يمكن ان تكون هناك تقاليد سوى التقاليد الجامعية العامة ، دون تقسيم لها الى طبية وحقوقية . . الخ ، ولكن من الصعب على بيوتر اجناتيفتش أن يسلم بذلك ، وهو مستعد ان يجادلك الى يوم القيامة .

وأتصور مستقبله بوضوح . فخلال حياته كلها سيعد بضع مئات من المستحضرات الفائقة النقاء ، وسيكتب الكثير من الدراسات الجافة ، المعقولة جدا ، وسينجز حوالى عشر ترجمات متقنة ، ولكنه لن يخترع البارود . فالبارود يحتاج الى الخيال والابتكار والقدرة على التخمين ، أما بيوتر اجناتيفتش فليس لديه شىء من هذا . وباختصار فهو فى العلم ليس بسيد ، بل عامل أجير .

نتحدث أنا وبيوتر اجناتيفتش ونيقولاى بصوت خافت . ونشعر بقليل من الانزعاج . ويراود النفس احساس خاص عندما تهدر القاعة خلف الباب كالبحر . خلال ثلاثين عاما لم اتعود على هذا الاحساس ، وأشعر به كل صباح . أزرر سترتى بعصبية ، وأوجه الى نيقولاى اسئلة لا داعى لها ، وأغضب . . . وأبدو وكأننى أجبن ، ولكن هذا ليس جبنا ، بل شيئا آخر أعجز عن أن أصفه .

واتطلع الى الساعة دون اى داع واقول :

– حسنا . . ينبغى أن نذهب .

ويتحرك ركبنا بهذا الترتيب : فى المقدمة يسير نيقولاى حاملا المستحضرات او الأطالس ، ومن ورائه أنا ، ومن ورائى يسير

حصان الجر مطأطئا رأسه بتواضع ؛ أو ، اذا لزم الأمر ، يسير حاملو الجثة فى المقدمة ، وخلف الجثة نيقولاى ، وهكذا . ولدى ظهورى يقف الطلبة ثم يجلسون ، ويهدأ هدير البحر فجأة . ويحل السكون .

وأنا أعرف عمّ سأحاضر ، ولكنى لا أعرف كيف سأحاضر وبم سأبدأ وكيف سأنتهى . وليس فى رأسى جملة واحدة جاهزة . ولكن ما أن أطوف بنظراتى على القاعة (وهى مشيدة على شكل مدرّج) ، وما أن اتفوه بالعبارة التقليدية «فى المحاضرة الماضية تناولنا . . .» ، حتى تطير العبارات من صدرى صفا طويلا . . وتنطلق العجلة ! اتحدث بسرعة جارفة ، بحماسة ، ويبدو انه لا توجد قوة تستطيع أن توقف مجرى حديثى . ولكى تحاضر جيدا ، أى دون ملل ، وبفائدة للسامعين ، ينبغى ان يكون فى حوزتك ، بخلاف الموهبة ، البراعة والخبرة ، وان يكون لديك أوضح تصور عن قواك ، وعن اولئك الذين تحاضرهم ، وعن مادة حديثك . وبالاضافة الى ذلك ينبغى ان تكون حويطا وتراقب بيقظة والا يغيب عنك مجال الرؤية ثانية واحدة .

ان قائد الاوركسترا الجيد ، اذ ينقل فكرة الموسيقار ، يقوم فى وقت واحد بعشرين أمرا : فهو يقرأ أدوار النوتة ، ويلوح بعصاه ، ويتابع المغنى ، ويأتى بحركة تارة فى اتجاه الطبل ، وتارة فى اتجاه البوق وغير ذلك . ونفس الشىء افعله انا عندما احاضر . فأمامى مائة وخمسون وجها لا يشبه أحدها الآخر ، وثلاثمائة عين تحدق مباشرة فى وجهى . وهدفى أن اهزم هذا الوحش الخرافى المتعدد الرؤوس . وطالما كان لدى فى كل دقيقة من محاضرتى تصور واضح عن درجة انتباهه ومدى فهمه ، فهو اذن تحت سيطرتى . أما غريمى الآخر فيقبع داخلى أنا . انه التنوع اللامحدود للاشكال والظواهر والقوانين والكثير من افكارى وافكار الآخرين المرتبطة بها . وفى كل لحظة ينبغى ان تكون لدى المهارة لكى انتشل من هذه المادة الضخمة أهم شىء وألزمه . وبنفس السرعة التى يتدفق بها حديثى أصوغ فكرتى فى شكل يكون فى متناول فهم الوحش ويثير اهتمامه ، وأن أراعى بانتباه ألا تنتقل الأفكار حسب تراكمها ، بل وفق نظام محدد لاغنى عنه لتركيب صحيح للصورة

التى أرغب فى رسمها . ثم اننى أحاول ان تكون لغتى أدبيـــة ، والتعريفات موجزة ودقيقة ، والعبارة بسيطة وجميلة ما أمكن . وكل لحظة ينبغى أن اكبح نفسى وان أذكر انه ليس فى حوزتى ســوى ساعة واربعين دقيقة . وباختصار فهناك عمل كثير . وفى وقت واحد يكون عليك أن تجعل من نفسك عالما ومربيا وخطيبا ، والمصيبة لو انتصر الخطيب فيك على المربى والعالم ، او العكس .

اقرأ ربع ساعة ، نصف ساعة ، وها أنذا الاحظ ان الطلبـة بدأوا يتطلعون الى السقف ، والى بيوتر اجناتيفتش ، ويستخرج أحدهم منديله ، ويعتدل الآخر فى جلسته ، ويبتسم الثالث لأفكاره الخاصة . . . وهذا يعنى أن الانتباه قد ضعف . ينبغى اتخــــاذ الاجراءات اللازمة . واستغل اول فرصة مناسبة وأطلق مزحة ما . وتبتسم الوجوه المائة والخمسون كلها ابتسامات عريضة ، وتلمع العيون بمرح ، ويتردد هدير البحر لفترة قصيرة . . . وأضحك أنا ايضا . لقد تجدد الانتباه ، وبوسعى الآن ان استمر .

ان اى نقاش ، واية تسلية او ألعاب لم تمنحنى ابدا مثل هذه المتعة التى يمنحنى اياها القاء المحاضرات . ففى المحـــاضرة فقط استطيع ان استسلم كلية للشغف ، وادرك ان الالهام ليس بدعة الشعراء بل يوجد فعلا فى الواقع . واعتقد ان هرقل ، لم يشعر بعد اكثر مآثره اثارة بمثل هذا الوهن اللذيذ الذى كان ينتابنى به بعد كل محاضرة .

كان ذلك فيما مضى . أما الآن فـــلا أشعر فى المحاضرات الا بالعذاب . فما أن يمر نصف ساعة حتى ابدأ أحس بضعف لا يقهر فى ساقى وكتفى ؛ فأجلس على الكرسى ، بيد انى لم آلف الالقاء جالسا ؛ فانهض بعد دقيقة ، وأواصل الالقاء واقفا ، ثم اجلس ثانية . ويجف حلقى ، ويبح صوتى ، ويدور رأسى . . . ولكـــى أخفى عن السامعين حالتى اكثر من شرب الماء ، وأسعل ، واتمخط كثيرا كأنما يزعجنى الزكام ، وألقى مزحا فى غير مناسبة ، وفى النهاية أعلن الاستراحة مبكرا عما ينبغى . ولكننى فى الاساس اشعر بالخجل .

ويقول لى ضميرى وعقلى أن أفضل ما يمكن أن أفعله الآن هو ان اقرأ للاولاد محاضرة الوداع ، وأقـــول لهم كلمتى الأخيرة ،

وأباركهم ، وأترك مكانى لشخص أصغر وأقوى منى . ولكنـــى ، وليحاسبنى الله ، لا أجد فى نفسى الشجاعة لكى اتصرف كما يملى ضميرى .

ولسوء الحظ فأنا لست فيلسوفا ولا عالم لاهوت . وأنا أعلم تمام العلم أننى لن أعيش اكثر من نصف عام ؛ واذن فقد كان من المفروض الآن ان تشغلنى اكثر من اى شىء آخر مسائل كظلمات العالم الآخر والرؤى التى ستراودنى فى نومة القبر . ولكن روحى لا تبغى ، لست أدرى لماذا ، أن تعرف هذه المسائل ، رغم ان عقلى يدرك مدى أهميتها . ومثلما منذ عشرين او ثلاثين عاما ، لا يشغلنى الآن ، قبيل الموت ، الا العلم وحده . وحتى عندما ألفظ آخر انفاسى فسوف اظل مؤمنا بأن العلم هو أهم وأروع وألزم شىء فى حيـــاة الانسان ، وانه كان وسيظل دائما أسمى مظاهر الحب ، وبه وحده سينتصر الانسان على الطبيعة وعلى نفسه . وربما كان هذا الايمان ساذجا وغير محق فى أساسه ، ولكنى لست مذنبا فى اننى اؤمن بهذه الصورة وليس بصورة أخرى ؛ ولا استطيع أن أقهر فى نفسى هذا الايمان .

ولكن ليست هذه هى القضية . كل ما أرجوه أن تتسامحوا مع ضعفى وتفهموا أن انتزاع شخص تهمه مصائر النخاع الشوكى اكثر مما تهمه الغاية النهائية للكون ، ان انتزاع هذا الشخص من كرسيه وتلاميذه يعادل تماما لو انكم وضعتموه فى تابوت واغلقتم عليه دون ان تنتظروا حتى يموت .

وبسبب الأرق ، ونتيجة الصراع المجهد ضد الضعف المتزايـد يحدث لى شىء غريب . ففى وسط المحاضرة تمسك الغصة فجـــأة بحلقى ، وتقترب الدموع من مآقى ، واشعر برغبة لاهبة ، هستيرية فى أن أمد ذراعى الى الأمام وأشكو حالى . أود ان اصرخ بصوت عال بأن القدر قد حكم علىّ ، أنا الرجل الشهير ، بالاعدام ، وأنه بعد فترة لا تتجاوز نصف عام سيتصرف فى هذه القاعة شخص غيرى . اريد ان أصرخ بأننى مسموم ؛ وان افكارا جديدة ، لم اعرفها من قبل ، قد سممت آخر ايام عمرى ، وما زالت تلدغ دماغى كالبعوض . وفى تلك اللحظة تبدو لى حالتى فظيعة الى درجة أود معها ان يفزع

كل سامعى ، ويقفزوا من اماكنهم فى هلع مجنون ، ويندفعوا الى الأبواب بصيحات يائسة .
ما أصعب معايشة هذه اللحظات .

٢

بعد المحاضرة اجلس الى مكتبى فى البيت واعمل . اقرأ المجلات العلمية ورسائل الدكتوراة ، او أعد المحاضرة التالية ، واحيانا اكتب شيئا ما . اعمل على فترات منقطعة لأننى اضطر لاستقبال الزوار .

يدق الجرس . انه زميل جاء يتحدث فى أمر ما . يدخل بقبعته وعصاه ، فيمد لى هذه وتلك قائلا :

— جئتك لدقيقة ، لدقيقة واحدة ! لا تنهض يا Collega * ! كلمتان فقط !

وقبل كل شيء نحاول ان نظهر احدنا للآخر أننا مهذبون للغاية وسعداء جدا برؤية بعضنا بعضا . اجلسه فى الفوتيل وهو ايضا يجلسنى ؛ واثناء ذلك يمسح كل منا بحرص على خصر الآخر ، ونلمس أزرارنا ، ويبدو وكأننا نتحسس بعضنا ونخشى أن تكوى أصابعنا . ونضحك كلانا ، رغم أننا لا نقول ما يضحك . وبعد أن نجلس نقرب رأسينا نحو بعضنا ونشرع فى الحديث بصوت خافت . ومهما بلغت درجة المودة التى نكنها بعضنا لبعض فاننا لا نستطيع ألا ننمق حديثنا بشتى عبارات التهذيب الصينى مثل : «لقد تفضلتم فأشرتم عن حق» او : «كما سبق وتشرفت فأبلغتكم» ، لا نستطيع ألا نقهقه عندما يمزح أحدنا ، حتى لو لم تكن مزحة موفقة . وبعد أن يفرغ زميلى من حديثه فى الأمر الذى جاء من أجله ينهض دفعة واحدة ويلوح بقبعته نحو كتبى ومجلاتى ويودعنى . ومرة أخرى نتحسس بعضنا ونضحك . وأصحبه الى ردهة المدخل . وهنا أساعده على ارتداء معطفه ، ولكنه يحاول أن يتنصل من هذا الشرف الرفيع بكل وسيلة . وبعد

---

* يا زميل !

ذلك ، وعندما يفتح يجور الباب ، يؤكد لى زميلى اننى سأصاب بالبرد ، أما أنا فأتظاهر بأننى مستعد أن أرافقه حتى الى الخارج . وعندما أعود ، أخيرا ، الى غرفة مكتبى يظل وجهى مستمرا فى الابتسام ، بقوة القصور الذاتى فيما يبدو .

وبعد قليل يدق الجرس ثانية . ويدلف أحد ما الى ردهة المدخل وينزع معطفه فترة طويلة ويسعل . ويبلغنى يجور أن طالبا جاء فأقول له : ادخله . وبعد دقيقة يدخل غرفتى شاب لطيف الهيئة . منذ عام وعلاقتنا مشدودة : فهو يجيب على اسئلة الامتحانات بصورة فظيعة ، وأنا اضع له درجة «واحد» * . وكل عام يتجمع عندى حوالى سبعة من امثال هؤلاء الشطار الذين ألهبهم وأسقطهم ، كما يقول الطلبة . والذين يرسبون منهم فى الامتحان بسبب ضعف قدراتهم او بسبب المرض عادة ما يحملون صليبهم فى صبر ولا يفاصلوننى . الذين يفاصلون ويترددون على فى البيت هم فقط الدمويو المزاج ذوو الطباع الحية الذين يفسد عليهم تأجيل الامتحان شهيتهم ويعوقهم عن التردد على الاوبرا بانتظام . أما الفريق الاول فأتساهل معهم ، وأما الفريق الثانى فألهبهم طوال العام .

وأقول للضيف :

— اجلس . ماذا تريد أن تقول ؟

فيبدأ الحديث متلجلجا ودون ان ينظر فى عينى :

— معذرة يا أستاذ على الازعاج . ما كنت لاجرؤ على ازعاجكم لولا أننى . . . لقد تقدمت لامتحانكم خمس مرات و . . . رسبت . أرجوكم ، لو سمحتم اعطونى «مقبول» لأن . . .

والحجة التى يوردها جميع الكسالى للدفاع عن موقفهم هى دائما نفس الحجة : فقد أدوا امتحانات جميع المواد بصورة رائعة ولم يرسبوا الا فى مادتى ، وهذا أدعى الى الدهشة لأنهم كانوا يدرسون مادتى دائما باجتهاد ، ويعرفونها معرفة رائعة ، ولم يرسبوا الا بسبب التباس غير مفهوم .

وأقول للضيف :

---

* درجة رسوب تعادل تقدير «ضعيف جدا» فى جامعاتنا . **المعرب** .

– معذرة يا صديقى . . انا لا استطيـــع أن اعطيك مقبول . اذهب وذاكر المحاضرات قليلا ثم تعال . وعندئذ سنرى .

فترة صمت . وتراودنى رغبة فى تعذيب الطالب قليلا لأنـــه يحب البيرة والاوبرا اكثر من العلم ، فأقول له متنهدا :

– فى رأيى ان أفضل ما تستطيع ان تفعله الآن هـــو ان تترك تماما كلية الطب . فاذا كنت لا تستطيع أن تؤدى الامتحان ولديك هذه القدرات ، فمن الواضح اذن أنه ليســـت لديك لا الرغبة ولا الاستعداد لأن تصبح طبيبا .

فيستطيل وجهه ذى المزاج الدموى ويقول مبتسما بمرارة :

– معذرة يا أستاذ ، ولكن ذلك يكون من جانبى أمرا غريبا على أقل تقدير . أدرس خمس سنوات ثم فجأة . . . اترك !

– ولم لا ؟ الأفضل أن تهدر خمس سنوات على أن تظـــل طوال حياتك تزاول عملا لا تحبه .

ولكنى على الفور أرق لحال الطالب فأسارع الى القول :

– وعموما كما تشاء . حسنا ، فلتذاكر قليلا ثم تعال .

فيسأل الكسول بصوت أصم :

– متى ؟

– متى تشاء . ولو غدا .

وأقرأ فى عينيه الطيبتين : «طبعا من الممكن أن آتى ، ولكنك ايها الوغد ستطردنى» .

وأقول له :

– بالطبع لن تزداد علما لمجرد أنك ستتقدم لى الامتحان خمس عشرة مرة أخرى ، ولكن ذلك سيربى فيك الصلابـــة . حسنا ، لا بأس حتى بهذا .

ويحل الصمت . انهض وانتظر انصراف الضيف ، اما هو فيقف ويتطلع الى النافذة ، ويحك لحيته الصغيرة ويفكر . وأشعـــر بالضجر .

صوت ذى المزاج الدموى لطيف ، ريّان ، وعيناه ذكيتـــان ساخرتان ، ووجهه بشوش ، ذابل قليلا من كثرة شرب البيـــرة والاستلقاء الطويل على الكنبـــة . يبدو انه يستطيع ان يروى لى الكثير من القصص الطريفة عن الاوبرا ، وعن مغامراته العاطفية ،

وعن رفاقه الذين يحبهم ، ولكن العرف لم يجر بذلك للأسف .
أما أنا فعلى استعداد لأن اسمعه عن طيب خاطر :
- يا أستاذ ، أعدكم بشرفى أننى لو اعطيتمونى مقبـــول فسوف . . .
ما أن تصل الأمور الى «اعدكم بشرفى» حتى اشيـــح بيدى واجلس الى المكتب . ويفكر الطالب دقيقة أخـــرى ثـــم يقول باكتئاب :
- اذن وداعا . . ومعذرة .
- وداعا يا صديقى . تصحبك السلامة .
ويمضى نحو المدخل بتردد ، وهناك يرتدى معطفـــه ببطء ، وعندما يخرج الى الشارع لا بد انه يفكر ثانية فترة طويلة ، ودون أن يتفتق ذهنه عن شيء ، اللهم الا : «يا للشيطان العجوز» موجهة الىّ ، يمضى الى مطعم سيئ ليشرب البيرة ويتغدى ، ثم الى منزله لينام . عليك الرحمة ايهاالكادح الشريف !
ويدق الجرس لثالث مرة . ويدخل طبيب شاب فى حلة سوداء جديدة ، ونظارة مذهبة ، وبانطبع فى رباط عنق أبيض . ويقدم نفسه . وادعوه الى الجلوس واسأله عما يريد . ويبدأ كاهن العلم الشاب يحدثنى بشيء من الانفعال عن انه فى هذا العام نجح فى امتحان الدكتوراة ولم يبق الا أن يكتب الرسالة . وهو يود أن يعمل تحت اشرافى ، وسيكون مدينا لى بالكثير لو اعطيته موضوعا للرسالة .
فأقول له :
- يسعدنى جدا يا زميل أن اكون ذا فائدة لك ، ولكـــن دعنا نتفق اولا على ما معنى الرسالة . من المتعارف عليـــه ان المفهوم من هذه الكلمة انها مؤلف يمثل نتاجا للابداع المستقل . أليس كذلك ؟ أما المؤلف المكتوب حول موضوع يقدمه آخرون ، وتحت اشراف آخرين ، فله اسم آخر . . .
ويلوذ الطبيب بالصمت ، فانفجر ، واقفز من مكانى وأصرخ بغضب :
- ما لكم تأتون الىّ جميعا ، لا أفهم ! هل انا صاحب دكان أم ماذا ؟ انا لا أتاجر بالمواضيـــع ! للمرة الواحدة بعد الألف

ارجوكم جميعا أن تدعونى وشـــأنى ! ارجو المعذرة على هذه الخشونة ، ولكننى سئمت كل هذا !

يلوذ الطبيب بالصمت ، فقط تحمر وجنتاه . ويعبر وجهه عن الاحترام العميق لاسمى الشهير ومكانتى العلمية ، ولكنى أرى فى عينيه أنه يحتقر صوتى وهيئتى البائسة ، وحركاتى العصبية . وأبدو له فى غضبى هذا غريب الاطوار .

وأقول بغضب :

- لست صاحب دكان ! شىء عجيب ! لماذا لا تريد ان تكون مستقلا ؟ لماذا تنفر من الحرية الى هذا الحد ؟

وأقول غير ذلك الكثير ، ولكنه يلوذ بالصمت . وفى النهاية تهدأ ثائرتى شيئا فشيئا ، وبالطبع استسلم . سيحصل الطبيب منى على الموضوع الذى لا يساوى خردة ، وسيكتب تحت اشرافى رسالة لا حاجة اليها ، وسينجح بجدارة فى المناقشة المملة ، وسيحصل على الدرجة العلمية التى ليس بحاجة اليها .

ويمكن أن تتوالى الأجراس تباعا بلا نهاية . ولكنى سأكتفى هنا باربعة منها . ها هو الجرس الرابع يدق ، واسمع وقـــع الخطوات المألوفة ، وحفيف الفستان ، والصوت الرقيق . . .

منذ ثمانية عشر عاما مات رفيقى اخصائى العيون وترك ابنة فى السابعة تدعى كاتيا ، وحوالى ستين ألف روبل . وفى وصيته اختارنى وصيا على ابنته . وعاشت كاتيا معنا فى البيت حتـــى العاشرة من عمرها ، ثم ارسلناها الى المعهد ، وأصبحت لا تقيم عندى الا فى شهور الصيف اثناء العطلات . ولم يكن لدى الوقت لاهتم بتربيتها ، ولم اتابعها الا لماما ، ولذلك لا استطيع أن اذكر عن طفولتها الا القليل جدا .

وأول ما اذاكره واحبه من الذكريات عنها الثقة والبراءة غير العادية التى دخلت بها بيتى ، وتعالجت بها عند الاطباء ، والتى كانت تتهلل دائما على وجهها الصغير . كان يحدث احيانا أن تكون جالسة فى ركن ، معصوبة الخد ، ولا بد أن تنظر الى شىء مـــا باهتمام . وسواء كانت ترانى فى هذا الوقت وأنا اكتب واقلب صفحات الكتب ، أم ترى زوجتى وهى تسعى فى شئون البيت ، أم الطاهية وهى تقشر البطاطس فى المطبخ ، أم الكلب وهـــو

يلعب ، فان عينيها كانتا تنطقان دائما بشيء واحد ، الا وهو : «ان كل ما يجرى فى هذه الدنيا لرائع وحكيم» . كانت محبة للاستطلاع وتهوى الحديث معى . وكان يحدث أن تجلس قبالتى الى المكتب تتابع حركاتى وتوجه الىّ الاسئلة . وكان يهمها ان تعرف ما الذى اقرأه ، وماذا أفعل فى الجامعة ، وهل أخاف الجثث ، وماذا اصنع براتبى .

وتسألنى :

– هل يتشاجر الطلبة فى الجامعة ؟

– نعم يا عزيزتى ، يتشاجرون .

– وهل تجعلهم يركعون على ركبهم ؟

– نعم اجعلهم .

كان من المضحك بالنسبة لها أن الطلبة يتشاجرون ، وأننى أجعلهم يركعون على ركبهم ، فتضحك . كانت طفلة وديعة صبورة ، وطيبة . وأحيانا كان يحدث أن اراها وقد انتزع منها شيء ما ، او عوقبت ظلما ، او لم يشبع حب استطلاعها ؛ وعندئذ يمتزج تعبير الثقة والبراءة الدائم على وجهها بالحزن ، ولا شيء اكثر . ولم اكن اعرف كيف أناصرها ، وفقط عندما كنت أرى حزنها كانت تراودنى الرغبة فى أن اضمها الىّ وأواسيها بنبرة مربية عجوز : «يا يتيمتى الحبيبة !» .

واذكر ايضا انها كانت تحب الثياب الجملية والتطيب بالعطور . ومن هذه الناحية كانت تشبهنى . فأنا ايضا أحب الثياب الجملية والعطور الجيدة .

ويؤسفنى انه لم يكن لدى لا الوقت ولا الرغبة فى متابعة بداية وتطور ذلك الشغف الذى استولى على كاتيا تماما عندما بلغت الرابعة عشرة او الخامسة عشرة . وأقصد حبها الجارف للمسرح . فعندما كانت تأتى الينا من المعهد فى العطلة وتعيش عندنا ، لم تكن تتحدث عن شيء بمثل هذه المتعة وهذه الحرارة كما كانت تتحدث عن المسرحيات والممثلين . وقد أرهقتنا بحديثها الدائم عن المسرح . ولم تكن زوجتى والاولاد يصغون اليها . أنا الوحيد الذى لم تواتنى الشجاعة لكى ارفض ايلاءها

انتباهى . وعندما كانت تشعر بالرغبة فى الافصاح عن اعجابها كانت تدخل غرفة مكتبى وتقول بصوت ضارع :

– نيقولاى ستيبانوفتش ، اسمح لى ان اتحدث معك عن المسرح !

فأشير لها الى الساعة قائلا :

– سأمنحك نصف ساعة . هيا تكلمى .

وفيما بعد كانت تأتى معها بعشرات من صور الممثلين والممثلات الذين كانت تعبدهم . ثم حاولت عدة مرات أن تشارك فى الحفلات التمثيلية للهواة ، وفى نهاية المطاف ، عندما انهت دورة المعهد ، اعلنت لى انها ولدت لكى تصبح ممثلة .

لم أشاطر كاتيا أبدا ولعها بالمسرح . ففى اعتقادى انه اذا كانت المسرحية جيدة فلا حاجة لارهاق الممثلين لكى تترك الانطباع اللازم ، ويمكن الاكتفاء بقراءتها فقط . أما اذا كانت المسرحية سيئة فلن يستطيع اى أداء أن يجعلها جيدة .

كنت اتردد كثيرا على المسرح فى شبابى ، والآن كذلك تحجز أسرتى مقصورة مرتين فى السنة وتأخذنى كى «اتهوّى» . بالطبع هذا لا يكفى لاعطائى الحق فى الحكم على المسرح ، ولكننى سأتحدث عنه قليلا . فى رأيى أن المسرح لم يصبح أفضل مما كان عليه منذ ثلاثين او اربعين عاما . فكما فى السابق ، لا استطيع أبدا ان أحصل لا فى طرقات المسرح ولا فى ردهاته على كوب ماء . وكما فى السابق يغرمنى الحجاب عشرين كوبيكا «ضريبة» نزع المعطف ، بالرغم من انه ليس هناك ما يعيب فى ارتداء الملابس الثقيلة شتاء . وكما فى السابق تعزف الموسيقى فى فترات الاستراحة بلا اى داع ، فتضيف الى الانطباع الذى تتركه المسرحية انطباعا جديدا غير مطلوب . وكما فى السابق يذهب الرجال اثناء فترات الاستراحة الى البوفيه لتناول المشروبات الروحية . فاذا لم يكن التقدم ظاهرا فى الجزئيات الصغيرة فمن العبث أن أبحث عنه فى الأشياء الكبيرة . فعندما يحاول الممثل ، المكبل من قمة رأسه الى اخمص قدميه بالتقاليد المسرحية والاحكام المسبقة ، ان يلقى المنولوج البسيط العادى «أنكون أم لا نكون» لا ببساطة ، بل ، ولست

ادرى لماذا ، بفحيح وتشنجات فى جسده كله ، أو عندما يحاول أن يقنعنى مهما كلف الأمر ان تشاتسكى ، الذى يتحدث كثيرا مع الحمقى ويحب فتاة حمقاء ، هو شخص ذكى جدا ، وأن «ذو العقل يشقى» * ليست مسرحية مملة ، فانه تهب علىّ من خشبة المسرح نفس رائحة الروتين التى كانت تثير فىّ الملل منذ اربعين عاما مضت ، عندما كانوا يضيفوننى عواء كلاسيكيا ودقا على الصدور . وبعد كل زيارة للمسرح اخرج اكثر محافظة عما كنت عليه عند دخوله .

والجموع العاطفية ، الميالة الى التصديق ، يمكن اقناعها بأن المسرح ، فى صورته الحالية ، هو مدرسة . ولكن الذى يعرف ما هى المدرسة بمعناها الحقيقى ،لايمكن اصطياده بهذا الطعم . ولست ادرى ما الذى سيكون بعد خمسين او مائة سنة ، ولكن المسرح ، فى ظل الظروف الراهنة ، لا يمكن ان يكون الا تسلية . بيد ان هذه التسلية جد مكلفة لكى يواصل المرء تمتعه بها . انها تحرم الدولة من آلاف الرجال والنساء الأصحاء الموهوبين ، الذين لو لم يكرسوا أنفسهم للمسرح لكان من الممكن أن يصبحوا أطباء او زراعا او مدرسات او ضباطا جيدين . وهى تنتزع من الجمهور ساعات المساء ، أفضل وقت للعمل الذهنى ولتبادل الأحاديث الودية . هذا فضلا عن النفقات المالية والخسائر الاخلاقية التى يتكبدها المشاهد ، عندما يرى على المسرح جريمة قتل ، أو زنى أو افتراء ، معللة تعليلا خاطئا .

أما كاتيا فكان لها رأى آخر تماما . كانت تؤكد لى ان المسرح ، حتى فى صورته الراهنة أسمى من قاعات الدراسة ، والكتب ، أسمى من أى شىء فى الوجود . المسرح هو القوة التى تجتمع فيها وحدها جميع الفنون ، أما الممثلون فمبشرون . وليس بوسع أى فن او أى علم أن يؤثر بمفرده فى روح الانسان بتلك

---

* تشاتسكى هو بطل مسرحية «وذو العقل يشقى» الشعرية للأديب الروسى الكسندر جريبويدوف (١٧٩٥-١٨٢٩) . وهى كوميديا هجائية حادة تهاجم الحياة الاقطاعية ومجتمع النبلاء . وكان الشاعر مقربا من اوساط النبلاء الاحرار (الديسمبريين) ونفى سفيرا فى ايران حيث قتل هناك . **المعرب** .

القوة والايجابية التى تؤثر بها خشبة المسرح ، ولهذا فليس من الصدفة ان يحظى الممثل المتوسط القدرات فى البلاد بشعبية اكثر من أعظم عالم أو مصور . وليس بمقدور أى نشاط اجتماعى أن يوفر مثل تلك المتعة والارتياح اللذين يوفرهما النشاط المسرحى .

وذات يوم انضمت كاتيا الى احدى الفرق المسرحية ، ورحلت الى مدينة أوفا على ما اعتقد ، حاملة معها الكثير من النقود ، وما لا يحصى من الأحلام الوردية ، والآراء الارستقراطية حول القضية المسرحية .

وكانت رسائلها الأولى المرسلة من الطريق مدهشة . قرأتها مذهولا ، اذ كيف يمكن أن تتضمن هذه الوريقات الصغيرة كل هذا الصبا والطهارة والسذاجة البريئة ، وفى الوقت نفسه هذه الاحكام الحصيفة المرهفة التى يمكن أن يتشرف بها اى عقل رجالى جيد . لم تصف بل وجّدت الفولجا ، والطبيعة ، والمدن التى زارتها ، وزملاءها ونجاحاتها واخفاقاتها ، وكان كل سطر ينبض بتلك البراءة الطفولية التى اعتدت ان أراها على وجهها . . . وبالرغم من هذا كمية من الاخطاء النحوية ، أما علامات التنقيط فلم يكن لها وجود تقريبا .

ولم يمر نصف سنة حتى تلقيت منها رسالة تطفح اعجابا وشاعرية الى أقصى حد ، تبدأ بكلمتين : «لقد أحببت» . وكانت مع الرسالة صورة لرجل شاب ، بوجه حليق ، وقبعة عريضة الحواف ، وحرام يمر عبر كتفه . أما الرسائل التالية فكانت رائعة كما فى السابق ، ولكن ظهرت فيها علامات التنقيط ، واختفت الاخطاء النحوية ، وفاحت منها بقوة رائحة رجل . وأصبحت كاتيا تكتب لى عن أنه حبذا لو أقيم فى مكان ما فى منطقة الفولجا مسرح كبير ، وعلى أسس المساهمة ليس الا ، مع جذب التجار الأغنياء وأصحاب السفن الى هذا المشروع . . اذن لأمكن جمع مبلغ كبير ، ولكانت الحصيلة ضخمة ، ولعمل الممثلون بنظام المحاصة . . . وربما كان هذا كله بالفعل شيئا جيدا ، الا انه يخيل الىّ ان مثل هذه الأفكار لا تنبع الا من رأس رجل .

ومهما كان هناك فقد مر عام ونصف أو عامان والأمور فيما

يبدو كانت تسير على ما يرام : فقد كانت كاتيـــا تحب ، وتؤمن بقضيتها ، وكانت سعيدة . ولكنى اخذت الاحظ فى الرسائل التالية دلائل واضحة على الانهيار . بدأ ذلك بشكوى كاتيا لى من رفاقها . . وهذا أول واشأم الأعراض . فاذا ما بدأ العالم الشاب او الاديب نشاطه بالشكوى المرة من العلماء او الأدباء ، فهذا يعنـــى أن التعب اصابه وأنه غير صالح للعمل . كتبت كاتيا تقـــول ان زملاءها يتغيبون عن التدريبات ولا يحفظون الأدوار أبدا . وفى اخراج المسرحيات السخيفة وفى طريقة السلوك على خشبة المسرح يتجلى تماما لدى كل منهم عدم الاحترام التـــام للجمهور . ومن أجل الحصيلة ، التى لا يتحدثون الا عنها ، تمتهـــن الممثلات الدراميات كرامتهن الى حد أداء الأغانى المرحة ، أما الممثلـــون التراجيديون فيغنون المنولوجات التى يسخرون فيها من الازواج المغفلين ومن حبل الزوجات الخائنات . . الخ . وعموما فليس امام المرء الا ان يدهش : كيف لم يصب المسرح الريفى بالانهيار حتى الآن ، وكيف يمكن أن يتعلق بهذا الخيط الواهى .

ورددت على كاتيا برسالة طويلة ، والحق أنها كانت مملـة جدا . وكتبت لها فيما كتبت : «كثيرا ما تحدثت مع ممثليـــن عجائز ، من أنبل الناس ، وهبونى ودهـــم . واستطعـــت ان استخلص من كلامهم ان ما يوجه نشاطهم ليس عقلهم وحريتهم الذاتية بقدر ما هى الموضة ومزاج المجتمع . واضطر احسنهم الى التمثيل فى التراجيديات وفى الأوبريتـــات ، وفى المهـــازل الفرنسية والعروض السحرية ، وكان يخيل اليهم دائمـــا وبنفس الدرجة أنهم يسيرون فى الطريق القويـــم ويعودون على الناس بالفائدة . وهكذا ترين أن سبب الداء لا ينبغى البحث عنـــه فى الممثلين ، بل فيما هو أعمق ، أى فى الفن نفسه وفى نظـــرة المجتمع اليه» . ولكن رسالتى هذه لم تفعل الا أن اثارت كاتيا . فردت على : «كل منا يغنى فى واد . انا لم اكتب لك عن الناس النبلاء الذين وهبوك ودهم ، بل عن عصابة من الأفاقين الذيـــن ليس لهم أية علاقة بالنبل . انهم قطيع من المتوحشين الذين لم يرقوا خشبة المسرح الا لأنهم ما كانوا ليقبلون فى اى مكان آخر ، والذين يعتبرون انفسهم ممثلين فقط لأنهم وقحون . ليس بينهم

موهبة واحدة ، بل هناك الكثير من عاطلى المواهب والسكارى والدساسين والنمامين . لا استطيع ان اعبر لك عن مدى ما أحس به من مرارة لان الفن ، الذى احبه كل هذا الحب ، قد وقع فى أيدى اناس أمقتهم . اشعر بالمرارة لأن افضل الناس لا يرون الشر الا من بعيد ولا يريدون الاقتراب اكثر ، وبدلا من أن يتدخلوا يكتبون بعبارة ركيكة كلاما عاما ومواعظ لا حاجة لأحد بها . . .» وهلم جرا وعلى هذا المنوال .

ثم مر بعض الوقت وتسلمت الرسالة التالية : «خدعت بلا رحمة . لا استطيع ان أعيش بعد الآن . تصرف فى مالى كما ترى . اننى احبك كأبى وكصديقى الوحيد . سامحنى» .

واتضح ان صاحبها ينتمى ايضا الى «قطيع المتوحشين» . وفيما بعد استطعت ان اخمن من بعض التلميحات انها حاولت أن تنتحر . يبدو ان كاتيا تناولت السم . ومن المرجح ان حالتها بعد ذلك كانت خطيرة ، لأنى تلقيت الرسالة التالية من يالطا * الى حيث أرسلها الأطباء فى اغلب الظن . وفى آخر رسالة بعثت بها الىّ طلبت ان ارسل اليها فى يالطا ألف روبل بأسرع ما يمكن . وقالت فى ختام الرسالة : «اعذرنى على هذه الرسالة الكئيبة . فبالأمس دفنت طفلى» . وبعد ان امضت فى القرم قرابة عام ، عادت الى البيت .

لقد استمر تجوالها حوالى اربعة اعوام ، وطوال هذه الاعوام الاربعة ، وينبغى ان اعترف ، كان موقفى من كاتيا موقفا غريبا لا احسد عليه . فعندما صرحت لى سابقا بأنها ستعمل ممثلة ، ثم كتبت لى فيما بعد عن حبها ، وعندما كانت روح التبذير تتملكها بين الحين والحين فاضطر من وقت لاخر ، حسب طلبها ، ان ارسل اليها تارة الف روبل وتارة ألفين ، وعندما كتبت لى عن عزمها على الموت ، ثم عن موت طفلها ، كنت فى كل مرة احتار ، وكانت كل مشاركتى فى مصيرها تتجلى فقط فى اننى كنت افكر كثيرا واكتب لها رسائل طويلة ، مملة ، كان من

---

* يالطا مدينة ساحلية فى شبه جزيرة القرم . وهى مركز للعلاج والاستجمام على شاطئ البحر الأسود . **المعرب** .

الممكن الا اكتبها على الاطلاق . هذا بينما كنت بالنسبة لها بمثابة والدها وكنت احبها كابنتي !

والآن تعيش كاتيا على بعد نصف كيلومتر منى . استأجرت شقة من خمس غرف وأثثتها بصورة مريحة الى حد كبير وبذوقها المعهود . ولو حاول أحد ان يرسم صورة لجو شقتها لكان الكسل هو المزاج السائد فى الصورة . فاللجسد الكسول هناك الارائـك اللينة ، والمقاعد اللينة ، وللأرجل الكسولة هناك السجاجيـد ، وللعيون الكسولة هناك الالوان الباهتة الكابية او المطفأة ، وللروح الكسولة — على الجدران وفرة من المراوح الرخيصة والصور الصغيرة التى تطغى فيها الصنعة المبتكرة على المحتوى ، وحشد من الطاولات الصغيرة والأرفف المحملة باشياء لا ضرورة لها البتة ولا قيمـة لها ، وخرق لا شكل لهـا بدلا من الستائر . . . وكل ذلك ، بالاضافة الى الخوف من الألوان الزاهية ومن التناظر والرحابـة ، يدل — بخلاف الكسل الروحى — على تشوه الذوق الطبيعـى . وتستلقى كاتيا أياما بكاملها على الأريكة وتقرأ الكتب ومعظمها من القصص والروايات . ولا تخرج من البيت الا مرة واحدة فى اليوم ، بعد منتصف النهار ، لكى تزورنى .

أنا اعمل ، وكاتيا جالسة على الكنبة غير بعيد عنى صامتـة تتدثر بالشال كأنها مقرورة . ولا يعوقنى حضورها عن التركيز ، ربما لأنها محببة الى نفسى او ربما لأننى تعودت على زياراتهـا الكثيرة وهى بعد صغيرة . وأحيانا اوجه اليها سؤالا بطريقـة آليه ، فتجيب اجابة موجزة جدا . او ، لكى ارتاح قليلا ، التفت نحوها وانظر اليها وهى ، مستغرقة فى التفكير ، تقلب صفحات مجلة طبية ما او جريدة . وعندئذ ألاحظ ان وجهها لم يعد يحمل تعبير البراءة السابق . أصبح الآن باردا ، لامباليا ، شاردا مثل وجوه الركاب الذين يضطرون الى انتظار القطار طويلا . وكما فى السابق ترتدى ثيابا جميلة وبسيطة ، ولكن باهمال ، ويبدو واضحا أن فستانها وتسريحة شعرها يعانيان الكثير من الوسائد والمقاعد الهزازة التى تستلقى عليها أياما بكاملها . ولم يعـد فيها حب الاستطلاع السابق ، ولا توجه الىّ اسئلة ، كأنما جربت كل شيء فى الحياة ولا تنتظر سماع أى جديد .

وفى نهاية الساعة الرابعة تدب الحركة فى الصالة وغرفة الجلوس . انها ليزا قد عادت من الكونسرفاتوار وجاءت معها بصديقاتها . واسمعهن يعزفن على البيانو ويجربن اصواتهن ، ويقهقهن . ويعد يجور المائدة فى غرفة الطعام فيتردد رنين الآنية . وتقول كاتيا :

– وداعا . لن ازور اليوم اسرتك . فليسامحونى . ليس لدى وقت . تعال عندى .

وعندما اودع كاتيا حتى المدخل تتفحصنى من رأسى الى قدمى بصرامة وتقول بأسى :

– كم هزلت ! لماذا لا تتعالج ؟ سأذهب الى سرجى فيودوروفتش وادعوه . فليكشف عليك .

– لا داعى يا كاتيا .

– لا أفهم ماذا تنتظر اسرتك ! حقا ما أحلاهم !

وترتدى معطفها دفعة واحدة . وفى تلك اللحظة لا بد ان يسقط على الأرض من شعرها المصفف باهمال مشبكان او ثلاثة . ويمنعها الكسل وضيق الوقت من تسوية تسريحتها ، فتدس خصلاتها تحت قبعتها كيفما كان وتنصرف .

وعندما ادخل غرفة المائدة تسألنى زوجتى :

– كاتيا التى كانت عندك الآن ؟ لماذا لم تأت الينا ؟ ما أغرب هذا . . .

فتقول لها ليزا مؤنبة :

– ماما ! اذا لم تكن تريد فلا داعى . هل نتوسل اليها راكعين !

– كما تشائين ، ولكن هذا احتقار . تجلس ثلاث ساعات فى غرفة مكتبه ولا تتذكرنا . وعموما ، كما يحلو لها .

فاريا وليزا يكرهان كاتيا . وهذه الكراهية غير مفهومة وربما ينبغى ان تكون امرأة لكى تفهمها . اننى مستعد ان اراهن برأسى على انه من بين المائة والخمسين شابا الذين اراهم كل يوم تقريبا فى قاعتى ، ومن المائة كهل الذين اقابلهم كل اسبوع ، لا يكاد يوجد شخص واحد يستطيع ان يفهم الكراهية والاشمئزاز من ماضى كاتيا ، أى من حملها دون زواج وطفلها غير الشرعى .

وفى الوقت نفسه لا استطيع أن اتذكر امرأة واحدة او فتاة من معارفى لا تكن هذه المشاعر فى نفسها سواء عن وعى أم بالغريزة . وليس هذا راجعا الى ان المرأة أكثر فضيلة وطهرا من الرجل : فالفضيلة والطهر لا يختلفان كثيرا عن الرذيلة اذا لم يكونا منزهين عن المشاعر الشريرة . انما ارجع ذلك فقط الى تخلف المرأة . فالشعور الكئيب بالشفقة وألم الضمير اللذان يكابدهما الرجل المعاصر عندما يرى المأساة ، يشهدان لى بتهذيبه وسموه الاخلاقى ، اكثر بكثير مما تشهد به الكراهية والاشمئزاز . والمرأة المعاصرة ما زالت فياضة الدموع وفظة القلب كما كانت فى العصور الوسطى . وفى اعتقادى ان عين الحكمة هو ما يفعله اولئك الذين ينصحون المرأة بأن تتربى كالرجل .

وزوجتى لا تحب كاتيا ايضا لأنها كانت ممثلة ، ولجحودها ، وتكبرها وشذوذها ، وللعيوب العديدة التى تجيد كل امرأة دائما اكتشافها فى الأخرى .

وبالاضافة الىّ والى افراد اسرتى يتغدى عندنا صديقتان او ثلاث من صديقات ابنتى ، والكسندر أدولفوفتش جنيكّر ، المغرم بليزا والمرشح لطلب يدها . وهو شاب أشقر ، لا يتجاوز الثلاثين ، متوسط القامة ، بدين جدا ، عريض المنكبين ، بسالفين أحمرين قرب اذنيه ، وشوارب مخضبة تضفى على وجهه البدين الناعم تعبيرا يجعله اقرب الى الدمية . وهو يرتدى سترة قصيرة جدا ، وصديريا ملونا ، وسروالا بكاروهات عريضة ، واسعا جدا من اعلى وضيقا جدا من أسفل ، وحذاء أصفر بلا كعب . وعيناه جاحظتان كعينى سرطان البحر ، وربطة عنقه تشبه رقبة السرطان ، بل ويخيل الىّ انه تفوح من هيئة هذا الشاب كلها رائحة حساء سرطان البحر . وهو يتردد علينا يوميا ، ولكن لا يعرف أحد من افراد اسرتى ما هو أصله ، ولا أين درس وبأية موارد يعيش . وهو لا يعزف ولا يغنى ، الا انه على صلة ما بالموسيقى والغناء ، ويبيع فى مكان ما معازف اشخاص ما ، ويتردد كثيرا على الكونسرفتوار ، ومتعرف على جميع المشاهير ، ويشرف على الحفلات . ويتحدث عن الموسيقى بثقة كبيرة ، وكما لاحظت ، يوافقه الجميع عن طيب خاطر .

والاغنياء دائما تجد بقربهم المتعيشين . والعلم والفن كذلك . ويبدو انه لا يوجد فى الدنيا علم او فن يخلو من وجود «أجسام غريبة» مثل جنيكر" هذا . وأنا لست موسيقيا ، وربما اكون مخطئا بخصوص جنيكر الذى فضلا عن ذلك لا اعرفه الا قليلا . غير انه تبدو لى مريبة جدا ثقته وذلك الاعتزاز الذى يقف به بجوار المعزف ويستمع الى من يغني او يعزف .

وحتى لو كنت مائة مرة شخصا مهذبا ومستشارا سريا ، فاذا كانت لك ابنة ، فلن يحميك شيء من ذلك الابتذال الذى كثيرا ما تجلبه المغازلة والخطبة والزفاف الى بيتك وتقحمه على مزاجك . فأنا مثلا لا استطيع ابدا أن اتقبل ذلك التعبير المهيب الذى يظهر على وجه زوجتى فى كل مرة يجلس فيها جنيكّر عندنا ، ولا استطيع ايضا ان اسكت على زجاجات نبيذ الشاتو-لافيت والبورت والشيرى التى تقدم فقط من أجله ، لكى يرى بعينيه كيف نعيش فى بحبوحة ورفاهية . وكذلك لا أطيق ضحك ليزا المبتور الذى تعلمته فى الكونسرفتوار ، وطريقتها فى زر عينيها عندما يكون فى بيتنا رجال . والشيء المهم اننى لا استطيع أبدا أن أفهم لماذا يأتى الىّ كل يوم ويتغدى معى مخلوق غريب تماما عن عاداتى وعلمى ، عن كل طراز حياتى ، ومختلف تماما عن اولئك الناس الذين احبهم . وتهمس زوجتى والخدم بغموض «بأنه العريس» ، ومع ذلك لا أفهم سبب وجوده . وهو يثير فىّ الاستغراب مثلما لو اجلسوا واحدا من قبيلة الزولو ليتغدى على مائدتى . ويبدو لى غريبا ايضا ان ابنتى ، التى تعودت ان اعتبرها طفلة ، تحب رباط العنق هذا ، وهاتين العينين ، وهذين الخدين الناعمين . . .

فيما مضى كنت أحب الغداء او كنت لا أبالى به ، أما الآن فهو لا يثير فىّ الا الملل والنرفزة . فمنذ أن اصبحت صاحب المعالى وتوليت عمادة الكلية ، اعتبرت أسرتى لسبب ما انه لا بد من تغيير قائمة طعامنا ونظام غدائنا تغييرا تاما . وبدلا من تلك الأطباق البسيطة التى الفتها عندما كنت طالبا ثم طبيبا ، اصبحوا يطعمونني الآن حساء بوريه تعوم فيه اشياء كالفتل البيضاء ،

وكلاوى بنبيذ الماديرا . وحرمتنى رتبة الجنرال * والشهرة نهائيا من حساء الكرنب ، والشطائر اللذيذة ، والأوز بالتفاح ، وسمك الابرميس بالعصيدة . كما حرمتانى من الخادمة أجاشا ، تلك العجوز الثرثارة المضحاكة ، والتى حل محلها الآن يجور ، هذا البليد المتعجرف ، بفردة قفازه البيضاء على يده اليمنى . وفترات الاستراحة قصيرة ، ولكنها تبدو طويلة للغاية لأنه ليس لدينا ما نشغلها به . لم يعد هناك المرح السابق والاحاديث التلقائية غير المتكلفة والنكات والضحكات ، والملاطفات المتبادلة ، ولا تلك الفرحة التى كانت تضطرم فى نفوس الاطفال وزوجتى ونفس عندما كنا نجتمع فى غرفة الطعام . كان الغداء بالنسبة لى ، كرجل مشغول ، وقتا للراحة ، ولرؤية الأسرة ، وكان بالنسبة لزوجتى وللأولاد عيدا ، صحيح انه عيد قصير ، ولكنه مشرق وبهيج ، اذ يعرفون اننى ، ولمدة نصف ساعة ، لم اعد ملكا للعلم او للطلبة ، بل ملكا لهم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد . لم تعد هناك تلك القدرة على السكر من كأس واحدة ، لم تعد هناك اجاشا ، ولا الابرميس بالعصيدة ، ولا ذلك الصخب الذى تقابل به حوادث الغداء الصغيرة مثل الشجار بين القطة والكلب تحت الطاولة او سقوط الرباط من على خد كاتيا فى طبق الحساء .

ان وصف الغداء الآن كتناوله ليس لذيذا . فعلى وجه زوجتى ترتسم ملامح مهابة وعظمة متكلفة وتعبير هم مألوف . وتتفحص اطباقنا بقلق وتقول : «أرى أن اللحم المشوى لم يعجبكم . . . لا يعجبكم ، اليس كذلك ؟» وينبغى أن أقول : «لا داعى للقلق يا عزيزتى ، اللحم المشوى لذيذ جدا» . فتقول هى : «انت دائما تناصرنى يا نيقولاى ستيبانيتش ، ولن تقول الحق ابدا . فلماذا لم يأكل الكسندر ادولفوفتش الا قليلا جدا ؟» ، وهلم جرا طوال فترة الغداء كلها . وليزا تضحك ضحكات مبتورة وتزر عينيها . وأنظر اليهما ويتضح لى تماما الآن فقط ، اثناء الغداء ، ان

---

* كان بطل الرواية يحمل لقب «المستشار السرى» الذى كان يعادل فى روسيا القيصرية رتبة الجنرال . **المعرب** .

العالم الداخلى لكلتيهما قد أفلت من انتباهى منذ زمن بعيد . ويراودنى شعور بأننى كنت احيا فى وقت ما فى منزلى مع أسرة حقيقية ، اما الآن فاتغدى فى ضيافة زوجة غير حقيقية ، وأرى ليزا غير حقيقية . لقد حدث لهما تحول حاد ، وغابت عنى تلك العملية الطويلة التى جرى خلالها هذا التحول ، فليس من الغريب اننى لا أفهم شيئا . ما سبب هذا التحول ؟ أنا لا أعرف . ربما تكمن المصيبة كلها فى ان الله لم يهب زوجتى وابنتى تلك القوة التى وهبنى اياها . فمنذ الطفولة اعتدت أن اجابه المؤثرات الخارجية وتمرست بما فيه الكفاية . فالكوارث المعيشية ، مثل الشهرة ورتبة الجنرال والتحول من حياة اليسر الى حياة الانفاق الاكثر من الدخل والتعرف بالمشاهير . . الخ ، لم تكد تؤثر فىّ وبقيت سليما معافى ، أما زوجتى وليزا الضعيفتان ، غير المتمرستين ، فقد انهال ذلك كله عليهما مثل كتلة ثلج هائلة فسحقتهما .

تتحدث الآنسات وجنيكر عن الفوجات والطباق الموسيقى وعن المطربين وعازفى البيانو ، وعن باخ وبرامز ، أما زوجتى ، فخشية أن يرتاب أحد فى جهلها بالموسيقى ، تبتسم بتعاطف معهم وتدمدم : «هذا رائع . . حقا ؟ يا سلام . . .» اما جنيكر فيأكل برصانة ، ويمزح برصانة ويصغى بتعال متسامح الى ملاحظات الآنسات . واحيانا تراوده الرغبة فى التحدث بلغة فرنسية ركيكة ، وعندئذ يجد من الضرورى لسبب ما ان يلقبنى بـVotre excellence* .

أما أنا فأعبس . يبدو اننى اسبب لهم جميعا الحرج . وهم ايضا يحرجوننى . لم تكن تراودنى من قبل ابدا مشاعر العداء الطبقى ، ولكن شيئا من هذا القبيل هو ما يعذبنى الآن . وأحاول أن افتش فى جنيكر عن الملامح السيئة فقط ، وسرعان ما أجدها فيمزقنى الاحساس بان شخصا ليس من مقامى يجلس فى محل خطيب ابنتى . كما يؤثر وجوده فىّ تأثيرا سيئا من ناحية اخرى . ففى العادة عندما أخلو الى نفسى او اتواجد فى صحبة أناس أحبهم ، لا أفكر ابدا فى مآثرى ، وحتى اذا ما بدأت افكر فيها ، فانها تبدو لى ضئيلة ، كأنما لم أصبح عالما الا بالأمس . اما فى صحبة أناس مثل

* ـــ يا صاحب المعالى (بالفرنسية فى الأصل) .

جنيكر فتبدو لى مآثرى جبلا عاليا تختفى قمته فى السحاب ، وعند سفحه يدب امثال جنيكر ولا تكاد العين تلحظهم .

بعد الغداء اذهب الى غرفة مكتبى واشعل هناك غليونى للمرة الوحيدة طوال اليوم ، المرة التى بقيت لى من عادتى السابقة القديمة السيئة فى التدخين من الصباح الى الليل . وبينما ادخن تدخل زوجتى وتجلس لكى تتحدث الىّ . وكما فى الصباح فاننى اعرف سلفا عم سيدور الحديث .

وتبدأ تقول :

– ينبغى ان نتحدث بجدية يا نيقولاى ستيبانتش . اقصد بخصوص ليزا . . . لماذا لا توليها اهتمامك ؟

– يعنى ؟

– انت تتظاهر بأنك لا تلاحظ شيئا ، وهذا عيب . لا يصح ان تكون غير مبال . . . جنيكر عنده نية بخصوص ليزا . .. فماذا تقول ؟

– لا استطيع ان اقول انه شخص سيئ لأننى لا أعرفه . أما انه لا يعجبنى فقد قلت لك هذا ألف مرة .

– ولكن هذا لا يصح . . . لا يصح . . .

وتنهض وتذرع الغرفة بانفعال ثم تقول :

– لا يصح ان تنظر هكذا الى خطوة جادة . . . عندما يجرى الحديث عن سعادة ابنتنا ينبغى أن نطرح جانبا الاشياء الشخصية . . . انا اعرف انه لا يعجبك . . . حسنا . . . اذا رفضناه الآن ، وافسدنا الأمر فهل تضمن ان ليزا لن تشكو منا طوال العمر ؟ ليس العرسان الآن كثيرين ، وقد يحدث الا تسنح لها فرصة أخرى . . . انه يحب ليزا جدا ويبدو انه يعجبها . . . بالطبع ليس لديه مركز واضح ، ولكن ما العمل ؟ ربما استطاع بمشيئة الله ان يجد وظيفة ما . انه من عائلة طيبة وغنى .

– ومن أين عرفت هذا ؟

– هو الذى قال . لدى والده فى خاركوف دار كبيرة وعزبة قرب خاركوف . باختصار يا نيقولاى ستيبانيتش ينبغى عليك حتما ان تسافر الى خاركوف .

– لماذا ؟

– لتتحرى الأمر هناك . . . لديك هناك اساتذة معارف ، سيساعدونك . كان بودى لو سافرت أنا ، ولكننى امـــرأة . لا استطيع . . .

فأقول عابسا :

– لن اذهب الى خاركوف .

تفزع زوجتى ، ويظهر على وجهها تعبير ألم مضن .

وتتوسل الىّ باكية :

– أرجوك يا نيقولاى ستيبانيتش ! أرجوك خفف عنى هذا الحمل ! اننى اتعذب !

واشعر بالألم وانا اتطلع اليها فأقول بلطف :

– حسنا ، يا فاريا ، اذا شئت فسأسافـــر الى خاركوف وسأفعل كل ما تريدين .

وتجفف دموعها بالمنديل وتنصرف الى غرفتها لتبكى . وأبقى وحدى .

وبعد فترة يشعلون الضوء . ومن الفوتيلات وغطاء المصباح ترتمى على الجدران والأرض الظلال التى مللتها منذ زمن بعيد ، وعندما انظر اليها يخيل الىّ ان الليل قد حل وأن أرقى الملعون قد بدأ . اتمدد على السرير ، ثم انهض ، واذرع الغرفة ، ثـــم اتمدد مرة أخرى . . . وعادة يبلغ توترى العصبى قمته بعـــد الغداء وقبيل المساء . وبلا سبب آخذ فى البكاء ، واخفى رأسى تحت الوسادة . واخشى فى هذا الوقت ان يدخل علىّ أحد فجأة ، اخشى ان أموت بغتة ، واخجل من دموعى ، وعموما تجيش روحى بصورة لا تطاق . وأشعر اننى لم أعد أطيق رؤية المصباح او الكتب او الظلال على الأرض ، او سماع الاصوات المتناهية من غرفة الجلوس . وتدفعنى قوة مجهولة ، غريبة بعـــنف الى خارج شقتى . فأقفز ناهضا ، وارتدى معطفى على عجل ، واخرج بحذر حتى لا يلاحظ أحد من أهل البيت . الى أين اذهب ؟

الاجابة على هذا السؤال تقبع فى رأسى منذ وقت طويل : الى كاتيا .

٣

تستلقى كالعادة على كنبة تركية او على أريكة وتقرأ كتابا ما . وعندما تراني ترفع رأسها بكسل وتجلس وتمد لى يدها .

– وأنت دائما مستلقية – أقول بعد صمت قصير واستراحة – هذا مضر بصحتك . هلا وجدت لك عملا !

– هه ؟

– اقول هلا وجدت لك عملا .

– أى عمل ؟ المرأة لا يمكن ان تكون سوى عاملة بسيطة او ممثلة .

– فليكن ! اذا لم يكن من الممكن أن تصبحى عاملة فلتعملى ممثلة .

تصمت .

فأقول بشيء من المزاح :

– تزوجى اذن .

– ليس هناك من اتزوجه . ولا داعى .

– لا يمكن ان تعيشى هكذا .

– بلا زوج ؟ يا للتفاهات ! الرجال ما اكثرهم ، المهم أن تتوفر الرغبة .

– هذا عيب يا كاتيا .

– ما هو العيب ؟

– هو ما قلته الآن .

وعندما تلاحظ كاتيا استيائى ، ورغبة منها فى محو الانطباع السيئ ، تقول :

– هيا بنا . تعال هنا . انظر .

وتقودنى الى غرفة صغيرة ، مريحة للغاية ، وتقول مشيرة الى مكتب :

– انظر . . . اعددته لك . تعمل هنا . تعال كل يوم واحضر معك كتبك وأوراقك . فى المنزل يعوقونك عن العمل . هل ستعمل هنا ؟ هل تريد ؟

ولكى لا احزنها برفضى اقول لها اننى سوف أعمل عندها ، وان الغرفة اعجبتنى جدا . ثم نجلس معا فى الغرفة المريحة ونشرع فى الحديث .

الجو الدافئ المريح ، ووجود شخص لطيف لا يثيران فىّ الآن الاحساس بالرضى كما كان فى الماضى ، بل رغبة قوية فى الشكوى والتذمر . ولسبب ما يبدو لى اننى اذا ما تأففت واشتكيت فسوف أشعر بالراحة .

فأبدأ القول متنهدا :

– الحال سيئة يا عزيزتى ! فى غاية السوء . . .

– ماذا حدث ؟

– اتدرين ما هى المسألة يا صديقتى ؟ ان اعظم وأسمى حقوق الملوك هو حق العفو . وكنت انا دائما اتمتع بهذا الحق دون حدود . لم أصدر حكما على احد ابدا ، وكنت متسامحا ، أغفر ذات اليمين وذات الشمال للجميع عن طيب خاطر . وعندما كان الآخرون يحتجون ويسخطون كنت أنا فقط أنصح واقنع . وكان كل سعيى طوال حياتى ان تكون صحبتى محتملة لأسرتى ولطلبتى ولرفاقى ولخدمى . وانا أعلم ان موقفى هذا من الناس قد ربى كل من جمعتهم الصدف بى . ولكنى الآن لست ملكا . ان ما يحدث لى ليس جديرا الا بالعبيد . ففى رأسى تدور ليل نهار افكار شريرة . اما فى روحى فقد عششت مشاعر لم اكن اعرفها من قبل . فأنا اكره ، واحتقر ، وأسخط وأغضب وأخاف . أصبحت مسرفا فى الصرامة والتشدد والعصبية والجفاء والريبة . وحتى ما كان قبلا يدفعنى الى ان أقول قفشة او أضحك ببشاشة ، أصبح يثير فىّ الآن شعورا ممضا . وتغير فىّ ايضا منطق تفكيرى : من قبل كنت احتقر النقود فقط ، أما الآن فأكن مشاعر البغض لا للنقود ، بل للأغنياء ، كأنما الذنب ذنبهم . ومن قبل كنت امقت القهر والاستبداد ، اما الآن فأمقت الاشخاص الذين يزاولون القهر ، وكأنما هم المذنبون وحدهم ولسنا نحن جميعا الذين لا نعرف كيف نربى بعضنا بعضا . فما معنى هذا ؟ اذا كانت الأفكار والمشاعر الجديدة ناتجة عن تغير المعتقدات ، فمن اين جاء هذا التغير ؟ هل أصبح العالم اسوأ وانا افضل ، ام

أنني كنت سابقا أعمى وغير مبال ؟ واذا كان هذا التحول قد حدث نتيجة تدهور عام للقوى البدنية والذهنية - فانا مريض ، وكلَ يوم ينقص وزني -فان حالتي اذن تعيسة : فمعنى ذلك ان افكاري الجديدة غير طبيعية ، مريضة ، وينبغي علىّ ان اخجل منها واعتبرها تافهة . . .

فتقاطعني كاتيا قائلة :

- ليس للمرض دخل هنا ؛ كل ما هنالك أنك ببساطة فتحت عينيك . لقد رأيت ما لم تكن تريد ان تلاحظه سابقا لسبب ما . في رأيي أنه ينبغي عليك قبل كل شيء ، أن تقطع صلتك بأسرتك وتهجرها .

- دعك من هذا الهراء .

- ولكنك لا تحبهم ، فلم المراءاة؟ وهل هذه أسرة ؟ مخلوقات تافهة ! لو ماتوا اليوم فلن يلحظ غيابهم أحد غدا .

كاتيا تحتقر زوجتي وابنتي بنفس الدرجة التي تكرهانها بها . ومن الصعب ان نتحدث في زماننا هذا عن حق الناس في احتقار بعضهم البعض . ولكن اذا ما تبنينا وجهة نظر كاتيا واعتبرنا هذا الحق قائما ، فسنرى ان لها فعلا الحق في احتقار زوجتي وليزا ، كما لهاتين نفس الحق في كراهيتها .

وتردد كاتيا :

- مخلوقات تافهة ! هل تغديت اليوم ؟ كيف لم ينسوا دعوتك الى الطعام ؟ وكيف لا يزالون يذكرون حتى الآن أنك موجود ؟

فأقول بصرامة :

- كاتيا ، أرجوك أن تسكتي .

- وهل تظن انه يسرني الكلام عنهما ؟ ما كان أسعدني لو كنت لا أعرفهما على الاطلاق . فلتسمع كلامي يا عزيزي : اترك كل شيء وارحل . سافر الى الخارج . وكلما أسرعت بذلك كان أفضل .

- ما هذا الكلام الفارغ ! والجامعة ؟

- والجامعة ايضا اتركها . ما جدواها ؟ انت تحاضر منذ

ثلاثين سنة فأين هم تلامذتك ؟ وهل لديك منهم علماء مشهورون كثيرون ؟ هيا عدّهم ! اما تفريخ هؤلاء الدكاترة الذين يستغلون الجهل ويربحون مئات الآلاف ، فلا يحتاج الى ان تكون شخصا موهوبا وطيبا . انت زائد عن الحاجة .

فأقول مرتاعا :

– يا الهى كم أنت حادة ! كم أنت حادة ! اسكتي والا ذهبت ! انا لا استطيع ان أرد على حدتك !

وتدخل الخادم لتدعونا لتناول الشاى . وبجوار السماور يتبدل مجرى الحديث والحمد لله . وبعد أن نفست عن شكواى تراودنى الرغبة فى اطلاق العنان لهوى آخر من اهواء الشيخوخة : للذكريات . فأحكى لكاتيا عن ماضيّ ، ولدهشتى الشديدة ، اروى لها تفاصيل لم اكن حتى أظن انها باقية فى ذاكرتى . وتصغى هى الىّ بتأثر ، وباعتزاز وبأنفاس مبهورة . واحب بصفة خاصة ان احكى لها عن فترة دراستى فى المدرسة الدينية وكيف كنت احلم بالالتحاق بالجامعة .

واحكى لها :

– كنت احيانا اتجول فى حديقة مدرستنا الدينية . وتحمل الريح من حانة بعيدة صرير اكورديون واغنية ، او تمرق بجوار سور المدرسة عربة ترويكا بأجراس ، فيكفى هذا تماما لكى يغمر القلب فجأة احساس بالسعادة ، وليس القلب فقط ، بل والبطن والساقين واليدين . . . وأسمع الاكورديون او رنين الاجراس المتلاشى فأتصور نفسى طبيبا وأرسم الصور . . كل صورة أبهى من سابقتها . وهاهى احلامى كما ترين ، تحققت . وحصلت على اكثر مما كنت احلم به . كنت طوال ثلاثين عاما استاذا محبوبا ، وكان لى رفاق ممتازون ، وحظيت بشهرة محترمة . أحببت ، وتزوجت عن حب جارف ، وانجبت أولادا . وباختصار ، اذا ما نظرت الى الماضى ، تبدو لى حياتى كلها تشكيلا جميلا صيغ بموهبة . لم يبق لى الآن سوى الا افسد النهاية . ومن اجل ذلك ينبغى ان أموت ميتة انسانية . فاذا كان الموت خطرا بالفعل ، فينبغى اذن ان اواجهه كما يليق بمعلّم وعالم ومواطن دولة مسيحية : بروح عالية ونفس مطمئنة . لكنى أفسد النهاية . اننى

أغرق . واهرع اليك ، طالبا العون ، فتقولين لى : اغرق ، فهذا ما ينبغى ان يكون .

وهنا يدق جرس الباب . ونعرف أنا وكاتيا من القادم فنقول :

— لا بد أنه ميخائيل فيودوروفتش .

وبالفعل يدخل بعد دقيقة زميلى استـــاذ الآداب ميخائيـــل فيودوروفتش ، وهو رجل طويل ، متناسق البنيـــة ، فى حوالى الخمسين ، بشعر ابيض كثيف وحاجبين أسودين ، ووجه حليق . انه رجل طيب وزميل رائع . ويرجع نسبه الى عائلة نبلاء عريقة ، كانت محظوظة جدا وموهوبة ، ولعبت دورا ملحوظا فى تاريـــخ أدبنا وثقافتنا . أما هو فذكى ، موهوب ، ومثقف جدا ، ولكنه لا يخلو من بعض الشذوذ . ونحن جميعا الى حد ما شاذون وغريبو الأطوار ، ولكن شذوذه شىء خارق ويشكل خطورة على معارفه . ومن بين هؤلاء أعرف الكثيرين الذين لا يرون ، بسبب شذوذه ، مزاياه العديدة .

وعندما يدخل الينا يمضى فترة طويلة فى نزع قفازه ، ويقول بصوت مخملى :

— مرحبا . تشربون الشاى ؟ هذا مناسب تماما ، فالبـــرد جهنمى .

ثم يجلس الى المائدة ، ويتناول كوبا ويشرع فى الكلام على الفور . وأهم ما يميز طريقته فى الكلام نبرته المازحة دومـــا ، والتى هى خليط ما من الفلسفة والهـــذر ، مثل حديث حفارى القبور عند شكسبير * . وهو دائما يتحدث عن اشياء جدية ، ولكنه لا يتحدث ابدا بجدية . واحكامه دائما حادة ، سبابية ، ولكن بفضل نبرته الناعمة الهادئة فان حدته وسبابه بشكل ما لا يجرحان السمع ، وسرعان ما يألفهما المرء . وكل مســـاء يأتى معه بخمس او ست نكات من حياة الجامعة ، وعادة ما يبدأ بهـــا عندما يجلس الى المائدة .

— آه يا الهى ! — يقول متنهدا وهو يلعب حاجبيه الاسودين

---

* حفارو القبور فى مسرحية شكسبير «هملت» . **المعرب** .

بسخرية – لم اكن اظن ان فى الدنيا مثل هؤلاء المهرجين !
فتسأله كاتيا :
– ماذا هناك ؟
– كنت خارجا اليوم من المحاضرة ، فقابلت على الدرج هذا الأبله العجوز ، زميلنا (فلان الفلانى) . . . كان يسير كالعادة مادا ذقنه الحصانى الى الأمام ويبحث عمن يمكن ان يشكو له من صداعه وزوجته وطلبته الذين لا يحضرون محاضراته . وقلت لنفسى : يا للمصيبة ، لقد رآنى ، اذن هلكت وضاع كل شيء . . .
وهلمّ جرا وعلى هذا المنوال . وأحيانا يبدأ هكذا :
– حضرت بالأمس المحاضرة العامة التى القاها زميلنا (فلان الفلانى) . اننى مندهش كيف أن alma mater * والطف يا رب من كلام الليل ، تجرؤ على تقديم هؤلاء الحمقى والبلداء المسجلى الماركة امثال فلان الفلانى هذا للجمهور . انه غبى اوروبى ! عفوا ، ولكنك لن تجد له مثيلا لو بحثت فى اوربا كلها بمصباح فى وضح النهار ! تصوروا انه يحاضر وكأنما يمصمص لدائن : صو-صو-صو . . . يتملكه الارتباك ، ولا يميز خطه ، وأفكاره كسيحة تتحرك بسرعة الأرشيمندريت ** الراكب دراجة ، وأهم شيء انك لا تستطيع ان تعرف ماذا يريد أن يقول . ملل فظيع يتساقط منه الذباب . هذا الملل يمكن ان يقارن فقط بذلك الملل الذى يقودنا فى صالة الاحتفالات اثناء الحفل السنوى ، عند القاء الكلمة التقليدية ، عليها اللعنة .
وعلى الفور يتحول حديثه بغتة :
– منذ حوالى ثلاث سنوات ، ونيقولاى ستيبانوفتش يذكره اضطررت الى القاء هذه الكلمة . الجو حار ، خانق والسترة الرسمية تضغط تحت الابطين ، عذاب رهيب ! قرأت نصف ساعة ، وساعة ، وساعة ونصف ، وساعتين . . . ثم قلت

* عن اللاتينية ، ومعناها : الأم المرضعة ، وهى تسمية قديمة يطلقها الخريجون على المدرسة العليا (الجامعة) . **المعرب** .
** الأرشيمندريت : كاهن يلى الأسقف فى المرتبة . **المعرب** .

لنفسى : «حسنا ، الحمد لله ، لم تبق الا عشر صفحات» . وكان فى نهاية الكلمة اربع صفحات يمكن تخطيها تماما ، فقررت ألا اقرأها . وقلت فى نفسى : اذن لم يبق الا ست صفحات فقط . ولكن تصوروا ، نظرت بطرف عينى فرأيت أمامى فى الصف الاول جنرالا بشريط وكاهنا ما ، جالسين متجاورين . تصلّب المسكينان من الملل ، وهما يحملقان بشدة حتى لا يناما ، ومع ذلك يحاولان ان يرسما على وجهيهما الانتباه ، ويتظاهران بأن كلمتى مفهومة لهما وتعجبهما . فقلت فى نفسى : حسنا ، اذا كانت تعجبكما فهاكما ! كيدا فيكما ! وقرأت الصفحات الأربع..

عندما يتكلم لا تبتسم الا عيناه وحاجباه ، مثلما لدى الاشخاص الساخرين عموما . ولا يبدو فى عينيه آنذاك كراهية او غل ، بل الكثير من الفكاهة اللاذعة وذلك المكر الثعلبى الخاص الذى قد تلمسه فقط لدى الاشخاص الدقيقى الملاحظة . واذا ما استطردت فى الحديث عن عينيه فسأذكر ميزة أخرى لاحظتها فيهما . فعندما يتناول من كاتيا الكوب او يصغى الى ملاحظة تقولها ، او يشيعها بنظره عندما تخرج لغرض ما من الغرفة لفترة قصيرة ، فاننى الحظ فى نظرته شيئا وديعا ، متوسلا ، طاهرا . . .

وتحمل الخادم السماور ، وتضع على الطاولة قطعة جبن كبيرة وفواكه وزجاجة من شمبانيا القرم ، وهو نوع سيئ من النبيذ احبته كاتيا عندما اقامت فى القرم . ويأخذ ميخائيل فيودوروفتش من الرف شدتين من ورق اللعب ويشرع فى لعب السوليتير . وحسبما يؤكد فان بعض انواع السوليتير يتطلب فطنة وانتباها كبيرين ، ومع ذلك فلا يكف وهو يرص الورق عن تسلية نفسه بالحديث . وتتابع كاتيا اوراقه بانتباه وتساعده بحركات وجهها اكثر مما بالكلمات . وهى لا تشرب طوال المساء اكثر من كأسى نبيذ ، وأشرب أنا ربع كوب ، أما بقية الزجاجة فتكون من نصيب ميخائيل فيودوروفتش ، الذى يستطيع ان يشرب كثيرا ولا يسكر أبدا .

واثناء لعب السوليتير نقرر مختلف الأمور ، وفى الأساس ما

يتعلق منها بالقضايا السامية . واكثر شيء يصيبه كلامنا هو اكثر شيء نحبه ، أى العلم .

يقول ميخائيل فيودوروفتش بأناة :

— العلم ، ولله الحمد ، فات زمانه . انتهى أجله . نعم . وقد بدأت البشرية تشعر بالحاجة الى أن تستبدل به شيئا آخر . لقد نبت فى تربة التحيز ، وشب على التحيز ، واصبح يشكل الآن خلاصة التحيز ، مثل جداته الباليـــــات : الخيميـــــاء القديمـــة والميتافيزيقا والفلسفة . وبالفعل ، ما الذى قدمه للبشر ؟ ليس هناك الا فرق ضئيل ، ظاهرى فقط ، بين العلماء الاوروبييـــن والعلماء الصينيين الذين ليس لديهم أية علـــــوم . لم يعرف الصينيون العلم ، فما الذى خسروه بذلك ؟

فأقول أنا :

— والذباب ايضا لا يعرف العلم ، فماذا اذن ؟

— لا داعى للغضب يا نيقولاى ستيبانيتش . اننى اتكلـــم هنا فقط ، فيما بيننا . . . أنا اكثر حذرا مما تظن ، ولن أقول ذلك علانية ، اعوذ بالله ! هناك لدى العامة حكم متحيز ، ففى اعتقادهم أن العلم والفن أسمى من الزراعة والتجارة ، أسمى من الحرف . وطائفتنا تعيش من هذا التحيز ولن اكون أنا ، ولا أنت ، من يهدمه . اعوذ بالله !

وخلال السوليتير ينال الشباب ايضا حظه .

— صغـــــرت نفوس جمهورنـــــا حاليا — يقول ميخائيل فيودوروفيتش متنهدا — أنا لا أعنى فقط المثل العليا وخلافه ، ولكن لو أنهم على الأقل كانوا قادرين على العمل والتفكير كمـا يجب ! بالضبط كما قال الشاعر : «اتطلع محزونا الى هـــــذا الجيل» * .

فتوافقه كاتيا :

— نعم ، صغرت نفوسهم جدا . خبرنى ، هل كان لديك فى السنوات الخمس او العشر الأخيرة طالب واحد بارز ؟

---

* الشطر الأول من قصيدة «تامل» للشاعر الروسى الشهير ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤ـ١٨٤١) . **المعرب** .

— لا أدرى كيف الحال عند الاساتذة الآخرين ولكنه لا أذكر احدا لدى .

— أنا رأيت فى حياتى الكثير من الطلبـــة ومن علمائكـــم الشبان ، وكثيرا من الممثلين . . . فماذا ؟ لم يتسن لى أن التقى ليس ببطل او صاحب موهبة فحســـب ، بل حتى بمجرد شخص طريف . كلهم رماديون ، بلا مواهب ، ومحشوون ادعاء . . .

فى كل مرة تترك فىّ هذه الاحاديث عن صغر النفوس انطباعا ، وكأنما سمعت عفوا حديثا سيئا عن ابنتى . ويحنقنى ان الاتهامات لا أساس لها ، وتقوم على احكام عامة مستهلكـــة منذ زمن بعيد وعلى عفاريت مرعبة مثل صغر النفوس وغياب المثل العليا ، أو الاستشهاد بالماضى الجميل . ان أى اتهام ، حتى لو قيل فى صحبة نسائية ، ينبغى ان يكون مصاغا بشكل محدد ما أمكن ، والا فلن يكون اتهاما بل اغتيابا ولغوا لا يليق بأناس فاضلين .

أنا رجل عجوز ، أعمل منذ ثلاثين سنة ، ولكنى لا ألاحظ صغرا فى النفوس او ضياعا للمثل العليا ، ولا اعتبر ان الحال اليوم اسوأ من قبل . وحاجبى نيقولاى ، الذى تعتبر خبرته فى هذا المجال ذات قيمة ، يقول ان طلاب اليوم ليسوا أحسن او اسوأ من السابقين .

ولو سئلت عما لا يعجبنى فى تلاميذى الحاليين لما أجبت الا بعد رويّة ، وبكلمات قليلة ، ولكنها محددة بدرجة كافية . اننى أعرف عيوبهم ولذلك فلا حاجة بى الى الاستعانة بضبابية الأحكام العامة . لا يعجبنى أنهم يدخنـــون ، ويتناولون المشروبـــات الكحولية ، ويتزوجون متأخرا ؛ لا يعجبنى أنهم مهملون ، وفى حالات كثيرة لامبالون الى درجـــة انهم يسكتون على وجود زملاء جوعى بينهم ولا يسددون ديونهم لجمعية مساعدة الطلبة ، وهم لا يعرفون لغات جديدة ويخطئون فى التعبير باللغة الروسية . وأقرب مثال كان بالأمس ، عندما اشتكى لى احد زملائى ، استاذ الوقاية ، من انه يضطر الى مضاعفة وقت المحاضرات لأن معرفتهم بالفيزياء ضعيفة ولا يعرفون اطلاقا علم الأرصاد الجوية . وهم يتأثرون عن طيب خاطر بالأدباء الجدد ، ليس حتى بأفضلهم ، ولكنهم لا يبالون ابدا بالكلاسيكيين امثـــال شكسبير ومرقس

أوريليوس ، وابكتيتس او باسكال * ، وفى عدم القدرة هذا على التمييز بين الكبير والصغير يتجلى بأوضح صورة نقص الخبرة الحياتية لديهم . وكل القضايا الصعبة ذات الطابع الاجتماعى الى هذا الحد او ذاك (مثل قضية الهجرة) يحلونها بجمع التبرعات وليس عن طريق البحث العلمى والتجربة ، رغم ان هذا الطريق فى متناول أيديهم كلية ويتفق تماما ومهامهم وأهدافهم . وهم يقبلون عن طيب خاطر على تولى مناصب الأطباء المقيمين والمعاونين وامناء المعامل والاطباء غير المقيمين ، ومستعدون لشغل هذه الوظائف حتى سن الأربعين ، على الرغم من أن الاستقلالية ، والاحساس بالحرية والمبادرة الذاتية لا تقل غنى فى العلم عنها ، مثلا ، فى الفن او التجارة . أنا لدىّ طلاب ودارسون، ولكن ليس لدىّ معاونون وورثة ، ولذلك فأنا أحبهم وأفرح بهم ولكننى لا أفخر بهم . . الخ ، الخ .

ان مثل هذه النواقص ، ايا كان مقدارها ، لا يمكن أن تولد مزاج التشاؤم او السخط الا فى نفس انسان جبان هيّاب . فكلها ذات طابع عارض ، مرحلى ، وترتبط ارتباطا تاما بالظروف الحياتية . وتكفى مجرد عشر سنوات لكى تختفى ، او لتخلى مكانها لنواقص جديدة أخرى ، لا محيد عنها ، ستخيف بدورها الجبناء . ان نقائص الطلبة كثيرا ما تثير استيائى ، ولكن هذا الاستياء لا يقارن بتلك الفرحة التى اشعر بها طوال ثلاثين عاما عندما اتحدث مع تلاميذى وأحاضرهم ، وأراقب علاقاتهم واقارنهم باشخاص من خارج بيئتهم .

يمضى ميخائيل فيودوروفتش فى اغتيابه ، وكاتيا تصغى اليه، ولا يلاحظان الى أية هوة سحيقة تشدهما شيئا فشيئا مثل هذه التسلية التى تبدو بريئة ، هذا الطعن فى الأقربين . لا يلاحظان

---

* مرقس أوريليوس (١٢١ـ١٨٠) امبراطور رومانى وفيلسوف رواقى له كتاب «افكار» باليونانية يعرض فيه آراءه الرواقية الاخلاقية. وابكتيتس (القرن الاول الميلادى) فيلسوف يونانى رواقى دعا الى الصبر على الشدة . وباسكال بليز (١٦٢٣ـ١٦٦٢) فيلسوف ورياضي وفيزيائي وأديب فرنسي . **المعرب** .

أن حديثهما العادى يتحول تدريجيا الى امتهان وازدراء ، وأنهما ينجران الى استخدام حتى أساليب الافتراء .

يقول ميخائيل فيودوروفتش :

— يا لها من نماذج مضحكـــة قد يصادفها المرء . بالأمس ذهبت الى زميلنـــا يجور بتروفتش فوجدت عنـــده «تلموذا» من تلاميذك ، اظن من الصف الثالث . وجهه يبدو يعنى . . . من طراز دوبرولوبوف * ، وعلى جبينه أثر الفكر العميق . وتحدثنا . قلت له : «هكذا اذن ايها الشاب . لقد قرأت أن احد الالمان — نسيت اسمه — استخرج من المخ البشرى عقارا جديدا هو الكالويد ايديوتين» * * . فماذا تظنان ؟ لقد صدق ، بل رسم على وجهه دلائل الاحترام ، كأنما يريد أن يقول : أرأيت من نحن الأطباء ! ومنذ فترة قريبة ذهبت الى المسرح . جلست . واذا أمامى ، فى الصف التالى يجلس اثنان : احدهما «من عندنا» ، يبدو من طلبة الحقوق ، والآخر أشعث الشعر — من طلبة الطب . وكان طالب الطب ثملا كاسكافى . لا يولى خشبة المسرح ادنى اهتمام ، بل يغط فى النوم ورأسه يسقط . ولكن ما أن يشرع أحد الممثلين فى القاء منولوج بصوت عال ، او بمجرد أن يرفع صوته ، حتى ينتفض صاحبنا الدكتور ويلكز جاره فى جنبـــه ويسأله : «ماذا قال ؟ شيء نبيـــ . . . يل ؟» فيرد عليه الذى من عندنا : «نبيل». فيصرخ الدكتور :«بر . . . رافو ! نبيـــ . . . ـــيل ! برافو !» . لقد جاء هذا المأفون الثمل الى المسرح لا من أجل الفن بل من اجل النبل . حضرته يريد نبلاء» .

بينما كاتيا تصغى وتضحك وضحكهـــا غريب : اذ تتعاقب

---

* نيقولاى دوبرولوبوف (١٨٣٦ــ١٨٦١) أديب وناقد ومفكر من أقطاب الديمقراطيين الثوريين الروس . لعب دورا بارزا فى فضح النظام الاقطاعى القيصرى عبر مقالاته النقديـــة الشهيرة . توفى فى الخامســـة والعشرين من عمره . **المعرب** .

* * الكالويد مركب كيميائى شبـــه قلوى ، أما الايديوتين فشيء لا وجود له ، وانما كلمة ركبها الراوى من كلمة (idiot) وتعنى (الأبله) ومن النهاية التقليدية لأسماء العقاقير الطبية ، وذلك للسخريـــة من الطالب . **المعرب** .

الشهقات والزفرات بسرعة وبايقاع منتظم ، ويبدو وكأنما تعزف على الاكورديون ، ولكن لا يضحك فى وجهها اثناء ذلك ســـوى خياشيمها . أما أنا فأشعر بالخور والقنوط ولا أدرى ماذا أقول . وتفلت أعصابى فأنفجر وأقفز من مكانى صائحا :

– كفى ! اسكتا ! ما لكما تجلسان هنا كضفدعين وتسممان الجو بأنفاسكما ؟ كفى !

ولا انتظر حتى ينتهيا من اغتيابهما فاستعد للانصراف الى البيت . وبالفعل حان الوقت ، فالساعة تدور فى الحادية عشرة .

– أما أنا فسأبقى قليلا – يقول ميخائيل فيودوروفتش – هل تسمحين يا يكاترينا فلاديميروفنا * ؟

فترد كاتيا :

– اسمح .

– Bene ** . فى هذه الحالة أرجو أن تأمرى بتقديم زجاجـة أخرى .

ويرافقاننى بالشموع الى المدخل ، وبينما ارتدى معطفى يقول ميخائيل فيودوروفتش :

– فى الايام الأخيرة هزلت جـــدا وهرمت يا نيقـــولاى ستيبانوفتش . ماذا بك ؟ هل أنت مريض ؟

– نعم ، مريض قليلا .

فتضيف كاتيا عابسة :

– ولا يتعالج . . .

– لماذا لا تتعالج ؟ كيف ذلك ؟ من يصن نفسه ، يا عزيزى، يصنه الله . بلغ تحياتى لآلك وأسفى لعدم زيارتى . قريبـــا ، قبيل سفرى الى الخارج ، سآتى للتوديع . من كل بد ! سأسافر فى الاسبوع القادم .

اخرج من عند كاتيا منزعجا ، مفزوعا من الحديث عن مرضى ، وغير راض عن نفسى . واسأل نفسى : ألا يجب حقا أن اتعالج

---

* كاتيا هو اسم التدليل من يكاترينا . والاستاذ هنا يخاطبها باسمها الكامل واسم أبيها للاحترام ، كما تقتضى تقاليد المخاطبة الروسيـــة . **المعرب** .

** حسنا (باللاتينية فى الأصل) .

لدى أحد زملائى ؟ وعلى الفور اتصور زميلى هذا وهو يتجه الى النافذة فى صمت بعـــد أن يكشــف علىّ ، ويفكر ، ثم يلتفت نحوى ، ويقول بنبرة لامبالية ، وهو يحرص الا اقرأ الحقيقة على وجهه : «حتى الآن لا أرى شيئـــا ذا بال . ومع ذلك يا زميلى ، أنصحك أن تتوقف عن التدريس . . .» . وستسلبنـــى هذه الكلمات آخر أمل لدىّ .

وهل هنـــاك من يعيش بلا أمل ؟ والآن ، عندما أقوم أنا بتشخيص مرضى وعلاج نفسى بنفسى يراودنى الأمل احيانا بـــأن يكون جهلى قد خدعنى ، وبأننى مخطئ بخصوص السكر والزلال اللذين أجدهما فى جسمى ، وبخصوص القلب ، وتلك الانتفاخات التى لاحظتها عندى مرتين فى الصباح . وعندما أعيد قراءة كتب الطب الباطنى باجتهاد الموسوسين وأغير انواع الأدوية كل يوم يخيل الىّ دائما اننى سأتوصل الى شيء ما مطمئن . ما أتفه هذا كله .

وسواء كانت السماء ملبدة بالغيوم ام يتلألأ القمر والنجـــوم على صفحتها فاننى ، اذ اتطلع اليهـــا فى كل مرة وانا عائد الى البيت ، افكر فى ان الموت قريبا سيدركنى . ومن المفروض اذن ان تكون افكارى فى هذه اللحظة عميقة كالسماء ، وساطعة ومذهلة . . . ولكن لا ! اننى أفكر فى نفسى ، وفى زوجتى ، وفى ليزا ، وفى جنيكر ، وفى الطلبة ، وعموما فى الناس . . افكر بنية سيئة ، بضحالة ، بمكر بينى وبين نفسى ، وفى هذه الحالة يمكن التعبير عن وجهة نظرى بكلمات ذكرها اراكتشييف * الشهير فى احدى رسائلـــه الشخصية : «الطيب فى الدنيا لا يمكن ان يوجد بدون السيىء ، والسيىء دائمـــا اكثر من الطيب» . أى ان كل شيء مقيت ، ولا معنى للحياة ، أما السنوات الاثنتان والستون التى عشتهـــا فينبغى اعتبارها ضائعة . وانتبه الى نفسى فأحاول ان اقنعها بأن

---

* اليكسى اراكتشييف (١٧٦٩ــ١٨٣٤) جنرال وشخصية كبيرة فى بلاط القيصر الكسندر الاول . يرتبط اسمه بالارهاب البوليسى والقـــوة الغاشمة . تولى وزارة الحربية ثم رئاسة ادارة الشئون الحربية فى مجلس الدولة . **المعرب** .

هذه الأفكار عارضة ، وموقتة ، وليست عميقة الجذور ، فاذا بى افكر على الفور :

«اذا كان الامر كذلك فلماذا أجد لدىّ ميلا للذهاب كل مساء الى هذين الضفدعين ؟»

وأقطع على نفسى عهدا بألا اذهب بعد الآن الى كاتيا ابدا ، رغم علمى بأننى حتما سأذهب اليها غدا من جديد .

وبينما أقرع جرس بيتى ، ثم اثناء صعودى الدرج أشعر بأنه ليس لدى أسرة بالفعل ، وليس هناك رغبة فى استعادتها . من الواضح أن الافكار الاراكتشييفية الجديدة ليست عارضة ولا موقتة بل تتملك كيانى كله . واستلقى فى السرير معذب الضمير ، مكتئب الفؤاد ، كسولا ، لا أكاد احرك أطرافى ، وكأنما ازداد وزنى ألف بود * وسرعان ما أنام .

ثم يأتى الأرق . . .

٤

يحل الصيف ، فتتغير الحياة .

تدخل علىّ ليزا ذات صباح وتقول بلهجة مازحة :

— هيا يا صاحب المعالى . كل شىء جاهز .

ويسحبون معالىّ الى الخارج ، ويجلسونه فى عربة ، ويرحلون به . ليس لدىّ ما افعله اثناء الطريق فأقرأ اللافتات بالعكس ، من اليمين الى الشمال . تتحول كلمة «تراكتير» * * الى «ريتكارت» . هذه الكلمة يمكن ان تصلح اسم عائلة لاحدى البارونات : البارونة ريتكارت . ثم أمر عبر حقل ، بجوار مقبرة لا تترك فى نفسى أى أثر بالرغم من اننى سوف استقر فيها قريبا . ثم أعبر غابة ثم حقلا مرة أخرى . ليس هناك شىء شيق . وبعد سفر ساعتين يسحبون معالىّ الى الطابق الارضى فى دار ريفية ، ويسكنونه فى غرفة غير كبيرة ، بهيجة جدا ، بورق جدران أزرق فاتح .

---

* البود — وحدة وزن روسية تساوى ١٦,٣٨ كيلوجرام . **المعرب** .

* * تعنى بالروسية : حانة . **المعرب** .

فى الليل اكابد الأرق كما فى السابق ، ولكنى فى الصباح لا أنهض ولا أسمع حديث زوجتى ، بل ارقد فى السرير . لا أنـــام ولكنىَ اشعر بحالة نعاس وشبه غيبوية ، عندما تعرف انك لست نائما ولكنك ترى احلاما . وفى منتصف النهـــار أنهض ، واجلس بحكم العادة الى المكتب ، ولكنى لا أعمل بل أسلى نفسى بكتـــب فرنسية فى أغلفة صفراء ترسلها الىّ كاتيا . من الناحية الوطنية كان من المفروض بالطبع ان اقرأ لمؤلفين روس ، الا اننى ، فى الحقيقة ، لا أجد ميلا الى قراءة أعمالهم . فالأدب الراهن كلـــه ، باستثناء أديبين عجوزين او ثلاثة ، لا يبدو لى أدبا ، بل ضربا من الحرف اليدوية ، يوجد فقط لكى يلقى التشجيع دونما اقبال على استخدام منتجاته . فأفضل منتجات الحرف اليدوية لا يمكن اعتبارها رائعة ولا يمكن ابداء الاعجاب الصادق بها دون «لكن» . وهذا ما ينطبق على كل الأعمال الأدبية الجديدة التى قرأتها فى السنـــوات العشر او الخمس عشرة الأخيرة : فليس فيها عمل واحد رائـــع ولا تستطيع ان تذكرها دون «لكن» : فهى اما ذكية وسامية ولكن غير موهوبة ، واما موهوبة وسامية ولكن غير ذكية ، واما موهوبة وذكية ولكن غير سامية .

ولا استطيع ان اقول ان الكتب الفرنسية موهوبة وذكيـــة وسامية . فهى ايضا لا تنال رضاى . ولكنها ليست مملة كالكتب الروسية . ولا يندر ان تجد فيها عنصر الابداع الرئيسى ، والذى يفتقده الكتاب الروس ، الا وهو الاحساس بالحرية الذاتية . ولا اذكر كتابا روسيا حديثا واحدا لم يسع مؤلفه ، من الصفحات الأولى ، الى تكبيل نفسه بشتى الاصطلاحات والقيود والصفقات التى يعقدها مع ضميره . فأحدهم يخشى ان يتحدث عن الجسد العارى ، والآخر قد أوثق يديه وقدميه بالتحليل النفسى ، والثالث بحاجة الى «نظرة حانية الى الانسان» ، والرابع يسود صفحات كاملة عن عمد بوصف الطبيعة حتى لا يتهم بالتحيز . . . أحدهم يريد ان يكون حتما فى مؤلفاته برجوازيا صغيرا ، والآخر حتما من النبلاء . . الـــخ ، التعمد ، والحذر ، والدهاء ، ولكن ليس هناك حرية وشجاعة ان تكتب عما تريد واذن فليس هناك ابداع .

كل ذلك ينطبق على ما يسمى بالآداب الجميلة .

اما فيما يخص المقالات الروسية الجدية ، مثلا فى مجال السوسيولوجيا او الفنون او غيرهما ، فاننى لا أقرأها فقط لشعورى بالهيبة . ففى طفولتى وصباى كنت أشعر لسبب ما بالخوف من السعاة وحجاب المسارح ، وظل هذا الخوف يلازمنى حتى الآن . ما زلت اخاف منهم الى هذه اللحظة . يقال ان ما يبدو مخيفا هو فقط ما ليس مفهوما . وبالفعل فمن الصعب جدا ان تفهم لماذا يبدو السعاة والحجاب بهذه الأهمية ، والعجرفة وقلة الأدب المهيبة . وعندما اقرأ هذه المقالات الجدية اشعر بالضبط بمثل هذا الخوف الغامض . فالاهمية الفائقة واللهجة الجنرالية المداعبة ، والتعامل بلا كلفة مع المؤلفين الاجانب ، والقدرة على اللت والعجن بوقار . . كل ذلك بالنسبة لى غير مفهوم ومخيف ، ولا يشبه ذلك التواضع واللهجة الهادئة المهذبة التى تعودت عليها فى قراءاتى لأطبائنا الكتاب والباحثين فى العلوم الطبيعية . وليس صعبا علىّ ان اقرأ المقالات فحسب ، بل والتراجم التى يقوم بها او يحررها اشخاص روس جادون . فاللهجة المتغطرسة المتفضلة للمقدمات ، وفيض ملاحظات المترجم التى تعوقنى عن التركيز ، وعلامات الاستفهام و sic * الموضوعة بين اقواس ، والمبعثرة من قبل المترجم السخى على امتداد المقالة او الكتاب ، تبدو لى اعتداء على شخصية المؤلف وعلى استقلاليتى كقارىء .

ذات مرة استدعيت كخبير الى احدى المحاكم الاقليمية . وفى فترة الاستراحة لفت احد زملائى الخبراء انتباهى الى خشونة معاملة وكيل النيابة للمتهمين الذين كانت بينهم امرأتان مثقفتان . واعتقد اننى لم أبالغ ابدا عندما أجبت زميلى بأن هذه المعاملة ليست اكثر خشونة من معاملة كاتبى المقالات الجدية بعضهم بعضا . وبالفعل فان هذه المعاملة من الخشونة بحيث لا استطيع التحدث عنها دون ان اشعر بالانقباض . فهم يعاملون بعضهم بعضا او اولئك الكتاب الذين ينتقدونهم اما باحترام مبالغ فيه ، دون مراعاة لكرامتهم الشخصية ، او بالعكس ،

---

* علامة لاتينية تشير الى ان الكلمة او الجملة التى تسبقها منقولة كما وردت دون تعديل . **المعرب** .

يحتقرونهم باجرأ مما احتقر انا فى هذه المذكرات والافكار صهرى المقبل جنيكر . فالاتهامات باللامسئولية وبسوء النية ، بل وحتى بمختلَف الجرائم الجنائية تشكل الزينة الرئيسية للمقالات الجادة . وهذه هى ال ultima ratio * كما يهوى الاطباء الشبان ان يكتبوا فى مقالاتهم . ان مثل هذه المعاملة لا بد حتما ان تنعكس على اخلاق الجيل الجديد من الكتاب ، ولذلك فأنا لا أدهش أبدا من ان أبطال الكتب الجديدة لآدابنا الجميلة والتى ظهرت فى السنوات العشر او الخمس عشرة الاخيرة يشربون الفودكا بكميات كبيرة ، أما البطلات فلسن عفيفات بدرجة كافية .

اقرأ الكتب الفرنسية واتطلع من حين لآخر الى النافذة المفتوحة . وأرى عوارض سور الحديقة المسننة ، وشجرتين هزيلتين او ثلاث ، ومن وراء الحديقة أرى الطريق والحقل ، ثم شريطا عريضا من غابة صنوبر . وكثيرا ما أتأمل باعجاب كيف يتسلق سور الحديقة صبى وصبية ، وكلاهما اشقر الشعر ، ممزق الثياب ، ويضحكان من صلعتى . واقرأ فى عيونهما البراقة «اصعد يا أجلح» ** . وربما كان هذان الطفلان الشخصين الوحيدين فى العالم اللذين لا تهمهما فى شىء شهرتى او رتبتى .

الآن لا يتردد علىّ الزوار كل يوم . ولن اشير هنا الا الى زيارات نيقولاى وبيوتر اجناتيفتش . يحضر نيقولاى الىّ فى الاعياد عادة ، كأنما لأمر ما ، ولكن اساسا لكى يرانى . يأتى بادى السكر ، الأمر الذى لا يحدث له أبدا فى الشتاء .

واخرج لملاقاته فى المدخل واسأله :

– ماذا وراءك ؟

فيقول واضعا يده على قلبه وهو ينظر الىّ باعجاب العشاق :

– يا صاحب المعالى ! يا صاحب المعالى ! فليعاقبنى الله !

---

* الحجة الأخيرة (باللاتينية فى الاصل) .

** «اصعد يا أجلح» – عبارة هزأ بها اطفال بنى اسرائيل من النبى اليشاع ، كما ورد فى التوراة (سفر الملوك الرابع – الفصل الثانى ، السورة ٢٣) . **المعرب** .

فلتنزل عليّ صاعقة حالا ! جاوداموس ايجيتور يوفينستوس * !
ويقبل بنهم كتفي وكميّ وأزراري .
فأسأله :
– هل كل شيء على ما يرام عندنا هناك ؟
– يا صاحب المعالي ! الله شاهد على ما أقول . . .
ولا يكف عن ترديد الأقسام دون داع ، وسرعان ما يضجرني فأرسله الى المطبخ ، حيث يقدمون له الغداء . أما بيوتر اجناتيفتش فيحضر اليّ في الأعياد ايضا ، خصيصا لكي يراني ويتبادل معي الآراء . وعادة ما يجلس بجوار مكتبي ، متواضعا ، نظيفا ، عاقلا ، لا يجرؤ على وضع ساق على ساق او الاعتماد على المكتب . ويحكي لي طوال الوقت بصوت خافت هادئ ، وباسلوب ناعم ، كتبي ، اخبارا متنوعة ، طريفة جدا ومثيرة في رأيه ، استقاها من الكتب والمجلات . وكل هذه الأخبار متشابهة وعلى الطراز التالي : توصل عالم فرنسي الى اكتشاف ، ولكن عالما آخر – ألمانيا – كشف غشه واثبت ان هذا الاكتشاف قد توصل اليه أحد الامريكيين منذ عام ١٨٧٠ ، اما العالم الثالث – وهو ايضا ألماني – فقد فاق الاثنين في المكر فأثبت لهما انهما معا قد وقعا ضحية غفلتهما ، اذ ظنا كرات الهواء تحت المجهر صبغة داكنة . وحتى عندما يريد بيوتر اجناتيفتش أن يضحكني فانه يتحدث طويلا وبرصانة كأنما يناقش رسالة دكتوراة ، مع ذكر مفصل للمصادر التي استعان بها ، ويحاول الا يخطئ في تواريخ او ارقام اعداد المجلات او في الاسماء ، ولا يقول مثلا : (بتي) ببساطة بل لا بد ان يقول : جان جاك بتي ** . ويبقى احيانا للغداء ، وعندئذ يروى طوال الغداء نفس الحكايات المثيرة التي تجلب الكآبة لكل الجالسين الى المائدة . فاذا تطرقت ليزا

---

* تحريف لمطلع نشيد الطلاب باللاتينية Gaudeamus igitur, juvenes dum sumus – (سوف نمرح ما دمنا شبابا) .

** لا توجد شخصية تاريخية معروفة بهذا الاسم . ويبدو أن تشيخوف قصد جان مارتر بيتي (١٧٧٢–١٨٥٦) وهو جنرال وشخصية سياسية في فرنسا ، او جاك لويس بيتي (١٦٧٤–١٧٥٠) وهو جراح فرنسي . **المعرب** .

وجنيكر الى الحديث فى حضرته عن الفوجات والطباق الموسيقى او عن برامز وباخ فانه يرخى طرفه بتواضع ويشعر بالحرج ، فهو يخجل من انهم يتحدثون فى حضرة اناس جادين ، مثلى ومثله ، عن مثل هذه السخافات .

وفى حالتى المزاجية الراهنة تكفى خمس دقائق لكى يضجرنى الى درجة يخيل الىّ فيها اننى أراه واسمعه منذ دهر طويل . اننى أمقت هذا المسكن . أشعر بالمرض من نبرة صوته الخافتـــة الهادئة ولغته الكتبية ، وتصيبنى حكاياته بالتبلد . . . انه يكنّ لى أطيب المشاعر ، ويتحدث معى فقط لكى يدخـــل على نفسى المتعة ، بينما أجازيه أنا بأن احدق فيه مباشرة ، وكأنما أريد أن أنومه مغناطيسيا ، واقول فى نفسى : «اذهـــب ، اذهب ، اذهب . . .» ، لكنه لا يستجيب للايحاء ويظل جالسا ، جالسا ، جالسا . . .

وطوال بقائه عندى لا استطيع ان اتخلص من هذه الفكرة : «من الجائز جدا ، بعد أن اموت ، ان يعينوه فى مكانى» فتتبدى لى قاعة محاضراتى المسكينة مثل واحة جف نبعها ، فأصبح فى معاملتى له جافا ، صموتا ، عابسا ، كأنما هو ، ولست أنا ، المذنب فى هذه الافكار . وعندما يبدأ فى تمجيد العلماء الألمان لا أعود اسخر منه ببشاشة كما فى الماضى ، بل ادمدم بعبوس:

— ألمانك هؤلاء حمير . . .

ويبدو هذا شبيها بما حدث مع المرحوم الاستاذ نيكيتـــا كريلوف * عندما كان يستحم ذات مرة فى ريفيل مع بيروجوف ، وأغضبه ان المياه كانت شديدة البرودة فسب قائلا : «يا للألمان الأوغاد !» . ومسلكى مع بيوتر اجناتيفتش سىء ، وعندما ينصرف وأرى من خلال النافذة قبعته الرمادية تلوح وراء الحديقة ، عندها فقط أود أن أناديه لأقول له : «سامحنى يا عزيزى !» .

والغداء الآن اكثر مللا منه فى الشتاء . نفس جنيكر ، الذى امقته الآن واحتقره ، يتغدى عندى كل يوم تقريبا . فى السابق

---

* نيكيتا كريلوف (١٨٠٧ــ١٨٧٩) كان استاذا للقانون الرومانى بجامعة موسكو . **المعرب** .

كنت اصبر على وجوده فى صمت ، أما الآن فأوجه اليه تعليقات لاذعة تجعل زوجتى وليزا تحمران خجلا . وانساق مع المشاعر الشريرة فأتفوه كثيرا بمجرد حماقات ولا أدرى لماذا أقولها . وهكذا فقد حدث ذات مرة ان ظللت مدة طويلة انظر باحتقار الى جنيكر ، وبلا أى مبرر اندفعت قائلا :

قد تهبط الصقور مهبطا أدنى من الدجاج
ومستحيل ان يحلق الدجاج فوق عالى السحاب . . .

ولكن المحنق فى كل هذا أن جنيكر الدجاجة يظهر اذكى كثيرا من الأستاذ الصقر . ولما كان يعلم ان زوجتى وابنتى تقفان فى صفه فانه يتبع الاسلوب التالى : يرد على تعليقاتى اللاذعة بصمت متسامح (كأنما يريد أن يقول : «لقد خرف العجوز فما جدوى الحديث معه ؟») او يسخر منى ببشاشة . ومن المثير للدهشة ان ترى الى اى درك يمكن للانسان ان ينحط ! ففى استطاعتى طوال فترة الغداء كلها ان أحلم بأن يفتضح جنيكر كشخص أفاق ، وبان تدرك ليزا وزوجتى خطأهما وعندئذ أغيظهما . . . تراودنى هذه الأحلام الحمقاء فى الوقت الذى اقف فيه باحدى قدمى فى القبر !

وتقع الآن حوادث سوء تفاهم ، لم تكن لدىّ عنها فكرة من قبل سوى بالسماع . ومهما كان خجلى فسأصف هنا واحدة منها وقعت منذ ايام بعد الغداء .

كنت جالسا فى غرفتى ادخن الغليون . واذا بزوجتى تدخل كالعادة وتجلس ، وتشرع فى الحديث قائلة انه حبذا لو سافرت الى خاركوف الآن ، طالما الجو دافىء ولدىّ وقت فراغ ، لكى اعرف هناك حقيقة جنيكر .

فأوافقها :

– حسنا ، سأسافر . . .

وتنهض زوجتى ، راضية عنى ، وتمضى الى الباب ، ولكنها تعود على الفور وتقول :

– وبالمناسبة لى رجاء آخر . انا اعرف أنك ستغضب ، ولكن من واجبى أن احذرك . . . لا تؤاخذنى يا نيقولاى

ستيبانيتش ، ولكن جميع معارفنا وجيراننا بدأوا يثرثرون بأنك تتردد كثيرا جدا على كاتيا . انها ذكية ، مثقفة ، لا شك فى هذا ، ومن الممتع قضاء الوقت معها ، ولكن من الغريب ، يعنـــى ، بالنسبـــة لرجل فى سنك وفى مثل مركزك ان يجد متعة فى صحبتها . . . وعلاوة على ذلك فسمعتها يعنى . . . فجأة يغيض الدم كله من دماغى ، ويتطاير الشرر من عينى ، فأقفز واقفا ، وأمسك رأسى بيدى ، وأدق بقدمى ، وأصيح بصوت غير طبيعى :

– دعونى ! دعونى ! دعونى !

ويبدو ان وجهى فظيع وصوتى غريب اذ ان زوجتى تشحب فجأة ، وتصرخ عاليا بصوت يائس ، غير طبيعى ايضا . ويندفع الى الغرفة ، على صراخنا ، ليزا وجنيكر ، ثم يجور . . .

وأصيح أنا :

– دعونى ! اخرجوا من هنا ! دعونى !

تتخدر ساقاى فكأنما لا وجود لهما ، وأشعر بنفسى وأنـا اسقط على ذراعى شخص ما ، ثم اسمع لفترة قصيـــرة بكاء ، وأغيب فى اغماءة تستمر ساعتين او ثلاث .

والآن فلأتحدث عن كاتيا . انها تزورنى يوميا قبيل المساء ، ولا يمكن ألا يلاحظ ذلك بالطبع جيراننا ومعارفنا . تأتى للحظة ، وتأخذنى معها للتريض . فلديها فرسها الخاصة وعجلة جديدة اشترتها هذا الصيف . وعموما فهى تعيش عن سعة : فقـــد استأجرت دارا ريفية كالقصر ، بحديقة كبيرة ، ونقلت اليها كل اثاث شقتها فى المدينة ، ولديها خادمان وحوذى . . . وكثيرا ما أسألها :

– كاتيا ، من أين ستنفقين بعد ان تبددى كل نقود أبيك ؟

فتجيب :

– عندها سنرى .

– هذه النقود يا صاحبتى تستحق منك معاملة اكثر جدية . لقد كسبها انسان طيب من عمل شريف .

– سبق ان قلت لى ذلك . اننى اعرف .

فى البداية تمضى بنا العجلة عبر الحقل ، ثم عبر غابة الصنوبر التى تلوح من نافذتى . وكما فى السابق تبدو لى الطبيعة رائعة ،

رغم ان الشيطان يهمس فىاذنى بأن كل هذه الصنوبرات والشوح والطيور والسحب البيضاء فى السماء بعد ثلاثة او أربعة شهور ، عندما أموت ، لن تلاحظ غيابى . ويروق لكاتيا أن تسوق الفرس ، ويسرها ان الجو جميل وانني اجلس بجوارها . معنوياتها مرتفعة فلا تتفوه بأشياء حادة .

وتقول لى :

– أنت انسان طيب جدا يا نيقولاى ستيبانيتش . انت نموذج نادر ، ولا يوجد ممثل يستطيع أن يقدمك على المسرح . أنا ، او ميخائيل فيودوروفتش مثلا ، يستطيع ان يقدمنا حتى الممثل السيئ ، أما انت فلا أحد . أنا احسدك ، أحسدك الى درجة رهيبة ! فماذا أكون انا ؟ ماذا ؟

وتفكر دقيقة ثم تسألنى :

– نيقولاى ستيبانيتش ، هل أنا ظاهرة سلبية ؟ نعم ؟

فأجيبها :

– نعم .

– هم . . . وما العمل اذن ؟

بم اجيبها ؟ من السهل ان تقول : «اعملى» او «وزعى ممتلكاتك على الفقراء» أو «اعرفى نفسك» ولأنه من السهل قول ذلك فلا أعرف بم اجيبها .

ان زملائى ، الاطباء الباطنيين ، عندما يعلمون الطلبة العلاج ، ينصحونهم بأن «يتناولوا كل حالة على انفراد» . وينبغى ان تتبع هذه النصيحة لكى تقتنع بأن الوسائل التى تقترحها الكتب الدراسية باعتبارها افضل الوسائل وانسبها للحالات العامة ، تصبح غير مناسبة تماما فى الحالات المنفردة . وينطبق هذا ايضا على الأمراض المعنوية .

بيد أنه لا بد أن اجيب بشىء ما فأقول :

– ان لديك يا صاحبتى وقت فراغ كثيرا . ومن الضرورى ان تشغلى نفسك بشىء . وبالفعل لماذا لا تعودين ثانية الى التمثيل طالما لديك الدافع ؟

– لا أستطيع .

– ان لهجتك وطريقتك توحيان وكأنما انت ضحية . هذا

لا يعجبنى يا صاحبتى . أنت المذنبة . وفلتتذكرى . . لقد بدأت بأن غضبت من الناس والأوضاع ، ولكنك لم تفعلى شيئا لكــى يصبح هؤلاء واولئك أفضل . انت لم تقاومى الشر بينما أدركك التعب ، فأنت لست ضحية الكفاح بل ضحية عجزك . بالطبع كنت آنذاك صبية ، قليلة التجربة ، أما الآن فكل شيء يمكن أن يجرى بصورة أخرى . حقــا ، عودى الى التمثيـــل ! واذن ستكدين ، وسوف تخدمين الفن المقدس . . .

فتقاطعنى كاتيا :

– دعك من المكر يا نيقولاى ستيبانيتش . هيا نتفق اتفاقا لا رجعة فيه : فلنتحدث عن الممثلين ، والممثلات ، والكتاب ، ولكن فلندع الفن وشأنه . انت انسان رائع ، نادر ، ولكنك لا تفهم الفن بالدرجة التى تجعلك تعتبره باخلاص شيئا مقدسا . فليس لديك حس فنى او تذوق . لقد كنت طوال حياتك مشغولا ولم يكن لديك وقت لاكتساب هذا الحس . وعموما . . . أنا لا أحب هذه الأحاديث عن الفن ! – وتستطرد بعصبية – لا أحبها ! كلا ، أشكركم ، فقد ابتذلتموه بما يكفى !

– من الذى ابتذله ؟

– اولئك – ابتذلوه بالسكر ، والجرائد – بالمعاملة دون كلفة ، والاشخاص الاذكياء – بالفلسفة .

– لا دخل للفلسفة هنا .

– بل لها دخل . فاذا ما تفلسف احد ما فمعنى ذلك أنــه لا يفهم .

وحتى لا تصل الأمور الى العبارات الحادة أسارع بتغييــــر مجرى الحديث ، ثم اصمت بعد ذلك طويلا . وفقط عندما نغادر الغابة ونتجه الى دار كاتيا اخرج عن صمتى واعود الى الحديـث السابق فأسألها :

– ومع ذلك لم تردى على سؤالى : لماذا لا تعوديـــن الى التمثيل ؟

فتهتف ويتضرج وجهها كله فجأة :

– هذه ، فى النهاية ، قسوة منك يا نيقولاى ستيبانيتش ! أتريد أن اقول لك الحقيقة علانية ؟ تفضل ، اذا كان هذا . . .

اذا كان هذا يعجبك ! أنا لست موهوبة ! لست موهوبة و . . . وعندى الكثير من الغرور ! نعم !

واذ تدلى بهذا الاعتراف تحول وجهها عنى ، وتجذب اللجام بقوة لكى تخفى رعشة يديها .

عندما نقترب من دارها نرى من بعيد ميخائيل فيودوروفتش وهو يتمشى قرب البوابة وينتظرنا بنفاد صبر .

فتقول كاتيا بضيق :

– مرة اخرى هذا الميخائيل فيودروفيتش ! ابعده عنـــى أرجوك ! مللته . . لقد استهلك . . . ليغرب عنى !

منذ مدة طويلة وميخائيل فيودوروفتش ينوى السفـــر الى الخارج ، ولكنه كل اسبوع يؤجل سفره . وفى الآونة الأخيرة طرأت عليه بعض التحولات : فقد هزل نوعا ما ، وأصبح يثمل من الخمر ، الأمر الذى لم يكن يحدث له ابدا من قبل ، وبدأ حاجباه الأسودان يشيبان . وعندما تتوقف عجلتنا أمام البوابة لا يخفى فرحته ونفاد صبره . ويساعد كاتيا ويساعدنى على النزول من العجلة فى اضطراب ، ويتعجل فى توجيه الأسئلة ، ويضحك ، ويفرك راحتيه ، أما ذلك التعبير الوديع ، الضـــارع ، الطاهر ، الذى كنت ألاحظه من قبل فى نظرته فقط ، فقد أصبح الآن يغمر وجهه كله . وهو يفرح وفى الوقت نفسه يخجل من فرحه ، يخجل من عادته هذه فى التردد على كاتيا كل مساء ، ويجد من الضرورى ان يبرر مجيئه بحجة ما بادية التهافت مثل : «كنت مارا من هنا فى أمر ما فقلت لنفسى فلأعرج عليك لدقيقة» .

نتوجه ثلاثتنا الى الداخل . وفى البداية نشرب الشاى ، ثـــم تظهر على الطاولة شدتا ورق اللعب المعروفتان لى منذ زمـــن بعيد ، وقطعة الجبن الكبيرة ، والفواكه . وزجاجة شمبانيا القرم . ومواضيع احاديثنا ليست جديدة ، بل هى نفسها التى كانت فى الشتاء . وتنهال الضربات على الجامعة والطلبة والأدب والمسرح . ويصبح الهواء من الاغتياب اشد كثافة واختناقا ، ولم تعد تسممه انفاس ضفدعين فقط كما كان فى الشتاء ، بل ثلاثة ضفادع . وبخلاف الضحك المخملى الجهير والقهقهات التى تشبه الأكورديون ،

تسمع الخادم التى تقوم على رعايتنا ضحكا آخر ، كريها ، مرتعشا كضحك الجنرالات فى مسرحيات الفودفيل : هئ – هئ – هئ . . .

٥

ثمة ليال رهيبة ، برعد وبرق ومطر ورياح ، يطلق عليها الناس : ليالى العصافير . وقد مرت بى انا ايضا ليلة عصافير مثل هذه تماما . . .

استيقظ بعد منتصف الليل ، وعلى الفور اقفز من فراشى . ويخيل الىّ لسبب ما أننى سأموت الآن بغتة . لماذا يخيل الىّ ؟ ليس فى جسمى أية بادرة تشير الى النهاية القريبة ، الا ان رعبا فظيعا يعصر قلبى ، وكأنما رأيت فجأة حريقا هائلا شريرا .

اشعل الضوء بسرعة ، واجرع ماء من الدورق مباشرة ، ثم اسرع الى النافذة المفتوحة . الجو فى الخارج رائع . تفوح رائحة الدريس وشىء ما آخر لطيف جدا . وتلوح عوارض سور الحديقة المسننة ، والشجيرات الهزيلة الناعسة قرب النافذة ، والطريق ، وشريط الغابة المظلم . وفى السماء قمر هادىء ساطع للغاية ، وليس هناك سحابة واحدة . والسكون شامل ، فلا تهتز ورقة شجرة واحدة . ويخيل الىّ ان كل شىء ينظر الىّ ويصيخ مترقبا كيف سأموت . . .

اشعر برعب رهيب . اغلق النافذة وأهرع الى الفراش . اتحسس نبضى ولا اعثر عليه فى يدى ، فأبحث عنه فى صدغى ، ثم فى ذقنى ، ومرة اخرى فى يدى ، وكل هذه الأماكن باردة ، لزجة من العرق . تتلاحق أنفاسى أسرع فأسرع ، ويرتعش جسدى ، وكل ما فى جوفى يتحرك ، وأشعر وكأن خيوط عنكبوت تسقط على وجهى وصلعتى .

ما العمل ؟ هل أنادى اسرتى ؟ كلا ، لا داعى . لا أفهم ماذا ستفعل زوجتى وليزا عندما تدخلان علىّ .

أخفى رأسى تحت الوسادة ، وأغمض عينىّ ، وانتظر ،

انتظر . . . ظهرى تسرى فيه البرودة ، وكأنما يغوص الى الداخل ، ويداهمنى احساس وكأن الموت لا بد سيأتـــى من الخلف ، خلسة . . .

– كيوى-كيوى ! – يتردد زعيق فى سكون الليل فجأة ، ولا أعرف اين مصدره : أهو فى صدرى ، أم فى الخارج ؟

– كيوى-كيوى !

يا الهى ، كم أنا خائف ! بودى لو أشرب مزيدا من الماء ، ولكننى اخشى ان افتح عينى واخاف أن ارفـــع رأسى . خوفى لا تفسير له ، خوف حيوانى ، ولا استطيع ابدا ان أفهم لمـــاذا أشعر بالخوف : هل لأنى أريد ان أعيش ، أم لأن فى انتظارى ألما جديدا مجهولا ؟

فى الأعلى ، خلف السقف هناك شخص ما لست ادرى يتأوه أم يضحك . . . أصيخ السمع . بعد قليل يتردد على الدرج وقع خطوات . أحد ما يهبط على عجل، ثم يصعد ثانية . بعد دقيقـــة يتردد وقع الخطوات الهابطة مرة أخرى . أحد ما يتوقف بجوار بابى وينصت .

فأصيح :

– من هناك ؟

يفتح الباب ، فأفتح عينى بشجاعة وأرى زوجتى . وجههـــا شاحب وعيناها باكيتان .

تسألنى :

– انت لست نائما يا نيقولاى ستيبانيتش ؟

– ماذا تريدين ؟

– أرجوك اصعد الى ليزا وانظر ماذا بها . حدث لها شىء ما . . .

– حسنا . . بكل سرور – ادمدم وأنا فى غاية الفرح لأنى لم أعد وحدى – حسنا . . حالا حالا .

أسير خلف زوجتى واسمع ما تقوله لى ولكننى لا أفهم شيئا بسبب انفعالى . على درجات السلم تقفز بقع ضوء من شموعها ، ويرتعش ظلانا الطويلان ، وتتعثر ســـاقاى فى اطراف الرداء . واختنق ، ويخيل الىّ ان شيئا ما يطاردنى ويريد أن يمســـك

بظهرى . واقول لنفسى : «سأموت الآن هنا ، على هذا الدرج . الآن . . .» . ولكن ها نحن نعبر الدرج والطرقة المظلمة ذات النافذة الايطالية وندخل غرفة ليزا . انها جالسة فى الفراش ، فى قميص النوم فقط ، وقد دلت قدميها الحافيتين ، وتتأوه .

– آه ، يا الهى . . . آه يا الهى ! – تدمدم وهى تزر عينيها من ضوء شموعنا – لا استطيع ، لا أستطيع . . .

فأقول لها :

– ليزا ، يا بنيتى ، ماذا بك ؟

وعندما ترانى تصرخ وترتمى على عنقى .

وتقول من خلال النحيب :

– بابا ، يا حبيبى الطيب . . . بابا يا عزيزى . . أيها الغالى الحبيب . . أنا لا أعرف ماذا بى . . . اننى أتعذب !

تعانقنى وتقبلنى وتتمتم بكلمات رقيقة كتلك التى كنت اسمعها منها وهى طفلة .

وأقول لها :

– اطمئنى يا بنيتى ، لا بأس . لا داعى للبكاء . أنا ايضا أتعذب .

أحاول أن ادثرها وزوجتى تناولها ماء ، وكلانا نتخبط فى اضطراب بجوار سريرها ، وادفعها بكتفى فى كتفها ، وفى تلك اللحظة اتذكر كيف كنا نحمم اطفالنا معا .

وتتوسل الى زوجتى :

– هيا ساعدها ، ساعدها . افعل أى شىء !

وماذا استطيع أن أفعل ؟ لا شىء . ثمة ما يعذب روح الفتاة ، ولكنى لا أفهم شيئا ولا أعرف ، وليس فى وسعى الا أن ادمدم :

– لا بأس ، لا بأس . . . هذا سيزول . . . نامى ، نامى . . .

وكأنما عن عمد يدوى فى فنائنا فجأة عواء كلب ، خافتا مترددا فى البداية ، ثم عاليا ، بنبرتين . لم اكن أبدا اعبأ بعلامات التطير مثل عواء الكلاب أو نعيق البوم ، أما الآن فينقبض قلبى بألم ، فأسرع بتفسير سبب هذا العواء لنفسى :

«هراء . انه تأثير جسم على جسم آخر . لقد انتقل توترى

العصبى الشديد الى زوجتى والى ليزا ، والى الكلب ، وهذا كل ما هنالك . . . وهذا الانتقال هو مايفسر الحدس والتنبؤ . . .»

عندما أعود الى غرفتى بعد فترة قصيرة لكى اكتب وصفة العلاج لليزا ، لا أعود أفكر فى اننى سأموت قريبا ، ولكنى فقط أشعر بعذاب وضيق فى صدرى الى درجة اشعر معها بالأسف على انى لم أمت بغتة . أقف طويلا فى وسط الغرفة بلا حراك وأنا افكر فيما يمكن أن احدده من دواء لليزا ، ولكن الأنين وراء السقف يتوقف فأقرر الا احدد لها أىّ دواء ، ومع ذلك اظل واقفا . . .

السكون مطبق كالموت ، سكون الى درجة الطنين فى الآذان ، كما قال أحد الكتاب . والوقت يمضى ببطء ، وخطوط ضوء القمر على قاعدة النافذة لا تغير اوضاعها وكأنما تجمدت . . . والفجر ما زال بعيدا .

ولكن ها هو باب سور الحديقة يصر ، ويتسلل شخص ما ، ويكسر غصنا من احدى الشجيرات الهزيلة ، ويدق به بحذر على النافذة .

واسمع همسا :

— نيقولاى ستيبانيتش ! نيقولاى ستيبانيتش !

افتح النافذة ويخيل الىّ اننى أرى حلما . . . فتحت النافذة تقف امرأة ملتصقة بالحائط ، فى ثوب أسود ، تحت ضوء القمر الساطع ، وتتطلع الىّ بعينين واسعتين . وجهها شاحب صارم وخرافى بسبب ضوء القمر . وكأنما قدّ من مرمر . وذقنها يرتعش .

وتقول :

— هذه أنا . . أنا . . كاتيا !

فى ضوء القمر تبدو عيون النساء جميعا واسعة وسوداء ، ويبدو الناس أطول واكثر شحوبا ، وربما لهذا لم اتعرف عليها للوهلة الأولى .

— ماذا تريدين ؟

فتقول :

— عفوا . لست ادرى لماذا احسست فجأة بعذاب لا يحتمل . . . لم أتمالك نفسى وجئت الى هنا . . . رأيت نافذتك

مضاءة ف . . فقررت أن اطرقها . . . عفوا . . آه لو تدرى بأى عذاب شعرت ! ماذا تفعل الآن ؟

– لا شيء . . عندى أرق .

– كان لدى هاجس ما . وعموما فهذه اشياء تافهة .

ويرتفع حاجباها ، وتلمع عيناها بالدموع ، وكأنما بالنور يشرق وجهها كله بتعبير البراءة الطفولية المعروف ، الغائب منذ زمن بعيد .

وتقول بصوت ضارع وهى تمد الىّ كلتى يديها :

– نيقولاى ستيبانيتش ! يا عزيزى ، أرجوك . . . اتوسل اليك . . اذا كنت لا تأنف من صداقتى واحترامى لك فلتجبنى الى طلبى !

– ماذا هناك ؟

– خذ منى نقودى !

– ما هذا الذى تقولين ! وما حاجتى الى نقودك ؟

– اذهب الى اى مكان وتعالج . . . انت بحاجة الى العلاج . هل ستأخذها ؟ نعم ؟ يا عزيزى ، نعم ؟

تحدق فى وجهى بنهم وتكرر :

– نعم ؟ ستأخذها ؟

فأقول لها :

– كلا يا صاحبتى ، لن آخذها . . . شكرا .

تولينى ظهرها وتطأطئ رأسها . يبدو ان رفضى كان بلهجة لا تدع فرصة لأى حديث تال عن النقود .

فأقول لها :

– عودى الى البيت ونامى . غدا سنرى .

فتسألنى باكتئاب :

– اذن فأنت لا تعتبرنى صديقا ؟

– انا لم أقل هذا . لكن نقودك لا نفع منها لى الآن .

– عفوا . . . – تقول خافضة صوتها درجة كاملة – اننى افهمك . . . فأن تكون مدينا لشخص مثلى . . . لممثلة سابقة . . . وعموما وداعا . . .

وتمضى بسرعة لا تمكننى حتى من أن اقول لها وداعا .

٦

أنا فى خاركوف .

اذ لما كانت مقاومة مزاجى الحالى غير مجدية ، كما أنى غير قادر عليها ، فقد قررت ان تكون ايامى الأخيرة لا غبار عليها ولو من الناحية الشكلية . واذا كنت مخطئا فى حق اسرتى ، الأمر الذى أدركه جيدا ، فلأحاول ان أفعل مثلما تريد . وطالما شاءت ان اسافر الى خاركوف فلأسافر . وفوق ذلك فقدت اهتمامى فى الايام الأخيرة بكل شىء ، بحيث أصبح لدى سيان تماما الى أين اسافر : الى خاركوف ، أم الى باريس ام الى بيرديتشيف .

وصلت الى هنا فى حوالى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، ونزلت فى فندق غير بعيد عن الكاتدرائية . وكنت فى عربة القطار قد أصبت بدوار ولفحتنى تيارات الهواء ، والآن اجلس على السرير ، ممسكا برأسى ومنتظرا مجىء مرض الشقيقة . كان من المفروض ان اذهب اليوم مباشرة الى معارفى الاساتذة ، ولكن ليس لدى رغبة او قدرة .

يدخل خادم الفندق العجوز ويسألنى هل لدى فرش للسرير فأستوقفه لخمس دقائق وأوجه اليه بعض الاسئلة بخصوص جنيكر الذى من أجله جئت الى هنا . ويتضح ان الخادم من مواليد خاركوف ويعرف هذه المدينة كأصابعه الخمس ولكنه لا يذكر أية عائلة بهذا الاسم . واسأله عن الضيعة – نفس الجواب .

تدق الساعة فى الطرقة معلنة الواحدة ، ثم الثانية ، ثم الثالثة . . . الشهور الأخيرة من حياتى ، التى تمضى فى انتظار الموت ، تبدو لى أطول بكثير من حياتى كلها . لم يكن فى مقدورى من قبل أن استسلم لبطء الزمن مثلما أنا الآن . ففى السابق ، عندما كان يحدث أحيانا أن انتظر القطار فى المحطة او اجلس لامتحان الطلبة ، كان ربع الساعة يبدو لى دهرا ، أما الآن فبوسعى ان اجلس الليلة كلها فى السرير دون حراك ، وأفكر بلامبالاة تامة فى اننى سأقضى غدا ليلة مثل هذه ، طويلة باهتة ، وبعد غد ايضا . . .

الساعة فى الطرقة تدق الخامسة ، السادسة ، السابعة . . .

ويحل الظلام .

في خدى خدر مؤلم – انها بداية الشقيقة . ولكى أشغل نفسى بالتفكير أعود الى وجهة نظرى السابقة عندما لم اكن لامباليا واتساءل : لماذا أجلس انا الرجل الشهير ، المستشار السرى ، فى هذه الغرفة الصغيرة ، على هذا السرير ذى البطانية الرمادية الغريبة ؟ ولماذا انظر الى حوض الغسيل الصفيح الرخيص هذا وأصغى الى حشرجة ساعة بالية فى الطرقة ؟ أهذا كله جدير بصيتى ومركزى الرفيع بين الناس ؟ وأجيب نفسى على هذه الاسئلة بضحكة سخرية . اذ تبدو لى مضحكة سذاجتى التى كانت تجعلنى ، فى وقت ما فى شبابى ، أبالغ فى أهمية الشهرة والوضع الفريد الذى بدا لى ان المشاهير يتمتعون به . فأنا شهير ، واسمى تلفظه الشفاه بتبجيل ، وصورتى نشرت فى «نيفا» وفى «المصوّر العالمى» ، وتاريخ حياتى قرأته منشورا حتى فى مجلة المانية . . ثم ماذا ؟ ها أنذا اجلس وحيدا تماما فى مدينة غريبة ، على سرير غريب ، وأحك براحتى خدى المتقلص . . . والخلافات العائلية ، وقسوة الدائنين ، وفظاظة موظفى الخدمة فى السكك الحديدية ، ومتاعب نظام الهويات والاقامة ، والأكل الغالى الضار بالصحة فى البوفيهات ، والجهل الشامل والقسوة فى المعاملة . . كل ذلك وكثير غيره مما يطول تعداده ، يمسنى بدرجة لا تقل عما يمس به أى برجوازى صغير غير معروف الا فى حارته فقط . ففيم اذن تفرد وضعى ؟ فلنفرض اننى اكثر شهرة ألف مرة ، وأننى بطل يفخر به وطنى ، وتنشر جميع الصحف النشرات الطبية عن مرضى ، ويحمل لى البريد رسائل المواساة من زملائى وتلاميذى والجمهور ، ولكن كل هذا لن يحول بينى وبين الموت على فراش غريب ، فى وحشة ووحدة مطلقة ، . . بالطبع ليس هناك احد مذنب فى ذلك ، ولكنى ، وليغفر الله لى ، لا أحب اسمى الذائع الصيت . يخيل الىّ وكأنما قد خدعنى .

فى حوالى العاشرة أنعس ، ورغم الشقيقة أغيب فى نوم عميق ، وكان من الممكن ان انام طويلا لولا انهم ايقظونى . ففى بداية الساعة الثانية يطرق الباب فجأة .

– من هناك ؟

– برقية .

وأقول بحنق وأنا اتسلم البرقية من خادم الفندق :

– كان بوسعك ان تنتظر حتى الصباح . الآن لن استطيع أن أنام ثانية .

– أسف . . ولكنى رأيت غرفتكم مضـــاءة فظننت انكـــم مستيقظون .

أفض البرقية واتطلع قبل كل شيء الى التوقيـــع : زوجتى . ماذا تريد بعد ؟

«بالأمس تزوج جنيكر سرا بليزا . ارجع» .

اقرأ هذه البرقية ، ولفترة قصيرة أشعر بفزع . لا يفزعنى تصرف ليزا وجنيكر ، بل تلك اللامبالاة التى اتلقى بها نبـــأ زواجهما . يقال ان الفلاسفة والحكماء الحقيقيين غير مبالين . ليس صحيحا ، فاللامبالاة هى شلل الروح ، وهى الموت المبكر .

استلقى مرة اخرى فى الفراش وابـــدأ فى البحث عن افكار أشغل بها نفسى . فيم يمكن ان أفكر ؟ يبدو ان كل شيء قد قتل بحثا ، ولم يعد هناك الآن ما يمكن أن يثير تفكيرى .

يشرق الفجر وانا جالس فى الفراش ، مطوقا ركبتى بذراعى ، وبدافع الفراغ أحاول ان أعرف نفسى . «اعرف نفسك» . . يا لها من نصيحة رائعة مفيدة ، لكن المؤسف ان القدماء لم يفطنوا الى ارشادنا الى كيفية استخدام هذه النصيحة .

فى الماضى ، عندما كانت تراودنى الرغبة فى فهم شخص ما او فهم نفسى ، كنت لا أهتم بالتصرفـــات ، التى تحكمهـــا شتى الاعتبارات ، بل بالرغبات . قل لى ماذا تريد ، أقل لك من أنت .

والآن امتحن نفسى : ماذا أريد اذن ؟

أريد من زوجاتنا وأولادنا واصدقائنا وتلاميذنا أن يحبوا فينا لا الاسم ، لا اللافتة والماركة ، بل اشخاصنا العاديـــة . وماذا ايضا ؟ بودى ان يكون لى معاونون وورثة . وماذا ايضا ؟ بودى لو بعثت بعد مائـــة عام فنظرت ولو بطرف عينى الى مصير العلم . بودى لو عشت عشر سنوات أخرى . . . وماذا بعد ؟

بعد لاشيء . افكر ، وافكر طويلا ، ولا استطيع ان أتوصل الى شيء . ومهما فكرت ، ومهما تشعبت افكارى فان من الواضح

لى ان رغباتى تفتقر الى شيء رئيسى ، الى شيء هام للغاية . ففى شغفى بالعلم ، وفى رغبتى فى الحياة ، وفى هذا الجلوس على فراش غريب ، وفى سعيى الى معرفة نفسى ، فى كل افكارى ، ومشاعرى، ومفاهيمى التى اكونها عن الاشياء ، لا يوجد شيء عام يربط جميع ذلك فى كلّ موحد . كل فكرة وكل شعور يحيا فى داخلى منعزلا ، وحتى اكثر المحللين مهارة لن يجد فى كل احكامى عن العلم ، والمسرح ، والأدب والتلاميذ ، وفى كل الصور التى يرسمها خيالى، ذلك الشيء الذى يسمونه الفكرة العامة او اله الانسان الحىّ .

فاذا لم يكن هذا موجودا ، فلا وجود اذن لأى شيء .

ومع مثل هذا الفقر كان يكفى مرض خطير او رهبة الموت ، او تأثير ظروف واشخاص لكى ينقلب كل ما كنت اعتبره من قبل وجهة نظرى وأرى فيه مغزى حياتى وبهجتها ، رأسا على عقب ويتناثر مزقا . ولهذا فليس من الغريب فى شيء اننى سودت آخر شهور عمرى بأفكار ومشاعر لا تليق الا بعبد او همجى ، واننى الآن لامبال ولا ألاحظ شروق الفجر . فاذا لم يكن فى الانسان ذلك الشيء الأسمى والأقوى من كل المؤثرات الخارجية فانه يكفى ، فى الحقيقة ، مجرد زكام قوى لكى يفقده توازنه ويجعله يرى فى كل طائر بومة ويسمع فى كل صوت عواء الكلاب . ولا يصبح لتشاؤمه أو تفاؤله ، ولكل افكاره الكبيرة والصغيرة من اهمية فى تلك اللحظة سوى اهميتها كاعراض ، ولا شيء اكثر .

لقد هزمت . وما دام الامر كذلك فلا معنى اذن لمواصلة التفكير ، ولا معنى للكلام . سأبقى جالسا انتظر فى صمت ما سيحدث .

فى الصباح يحمل الي خادم الفندق الشاى ونسخة من الجريدة المحلية . اقرأ آليا الاعلانات المنشورة فى الصفحة الأولى ، والافتتاحية ، ومقتطفات الصحف والمجلات ، والأخبار . . . بالمناسبة ، أجد بين الأخبار الخبر التالى : «وصل أمس الى خاركوف بالقطار السريع عالمنا الشهير ، الاستاذ القدير نيقولاى ستيبانوفتش (الفلانى) حيث نزل فى الفندق (الفلانى)» .

يبدو أن الاسماء الطنانة يصنعونها لكى تعيش مستقلة ، بعيدا عمن يحملونها . وها هو اسمى الآن يتجول فى خاركوف خالى

البال . وبعد حوالى ثلاثة أشهر سوف يلمع كالشمس ذاتها ، وقد نقش بأحرف مذهبة على تمثال قبرى . . هذا فى الوقت الذى يكون فيه الطحلب قد غطانى . . .

طرق خفيف على الباب . احدهم اذن يحتاج الىّ .

– من هناك ؟ ادخل .

يفتح الباب ، فأخطو خطوة الى الوراء مدهوشا ، وأسارع بجمع اطراف ردائى . أمامى تقف كاتيا .

وتقول بأنفاس مبهورة من صعود السلم :

– مرحبا . لم تتوقع ؟ أنا ايضا . . . أيضا سافرت الى هنا. تجلس ، وتستطرد متلعثمة دون ان تنظر الىّ :

– لماذا لا ترد على التحية ؟ انا أيضا وصلت . . . اليوم . . . علمت أنك فى هذا الفندق فجئت اليك .

فأقول هازا كتفى :

– مسرور جدا برؤيتك . ولكنى مندهش . . . كأنك هبطت من السماء . لماذا أنت هنا ؟

– أنا ؟ هكذا . . . أبدا . . قررت ان آتى فجئت .

صمت . فجأة تنهض بحدة وتسير نحوى .

– نيقولاى ستيبانيتش ! – تقول شاحبة وهى تعصر راحتيها فوق صدرها – نيقولاى ستيبانيتش ! أنا لا استطيع ان أحيا هكذا اكثر من ذلك ! لا استطيع ! بحق الاله قل لى بسرعة ، الآن حالا : ماذا أفعل ؟ قل لى ماذا افعل ؟

فأقول مستغربا :

– ماذا استطيع ان أقول ؟ لا أستطيع شيئا .

فتمضى وهى تختنق وبدنها كله يرتعش :

– قل لى اتوسل اليك ! اقسم لك اننى لا استطيع ان احيا هكذا اكثر من ذلك ! لا أقوى !

ترتمى على الكرسى وتشرع فى النحيب . رأسها ملقى الى الخلف ، وتعصر يديها وتدق بقدميها . قبعتها سقطت عن رأسها وتدلت من الخيط المطاطى وهى تتأرجح ، وتسريحتها تبعثرت .

وتتوسل الىّ :

– ساعدنى ارجوك ! ساعدنى ! لا استطيع اكثر !

تخرج من حقيبة سفرها اليدويـــة منديلا ومعه عدة رسائل تسقط من حجرها على الارض . اجمعها من على الارض واتعرف فى واحدة منها على خط ميخائيل فيودوروفتش ، وتقع عينى عفوا على جزء من كلمة «عاطفـــ . . .» .

واقول لها :

– لا استطيع ان اقول لك شيئا يا كاتيا .

فتنتحب وتمسك بيدى وتقبلها :

– ساعدنى ! أنت أبى ، صديقى الوحيـــد ! انت ذكى ، مثقف ، عشت حياة طويلة ! لقد كنت معلما ! فلتقل اذن : ماذا أفعل ؟

– صدقينى يا كاتيا . . لا أعرف . . .

أنا مرتبك ، محرج ، متأثر بدموعها ، لا أكاد اقف على قدمى.

واقول بابتسامة متكلفة :

– هيا نفطر يا كاتيا . كفاك بكاء !

وعلى الفور اضيف بصوت خائر :

– أيامى فى الدنيا معدودة . . . يا كاتيا . . .

فتبكى وتمد لى يديها :

– قل ولو كلمة ، كلمة واحدة ! ماذا أفعل ؟

فأدمدم :

– يا لك من غريبة حقا . . . لا أفهمك ! واحدة عاقلـــة مثلك ، وفجأة يحدث هذا ! تبكين هكذا . . .

يحل الصمت . كاتيا تسوى شعرهـــا وترتدى قبعتها ، ثم تهصر الرسائل وتحشرها فى الحقيبة . . وكل ذلك فى صمت وعلى مهل . وجهها وصدرها وقفازها مبتلة بالدموع ، ولكن تعبير وجهها أصبح جافا ، صارما . . . اتطلع اليها وأشعر بالخجل من أننى أسعد منها . اذ لم ألاحظ فى نفسى غياب ما يسميـــه الرفاق الفلاسفة بالفكرة العامة الا قبيل الموت بقليل ، فى مغيب آخر أيامى ، أما روح هذه الفتاة المسكينة فلم تجد مستقرا ولن تجده طوال الحياة ، طوال الحياة !

واقول لها :

– هيا نفطر يا كاتيا .

فتجيبنى ببرود :
– كلا ، أشكرك .
وتمر دقيقة أخرى فى صمت .
– لا تعجبنى خاركوف – اقول لها – رمادية جدا . مدينة رمادية .
– نعم ، يبدو كذلك . . ليست جميلة . . . لقد جئت لفترة قصيرة . . . مجرد مرور . اليوم سأرحل .
– الى أين ؟
– الى القرم . . . أقصد الى القوقاز .
– مفهوم . لمدة طويلة ؟
– لا أعرف .
وتنهض كاتيا ، وتبتسم ببرود ، ودون أن تتطلع الىّ تمد لى يدها .
وأود ان اسألها : «اذن فلن تحضرى جنازتى ؟» ، ولكنها لا تتطلع الىّ ، ويدها باردة كأنها غريبة . أمضى معها الى الباب فى صمت . . . ها هى قد خرجت من غرفتى ، وتسير فى الطرقة الطويلة ولا تلتفت . وهى تعرف اننى انظر فى اثرها ، وربما تلتفت عند المنعطف .
كلا ، لمْ تلتفت . ويلوح الفستان الاسود لآخر مرة ، ثم يتلاشى وقع الخطوات . . . وداعا يا كنزى !

١٨٨٩

المبارزة

١

كانت الساعة الثامنة صباحا ، وهى الساعة التى يذهب فيها الضباط والموظفون والوافدون عادة للاستحمام فى البحر بعد ليلة حارة خانقة ، ثم يقصدون المقصف لتناول القهوة او الشـــاى . وعندما جاء ايفان أندريتش لايفسكى ، وهو شاب فى حوالى الثامنة والعشرين ، نحيف أشقر ، يرتدى عمرة وزارة المالية وشبشبا الى الشاطئ للاستحمام وجد هناك الكثيرين من معارفه ، ومن بينهم صديقه الدكتور العسكرى صامويلنكو .

كان صامويلنكو هذا ، برأســـــه الكبير الحليق ، وانعدام عنقه ، ووجهه الاحمر الكبير الأنف ، وحاجبيه الأسودين الكثين ، وسالفيه الأشيبين ، والجسد السمين المترهل ، وعلاوة على ذلك بصوته العسكرى الأبح ، يترك فى نفوس الوافدين الجدد انطباعا منفرا عن رجل جلف أبح ، ولكن ما أن يمر على التعارف الاول يومان او ثلاثة ، حتى يبدأ وجهه يبدو لهم طيبا بصـــــورة غير عادية ، ولطيفا بل وحتى جميلا . فرغم هيئته الخرقاء ونبرتــــه الفظة كان رجلا وديعا ، طيبا بلا حدود ، بشوشا وخدوما . كان يعرف جميع اهل المدينة معرفة قريبة ، ويقرض الجميع ويعالج الكل ويزوجهم ويصالحهم ، وينظم النزهات الخلوية التى يشوى اثناءها الكباب ويطهو حساء لذيذا للغاية من سمك البورى . وكان دائما يسعى لأحد ما ويرجو ، ويفرح دائما لأمر ما . كان باجماع الآراء رجلا نقيا ، لا يعيبه الا شيئان : فقد كان ، اولا ، يخجل من طيبته ، فيحاول تمويهها بنظرة صارمة وخشونة مصطنعة ، وكان، ثانيا ، يحب أن يناديه الممرضون والجنود بلقب «صاحب المعالى»

بالرغم من انه لم يكن سوى مستشار دولة فقط * .

– أجبنى على سـؤال واحد يا الكسندر دافيديتش – قال لايفسكى بعد أن نزل هو وصامويلنكو البحر وغاصا حتى اكتافهما – فلنفرض أنك احببت امرأة واتصلت بها ، ولنفرض انك عشت معها اكثر من عامين ، وكما يحدث احيانا ، لم تعد تحبها وأصبحت تشعر أنها غريبة بالنسبة لك . كيف تتصرف فى هذه الحالة ؟

– بكل بساطـة . اذهبى يا صاحبتى الى حيث تريدين . . وانتهى الامر !

– ليست المسألة بهذه البساطة ! واذا لم يكن لديها مكان تذهب اليه ؟ فهى امرأة وحيدة ، بلا أهل ، ليس لديها من النقود قرش ، لا تجيد العمل . . .

– فليكن ! خمسمائة روبل دفعة واحدة فى يدها ، او خمسة وعشرون روبلا شهريا وانتهينا . بكل بساطة .

– فلنفرض ان لديك خمسمائة روبل وخمسـة وعشرين شهريا ، ولكن المرأة التى اتحدث عنها مثقفة وذات كرامة . فهل تجرؤ حقا على ان تعرض عليها نقودا ؟ وبأية صورة ؟

أراد صامويلنكو أن يقول شيئا ، ولكن موجة عالية غمرتهما معا فى تلك اللحظة ، ثم اصطدمت بالشاطئ وارتدت الى الوراء فى صخب فوق الحصى الصغير . وخرج الصديقـان الى الشاطئ وراحا يرتديان ملابسهما .

وقال صامويلنكو وهو ينفض الرمل من حذائه :

– من الصعب طبعا ان تعيش مع امرأة اذا كنت لا تحبها . ولكن ينبغى يا فانيا أن تتناول الأمر من ناحيـة انسانية . لو حدث هذا لى لما أظهرت لها أبدا اننى لم أعد أحبها ، ولعشـت معها الى الممات .

وفجأة أحس بالخجل مما قاله ، فأسرع يقول مستدركا :

– لو كان الأمر بيدى لما رغبت ان تكون هناك نسـاء . فليذهبن الى الجحيم !

---

* رتبة مدنية فى روسيا القيصرية من الدرجة الخامسة كانت تعادل رتبة العميد العسكرية . **المعرب** .

ارتدى الصديقان ملابسهما وذهبا الى المقصف . وهنا كان صامويلنكو كصاحب البيت ، وكانوا يحتفظون له بآنية خاصة . كانوا يقدمون له كل صباح على صينية قدح قهوة وكوبا طويلا مضلعا بماء مثلج وكأســـا من الكونياك . فيشرب أولا كأس الكونياك ، ثم القهوة الساخنة ، وبعد ذلك الماء المثلج ، وكان ذلك ، على ما يبدو ، لذيذا جدا ، لأن عينيه بعد الشرب تصبحان لامعتين ، ويمسد سالفيه بكلتا يديه ويقول وهو ينظر الى البحر:

– منظر فى غاية الروعة !

أما لايفسكى ، فبعد ليلة طويلة انفقت فى تفكير كئيب عقيم عاقه عن النوم ، وبدا وكأنمـــا زاد من حدة ظلام الليل وجوه الخانق ، فكان يشعر أنه مضعضع وذابل . ولم تتحســـن حالته حتى بعد الاستحمام والقهوة .

وقال :

– فلنواصل حديثنا يا الكسندر دافيديتش . لن أخفى عنك شيئا ، ولأقل لك بصراحة كصديق : ان أمورى سيئة مع ناديجدا فيودوروفنا . . . سيئـــة للغايـــة ! عفوا اذا كنت اقحمك فى أسرارى ، ولكنى بحاجة الى ان أفضى بما فى قلبى .

كان صامويلنكو يحدس علام سيدور الحديث فخفض بصره وبدأ ينقر بأصابعه على الطاولة .

ومضى لايفسكى يقول :

– لقد عشت معها سنتين ثم لم أعد أحبها ، وبالأصـــح أدركت انه لم يكن هناك أى حب . . . كانت هاتان السنتـــان خداعا .

كان من عادة لايفسكى اثناء الحديث ان يتفحص باهتمـــام راحتيه الورديتين ويقضم اظفاره او يلوى أساوره باصابعـــه . والآن ايضا كان يفعل ذلك .

وقال :

– اننى أدرك جيدا أنك لا تستطيع أن تساعدنى ، ولكنى اتحدث اليك فى هذا ، لأنه بالنسبة لنا ، نحن الفاشلين الضائعين، فلا منقذ سوى الأحاديث . ينبغى ان أعمم كل تصرف من تصرفاتى، ينبغى ان أجد تفسيرا وتبريرا لحياتى الحمقاء فى نظريات علماء

ما ، وفى الشخصيات الأدبية ، وفى أننا نحن النبلاء مثلا ننقرض وننحط وخلافه . . . فى الليلة الماضية مثلا كنت أعزى نفسى بأن افكر طوال الوقت : نعم كم هو محق تولستوى ، محق بقسوة ! وقد خفف هذا عنى . وبالفعل يا أخى ، ياله من كاتب عظيم ! مهما قلت عنه .

أحس صامويلنكو ، الذى لم يقرأ تولستوى قط وينوى كل يوم أن يقرأه ، بالحرج وقال :

— نعم ، جميع الكتاب يكتبون من الخيال ، أما هو فمن الطبيعة مباشرة . . .

فقال لايفسكى متنهدا :

— يا الهى ، الى اى حد أفسدتنا الحضارة ! لقد أحببت امرأة متزوجة ، وهى أيضا احبتنى . . . فى البداية كان لنا قبلات ، وأمسيات هادئة ، وأيمان ، وسبنسر ومثل عليا واهتمامات مشتركة . . . يا للكذب ! لقد هربنا فى الواقع من زوجها ، ولكننا كذبنا على أنفسنا بأننا نهرب من فراغ حياتنا الذهنية . وبدا لنا مستقبلنا على هذا النحو : فى البداية نذهب الى القوقاز ، والى ان نتعرف على المكان والناس أرتدى الحلة الرسمية والتحق بالخدمة ، ثم نأخذ قطعة أرض فى مكان رحب ، ونكد ونعرق ، فنغرس كرما ، ونزرع حقلا وخلافه . ولو كنت انت مكانى ، او صاحبك عالم الحيوان فون كورين ، فربما عشتما مع ناديجدا فيودوروفنا ثلاثين عاما وتركتما لورثتكما كرما وفيرا وألف ديسياتينا * من الأذرة ، اما أنا فأحسست انى مفلس من اول يوم . ففى المدينة حر لا يطاق ، وملل ووحدة ، واذا خرجت الى الحقل يتراءى لك تحت كل أيكة وحجر عناكب وعقارب وثعابين ، أما وراء الحقل فليس الا الجبال والصحراء . أناس غرباء وطبيعة غريبة وثقافة بائسة ... وكل هذا يا أخى ليس سهلا مثل التنزه فى شارع نيفسكى ** فى معطف فراء ، متأبطا ذراع ناديجدا فيودوروفنا بينما

* الديسياتين مقياس روسى لمسطح الأرض يساوى ١,٠٩٢ من الهكتار . **المعرب** .

** شارع رئيسى فى بطرسبرج (ولينينغراد حاليا) . **المعرب** .

تحلم بالاماكن البعيدة الدافئة . هنا لا بد من معركـــة حياة أو موت ، وأى مناضل أنا ؟ أنا بائس منهار الأعصاب ، مرفه . . . أدركت من اول يوم ان افكارى عن حيـــــاة الكد وعن الكروم لا تساوى قلامة ظفر . أما بخصوص الحب ، فينبغى ان أقول لك ان العيش مع امرأة قرأت سبنسر ، ومضت معك الى آخر الدنيا ، ليس طريفا ، تماما مثل العيش مع أية أنفيســـا أو أكولينا . فمنها ايضا تفوح رائحة المكواة والبودرة والعقاقير . نفس ورق تجعيد الشعر كل صباح ، وخداع النفس عينه . . .

– المكواة لا غنى عنها فى شئون البيت – قال صامويلنكو وهو يتضرج لأن لايفسكى يتحدث معه بصراحة عن امرأة يعرفها – انت اليوم يا فانيا معتل المزاج كما ألاحظ . ناديجدا فيودوروفنا امرأة رائعة ، مثقفة ، وأنت شخص نادر الذكاء . . . – ومضى صامويلنكو يقول وهو يتلفت نحو الموائد المجاورة – انتما بالطبع لم تعقدا قرانكما ، ولكن هذا ليس ذنبكما ، وعلاوة على ذلك . . . ينبغى أن نتجرد من التحيز ونقف على مستوى الأفكار الحديثة . أنا أقف فى صف الزواج المدنى . . . نعم ، ولكنى اعتقد انـــــه طالما اقترنتما فينبغى ان تعيشا معا حتى الممات .

– بلا حب ؟

فقال صامويلنكو :

– سأوضح لك الآن . منذ حوالى ثمانى سنوات كان لدينا هنا وكيل ، رجل عجوز ، نادر الذكاء . وكان يقول : اهم شىء فى الحياة الزوجية هو الصبر . هل تسمعنى يا فانيا ؟ ليس الحب ، بل الصبر . الحب لا يمكن أن يستمر طويلا . لقد عشت حوالى عامين فى ظل الحب ، والآن يبدو ان حياتك العائلية دخلت مرحلة عليك فيها ، لكى تحافظ على التوازن ، كما يقال ، أن تستخدم كل ما لديك من صبر . . .

– أنت تؤمن بما قاله صاحبك الوكيل العجوز ، أما بالنسبة لى فنصيحته هراء . عجوزك كان بوسعه أن ينافق ، كان بوسعه ان يتمرن على الصبر وفى الوقت نفسه ينظر الى الشخص الذى لا يحبه باعتباره شيئا ضروريا لتمريناته ، ولكنى لم أسقط بعد

الى هذه الدرجة من الانحطـــاط . فاذا ما أردت أن اتمرن على الصبر فسأشترى أثقالا حديدية او حصانا سريعا ، أما الانسان فسأدعه فى حاله .

طلب صامويلنكو نبيذا أبيض بالثلج . وبعد أن شرب كل منهما كوبا سأله لايفسكى فجأة :

– قل لى من فضلك ، ما معنى تليّن المخ ؟

– كيف اشرح لك . . . انه . . . مرض يصبح المخ بسببه اكثر لينا . . . اكثر سيولة يعنى . . .

– هل يمكن علاجه ؟

– نعم ، اذا لم يكن قد استشرى . حمامات باردة ، حشرات الذرّاح . . . ثم بالطبع شيء ما باطنيا .

– مفهوم . . . وهكذا فوضعى كما ترى . لا استطيع ان اعيش معها ، هذا فوق طاقتى . انا معك هنا أتفلسف وابتسم ، اما فى البيت فأنهار تماما . أشعر بضيق لا يطاق الى درجة انه لو قيل لى مثلا اننى لا بد ان اعيش معها ولو شهرا آخر لأطلقت على رأسى رصاصة كما اعتقد . وفى الوقت نفسه لا أستطيع ان اهجرها . فهى وحيدة ، لا تقدر على العمل ، وليس هناك نقود لدى او لديها . . . فالى أين تذهب ؟ الى من تتوجه ؟ لا أجد اى حل . . . وهكذا فلتقل لى : ما العمل ؟

فدمدم صامويلنكو وهو لا يدرى ماذا يقول :

– ام . . . هل هى تحبك ؟

– نعم ، تحبنى بالقدر الذى تحتاج فيه فى سنها وبطبـــع كطبعها الى رجل . فسيكون من الصعب عليها أن تتركنى مثلما عليها ان تترك البودرة او ورق تجعيد الشعر . انا بالنسبة لها جزء ضرورى لا يتجزأ من غرفة نومها .

أحس صامويلنكو بالحرج فقال :

– انت اليوم يا فانيا معتل المزاج . يبدو انك لم تنم .

– نعم ، نمت نوما سيئا . . . وعموما يا أخى أشعر بحالتى فى غاية السوء . فى رأسى فراغ ، وقلبى متوقف ، أحس بضعف لا أعرف كنهه . . . يجب أن اهرب !

– الى أين ؟

– الى هناك ، الى الشمـــال . الى الصنوبر والفطر ، الى الناس ، الى الأفكار . . . أنا مستعد ان اعطى نصف عمرى مقابل أن استحم الآن فى نهير فى مكان ما بمحافظـــة موسكو او تولا ، واشعر بالبرد ، أتدرى ، ثم اتسكع ثلاث ساعات ولو مع أبلد طالب واثرثر ، أثرثر . . . ورائحة الدريس ، ما أروعها ! هل تذكر ؟ أما فى الأمسيات ، عندما تتجول فى البستان ، تتناهى اليك من البيت انغام البيانو ، وتسمع ضجيج قطار . . .

وضحك لايفسكى من المتعة ، واغرورقت عيناه بالدموع ، ولكى يداريها ، مد جسمه الى الطاولة المجاورة ليأخذ كبريتا دون ان ينهض من مكانه .

وقال صامويلنكو :

– أما أنا فلم اذهب الى روسيا منذ ثمانيـــة عشر عاما . نسيت كيف تبدو هناك . اعتقد انه ليس هناك مكان أروع من القوقاز .

– عند فيريشاجين * صورة : فى قاع بئر سحيقـــة ألقى بأشخاص حكموا بالاعدام . قوقازك الرائع يبدو لى مثل هذه البئر تماما . ولو خيـــرت بين أمرين : ان اكون منظف مداخـــن فى بطرسبرج او أميرا هنا ، لاخترت وظيفة منظف المداخن .

واستغرق لايفسكى فى التفكير . وعندما نظر صامويلنكو الى جسمه المحنى ، وعينيه المحدقتين فى نقطة واحدة ، والى وجهه الشاحب العرقان وصدغيه الغائرين ، والى اظفاره المقضومة ، والى حذائه الذى تدلى من كعبه فكشف جوربا قد رتق بصورة سيئة ، احس بالشفقة عليه ، وربما لأن لايفسكى بدا له كطفل عاجز فقد سأله :

– هل أمك على قيد الحياة ؟

– نعم ، ولكننا افترقنـــا . لم تستطع أن تغفر لى هذه العلاقة .

---

* فاسيلى فيريشاجين (١٨٤٢ـ١٩٠٤) مصور روسى شهيـــر من انصار الواقعية فى الفن . اشتهر بصور المعارك الحربية التى اظهر جماهير الشعب فيها باعتبارها القوى المحركة الرئيسيـــة للأحداث الحربيـــة . **المعرب .**

كان صامويلنكو يحب صديقه . كان يرى فى لايفسكى فتى طيبا ، طالبا ، وشخصا نزيها ، يمكن معه أن تشرب وتضحك وتتحدث بما فى نفسك . وكانت الجوانب التى يفهمها فيه هى التى لا تعجبه أبدا . فقد كان لايفسكى يشرب كثيرا وفى الوقت غير المناسب ، ويلعب الورق ، ويحتقر وظيفته ، ويعيش بأكثر مما يسمح به دخله ، ويستخدم كثيرا فى حديثه عبارات غير لائقة ، ويسير فى الشارع بالشبشب ، ويتشاجر مع ناديجدا فيودوروفنا أمام الغرباء . . . وهذا ما لم يكن يعجب صامويلنكو . أما ان لايفسكى كان فى وقت ما طالبا بكلية الآداب ، ومشترك الآن فى مجلتين من المجلات السميكة ، وكثيرا ما يتحدث بذكاء بحيث لا يفهمه الا القليلون ، ويعاشر امرأة مثقفة . . . كل هذا لم يكن صامويلنكو يفهمه ، وكان يعجبه ، وقد اعتبر لايفسكى أعلى منه واحترمه .

وقال لايفسكى وهو ينفض رأسه :

– هناك شىء آخر . وليكن هذا بيننا فقط . ما زلت اخفيه عن ناديجدا فيودوروفنا فلا تتفوه به عرضـــا أمامها . . . لقد تلقيت منذ ثلاثة أيام رسالة بأن زوجها توفى من تليّن المخ .

فتنهد صامويلنكو وقال :

– عليه الرحمة . . . ولماذا تخفى عنها ذلك ؟

– اطلاعها على الرسالة سيعنى : تفضلى الى الكنيسة لنعقد قراننا . بينما أولا ينبغى أن نستوضح علاقتنا . وعندما تتأكد من اننا لا نستطيع أن نعيش معا سأريها الرسالة . عندها لن يكون ذلك خطرا .

– أتدرى يا فانيا ؟ – قال صامويلنكو واكتسى وجهه فجأة بتعبير حزين وضارع ، كأنما كان ينوى أن يطلب شيئا حلوا للغاية ويخشى أن يرفض طلبه – تزوج يا عزيزى !

– ما الداعى ؟

– قم بواجبك ازاء هذه السيدة الرائعة . لقد مات زوجها ، وهكذا فهذه هى العناية الالهية تشير لك بما يجب عمله !

– يا لك من غريب ! فلتفهم ان هذا مستحيل . الزواج عن

غير حب هو عمل وضيع وغير جدير بالانســـان تماما كأن تؤمّ الصلاة وانت غير مؤمن .
– ولكن ذلك واجب عليك !
فسأل لايفسكى بعصبية :
– ولماذا هو واجب علىّ ؟
– لأنك اخذتها من زوجها وأصبحت مسؤولا عنها .
– ولكنى أقول لك باللغة الروسية : أنا لا أحبها !
– اذا لم يكن هناك حب فلتحترمها ، ولتبهجها . . .
فقال لايفسكى مقلدا نبرته بسخرية :
– فلتحترمها ، ولتبهجها . . . كأنما هى كبيرة الراهبات . . . انت سيكولوجى وفسيولوجى سيئ اذا كنت تعتقد أنك يمكن ان تعيش مع امرأة على الاحترام والابهاج فقط . المرأة بحاجة قبل كل شيء الى غرفة نوم .
فقال صامويلنكو بخجل :
– فانيا ، فانيا . . .
– أنت طفل عجوز ، منظّر ، أما أنا فعجوز شاب ، وعملى ، ولن يفهم أحدنا الآخر أبدا . من الأفضل أن نترك هذا الحديث – وصاح لايفسكى النادل – يا مصطفى ، كم حسابنا ؟
فانزعج الدكتور وامسك بذراع لايفسكى :
– لا ، لا . . أنا سأدفع . انا الذى طلبت – وصـــــاح بمصطفى – سجله على حسابى .
نهض الصديقان وسارا فى صمت على الكورنيش . وتوقفا عند مدخل البوليفار وصافحا بعضهما بعضا مودعين .
وقال صامويلنكو متنهدا :
– كم انتم مدللون ايها السادة ! لقد ساقت لك الأقدار امرأة شابة ، جميلة ، مثقفة ، واذا بك ترفضها ، ولو اعطانى الله ولو عجوزا مهدمة ، بشرط ان تكون رقيقـــة وطيبة ، لما وسعتنى الدنيا من الفرحة ! ولعشت معها فى كرمنا و . . .
واستدرك صامويلنكو فقال :
– ولتعد لى الشاى ، هذه الساحرة الشمطاء .
وودع لايفسكى ومضى فى البوليفار . وعندما ســـــار فى

البوليفار ، رزينا ، مهيبا ، بتعبير صارم على الوجه ، وفى سترته البيضاء الناصعة وحذائه الطويل الملمع بصورة ممتازة ، وقد نفخ أمامه صدره المزدان بوسام فلاديمير ، فى تلك اللحظة أحس باعجاب شديد بنفسه ، وخيل اليه ان العالم كله ينظر اليــه بسرور . وتطلع حواليه دون أن يدير رأسه فوجد ان البوليفار منسق جيدا ، وأن اشجار السرو الفتية والكافور ، والنخل القبيح الأعجف جميلة جدا وسوف تنشر بمضى الزمن ظلالها الوارفة ، وأن الشركس قوم شرفاء وكرماء . وفكر فى نفسه : «من الغريب ان القوقاز لا يعجب لايفسكى ، غريب جدا» . وقابله خمسة جنود يحملون البنادق فأدوا له التحية . وعلى الرصيف الأيمن للبوليفار مرت زوجة أحد الموظفين مع ابنها التلميذ .

فصاح صامويلنكو محييا وهو يبتسم بارتيا ح :

– صباح الخير يا ماريا قسطنطينوفنا ! هل كنت تستحمين؟ ها-ها-ها . . . تحياتى لنيكوديم الكسندريتش !

وواصل سيره وهو لا يزال يبتسم بارتياح ، ولكنه عندما رأى ممرضا عسكريا يسير فى اتجاهه عبس فجأة واستوقفـــه وسأله :

– هل هناك أحد فى المستشفى ؟

– لا أحد يا صاحب المعالى .

– هه ؟

– لا أحد يا صاحب المعالى .

– حسنا ، انصرف . . .

واتجه وهو يتأرجح بعظمة الى كشك مرطبات ، حيث كانت تجلس امرأة يهودية عجوز كبيرة الصدر ، وتدعى انها جورجية ، وقال لها بصوت عال وكأنه يقود فوجا :

– لو سمحت رجاء ، اعطنى ماء صودا !

٢

كان عدم حب لايفسكى لناديجدا فيودوروفنا يتجلى اساسا فى ان كل ما كانت تقوله وتفعله يبدو له كذبا او شبيها بالكذب ، وكل ما كان يقرأه ضد النساء والحب بدا له منطبقا اكثر شىء

عليه وعلى ناديجدا فيودوروفنا وعلى زوجها . وعندما عاد الى البيت كانت جالسة بجوار النافذة ، وقد ارتدت ملابسها وصففت شعرها ، تشرب القهوة بوجه مهموم وتقلب صفحات عدد من مجلة سميكة ، ففكر لايفسكى بأن شرب القهوة ليس حدثا بهذه الاهمية التى تستدعى اضفاء تعبير الهم على الوجه ، وانها عبثا ضيعت الوقت فى تسريحة موضة لأنه لا يوجد هنا من يبدى اعجابه ولا حاجة لذلك . وفى عدد المجلة رأى كذبا ايضا . وفكر أنها تتأنق وتصفف شعرها لكى تبدو جميلة ، وتقرأ لكى تبدو ذكية .

وسألته :

– هل هناك مانع فى ان اذهب اليوم للاستحمام ؟

– حسنا . . لو ذهبت او لم تذهبى فلا أظن أن زلزالا سيحدث بسبب ذلك . . .

– كلا ، ولكنى اسأل لأنى اخشى ان يغضب الدكتور .

– اسألى الدكتور اذن . أنا لست دكتورا .

فى هذه المرة كان اكثر شىء لم يعجب لايفسكى فى ناديجدا فيودوروفنا عنقها الأبيض المكشوف وخصلاتها المجعدة على قفاها، فتذكر أن آنّا كارينينا * ، عندما لم تعد تحب زوجها لم يعجبها فيه قبل كل شىء أذناه ، ففكر : «كم هذا صحيح ! كم هو صحيح !» . وأحس بضعف وخواء ذهنى فاتجه الى غرفة مكتبه ، واستلقى على الكنبة ، وغطى وجهه بمنديل لكيلا يزعجه الذباب . وامتدت فى ذهنه أفكار ذابلة متثاقلة عن نفس الشىء كقافلة عربات طويلة فى مساء خريفى ممطر ، فاستولت عليه حالة قهر وخمول . وخيل اليه أنه مذنب فى حق ناديجدا فيودوروفنا وزوجها، وان زوجها مات بسببه . خيل اليه انه مذنب فى حق حياته هو التى أفسدها ، فى حق عالم الافكار السامية والمعارف والعمل ، فبدا له هذا العالم الرائع ممكنا وموجودا ليس هنا ، على شاطئ البحر ، حيث يتسكع الاتراك الجوعى والابخازيون الكسالى ، بل هناك ، فى الشمال ، حيث الاوبرا والمسارح والصحف وكل صور

---

* آنّا كارينينا بطلة رواية تحمل نفس الاسم للكاتب الروسى العظيم ليف تولستوى (١٨٢٨–١٩١٠) . **المعرب** .

العمل الذهنى . لا يمكن للانسان ان يكون شريفا ، ذكيا ، ساميا وطاهرا الا هناك وليس هنا . واتهم نفسه بأنه ليست لديه مثل عليا وفكرة موجهة فى الحياة ، رغم انه كان يفهم ذلك الآن بصورة غامضة . فمنذ عامين ، عندما أحب ناديجدا فيودوروفنا ، بدا له انه ما أن يتحد بها ويسافر معها الى القوقاز حتى ينجو من وضاعة الحياة وخوائها ؛ وها هو الآن ايضا واثق من انه ما أن يهجر ناديجدا فيودوروفنا ويرحل الى بطرسبرج حتى يحصل على كل ما يحتاج اليه .

— الهرب ! — دمدم وقد جلس وراح يقضم اظفاره — الهرب !

وتصور فى خياله كيف يستقل السفينة ، ثم يفطر ، ويشرب البيرة المثلجة ، ويتحدث على السطح مع السيدات ، ثم يستقل القطار فى سيفاستوبول ويرحل . مرحبا أيتها الحرية ! وتمرق المحطات الواحدة تلو الاخرى ، ويصبح الهواء اكثر برودة وصلابة ، وها هى اشجار البتولا والشوح ، ها هى كورسك ، وموسكو . . . وفى المقاصف حساء الكرنب ، وضأن بالعصيدة ، وسمك الحفش ، والبيرة ، وباختصار ليست تلك النواحى الآسيوية ، بل روسيا ، روسيا الحقيقية ! والمسافرون فى القطار يتحدثون عن التجارة والمطربين الجدد ، وعن الميول الفرنسية ـ الروسية . وفى كل مكان تحس بالحياة المثقفة ، المهذبة ، الحية ، النشطة . . . بسرعة ، بسرعة ! . . وها هو اخيرا شارع نيفسكى ، وشارع البحر الكبير ، وها هى حارة كوفنسكى ، حيث كان يعيش مع الطلبة فى وقت ما ، وها هى السماء الرمادية الحبيبة ، ورذاذ المطر ، والحوذية المبتلون . . .

وصاح أحد ما فى الغرفة المجاورة :

— ايفان أندريتش ! هل أنتم هنا ؟

فأجاب لايفسكى :

— أنا هنا ! ماذا تريد ؟

— أوراق !

نهض لايفسكى بكسل ، وبدوار فى رأسه ، ومضى الى الغرفة المجاورة وهو يتثاءب ويقرقع بالشبشب . وعند النافذة المفتوحة

وقف فى الشارع أحد زملائه الموظفين من الشبان وهو يرتب على حافة النافذة أوراقا رسمية .

— لحظة يا عزيزى — قال لايفسكى بنعومة وذهب ليبحث عن المحبرة ، وعندما عاد الى النافذة وقع على الاوراق دون ان يقرأها وقال — حر !

— نعم . هل ستأتون اليوم الى العمل ؟

— لا اعتقد . . . متعب قليلا . قل يا عزيزى لشيشكوفسكى اننى سأمر عليه بعد الغداء .

وانصرف الموظف . واستلقى لايفسكى من جديد على الكنبة فى غرفة مكتبه وراح يفكر :

«واذن ، ينبغى أن ازن جميع الأمور واتدبرها . قبل أن أرحل ينبغى أن أسدد ديونى . انا مدين بحوالى ألفى روبل . وليس لدى نقود . . . بالطبع ليس هذا مهما . سأدفع الآن جزءا كيفما كان ، والباقى أرسله بعد ذلك من بطرسبرج . المهم ناديجدا فيودوروفنا . . . قبل كل شيء ينبغى أن نستوضح علاقاتنا . . . نعم» .

وبعد فترة قصيرة فكر : أليس من الأفضل أن اذهب الى صامويلنكو للتشاور ؟

وقال فى نفسه : «من الممكن أن أذهب ، ولكن أى فائدة من ذلك ؟ سأحدثه مرة أخرى بلا مناسبة عن غرفة النوم ، وعن النساء ، وعما هو شريف وغير شريف . يا للشيطان ، اية أحاديث يمكن ان تكون عما هو شريف وغير شريف اذا كان من الضرورى انقاذ حياتى بسرعة ، اذا كنت اختنق فى هذا السجن اللعين وأقضى على نفسى ؟ . . علىّ فى النهاية ان أفهم ان الاستمرار فى حياة كحياتى وضاعة وقسوة يتضاءل أمامها كل شيء آخر . ينبغى ان اهرب ! — دمدم وهو يجلس — ان اهرب !» .

ادخل منظر الشاطئ المقفر ، والقيظ المحرق ، ورتابة الجبال الملفعة بغلالة ضبابية ليلكية ، والمتشابهة والصامتة ابدا ، والوحيدة أبدا ، على نفس لايفسكى الوحشة ، وخيل اليه أنها تخدره وتسرقه . وربما كان ذكيا جدا ، موهوبا وشريفا بدرجة رائعة . وربما لو لم تحصره الجبال والبحر من جميع الجهات لأصبح

شخصية محلية ممتازة او رجل دولة وخطيبا او كاتبا صحفيا، او مناضلا من المتحمسين الغيورين . من يدرى ! واذا كان الأمر كذلك فأليس من الغباء ان نناقش ما اذا كان عملا شريفا أم غير شريف اذا ما قام انسان موهوب او نافع ، كالموسيقار او المصور مثلا ، بكسر جدار السجن وخداع حراسه كى يهرب من الأسر ؟ كل شيء شريف بالنسبة لانسان فى وضع كهذا .

فى الساعة الثانية جلس لايفسكى وناديجدا فيودوروفنا الى مائدة الغداء . وعندما قدمت لهما الطاهية حساء أرز بالطماطم قال لايفسكى :

– كل يوم نفس الشيء . لماذا لا تطهون حساء كرنب ؟

– لا يوجد كرنب .

– غريبة . عند صامويلنكو يطهون حساء كرنب ، وعند ماريا قسطنطينوفنا حساء كرنب ، أنا الوحيد الذى يتوجب عليه لسبب ما أن يأكل هذا السائل المائع المسكّر . لا يصح هذا يا عزيزتى .

ومثلما لدى الغالبية العظمى من الازواج لم يكن أى غداء لدى لايفسكى وناديجدا فيودوروفنا قبلا يخلو من النزوات والمشاحنات ، ولكن منذ أن قرر لايفسكى أنه لم يعد يحبها فقد حرص على ان يتنازل أمامها فى كل أمر ، وكان يخاطبها بنعومة وأدب ، ويبتسم ويناديها عزيزتى .

وقال وهو يبتسم :

– هذا الحساء يشبه بمذاقه عرق السوس – وأجبر نفسه على أن يبدو بشوشا ، ولكنه لم يصبر فقال – لا أحد عندنا يراعى شئون البيت . . . اذا كنت مريضة الى هذه الدرجة او مشغولة بالقراءة فليكن ، سأتولى أنا شئون المطبخ .

وكانت قبلا قد ترد عليه : «تولاها» او «أنت كما يبدو تريد أن تجعل منى طاهية» . أما الآن فقد نظرت اليه فقط بتهيب ، وتضرج وجهها .

فسألها برقة :

– حسنا ، كيف حالك اليوم ؟

– اليوم لا بأس . فقط ضعف بسيط .

– يجب ان تحافظى على نفسك يا عزيزتى . انا خائف عليك جدا .

كانت ناديجدا فيودوروفنا مريضة بشيء ما . وقال صامويلنكو ان عندها حمى متقطعة وراح يطعمها الكينا . أما الطبيب الآخر ، والمدعو أوستيموفيتش ، وهو رجل طويل القامة ، نحيف ، منعزل عن الناس ، يجلس نهـــارا فى البيت ويخرج مساء ويتجول على الكورنيش بهدوء عاقدا يديه خلفه ومادا عصا بطول ظهره ويسعل ، فقد وجد لديها مرضا نسائيا ووصف لها كمادات ساخنة . وفى السابق ، عندما كان لايفسكى يحب ناديجدا فيودوروفنا ، كـان مرضها يثير شفقته وخوفه ، اما الآن فكان يرى الكذب حتى فى مرضها . فالوجه الأصفر النعسان ، والنظرات الذابلة والتثاؤب ، التى كانت تطرأ على ناديجدا فيودوروفنا ، بعد نوبات الحمى ، وتدثرها اثناء النوبة بالحرام بحيث تبدو اكثر شبها بصبى منها بامرأة ، واختناق الجو فى غرفتها وروائحتها غير الطيبة . . . كل ذلك كان فى رأيه محطما للأوهام ومضادا للحب والزواج .

وكان الطبق الثانى الـــذى قدم اليه هو سبانـــخ بالبيض المسلوق ، اما ناديجدا فيودوروفنا فقدم اليها ، كمريضة ، عصير فواكه مع اللبن . وعندما لمست العصير بالملعقة فى البداية بوجه مهموم ، ثم راحت تتناوله بكسل وتبلعه باللبن فيسمع لايفسكى بلعاتها ، تملكته كراهية شديدة حتى انه أحس بحك فى رأسه . كان يعى أن مثل هذا الشعور يمكن ان يكون مهينا حتى تجـــاه كلب ، الا أنه لم يكن مستاء من نفسه بل من ناديجدا فيودوروفنا لأنها هى التى اثارت فيه هذا الشعور ، وأدرك السبب الذى يدفع بالعشاق احيانا الى قتل عشيقاتهم . وما كان هو بالطبع ليقتل ، ولكن لو أنه أصبح فى مكان محلّف لبرأ القاتل .

– Merci يـا عزيزتى – قـال بعد الغـداء وقبّل ناديجـــدا فيودوروفنا فى جبينها .

وعندما دخل غرفة مكتبه ظل يذرعها من ركن لركن حـــوالى خمس دقائق ، وهو يتطلع بطرف عينه الى الحذاء الطويل ، ثـم جلس على الكنبة ودمدم :

– الهرب ، الهرب ! استيضاح علاقاتنا ، ثم الهرب !

استلقى على الكنبـــة وتذكر من جديد أن زوج ناديجـــدا فيودوروفنا قد مات ربما بسببه .

واخذ يقنع نفسه وهو مستلق رافعا ساقيه لكى يرتـــدى الحذاء الطويل :

– من الغباء تحميل انسان الذنب لأنه أحب او لم يعد يحب . الحب والكراهية لا يخضعان لسلطاننا . أما بخصوص زوجها فربما اكون ، بصورة غير مباشرة ، أحد اسباب موته ، ولكن هل أنا مذنب فى أننى احببت زوجته وهى أحبتنى ؟

ثم نهض وتنـــاول عمرته ، وخرج متوجها الى زميلـــه شيشكوفسكى الذى كان الموظفون يجتمعون عنده يوميـــا للعب الورق وتناول البيرة المثلجة .

وفكر لايفسكى وهو سائر فى الطريق : «اننى أشبه هملت فى ترددى . كم كان شكسبير على حق فى ملاحظته ! أوه كم كان على حق !» .

٣

لكى يتجنب الدكتور صامويلنكو الملل ، واستجابة منه لحاجة الوافدين الجدد والعزاب ، الذين لم يكن لديهم مكان يتغدون فيه لعدم وجود فنادق فى المدينة ، فقد فتح فى بيته شيئا أشبـــه بـ«التابل دوت» * . وفى الوقت الذى نروى عنه كان يتناول الطعام لديه شخصان فقط : عالم الحيوان الشاب فون كورين ، الذى كان يأتى صيفا الى البحر الأسود لدراسة علم أجنة قناديل البحر ، والشماس بوبيدوف ، الذى تخرج حديثا من المعهد الدينى وأرسل الى هذه المدينة الصغيرة فى مهمة ليتولى أعمال الشماس العجوز المسافر للعلاج . وكان كل منهما يدفع اثنى عشر روبلا فى الشهر مقابل الغداء والعشاء ، وأخذ صامويلنكو منهما عهدا بأنهمـــا سيجيئان للغداء فى الساعة الثانية دون تأخير .

---

* عن الفرنسية Table d'hôte – وجبـــة طعام تقدم فى وقت معين وبسعر محدد . **المعرب** .

وفى العادة كان فون كورين يأتى اولا . يجلس صامتا فى غرفة الجلوس ويتناول ألبوما من على الطاولة ويتفحص باهتمام الصور الباهتة لرجال ما غير معروفين بسراويل عريضة وقبعات اسطوانية وسيدات بتنورات مبطنة بـالاسلاك وقلنسوات . ولم يكـن صامويلنكو يذكر الا اسماء القليلين منهم ، اما اولئك الذيـن نسيهم فيقول عنهم متنهدا : «رجل رائع ، نادر الذكاء !» وبعد ان يفرغ فون كورين من الألبوم يتناول مسدسا من الرف ، ويزر عينه اليسرى ويسدده طويلا الى صورة الامير فورونتسوف ، او يقف أمام المرآة ويتأمل وجهه الاسمر وجبينه العريض وشعـره الاسود المجعد كشعر الزنجى ، وقميصه المصنوع من قماش شيت كابى اللون بأزهار كبيرة ، والذى يشبه سجادة عجمية ، وحزامه الجلدى العريض الذى يحل محل الصديرى . وكان تـأمل النفس يجلب له متعة لا تكاد تقل عن متعة تفحص الألبوم او المسدس ذى الحلية الثمينة . كان فى غاية الرضا عن وجهه ، وعن لحيته الجميلة المقصوصة ، وعن كتفيه العريضتين اللتين كانتا دليلا واضحـا على صحته الجيدة وبنيانه القوى . وكان راضيا عن بدلته الانيقة ابتداء بربطة العنق المختارة حسب لون القميص ، وانتهاء بالحذاء الأصفر .

وبينما هو يتفحص الألبـوم او يقف امام المرآة يسعـى صامويلنكو فى هذه الاثناء فى المطبخ او بجواره ، فى المدخل بدون سترة وصديرى ، عريان الصدر ، منفعلا والعرق يتصبب منه ، ويدور حول الطاولات وهو يعد السلاطة او صلصة ما ، او يقطع اللحم والخيار والبصل لحساء «الأكروشكا» ، وفى الوقت نفسـه يحملق بعينين جاحظتين غاضبتين فى جندى المراسلة الذى يعاونه ويلوح له مهددا تارة بالسكين وتارة بالملعقة .

ويأمره :

– هـات الخل ! لا ، ليس الخل بـل الزيت ! – ويصيـح فيه ويدق بقدميه – الى اين يا حيوان ؟

فيقول الجندى المأخوذ بصوت رفيع متحشرج :

– لاحضر الزيت يا صاحب المعالى .

– بسرعة . انه فى الصوان ! وقل لداريا أن تضـع بعض

الشبت فى برطمان الخيار ! الشبت ! غط القشدة يا مسطول والا سقط فيها الذباب !

وبدا ان البيت كله يئز من صراخه . وقبل أن تبلغ الساعة الثانية بعشر او خمس عشرة دقيقة يأتى الشماس ، وهو شاب ، فى حوالى الثانية والعشرين ، نحيل ، طويل الشعر ، بلا لحية ، وبشارب لا يكاد يلحظ . وعندما يدخل غرفة الجلوس يرسم علامة الصليب فى اتجاه الأيقونة ، ويبتسم ، ويمد يده الى فون كورين .

فيرد عالم الحيوان ببرود :

– مرحبا . أين كنت ؟

– فى المرفأ . كنت اصطاد السمك .

– مفهوم طبعا . . يبدو لى ايها الشماس انك لن تزاول عملا ابدا .

فيقول الشماس وهو يبتسم ويدس يديه فى جيبى قفطانه العميقين للغاية :

– ولم لا ؟ العمل ليس دبا . . لن يهرب الى الغابة .

فيتنهد عالم الحيوان :

– لا يوجد من يؤدبك !

وتمر خمس عشرة اوعشرون دقيقة أخرى دون ان يدعوهما أحد الى الغداء ، ولا يزال يسمع وقع حذاء الجندى وهو يجرى من المدخل الى المطبخ وبالعكس ، بينما صامويلنكو يصيح :

– ضعه على الطاولة ! الى أين تمده ؟ اغسله اولا !

ويبدأ الشماس وفون كورين ، وقد شعرا بالجوع ، فى دق الأرض بكعوبهما ، معربين بذلك عن نفاد صبرهما – كالمشاهدين فى أعلى المسرح . وأخيرا يفتح الباب ويعلن الجندى المعذب : «الأكل جاهز !» وفى غرفة الطعام يستقبلهما صامويلنكو ، محمرا ، متفصدا عرقا بسبب جو المطبخ الخانق ، وغاضبا . وينظر اليهما بغل ، ثم يرفع غطاء وعاء الحساء والرعب يكسو وجهه ، ويصب لكل منهما طبقا ، وبعد أن يتأكد انهما يأكلان بشهية وان الطعام يعجبهما ، عندها فقط يتنفس الصعداء ويجلس فى فوتيله العميق . ويصبح وجهه ساهما ، مداهنا . . . ويصب لنفسه على مهل كأسا من الفودكا ويقول :

– فى صحة الجيل الجديد !

وبعد حديثه اليوم مع لايفسكى ظل صامويلنكو طوال الوقت من الصباح الى الغداء ، ورغم مزاجه الرائع ، يشعر فى قرارة نفسه بانقباض مبهم . كان يشفق على لايفسكى ويرغب فى مساعدته . وبعد ان شرب قبل الحساء كأس فودكا تنهد وقال :

– رأيت اليوم فانيا لايفسكى . مسكين ، شقى فى حياته . الناحية المادية لديه لا تبشر بخير ، والأهم من ذلك ان الناحية السيكولوجية سحقته . اننى اشفق على هذا الشاب .

فقال فون كورين :

– هذا هو من لا اشفق عليه ! لو أن هذا الرجل اللطيف أوشك على الغرق لدفعته بالعصى : اغرق يا أخى اغرق . . .

– غير صحيح . ما كنت لتفعل ذلك .

فهز عالم الحيوان كتفيه وقال :

– ولماذا تظن ذلك ؟ انا أيضا ، مثلك ، قادر على عمل الخير .

فسأل الشماس :

– وهل اغراق انسان عمل خيّر ؟

وضحك .

– اذا كان لايفسكى ؟ نعم .

فقال صامويلنكو رغبة منه فى تغيير مجرى الحديث :

– يبدو ان الاكروشكا ينقصها شىء ما . . .

فمضى فون كورين يقول :

– لايفسكى بلا شك ضار وخطر على المجتمع مثل ميكروب الكوليرا . واغراقه خدمة .

– ليس مما يشرفك أن تقول هذا عن قريب لك . خبرنى ، لماذا تكرهه الى هذا الحد ؟

– لا تقل كلاما فارغا يا دكتور . ان كراهية ميكروب او احتقاره حماقة ، اما ان نعتبر من الأقربين كل من هب ودب دون تمييز ومهما كان الأمر ، فكلا ، اشكركم ، ان هذا يعنى ألا نناقش ونفكر ، معناه التخلى عن الموقف العادل تجاه الناس أى نفض اليدين باختصار . اننى اعتبر لايفسكى صاحبك وغدا ولا أخفى

ذلك ، وانظر اليه كوغد بكل ما فيّ من استقامة . أما انت فتعتبره من أقربينك ، حسنا فلتعانقه ولتقبله . تعتبره من الاقربين ، وهذا معناه انك تنظر اليه كما تنظر اليّ والى الشماس ، أى لا نظرة . انك عديم الاكتراث بالجميع على حد سواء .

فدمدم صامويلنكو وهو يقطب مشمئزا :

– تسمى الانسان وغدا ! هذا معيب الى درجة لا أستطيع ان اصفها لك !

فاستطرد فون كورين :

– الناس تحاكم بتصرفاتها . فلتحكم أنت يا شماس . سوف اتحدث اليك . فنشاط السيد لايفسكى مبسوط امامك بوضوح كمخطوط صينى طويل ، وبوسعك ان تقرأه من البداية الى النهاية . فما الذى فعله خلال عامين من اقامته هنا ؟ فلنعد ذلك على الأصابع . اولا : علّم اهل المدينة لعبة الفنت . ولم تكن هذه اللعبة معروفة هنا منذ سنتين ، اما الآن فالجميع ، حتى النساء والمراهقون ، يلعبون الفنت من الصباح الى ساعة متأخرة من الليل . وثانيا : علّم البرجوازيين الصغار شرب البيرة ، التى لم تكن معروفة هنا ايضا . والبرجوازيون مدينون له كذلك بمعرفة شتى انواع الفودكا ، حتى انهم يستطيعون الآن بأعين مغمضة أن يميزوا فودكا كوشيليف عن فودكا سميرنوف رقم واحد وعشرين . وثالثا : كانوا هنا سابقا يعاشرون زوجات الآخرين سرا ، لنفس الاعتبارات التى بسببها يسرق اللصوص سرا لا علانية ، فقد كان الزنى يعد شيئا يخجل الناس من عرضه للفرجة العامة . أما لايفسكى فكان رائدا فى هذا الصدد : فهو يعاشر زوجة رجل آخر بصورة سافرة . ورابعا . . .

أكل فون كورين حساءه بسرعة وأعطى الطبق الفارغ للجندى . ومضى يقول مخاطبا الشماس :

– لقد فهمت لايفسكى من الشهر الاول لتعارفنا . جئنا الى هنا فى وقت واحد . والناس من أمثاله يحبون جدا التصادق والتقارب والتضامن وما الى ذلك ، لأنهم دائما بحاجة الى صحبة للعب الفنت وللشراب والطعام ، وفوق ذلك فهم ثرثارون وبحاجة الى مستمعين . وتصادقنا ، أعنى انه كان يتسكع عندى كل يوم ،

فيعوقنى عن العمل ويتصارح معى بخصوص خليلته . ومنذ الوهلة الأولى اذهلنى زيفه الى درجة اثارت فى الغثيان . وكصديق أنبته : لماذا يشرب كثيرا ، ولماذا ينفق اكثر من دخله ويستدين ، ولماذا لا يفعل ولا يقرأ شيئا ، ولماذا هو ضعيف الثقافة الى هذا الحد وقليل المعرفة ، فكان يرد على كل اسئلتى بابتسامة مريرة ويتنهد ويقول : «أنا فاشل ، أنا انسان ضائع» او «ماذا تريد منا يا أبتاه ، نحن حطام نظام القنانة ؟» ، او «اننا ننقرض . . .» او يشرع فى التفوه بهراء طويل عن أونيجين وبتشورين وقابيل بايرون وبازاروف ، الذين كان يقول عنهم : «انهم آباؤنا جسدا وروحا» * . وكأنما يريد منا أن نفهم انه ليس المذنب فى أن المظاريف الرسمية تتكدس بالاسابيع دون أن يفتحها ، وفى انه يشرب ويسكر الآخرين ، بل المذنب فى ذلك اونيجين وبتشورين وتورجينيف الذى خلق نموذج الانسان الفاشل الضائع . وكما يرى ، فان سبب الانحلال الفائق وسوء السلوك ليس فيه نفسه ، بل فى مكان ما خارجه ، فى الفضاء . وعلاوة على ذلك – ويا لها من حيلة بارعة – فليس هو وحده المنحل والمزيف والوضيع ، بل نحن . . . «نحن جيل الثمانينات» ، «نحن ذرية عصر القنانة ، الذابلة العصبية» ، «نحن شوهتنا الحضارة . . .» وباختصار فعلينا ان نفهم ان رجلا عظيما مثل لايفسكى عظيم حتى فى سقوطه ؛ وان انحلاله ، وضحله ودناءته تعتبر ظاهرة تاريخية طبيعية تمليها الضرورة ، وان الاسباب هنا عالمية ، عفوية ، وانه علينا أن نعلق امامه قنديلا لأنه ضحية نحس الزمن والاتجاهات والوراثة وما الى ذلك . وكان الموظفون والسيدات جميعا يصغون اليه ويتأوهون ويتنهدون ، أما أنا فلم أستطع لفترة طويلة ان أفهم

---

* يفجينى أونيجين بطل رواية شعرية للشاعر الروسى الكبير بوشكين تحمل نفس الاسم . وبتشورين بطل رواية «بطل من هذا الزمان» للشاعر الروسى ، خليفة بوشكين ، ميخائيل ليرمنتوف . وكلا البطلين نموذج للجيل الضائع فى اوائل القرن التاسع عشر فى ظروف النظام القيصرى المطلق . وقابيل بطل قصيدة مسرحية تحمل نفس الاسم للشاعر البريطانى الكبير اللورد بايرون . أما بازاروف فبطل رواية الكاتب الروسى ايفان تورجينيف «الآباء والابناء» . **المعرب** .

مع من أتعامل : مع عيّاب ساخر ام مع نصاب بارع ؟ ان هذه الانماط من امثاله الذين يبدون من الخارج مثقفين ، مهذبين قليلا والذين يتحدثون كثيرا عن نبلهم ، يجيدون التظاهر بأنهم شخصيات معقدة للغاية .

فانفجر صامويلنكو :

– اسكت ! لن أسمح فى حضورى بأن يتحدث أحد بسوء عن رجل من أنبل الناس !

فقال فون كورين ببرود :

– لا تقاطعنى يا الكسندر دافيديتش . سأفرغ من كلامى حالا . ان لايفسكى كيان غير معقد ابدا . واليك اطاره الأخلاقى : فى الصباح الشبشب والاستحمام والقهوة ، ثم بعد ذلك وحتى الغداء الشبشب والتريض والأحاديث ، فى الساعة الثانية الشبشب والغداء والخمر ، وفى الخامسة الاستحمام والشاى والخمر ، ثم الفنت والكذب ، وفى العاشرة العشاء والخمر ، وبعد منتصف الليل النوم و la femme * . وجوده محصور فى هذا البرنامج الضيق كالبيضة فى القشرة . وسواء كان يسير ، أو يجلس ، او يغضب ، أو يكتب ، أو يفرح . . فكل شىء يؤول الى الخمر والورق والشبشب والمرأة . والمرأة تلعب فى حياته دورا مشؤوما كاسحا . وهو نفسه يروى انه اصبح عاشقا وهو بعد فى الثالثة عشرة من عمره . وعندما كان طالبا بالصف الأول الجامعى عاشر سيدة ، كان لها تأثير مفيد عليه ويدين لها بثقافته الموسيقية . وفى الصف الثانى حرر بالنقود بغيا من بيت دعارة ورفعها الى مستواه ، أى اتخذها خليلة ، اما هى فعاشت معه نصف عام وهربت لتعود ثانية الى صاحبة البيت ، وسبب له هذا الهرب كثيرا من المعاناة الروحية . ويا للخسرة ، لقد عانى الى درجة انه اضطر الى ترك الجامعة والعيش سنتين بلا عمل فى بيت أهله . ولكن ذلك كان مفيدا . فقد عاش فى البيت أرملة نصحته بأن يترك كلية الحقوق ويلتحق بكلية الآداب . وهذا ما فعله . وبعد أن تخرج من الكلية أحب بشغف صاحبته الحالية . . ما اسمها ؟ . . تلك المتزوجة ، وكان

---

* المرأة (بالفرنسية فى الأصل) .

عليه ان يهرب بها الى هنا ، الى القوقاز كأنما سعيا وراء المثل العليا ... واليوم أو غدا سيكـــف عن حبها ويهرب عائدا الى بطرسبرج ، وأيضا سعيا وراء المثل العليا .

فدمدم صامويلنكو وهو يحدق بغل فى عالم الحيوان :

– ومن أين لك ان تعرف ؟ كل أحسن .

وقدم لهم سمك بورى مسلوق بالصلصة البولندية . ووضع صامويلنكو لكل من نزيليه سمكة كاملة وصب عليها الصلصـة بنفسه . ومرت دقيقتان فى صمت .

ثم قال الشماس :

– المرأة تلعب دورا جوهريا فى حياة كل انسان . ولا حيلة لنا فى ذلك .

– نعم ، ولكن الى أى مدى ؟ المرأة لدى كل منا أم وأخت وزوجة ، وصديق ، أما لدى لايفسكى فهى كل شىء ، وفى الوقت نفسه هى عشيقة فقط . فهى ، أى معاشرتها ، سعادة حياتـــه وغرضها . انه مرح ، حزين ، ضجر ، خائب الأمل بسبب المرأة . فاذا سئم الحيـــاة فالمرأة هى المذنبة ، واذا اشرق فجر حيـــاة جديدة ، وظهرت المثل العليا المفقودة ، فلنفتش هنا ايضا عن المرأة . . . ولا ترضيه الا الكتابات او الصور التى توجد فيهــا امرأة . وعصرنا فى رأيه سيئ واسوأ من الأربعينات او الستينات فقط لأننا لا نعرف كيف نستسلم لنشوة الغرام وشهوته الى درجة الذهول . ويبدو أن لدى طالبى اللذة هؤلاء نتوءا خاصا فى المخ مثل الورم اللحمـــى الخبيث ، سحق مخهم ويتحكم فى كـــل سيكولوجيتهـــم . فلتراقب لايفسكى عندمـــا يجلس فى أحـــد المجتمعات . ولتلاحظ انه عندما تثير أمامه قضية ما عامة ، حول الخلية مثلا او الغريزة ، فستجده يجلس بعيدا ، صامتا ولا يسمع . ومنظره ساهم ، خائب الأمل ، لا شىء يثير اهتمامه ، وكل شىء وضيع وتافه . ولكن ما أن تتحدث عن الاناث والذكور ، عن أن انثى العنكبوت مثلا تأكل الذكر بعد عملية الاخصاب ، حتى تلمع عيناه بالفضول ، ويتهلل وجهه ، وباختصار يستيقظ فيه الانسان . ان كل أفكاره ، مهما كانت نبيلة وسامية او لامبالية ، لها دائما نقطة التقاء مشتركة . فاذا سرت معه فى الشارع وصادفكما حمـار

مثلا . . . «قل لى لو سمحت – يسألك لايفسكى – ماذا يحدث لو جامع الجمل حمارة ؟» وأحلامه ! هل روى لك احلامه ؟ انها رائعة ! فمرة يحلم بأنهم يزوجونه من القمر ، ومرة يستدعونه الى الشرطة ويأمرونه هناك بأن يتزوج من قيثارة . . .

وقهقه الشماس بضحكات رنانة ، أما صامويلنكو فقد عبس وقطب وجهه بغضب لكيلا يضحك ، ولكنه لم يتمالك نفسه فقهقه .

وقال وهو يمسح دموعه :

– كذاب على طول الخط ! أى والله كذاب !

٤

كان الشماس ضحوكا جدا ، يضحك لأى سبب تافه الى حد الألم فى الجنب ، الى حد الاغماء . وبدا وكأنما لم يكن يحب الاختلاط بالناس الا لأن فيهم جوانب مضحكة ولأن من الممكن اطلاق اسماء مضحكة عليهم . وقد سمى صامويلنكو بالعنكبوت وجندى مراسلته بذكر البط ، وتملكه الاعجاب عندما وصف فون كورين كلا من لايفسكى وناديجدا فيودوروفنا ذات مرة بالنسانيس . وكان يحدق فى الوجوه بنهم ويصغى دون ان تطرف عيناه ، ويبدو بوضوح كيف تمتلئ عيناه بالضحك ، وكيف يتوتر وجهه فى انتظار اللحظة المناسبة لينفلت مطلقا عنان الضحكات .

ومضى عالم الحيوان يقول بينما حملق فيه الشماس بعينين نهمتين فى انتظار كلمات مضحكة :

– انه نمط فاسق وفاسد . ومن النادر أن تجد مثل هذا التافه . انه ذابل الجسد ، خائر ، عجوز ، أما ذهنه فلا يتميز عن ذهن تاجرة سمينة لا تفعل شيئا سوى أن تأكل وتشرب وتنام على فراش من الريش وتتخذ من حوذيها عشيقا .

وقهقه الشماس من جديد .

فقال فون كورين :

– لا تضحك يا شماس ، فهذه ، فى النهاية ، حماقة منك –

ثم انتظر حتى كف الشماس عن الضحك واستطرد – ما كنت لألتفت الى تفاهته ، ولكنت تجاهلته ، لو لم يكن ضارا وخطرا الى هذا الحد . وضرره يتجلى قبل كل شيء فى أنه يحوز على اعجاب النساء ، وبالتالى فهناك احتمال بأن تكون له ذرية ، أى أن يهدى العالم دستة من آل لايفسكى ، ضعفاء وفاسدين مثله هو . وثانيا فهو معد الى اقصى درجة . ولقد سبق أن تحدثت لك عن لعبة الفنت والبيرة . ولن يمضى عام او عامان حتى يكون قد غزا شاطئ القوقاز كله . وأنت تعلم الى اى مدى تثق الجماهير ، وخاصة شريحتها المتوسطة ، فى المثقفين وخريجى الجامعات ، وفى طريقة السلوك الراقية وبلاغة الحديث . فمهما ارتكب لايفسكى من دناءة فان الجميع يثقون بأن ذلك حسن ، وان هذا هو ما ينبغى ، لأنه شخص مثقف ، ليبرالى وجامعى . وعلاوة على ذلك فهو انسان فاشل ، ضائع ، مريض بالعصاب ، ضحية الزمن ، وهذا يعنى ان كل شيء مباح بالنسبة له . وهو فتى لطيف ، وشخص طيب القلب ، وكم يعطف على ضعف البشر . وهو سلس القياد ، متساهل ، مطواع ، غير متكبر ، يمكن معه أن تشرب وتغتاب الناس ، وتثرثر . . . الجماهير ميالة دائما الى التجسيد * فى الدين والأخلاق ، وهو تحب اكثر شيء تلك الآلهة التى تتميز بنفس النواقص التى لديها هى . فلتحكم بنفسك الى أى مدى يمتد مجال عدواه ! وعلاوة على ذلك فهو ممثل لا بأس به ومنافق بارع ويعرف جيدا من أين تؤكل الكتف . انظر الى حيله وألاعيبه ، ولو مثلا الى موقفه من الحضارة . انه لم يشم حتى رائحة الحضارة ومع ذلك يقول : «آه ، كم أفسدتنا الحضارة ! آه ، كم أغبط اولئك المتوحشين ، أبناء الطبيعة هؤلاء ، الذين لا يعرفون الحضارة !» . وهكذا فعلينا ، كما ترى ، أن نفهم ان حضرته كان فى العهود الخوالى ، من أشد المخلصين للحضارة ، وكرس حياته لخدمتها ، وسبر كل أغوارها ، لكنها أعيته ، وخيبت أمله ، وخدعته . انه كما ترى اذن فاوست ، تولستوى الثانى . . .

---

* التجسيد أو التشبيه : خلع الصفات البشرية على الله او على ظواهر الطبيعة . **المعرب** .

أما شوبنهاور وسبنسر فيستخف بهما كطفلين ويربت على كتفيهما بأبوية : حسنا ، كيف الحال يا أخي سبنسر ؟ وهو بالطبع لم يقرأ سبنسر ، ولكنه ما ألطفه عندما يقول عن سيدته بسخرية خفيفة واستهانة : «انها قرأت سبنسر !» . ويصغون اليه ولا يريد أحد أن يفهم ان هذا المهرج لا يحق له لا أن يذكر سبنسر بهذه النبرة فحسب ، بل ولا حتى ان يقبّل نعل حذائه ! ان تقويض أسس الحضارة ، والاسماء الشهيرة ، وهياكل الآخرين ، وتلويثها بالقاذورات ، والغمز نحوها بتهريج ، فقط بغية تبرير واخفاء الضعف الذاتي والبؤس الاخلاقي . . كل ذلك لا يصنعه الا حيوان مغرور جدا ومنحط ودنيء .

وقال ساموبلنكو وهو ينظر هذه المرة الى عالم الحيوان لا بغل ، بل بنظرة مذنبة :

– أنا لا أعرف يا كوليا ما الذى تريده منه ؟ انه انسان ككل الناس . بالطبع لا يخلو من نواقص ، ولكنه يقف على مستوى الأفكار الحديثة ، ويخدم ، ويعود بالفائدة على الوطن . منذ عشر سنوات كان يعمل هنا وكيل عجوز . . رجل نادر الذكاء . . . ولقد قال هذا الرجل . . .

فقاطعه عالم الحيوان :

– كفى ، كفى ! تقول انه يخدم . فكيف يخدم ؟ هل بمجيئه الى هنا أصبحت الأمور أفضل والموظفون اكثر انضباطا وأمانة وتأدبا ؟ بالعكس ، فكل ما صنعه أنه صادق على فسادهم بسمعته كرجل مثقف ، جامعى . انه لا يكون منضبطا الا فى العشرين من كل شهر ، عندما يتقاضى المرتب ، أما فى بقية الأيام فهو فقط يحك الأرض بشبشبه فى البيت ، ويسعى الى ان يضفى على نفسه تعبيرا ، كأنما هو يقدم خدمة كبيرة للحكومة الروسية بمعيشته فى القوقاز . لا يا الكسندر دافيديتش ، لا تدافع عنه . فلست صادقا من البداية حتى النهاية . فلو كنت حقا تحبه وتعتبره من أقربينك ، لما كنت قبل كل شيء لامباليا تجاه نواقصه ، ولما عاملته بتسامح ، بل لحاولت من أجل مصلحته أن تقضى على ضرره .

– ماذا تعنى ؟

– ان تقضى على ضرره . ولما كان مستحيلا اصلاحه فان القضاء على ضرره ممكن فقط بوسيلة واحدة . . .

ومر فون كورين باصبعه أمام عنقه .

واضاف قائلا :

– او ربما اغراقه . . . فلمصلحة البشرية ، ولمصلحته هو ينبغى القضاء على هؤلاء الناس . من كل بد .

فدمدم صامويلنكو وهو ينهض وينظر بدهشة الى وجه عالم الحيوان الهادئ البارد :

– ماذا تقول ؟ ! يا شماس ، ماذا يقول ؟ هل جننت ؟

فقال فون كورين :

– انا لا أصر على الحكم بالاعدام . اذا ثبت أن الحكم بالاعدام شيء ضار فلتبتكروا شيئا آخر . القضاء على لايفسكى غير ممكن ، حسنا ، اعزلوه اذن ، جردوه من شخصيته ، ارسلوه الى أعمال السخرة . . .

– ماذا تقول ؟ – قال صامويلنكو بارتياع – بالفلفل بالفلفل ! – صاح بصوت يائس عندما رأى الشماس يأكل القرع المحشو بدون فلفل – ماذا تقول ، انت الرجل النادر الذكاء ؟ نرسل صديقنا ، الرجل الأبى ، المثقف الى أعمال السخرة !!

– اذا كان أبيّا وقاوم ، فليكبل بالقيود !

لم يستطع صامويلنكو ازاء هذا ان ينطق بكلمة واحدة ، بل حرك اصابعه فقط . ونظر الشماس الى وجهه المذهول ، والمضحك حقا ، وقهقه .

وقال عالم الحيوان :

– دعونا من الحديث عن ذلك . ولكن تذكر شيئا واحدا يا الكسندر دافيديتش ، تذكر ان البشرية البدائية كانت محصنة ضد امثال لايفسكى بالصراع من اجل البقاء وبالانتخاب الطبيعى . أما الآن فقد أضعفت ثقافتنا الى حد كبير الصراع والانتخاب ، وعلينا أن نهتم نحن بالقضاء على الضعفاء والفاسدين ، والا فان امثال لايفسكى ، عندما يتكاثرون ، فسيقضون على الحضارة وستتفسخ البشرية تماما . وسنكون نحن المذنبين .

فقال صامويلنكو :

– اذا كان علينا أن نغرق الناس ونشنقهم ، فلتذهب حضارتك الى الشيطان ، ولتذهب البشرية الى الشيطان ! الى الشيطان ! اسمع ما سأقوله لك : انت عالم كبير ، رجل نادر الذكاء ، ومفخرة للوطن ، لكن الألمان أفسدوك . نعم الالمان ! الالمان !

منذ أن غادر صامويلنكو مدينة «دربت» التى درس فيها الطب لم ير الألمان الا نادرا ، ولم يقرأ كتابا ألمانيا واحدا ، ولكن كل الشر فى السياسة والعلم كان فى رأيه صادرا عن الالمان . ولم يكن بوسعه أن يفسر من اين جاء بهذا الرأى ، ولكنه كان متمسكا به بشدة .

وردد مرة أخرى :

– نعم ، الألمان ! هيا نتناول الشاى .

نهضوا ثلاثتهم وارتدوا قبعاتهم وخرجوا الى الحديقة وجلسوا هناك فى ظل اشجار القيقب والكمثرى والقسطل الشاحبة . جلس عالم الحيوان والشماس على اريكة بجوار الطاولة ، أما صامويلنكو فجلس فى مقعد مجدول بمسند عريض مائل . وقدم لهم جندى المراسلة الشاى والمربى وزجاجة عصير مركز .

كانت الحرارة شديدة ، حوالى ثلاثين درجة فى الظل . وسكن الهواء القائظ وجمد ، وتدلت خيوط العنكبوت المنسدلة من القسطل الى الأرض بضعف ولم تتحرك .

وتناول الشماس القيثارة الموضوعة هناك دائما على الارض بجوار الطاولة ، وضبط أوتارها وغنى بصوت خافت رفيع : «صبيان المعهد الدينى وقفوا بباب الحانة . . .» ولكنه صمت على الفور من شدة الحر ، ومسح العرق من جبينه ونظر الى اعلى ، الى السماء الزرقاء الساخنة . وكان النوم يداعب صامويلنكو . فمن الحر والهدوء ونعاس ما بعد الغداء اللذيذ الذى شمل كل اطرافه بسرعة احس صامويلنكو بالضعف والسكر . تدلت ذراعاه ، وضاقت عيناه ، ومال رأسه على صدره . وتطلع الى فون كورين والشماس بتأثر دامع ودمدم :

– الجيل الجديد . . . نجم العلم وكوكب الكنيسة . . . ربما صرت يا صاحب القفطان الطويل مطرانا ، اذن سيكون علىّ

أن اقبل يدك لاقدر الله . . لا يهم . . ليوفقك الله . . .

وسرعان ما تردد شخير . وشرب فون كورين والشماس شايهما وخرجا الى الشارع .

وسأل عالم الحيوان :

– ستذهب ثانية الى المرفأ لتصيد السمك ؟

– كلا ، الدنيا حر .

– تعال معى . ستساعدنى فى تغليف الطرد ونسخ بعض الاشياء . وبالمناسبة سنتحدث عما يمكن أن تشغل به نفسك . ينبغى ان تعمل يا شماس . لا يصح هكذا .

فقال الشماس :

– كلامك صحيح ومنطقى ، ولكن ما يغفر لى كسلى هو ظروف حياتى الحالية . فأنت تعلم ان الوضع غير المحدد يساعد كثيرا على الخمول . الله وحده يعلم هل أرسلونى الى هنا موقتا ام بصفة دائمة . انا اعيش هنا فى المجهول ، اما زوجتى البائسة فتقيم عند أبيها وتشعر بالحنين . واصارحك بأن الحر قد سيّح مخى .

فقال عالم الحيوان :

– كل هذا هراء . الحر يمكن التعود عليه ، وبدون زوجتك يمكن ان تتعود على الحياة . دعك من الدلع . ينبغى ان تسيطر على نفسك .

٥

مضت ناديجدا فيودوروفنا صباحا الى البحر لتستحم ، ومن خلفها سارت طاهيتها أولجا حاملة ابريقا وطستا نحاسيا وملاءات واسفنجة . وكانت تقف فى الميناء سفينتان غير معروفتين ، بمداخن بيضاء قذرة ، ويبدو أنهما سفينتا شحن أجنبيتان . وسار على رصيف المرفأ رجال ما يرتدون ملابس بيضاء واحذية بيضاء وهم يصيحون عاليا بالفرنسية ، فيردون عليهم من السفينتين . ودقت أجراس كنيسة المدينة بحماس .

وتذكرت ناديجدا فيودوروفنا بارتياح : «اليوم الأحد !» .

أحست أنها فى صحة تامة ، وكان مزاجها مرحا وعيديا . وبدت لنفسها لطيفة جدا فى فستانها الجديد الفضفاض ، المصنوع من الحرير الصينى الخشن ، وفى قبعة كبيرة من القش كانت حوافها العريضة مطوية بقوة الى الأذنين حتى بدا وكأن وجهها يطل مباشرة من علبة . وفكرت بأنه لا توجد فى المدينة كلها سوى امرأة واحدة ، شابة ، جميلة ، مثقفة ، هى هذه المرأة ، وانها وحدها التى تستطيع ان ترتدى ثيابا رخيصة ولكنها أنيقة ومختارة بذوق . فهذا الفستان مثلا يساوى اثنين وعشرين روبلا فقط ، ومع ذلك كم يبدو لطيفا ! وهى الوحيدة فى المدينة التى يمكن ان تعجب الرجال ، وما اكثرهم ، ولذلك فعليهم جميعا ، شاءوا أم أبوا ، ان يغبطوا لايفسكى .

وسرها ان لايفسكى فى الآونة الاخيرة يعاملها ببرود وبأدب متحفظ ، وأحيانا حتى بتهور وخشونة . وكانت من قبل ترد على كل نزواته ونظرات احتقاره الباردة او الغريبة ، وغير المفهومة ، بالدموع وبالتأنيب والتهديد بالرحيل عنه او بقتل نفسها جوعا ، أما الآن فتتضرج ردا على ذلك ، وتنظر اليه باحساس بالذنب وتبتهج لأنه لا يتودد اليها . ولو أنه سبها او هددها لكان ذلك افضل واكثر مدعاة للسرور ، فهى تشعر بأنها مذنبة فى حقه من جميع الوجوه . بدا لها انها مذنبة ، اولا ، فى عدم تعاطفها مع أحلامه عن حياة العمل ، والتى من أجلها هجر بطرسبرج وجاء هنا الى القوقاز ، وكانت واثقة من أنه غاضب عليها فى الفترة الاخيرة لهذا السبب بالذات . وعندما توجهت الى القوقاز خيل اليها انها ستجد هنا من اول يوم ركنا آمنا على الشاطئ ، وحديقة مريحة بظلال وعصافير وجداول ، حيث يمكن غرس الزهور والخضروات ، وتربية البط والدجاج ، واستضافة الجيران ومعالجة الفلاحين الفقراء وتوزيع الكتب عليهم . ولكن اتضح ان القوقاز جبال عارية وغابات ووديان هائلة ، وان عليك ان تختار طويلا وتسعى وتبنى ، وليس هنا اى جيران ، والحرارة شديدة ، وقد يسطو عليك اللصوص . ولم يكن لايفسكى متعجلا فى الحصول على قطعة أرض ، وكانت هى سعيدة بذلك ، وبدا وكأنهما اتفقا معا دون كلام الا يذكرا أبدا أى شيء عن حياة

العمل . وظنت ان صمته معناه انه غاضب منها لأنها صامتة .
وثانيا ، فقد اشترت دون علمه مختلف الأشياء الصغيرة من متجر أتشميانوف خلال عامين بما قيمته حوالى ثلاثمائة روبل . كانت تشترى بكميات قليلة تارة منسوجات وتارة حريرا ، وتارة شمسية ، ودون ان تلاحظ تراكم هذا الدين .
— اليوم سأخبره بذلك . . . — قررت بينها وبين نفسها ، وعلى الفور وجدت انه لن يكون مناسبا أن تحدث لايفسكى عن الديون وهو بهذا المزاج .
وثالثا ، فقد استقبلت مرتين فى غياب لايفسكى مفتش الشرطة كيريلين : مرة فى الصباح عندما ذهب لايفسكى ليستحم ، ومرة فى منتصف الليل ، عندما كان فى الخارج يلعب الورق . واذ تذكرت ناديجدا فيودوروفنا ذلك تضرج وجهها والتفتت الى الطاهية وكأنما تخشى ان تكون قد سمعت أفكارها . لقد أدت الأيام الطويلة المملة ، الحارة الى درجة لا تطاق ، والأمسيات الرائعة المضنية ، والليالى الخانقة ، وكل هذه الحياة ، عندما لا تعرف من الصباح الى المساء فيم تنفق الوقت الذى لا لزوم له ، والأفكار المتسلطة بأنها أجمل وأصبى امرأة فى المدينة ، وان شبابها يضيع هباء ، وان لايفسكى نفسه ، شريف وذو عقيدة ، ولكنه رتيب ودائما يحك الأرض بشبشبه ويقضم اظفاره ومملّ بنزواته . . أدى كل ذلك الى أن تملكتها الرغبات شيئا فشيئا ، وأصبحت تفكر كالمجنونة ليل نهار فى شىء واحد . لم تكن تحس فى أنفاسها ، ونظراتها ، وفى نبرة صوتها وخطوتها سوى بالرغبة . وأوحى هدير البحر اليها بأنها فى حاجة الى حب ، وظلام المساء كذلك ، والجبال كذلك . . . وعندما بدأ كيريلين يغازلها لم يكن فى وسعها ، ولم تشأ ولم تستطع ان تقاوم ، فاستسلمت له . . .
والآن ذكرتها السفينتان الاجنبيتان والرجال ذوو الملابس البيضاء لسبب ما بصالة كبيرة . ورنت فى سمعها الى جانب الأصوات الفرنسية انغام الفالس فارتعش صدرها بفرحة لا سبب لها . وأحست برغبة فى الرقص والتحدث بالفرنسية .
وفكرت بفرح بأن خيانتها لا تنطوى على شىء رهيب . فروحها

لم تشارك فى هذه الخيانة ، بل ما زالت تحب لايفسكى ، ويتجلى ذلك فى أنها تغار عليه وترثى له وتشعر بالشوق اليه اذا غاب عن البيت . أما كيريلين فقد ظهر أنه لا شيء ، فظ الى حد ما ، رغم انه جميل ، وقد قطعت علاقتها به ولن يتكرر هذا بعد ذلك . ما فات مات ، وليس لأحد شأن بذلك ، ولو علم به لايفسكى فلن يصدق .

كان على الشاطئ كشك استحمام واحد للنساء ، أما الرجال فكانوا يستحمون فى العراء . وحينما دخلت ناديجدا فيودوروفنا الكشك وجدت هناك سيدة كبيرة السن ، هى ماريا قسطنطينوفنا بيتوجوفا ، زوجة أحد الموظفين ، وابنتها التلميذة كاتيا التى تبلغ الخامسة عشرة من عمرها . كانتا جالستين على الأريكة وتخلعان ملابسهما . كانت ماريا قسطنطينوفنا امرأة طيبة ، منبهرة ولبقة ، وكانت تتكلم ببطء وحماس . وحتى الثانية والثلاثين من عمرها كانت تعمل مربية اطفال ، ثم تزوجت من الموظف بيتوجوف ، وهو رجل صغير أصلع ، يمشط شعره على صدغيه ، ووديع جدا . وحتى الآن ما زالت مولعة به ، وتغار عليه ، وتتضرج خجلا لدى ذكر كلمة «الحب» ، وتؤكد للجميع أنها سعيدة جدا .

– يا عزيزتى ! – قالت بانبهار عندما رأت ناديجدا فيودوروفنا ، وأضفت على وجهها تعبيرا كان يسميه جميع معارفها لوزيّا – يا حبيبتى ، كم هو لطيف أنك جئت ! سوف نستحم معا ، هذا ساحر !

ونزعت أولجا فستانها وقميصها بسرعة وراحت تنزع ملابس سيدتها .

وقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تنكمش من ملامسة جسد الطاهية العارية الخشن لجسدها :

– الطقس اليوم ليس حارا كما بالأمس ، أليس كذلك ؟ كدت أموت أمس من الاختناق .

– أوه نعم يا عزيزتى ! انا ايضا كدت اختنق . هل تصدقين ، بالأمس استحممت ثلاث مرات . . . تصورى يا عزيزتى ، ثلاث مرات ! حتى لقد قلق علىّ نيكوديم الكسندريتش .

«أمن الممكن ان يكون الانسان قبيحا الى هذا الحد ؟» – فكرت ناديجدا فيودوروفنا وهى تنظر الى أولجا والى زوجة الموظف . وتطلعت الى كاتيا وفكرت : «لا بأس بجسدها» .

– ثم قالت :

– زوجك نيكوديم الكسندريتش لطيف جدا جدا ! أنا ببساطة مغرمة به .

فضحكت ماريا قسطنطينوفنا بتكلف :

–ها – ها – ها ! هذا ساحر !

وعندما تجردت ناديجدا فيودوروفنا من ملابسها واتتها الرغبة فى الطيران . وخيل اليها انها لو رفرفت بذراعيها لارتفعت حتما محلقة . ولاحظت بعد أن تعرت ان اولجا تنظر باشمئزاز الى جسدها الأبيض . كانت أولجا زوجة جندى شابة ، تعيش مع زوجها الشرعى ، ولذلك كانت تعتبر نفسها أفضل وأعلى منها . وأحست ناديجدا فيودوروفنا ايضا أن ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا لا تحترمانها وتخافان منها . وكان هذا كريها ، فقالت لكى تعلى من شأنها فى انظارهما :

– موسم الاصطياف لدينا فى بطرسبرج الآن فى عزه . وما اكثر المعارف لدىّ ولدى زوجى ! ينبغى أن أسافر لأراهم .

فسألت ماريا قسطنطينوفنا بوجل :

– زوجك مهندس على ما أظن ؟

– أنا اتحدث عن لايفسكى . لديه معارف كثيرون جدا ، ولكن أمه ، للأسف ، ارستقراطية متكبرة ، ضيقة الأفق . . .

لم تكمل ناديجدا فيودوروفنا كلامها وقفزت الى الماء . ونزلت فى اثرها ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا .

واستطردت ناديجدا فيودوروفنا تقول :

– لدينا فى المجتمع الراقى الكثير من الاحكام المسبقة . والحياة فيه ليست سهلة كما يبدو .

فقالت ماريا قسطنطينوفنا التى عملت مربية لدى عائلات ارستقراطية وخبرت المجتمع الارستقراطى :

– أوه ، نعم ! هل تصدقين يا عزيزتى ، كان آل جاراتينسكى

يتطلبون ملابس خاصة للافطار وللغداء ، ولذلك كنت احصل ، بخلاف المرتب ، على بدل ملابس ، وكأنى ممثلة .

ووقفت بين ناديجدا فيودوروفنا وكاتيا ، وكأنها تفصل ابنتها عن تلك المياه التى كانت تغسل جسد ناديجدا فيودوروفنا . ومن باب كشك الاستحمام المفتوح والمفضى الى البحر ظهر شخص ما سابحا على بعد مائة خطوة من الكشك .

وقالت كاتيا :

– ماما ، انه أخى كوستيا !

– آه ، آه – قرقت ماريا قسطنطينوفنا مذعورة كالدجاجة – آه ، كوستيا ! – وصاحت – عد يا كوستيا ! عد !

ولكى يتباهى كوستيا ، الصبى ابن الاربعة عشر ، بشجاعته امام أمه واخته ، غطس وسبح أبعد ، لكنه تعب فأسرع عائدا ، وبدا من وجهه الجدى المتوتر انه غير واثق من قواه .

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وقد هدأت :

– مصيبة هؤلاء الصبيان يا عزيزتى ! بين لحظة وأخرى قد يكسر عنقه . آه يا عزيزتى ما أجمل أن تكونى أما ، وما اصعب ذلك فى الوقت نفسه . تخافين من كل شىء .

ارتدت ناديجدا فيودوروفنا قبعتها القش وسبحت من الكشك الى عرض البحر . ابتعدت حوالى اربع أذرع واستلقت على ظهرها . وكانت ترى البحر حتى الأفق ، والسفن ، والناس على الشاطىء ، والمدينة . وأثارها كل هذا ، بالاضافة الى القيظ والأمواج الشفافة الرقيقة ، وهمس لها بأنها لا بد أن تعيش وتعيش . . . ومر بجوارها بسرعة زورق شراعى وهو يشق الامواج والهواء بنشاط . وتطلع اليها الرجل الجالس الى الدفة ، فسرها انه ينظر اليها . . .

وبعد ان استحمت السيدات لبسن ثيابهن وانصرفن معا .

وقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تلعق شفتيها المالحتين بعد الاستحمام وترد بابتسامة على تحيات المعارف :

– الحمى تنتابنى يوما بعد يوم ، ومع ذلك لا ينقص وزنى . كنت دائما ممتلئة ، والآن يبدو اننى اكثر امتلاء .

– هذا يا عزيزتى بسبب الاستعداد الفطرى . من ليس لديه

استعداد للسمنة ، مثلى أنا ، فلن يسمن مهما أكل . ولكنك يا عزيزتى بللت قبعتك .

– لا بأس ، ستجف .

ورأت ناديجدا فيودوروفنا مرة ثانية الرجال ذوى الملابس البيضاء وهم يسيرون على الكورنيش ويتحدثون بالفرنسية ؛ ولسبب ما تحركت الفرحة فى صدرها ، وتذكرت بصورة غامضة صالة ما ، رقصت فيها فى وقت من الأوقات ، او ربما رأتها فى الحلم . وهمس لها شىء ما فى اعماق روحها بصوت مبهم خافت بأنها امرأة ضحلة ، وضيعة ، سيئة ، تافهة . . .

توقفت ماريا قسطنطينوفنا امام بوابة بيتها ودعتها للدخول .

– ادخلى يا عزيزتى – قالت بصوت ضارع ، وفى الوقت نفسه نظرت الى ناديجدا فيودوروفنا بلوعة وأمل : لعلها ترفض الدعوة ولا تدخل !

– بكل سرور – وافقت ناديجدا فيودوروفنا – انت تعرفين كم أحب زيارتك !

ودخلت . وأجلستها ماريا قسطنطينوفنا وقدمت لها القهوة وضيفتها كعكا ، ثم فرجتها على صور مخدوميها السابقين آنسات آل جاراتينسكى اللائى تزوجن بعد ذلك ، واطلعتها كذلك على علامات امتحانات كاتيا وكوستيا . كانت علامات جيدة جدا ، ولكن لكى تبدو أفضل ، فقد اشتكت وهى تتنهد من صعوبة الدراسة فى المدرسة فى هذه الايام . . . كانت ترعى الضيفة وفى الوقت نفسه تشفق عليها وتعانى من فكرة ان ناديجدا فيودوروفنا يمكن ان تؤثر تأثيرا سيئا بحضورها على اخلاق كوستيا وكاتيا ، وابتهجت لعدم وجود نيكوديم الكسندريتش فى البيت . ولما كانت تعتقد ان الرجال يحبون «هؤلاء» فقد كان من الممكن ان تؤثر ناديجدا فيودوروفنا تأثيرا سيئا على نيكوديم الكسندريتش ايضا .

وبينما كانت ماريا قسطنطينوفنا تتحدث مع الضيفة لم تنس طوال الوقت أنه ستقام مساء اليوم نزهة خلوية ، وأن فون كورين رجاها رجاء حارا ألا تخبر النسانيس بذلك ، أى لايفسكى

وناديجدا فيودوروفنا ، ولكن لسانها زل ، فتضرجت تماما وقالت بارتباك :

– آمل أن تكونى انت أيضا هناك !

٦

اتفقوا على المضى سبعة كيلومترات خارج المدينة فى الطريق الجنوبى والتوقف قرب «الدوخان» * ، عند التقاء النهيرين الأسود والأصفر ، وهناك يعدون حساء السمك . ورحلوا فى بداية الساعة السادسة . فى المقدمة سار صامويلنكو ولايفسكى فى عربة تشاريوت ، ومن خلفهما ماريا قسطنطينوفنا وناديجدا فيودوروفنا وكاتيا وكوستيا فى عجلة تجرها ثلاثة خيول . وكان معهم سلة بها مأكولات وأوعية . وفى العربة التالية كان مفتش الشرطة كيريلين وأتشميانوف الشاب ، ابن ذلك التاجر اتشميانوف الذى كانت ناديجدا فيودوروفنا مدينة له بثلاثمائة روبل . وجلس قبالتهما على المقعد نيكوديم الكسندريتش ، منكمشا ، طاويا ساقيه ، صغيرا مهندما ، بصدغين مصففى الشعر . وخلف الجميع سارت عربة فون كورين والشماس . وعند قدمى الشماس استقرت سلة بها سمك .

– الى اليمي . . . ي . . . ن !

كان صامويلنكو يصيح بأعلى صوته عندما تقابلهم عربة أو أبخازى على ظهر حمار .

وقال فون كورين للشماس :

– بعد عامين ، عندما يتوفر لى المال اللازم والناس سأمضى فى بعثة . سابحر بمحاذاة الساحل من فلاديفوستوك الى مضيق بهرنج ، ثم من المضيق الى مصب نهر ينيسى . سنرسم خريطة وندرس عالم الحيوان والنبات ، وننكب بجد على الجيولوجيا والأبحاث الانثروبولوجية والاثنوجرافية . ان مجيئك معى يتوقف عليك وحدك .

---

* مطعم صغير اشبه بمقصف لبيع الخمور والأطعمة فى جبال القوقاز. والكلمة مأخوذة عن «الدكان» العربية . **المعرب** .

فقال الشماس :

– هذا مستحيل .

– لماذا ؟

– انا رجل مرتبط ، صاحب أسرة .

– ستسمح لك زوجتك . سنكفل لها سبل العيش . والافضل لو استطعت ان تقنعها ، لصالح القضية العامة ، أن تحلق شعرها وتدخل ديرا . فهذا يعطيك انت الفرصة لكى تحلق شعرك وتأتى معنا فى البعثة راهبا . استطيع أن ارتب لك ذلك .

لزم الشماس الصمت .

فسأله عالم الحيوان :

– هل تعرف أمور اللاهوت جيدا ؟

– لا ، قليلا .

– ام . . . أنا لا استطيع أن اقدم لك اية نصائح فى هذا الصدد لأن معرفتى باللاهوت ضعيفة . اعطنى قائمة بأسماء الكتب المطلوبة وسوف أرسلها لك من بطرسبرج شتاء . وسيكون عليك ايضا ان تقرأ مذكرات الرحالة الدينيين ، يوجد بينهم احيانا اثنوجرافيون جيدون وخبراء فى اللغات الشرقية . وبعد ان تتعرف على أساليبهم سيصبح من السهل عليك ان تشرع فى العمل . ولكن الى حين وصول الكتب لا تضيع الوقت عبثا ، تردد علىّ ، وسأعلمك استخدام البوصلة ، واطلعك على علم الارصاد . فكل هذا مطلوب .

فدمدم الشماس ثم ضحك :

– هذا صحيح ولكن . . . لقد طلبت تعيينى فى روسيا الوسطى ، ووعدنى عمى ، وهو كبير كهنة ، بالمساعدة . ولو سافرت معك فسيكون معناه اننى ازعجته بلا داع .

– لست أفهم ترددك . فباستمرارك فى العمل شماسا عاديا ، عليه ان يقيم الصلاة فى الاعياد فقط وفى بقية الايام يتسكع ، ستظل حتى بعد عشر سنوات كما أنت الآن ، ولن تزيد شيئا ، اللهم الا شاربا ولحية ، فى حين انك ، بعد عودتك من البعثة وبعد نفس السنوات العشر ، ستكون انسانا آخر ، وستزداد غنى بادراكك انك صنعت شيئا .

وترددت من عربة النساء صرخات فزع واعجاب . فقد كانت العربات تسير على طريق حفر فى شاطىء صخرى شديد الانحدار ، فبدا للجميع انهم يجرون فوق رف مثبت الى جدار عـال ، وان العربات سوف تسقط الآن فى الهوة . والى اليمين امتد البحر ، والى اليسار جدار غير مستو ، بنى اللون ببقع سوداء وعروق حمراء وجذور زاحفة ، ومن فوق أطلت الى اسفل شجرات صنوبر كثة منحنية كأنما عن رهبة وفضول . وبعد دقيقة تردد العويل والضحك ثانية ، فقد مروا تحت صخرة ضخمة معلقة .

وقال لايفسكى :

– لست أدرى اى شيطان دفعنى الى المجىء معكم . ما أغبى هذا وأوضعه ! ينبغى علىّ ان اذهب الى الشمال ، ان أهرب ، ان انجو ، بينما اذهب لسبب ما الى هذه النزهة الحمقاء .

فقال له صامويلنكو عندما انعطفت الخيول يسارا فانكشف منظر وادى النهير الأصفر ، ولمعت مياه النهير الصفراء ، العكرة ، المجنونة :

– انظر أية بانوراما !

فأجاب لايفسكى :

– لا أرى يا ساشا أى شىء جميل فى ذلك . ان ابداء الاعجاب الدائم بالطبيعة يعنى اظهار فقر الخيال . فبالمقارنة مع ما يمكن ان يقدمه لى خيالى ليست كل هذه النهيرات والأحجار سوى حقارة ولاشىء اكثر .

كانت العربات الآن تسير على شاطىء النهير . وبدأت الشطآن الصخرية المرتفعة تلتقى شيئا فشيئا ،. والوادى يضيق حتى بدا فى الأمام شعبا . وكان الجبل الصخرى الذى ساروا بجواره قـد ركبته الطبيعة من احجار ضخمة يضغط بعضها فوق بعض بقوة رهيبة حتى ان صامويلنكو كان يزحر لاارادياً كلما نظر اليها . وفى بعض المواضع تشق هذا الجبل الجميل العابس شقوق وشعاب ، هبت منها على السائرين رطوبة وغموض . وعبر الشعاب لاحت جبال أخرى ، بنية ، ووردية ، وليلكية ، ومضببة او جبال يغمرها ضوء ساطع . واحيانا ، عندما كانوا يمرون بجوار الشعاب كان يسمع صوت مياه تسقط على الاحجار من عل فى مكان ما .

وتنهد لايفسكى :

– يا للجبال اللعينة ! كم أضجرتنى !

فى نقطة التقاء النهير الأسود بالأصفر ، حيث كانت المياه السوداء التى تشبه الحبر تلوث المياه الصفراء وتتصارع معها ، وغير بعيد عن الطريق انتصب «دوخان» التترى كربلاى ، بعلم روسى على سطحه ولافتة مكتوب عليها بالطباشير : «الدوخان اللطيف» . وكانت بجواره حديقة صغيرة محاطة بسياج مجدول ، وضعت فيها طاولات وارائك ، ووسط الحرج البائس الشائك انتصبت شجرة سرو وحيدة ، جميلة وداكنة .

وقف كربلاى ، التترى الصغير الخفيف الحركة ، مرتديا قميصا أزرق ومريلة بيضاء على الطريق ، وأمسك ببطنه وهو ينحنى بشدة محييا العربات المارة ، ويبتسم كاشفا عن اسنانه البيضاء البراقة .

وصاح به صامويلنكو :

– مرحبا يا كربلاى ! سنبتعد قليلا ، أما أنت فلتحضر الى هناك السماور والكراسى . بسرعة !

وهز كربلاى رأسه الحليق ودمدم بشىء ما ، لم يسمعه سوى ركاب العربات الأخيرة : «عندنا سمك السلطان يا صاحب المعالى» .

فقال له فون كورين :

– هاته ، هاته !

ابتعدت العربات حوالى خمسمائة خطوة عن الدوخان ثم توقفت . واختار صامويلنكو مرجا صغيرا تناثرت فيه بعض الصخور التى تصلح للجلوس عليها ، وتمدد جذع شجرة اسقطتها العاصفة ، بجذور منزوعة متشعبة وابر صفراء جافة . ومن هنا امتد عبر النهر جسر متهالك من جذوع الاشجار ، وعلى الشاطئ الآخر ، فى المقابل تماما انتصبت على اربع دعائم حظيرة لتجفيف الذرة ، تشبه كوخ الحكايات الاسطورى المقام على سيقان دجاج . ومن باب الحظيرة تدلى سلم صغير الى الأرض .

كان الانطباع الاول لدى الجميع انهم ، كما خيل اليهم ، لن يستطيعوا الافلات من هنا . فحيثما نظروا ، ومن جميع الجهات ،

تكتلت الجبال مطبقة عليهم ، ومن ناحية الدوخان وشجرة السرو الداكنة زحفت عليهم بسرعة ظلال المساء ، ولهذا بدا وادى النهير الأسود ، الضيق المتعرج ، اكثر ضيقا ، والجبال اكثر ارتفاعا . وتناهت زمجرة النهر المستمرة وأزيز الجنادب المتصل .

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وهـــى تشهق بعمق من شـــدة الانبهار :

– ساحر ! انظروا يا أولاد الى هذا الجمال ! يا للهدوء !

– بالفعل جميل – قال لايفسكى الذى اعجبه المنظر ، ثم لسبب ما شعر فجأة بالحزن عندما نظر الى السماء والى الدخان الأزرق المتصاعد من مدخنة الدوخان ، وكرر – نعم ، جميل .

وقالت ماريا قسطنطينوفنا بصوت مغرورق بالدموع :

– صف هذا المنظر يا ايفان اندريتش !

فسألها لايفسكى :

– وما الداعى ؟ الانطباع أفضل من أى وصف . فهذه الثروة من الالوان والأصوات ، التى يحصل عليها اى شخص من الطبيعة عن طريق الانطباعات يثرثر بها الكتاب بصورة قبيحة مطموســـة المعالم .

– أهكذا ؟

سأله فون كورين ببرود ، وقد اختار لنفسه اكبر حجر قرب المياه ، ومضى يتسلقه ليجلس عليه . وكرر وهو يحدق فى عينى لايفسكى مباشرة :

– اهكذا ؟ وروميو وجولييت ؟ وليل اوكرانيا عند بوشكين مثلا * ؟ على الطبيعة ان تأتى وتنحنى عرفانا .

– ربما . . . – وافقه لايفسكى الذى زهد كسلا فى النقاش والمعارضة . ولكنه قال بعد فترة قصيرة – وعلى العموم ما هى روميو وجولييت فى الحقيقة ؟ انه حب جميل ، شاعرى ، مقدس . انها ورود يريدون بها اخفاء العفن من تحتها . فروميـــو حيوان كالآخرين جميعا .

---

* الاشارة هنا الى قصيدة للشاعر الكبير الكسندر بوشكين بعنوان « بولتافا » يصف فيها ليل أوكرانيا . **المعرب** .

— عن أى موضوع يدور الحديث فانك تحصره فى ال . . .
والتفت فون كورين الى كاتيا ولم يكمل جملته .
فسأله لايفسكى ؟
— فى ماذا أحصره ؟
— عندما يقول لك أحد مثلا : «ما أجمل عنقود العنب !» ترد عليه : «نعم ، ولكن ما أقبحه عندما يمضغونه ويهضمونـــــه فى المعدة» . لأى غرض تقول ذلك ؟ ليس هذا جديدا و . . . وعموما فهو أسلوب غريب .
كان لايفسكى يعرف ان فون كورين لا يحبه ، ولذلك كان يخشاه ويشعر بنفسه فى حضرته كما لو كان المكان ضيقـا على الجميع وكأن احدا ما يقف خلف ظهره . فلم يرد بشىء ، وابتعد وشعر بالأسف لأنه جاء .
وأصدر صامويلنكو اوامره :
— يا سادة ، هيا لاحضار حطب للنار !
وتفرقوا كل الى جهة ، ولم يبق فى مكانه سوى كيريليـــــن واتشميانوف ونيكوديم الكسندريتش . وأحضر كربلاى كراسى ، وفرش سجادة على الأرض ووضع عدة زجاجات نبيذ . وكان مفتش الشرطة كيريلين ، ذلك الرجل الوسيم ، والذى يرتدى المعطف الرسمى أيا كان الطقس ، يشبه بقامته المتكبرة ومشيته المهمة ، وصوته الأجش ، الأبح قليلا ، مفتشى الشرطة المحليين الشبان . وكان تعبير وجهه حزينا ناعسا ، كأنما ايقظوه من النوم توا رغما عنه .
وسأل كربلاى وهو يلفظ على مهل كل كلمة :
— ما هذا الذى احضرته أيها الحيوان ؟ لقد أمرتك ان تحضر نبيذ كفاريلى ، فماذا أحضرت ايتها السحنة التترية ؟ هه ؟ من ؟
فقال نيكوديم الكسندريتش بوجل وأدب ؟
— لدينا خمر كثير يا يجور اليكسييتش * .
— ماذا ؟ ولكنى أريد ان يكون هنا خمرى انا . اننى مشترك فى النزهة واعتقد ان لى مطلق الحق فى أن اساهم بنصيبـــــى . اعــتــ . . ــقــ . . ــد ! احضر عشر زجاجات كفاريلى !

* فى موضع آخر من الرواية أطلق الكاتب على كيريلين ، سهوا ، اسما آخر هو ايليا ميخايلوفتش . **المعرب** .

– ولماذا كل هذه الكمية ؟ – دهش نيكوديم الكسندريتش الذى كان يعرف ان كيريلين لا يملك نقودا .
فصاح كيريلين :
– عشرين زجاجة ! ثلاثين !
فهمس له اتشميانوف :
– لا بأس ، دعه . أنا سأدفع .
كانت ناديجدا فيودوروفنا فى مزاج مرح ، عابث . وكانت تود لو تقفز ، وتقهقه ، وتصرخ ، وتشاكس ، وتتدلل . وبدت لنفسها فى فستانها الشيت الرخيص ذى البقع الزرقاء وحذائها الأحمر ، ونفس القبعة القش ، صغيرة ، بسيطة خفيفة ورقيقة كفراشة . ركضت على الجسر المتهالك وحدقت دقيقة فى الماء لكى يدور رأسها ، ثم صرخت وجرت وهى تضحك الى الشاطئ الآخر نحو حظيرة التجفيف ، وخيل اليها ان جميع الرجال ، بمن فيهم كربلاى معجبون بها . وعندما اتحدت الأشجار بالجبال والعربات بالخيول فى الظلمة الهابطة بسرعة ، وومض ضوء فى نوافذ الدوخان ، صعدت على الدرب المتلوى بين الصخور والخمائل الشائكة ، وتسلقت الجبل وجلست على صخرة . وفى الأسفل كانت النار مشتعلة ، وبجوارها تحرك الشماس مشمرا عن ساعديه ، بينما دار ظله الطويل حول النار فى نصف دائرة . كان يضع الحطب فى النار ويقلب فى القدر بملعقة مثبتة الى عصا طويلة . وسعى صامويلنكو بجوار النار بوجه نحاسى أحمر ، كما يفعل فى مطبخه ، وهو يزأر بوحشية :
– أين الملح يا سادة ؟ هل نسيتموه ؟ ما لكم جلستم هكذا كالاقطاعيين وأنا وحدى الذى أعمل ؟
وعلى جذع الشجرة الملقى جلس لايفسكى ونيكوديم الكسندريتش متجاورين وهما ينظران الى النار ساهمين . وكانت ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا وكوستيا يستخرجون آنية الشاى والأطباق من السلال . ووقف فون كورين عاقدا يديه على صدره ، وواضعا احدى قدميه على حجر ، على الشاطئ قرب المياه تماما وهو يفكر فى شىء ما . وتحركت على الأرض بقع حمراء من النار مع الظلال بجوار اشباح الناس المظلمة ، وارتعشت على الجبل وعلى الاشجار ، وعلى الجسر ، وعلى حظيرة التجفيف . وكان الشاطئ

الآخر الشديد الانحدار الملئ بالحفر مضاء كله ، يومض وينعكس فى النهير بينما مزقت المياه المتدفقة الهادرة انعكاساته اربا .

ومضى الشماس ليحضر السمك الذى كان كربلاى ينظفه ويغسله عند الشاطىء ، لكنه توقف فى منتصف الطريق وتطلع حوله ، وفكر : «يا الهى ، ما أجمل هذا ! ناس واحجار ونار ، وغسق ، وشجرة مشوهة ، ولاشىء اكثر ، ولكن ما أجمله !» .

وظهر على الشاطئ الآخر بجوار حظيرة التجفيف أناس غرباء . ولأن الضوء كان يومض ودخان النار يتجه الى تلك الناحية لم يكن من الممكن تمييز هؤلاء الاشخاص كلهم دفعة واحدة ، بل كان يظهر على اجزاء تارة قبعة فراء كثة ولحية بيضاء ، وتارة قميص أزرق ، وتارة خرق تنسدل من الكتفين الى الركبتين وخنجر بعرض البطن ، وتارة وجه شاب اسمر بحاجبين أسودين ، كثيفين ومحددين كأنما رسما بقلم الفحم . وجلس خمسة منهم حلقة على الأرض ، أما الخمسة الآخرون فاتجهوا الى حظيرة التجفيف . ووقف احدهم فى الباب وظهره الى النار ، عاقدا يديه خلفه ، وراح يروى شيئا ما ، يبدو شيقا جدا ، لأنه عندما اضاف صامويلنكو حطبا فتأججت النار وتطاير منها الشرر واضاءت حظيرة التجفيف بنور ساطع ، لاح واضحا من باب الحظيرة وجهان هادئان ، ينمان عن الاهتمام الشديد ، بينما استدار الجالسون حلقة وراحوا يصغون الى الرواية . وبعد ذلك بقليل شرع الجالسون يغنون بصوت خافت اغنية بطيئة منغمة ، كأغنية الصيام الكبير الكنسية . . . وفكر الشماس وهو يصغى اليهم فيما سيحدث له بعد عشر سنوات عندما يعود من البعثة : كبير كهنة شاب ، مبشر ، مؤلف معروف وذو ماض رائع ، وسوف يعينونه ارشميندريتا ، ثم مطرانا ، ويقوم بالصلاة فى كاتدرائية . يخرج الى منصة المذبح ، فى قلنسوة الاسقف الذهبية وشارته ، ويهل على الجموع بنور شموعه ويعلن بصوت مجلجل : «أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض» . فيرد الأطفال بصوت ملائكى : «الهنا المقدس . . .» .

وتردد صوت صامويلنكو :

– أين السمك يا شماس ؟

وعاد الشماس الى النار وتصور المسيرة الدينية فى يوم حار من شهر يوليو ، على طريق مترب : فى المقدمة يسير الفلاحـون حاملين الرايات ، والفلاحات والبنات حاملات الايقونات ، ومـن ورائهن الصبيان المرتلون ثم القندلفت ، معصوب الخد وفى شعره القش . ويمضى الموكب بالترتيب : هو الشماس فى المقدمة ، ثم يتبعـه القسيس فى قلنسوة وبصليب ، ومن ورائهـم الفلاحون والفلاحات والصبيان مثيرين الغبار ؛ وفى وسط هذا تسير زوجة الشماس وزوجه القسيس على رأسيهما منديلان . ويغنى المرتلون ، ويعول الأطفال ، وتصيح طيور السمان ، وتصدح القبرات . . . وها هم قد توقفوا ليرشوا بالماء المقدس قطيع بقر . . . وتابعوا سيرهم ثم صلوا طلبا للمطر ، راكعين على ركبهم . وبعد ذلك الطعام ، والأحاديث . . .

وفكر الشماس : «وهذا ايضا جميل . . .» .

٧

صعد كيريلين واتشميانوف على الدرب الى الجبل . وتخلف اتشميانوف فتوقف ، أما كيريلين فاقترب من ناديجدا فيودوروفنا وقال وهو يؤدى التحية العسكرية :

– مساء الخير !

– مساء الخير .

– نعم ! . . – قال كيريلين وهو يتطلع الى السماء ويفكر .

– ماذا «نعم» ؟ – سألته ناديجدا فيودوروفنا بعد ان صمتت قليلا وقد لاحظت أن أتشميانوف يراقبهما .

فشرع الضابط يقول ببطء :

– واذن فهكذا . . ذبل حبنا من قبل أن تتفتح ازهاره ، كما يقال . كيف تريدين منى ان أفهم هذا ؟ هل هو نوع من الدلال من جانبك ، أم انك تعتبريننى أهبل يمكن ان تفعلى به ما يحلو لك ؟

– كانت غلطة ! دعنى وشأنى ! – قالت ناديجدا فيودوروفنا بحدة وهى تنظر اليه برعب فى هذا المساء الرائع الساحر وتسأل

نفسها بدهشة : أمن المعقول انه كانت هناك لحظة اعجبت فيها بهذا الانسان وكان قريبا اليها ؟

– هكذا ! . . – قال كيريلين ، ووقف قليلا فى صمت ، ثم فكر وقال – طيب . فلننتظر حتى يعتدل مزاجك ، أما الآن فأود أن اؤكد لك اننى رجل محترم ، ولن أسمح لأحد بأن يشك فى ذلك . لن يلعب بى أحد ! Adieu! * .

ورفع يده بالتحية العسكرية وابتعد شاقـــا طريقه بين الخمائل . وبعد ذلك بقليل اقترب اتشميانوف مترددا . وقال بلكنة أرمنية خفيفة :

– مساء جميل اليوم !

كان وسيم التقاطيع ، يلبس حسب الموضـــة ، ويتصرف ببساطة ، كشاب مهذب ، ولكن ناديجدا فيودوروفنا لم تكن تحبه لأنها كانت مدينة لأبيه بثلاثمائة روبل . وضايقها ايضا انهم دعوا الى النزهة صاحب الدكان ، كما ضايقها أنه تحدث اليها بالذات فى هذا المساء الذى كانت تشعر فيه بطهارة روحها .

وقال بعد صمت :

– عموما النزهة موفقة .

فأمّنت موافقة :

– نعم . . . – ثم قالت بلا اكتراث وكأنها تذكرت دينهـــا الآن فقط – نعم ، أخبرهم فى محلكم بأن ايفان أندريتش سيأتى قريبا ويسدد الثلاثلائة روبل . . . أو لا أذكر كم .

– أنا مستعد أن أقدم ثلاثمائة روبل أخرى ، فقط مـــن أجل ألا تذكرينا كل يوم بهذا الدين . ما الداعى لهذه التوافه ؟

فضحكت ناديجدا فيودوروفنا . وواتتها فكرة مضحكة : فلو لم تكن قويمة الخلق ، ولو أنها شاءت ، لاستطاعت فى لحظة أن تتخلص من الدين . لو أنها مثلا ، أدارت رأس هذا الأحمق الشاب الجميل ! وبالفعل كم كان ذلك سيبدو مضحكا وغبيا وفظيعا ! وفجأة أحست برغبة فى ان تجعله يقع فى غرامها ، فتنهبه ، ثـــم تهجره ، وتنظر ما الذى يحدث بعد ذلك .

---

* وداعاً ! (بالفرنسية فى الأصل) .

وقال أتشميانوف بخجل :

- اسمحى لى ان اقـــدم لك نصيحة . ارجوك أن تحـــذرى كيريلين . انه يقول عنك فى كل مكان أشياء فظيعة .

- لا يهمنى ان أعرف ما الذى يقوله عنى كل أحمق - قالت ناديجدا فيودوروفنا ببرود وتولاها القلق ، وفجأة فقدت فكرتها المضحكة باللعب بأتشميانوف الشاب الجميل كل سحرها .

وقالت :

- ينبغى أن نهبط . انهم يدعوننا .

كان حساء السمك قد أصبح جاهزا فى الأسفل . وملأوا بـــه الاطباق وراحوا يأكلون بخشوع ، مثلما يحدث فى النزهات الخلوية فقط . واعترف الجميع بأن الحساء لذيذ جدا ، وانهم لم يأكلوا ابدا فى البيت شيئا بهذه اللذة . وكما يحدث فى جميع النزهات فقد ضلت الأيدى طريقها وسط المناديل الكثيـــرة واللفائف والأوراق المهملة المشبعة بالدهن والمتقلبة مع الريح ، ولم يعرف أحد أين كأسه او أين قطعة خبزه ، وسكبوا الخمر على السجادة وعلى حجورهم ، وبعثروا الملح ، وكان الظلام محيطا بهم ، ولـم تعد النار تشتعل بقوة كما فى السابق ، بينما تكاسل كل منهم عن النهوض والقاء الحطب فيها . وشرب الجميع خمرا ، وحتى كوستيا وكاتيا اعطوا كلا منهمـــا نصف كوب منه . وشربت ناديجـــدا فيودوروفنا كوبا ، ثم آخر ، وثملت ، ونسيت كيريلين .

وقال لايفسكى وقد داخله المرح من الخمر :

- نزهة فاخرة ، مساء ساحر ، ولكنى افضل على ذلك كلـه شتاء جيدا . «وعلى فراء الياقة قد لمعت ذرات الثلج الفضية» .

فرد فون كورين :

- لكل ذوقه الخاص .

فشعر لايفسكى بالحرج . كان حر النار يلفحه فى ظهـــره ، وكراهية فون كورين فى صدره ووجهه . هذه الكراهية من رجـل قويم ذكى ، والتى تنطوى فيمـــا يبدو على سبب وجيه ، كانت تسبب له المهانة والضعف ، ولما لم يكن قادرا على مواجهتها فقد قال بنبرة مداهنة :

– أنا احب الطبيعة بشغف وآسف انني لست عالما طبيعيا . انني اغبطك .

فقالت ناديجدا فيودوروفنا :

– أما أنا فلا آسف ولا أغبط . أنا لا أفهم كيف يمكن الاهتمام جديا بالحشرات والهوام بينما الشعب يعاني .

كان لايفسكي يشاطرها هذا الرأي . ولم تكن لديه أية معرفة بالعلوم الطبيعية ، ولذلك لم يستطع أبدا أن يسلم بتلك اللهجة الواثقة وهيئة العلماء وذوي الفكر العميق لأناس يدرسون شوارب النمل أو سيقان الصراصير ، وكان دائما يشعر بالحنق لأن هؤلاء الناس ، على أساس الشوارب والسيقان وشيء ما اسمه البروتوبلازما (ولسبب ما كان يتصورها في هيئة محارة بحرية) يتصدون لحل قضايا تشمل أصل الانسان وحياته . ولكن الكذب تبدى له في كلمات ناديجدا فيودوروفنا ، فقال من اجل ان يعارضها فقط :

– العبرة ليست في الهوام ، بل في الاستنتاجات !

٨

بدأوا يستقلون العربات ، استعدادا للعودة ، في ساعة متأخرة ، في حوالى الحادية عشرة . جلسوا جميعا ما عدا ناديجدا فيودوروفنا وأتشميانوف اللذين كانا يتسابقان على الشاطئ الآخر للنهر ويقهقهان .

وصاح بهما صامويلنكو :

– اسرعوا يا سادة !

فقال فون كورين بصوت خافت :

– ما كان ينبغي تقديم الخمر للسيدات .

ومضى لايفسكي نحو ناديجدا فيودوروفنا ، مرهقا من النزهة ومن كراهية فون كورين ومن افكاره الخاصة ، وعندما امسكت به من كلتا يديه وهي تلهث وتقهقه مرحة ، سعيدة ، وتحس بنفسها خفيفة كالريشة ، ووضعت رأسها على صدره ، تراجع لايفسكي خطوة الى الوراء وقال بصرامة :

– أنت تتصرفين مثل الـ . . الغانية .

كان ما قاله فظا جدا ، حتى أنه أحس بالاشفاق عليها .

وقرأت هى فى وجهه الغاضب المتعب الكراهية والاشفاق والحنق على نفسه ، فأحست فجأة بالخور . وأدركت أنها بالغت ، وسلكت مسلكا مستهترا ، فمضت حزينة ، وهى تشعر بأنها ثقيلـــة ، بدينة ، فظة وثملة ، فجلست مع أتشميانوف فى اول عربة خالية صادفتها وجلس لايفسكى مع كيريلين ، وعالم الحيوان مـــع صامويلنكو ، والشماس مع السيدات . وتحرك الموكب .

وراح فون كورين يقول وهو يتدثر بمعطف خفيف وقد اغمض عينيه :

— هذه هى النسانيس . . . أسمعت ، انها لا تريد أن تشغل نفسها بالحشرات والهوام لأن الشعب يعانى . هكذا تنظر جميع النسانيس الى أمثالنا . يا لها من قبيلة ذليلة ، ماكرة ، أرهبها السوط والقبضات حتى الجد العاشر . انها ترتعد وتتملق وتطلق البخور للقوة فقط ، ولكن ما أن تخرج النسناسة الى أفق حر ، حيث لا يوجد من يقبض عليها ، حتى تتنمر وتفصح عن نفسها . انظر اليها كم تبدو جريئة فى معارض الصور والمتاحف والمسارح ، او عندما تتحدث عن العلم . انهـــا تنتفخ ، وتحرن ، وتسب ، وتنتقد . . . وحتما تنتقد ، فيا لهـــا من سمة للعبيد ! فلتصخ السمع ، وستجد انهم يسبون ذوى المهن الحرة اكثر مما يسبون المحتالين ، وهذا لأن ثلاثة أرباع المجتمع من العبيد ، من مثل هذه النسانيس . ان العبد لا يمكن ان يمـــد يده اليك ليشكرك باخلاص على أنك تعمل .

فقال صامويلنكو متثائبا :

— انا لا أدرى ماذا تريد ؟ لقد رغبت هذه المسكينة ببساطتها فى ان تتحدث معك عن اشياء ذكية ، أما انت فتسرع باصـــدار الاحكام . انت غاضب منه لسبب ما ، وبالمرة غاضب منهـــا . ولكنها امرأة رائعة !

— أوه ، كفاك ! انها خليلة عادية ، منحلة ومبتذلة . اسمع يا الكسندر دافيديتش . . انت عندما ترى امرأة بسيطـــة ، لا تعاشر زوجها ، ولا تفعل شيئا سوى الضحكات والقهقهات ، فانك تقول لها : دعيك من هذا ، واعملى . فلماذا تجبن هنا وتخشى أن تقول الحقيقة ؟ هل فقط لأن ناديجدا فيودوروفنا تعيش كخليلة لموظف وليس لبحار ؟

فغضب صامويلنكو وقال :
– وماذا أفعل لها ؟ أأضربها ؟
– لا تنافق الرذيلة . اننا نلعن الرذيلة فقط فى السر ، وهذا يشبه التلويح بالقبضة داخل الجيب . انا عالم حيوان او اجتماع ، وكلاهما شيء واحد ، وانت طبيب . والمجتمع يثق بنا . ومن واجبنا ان نشير له الى الضرر الرهيب الذى يتهدده ويتهدد الأجيال المقبلة من وجود سيدة مثل ناديجدا ايفانوفنا هذه .
فقال صامويلنكو مصححا :
– ناديجدا فيودوروفنا . وما الذى ينبغى على المجتمع ان يفعله ؟
– المجتمع ؟ هذا شأنه هو . فى اعتقادى أن أسلم وأقصر طريق هو العنف . فبال Manu militari * ينبغى اعادتها الى زوجها ، فاذا لم يقبلها ترسل الى الاشغال الشاقة او الى مؤسسة اصلاحية ما .
– أوف ! – زفر صامويلنكو ، وصمت قليلا ، ثم سأله – منذ أيام قلت ان أناسا مثل لايفسكى ينبغى القضاء عليهم . . . خبرنى ، لو أن الدولة يعنى . . . لنفرض أن الدولة او المجتمع كلفك بالقضاء عليه ، فهل كنت . . . تجرؤ ؟
– ولما اهتزت ذراعى .

٩

وصل لايفسكى وناديجدا فيودوروفنا الى البيت ودلفا الى غرفهما المظلمة الخانقة المملة . وكانا كلاهما صامتين . أشعل لايفسكى شمعة ، وجلست ناديجدا فيودوروفنا ، ودون أن تنزع المانتو او القبعة ، رفعت اليه عينين حزينتين مذنبتين .
وفهم أنها تنتظر منه شرحا ، ولكن الشرح سيكون مملا ، عقيما ، ومرهقا ، كما كان يشعر بانقباض لأنه لم يتمالك نفسه وتفوه بعبارة خشنة . ووقعت يده فى جيبه بالصدفة على الرسالة

* بالقوة العسكرية (باللاتينية في الأصل) .

التى كان يزمع فى كل يوم أن يقرأها لها ، ففكر بأنه لم اطلعها الآن عليها فسوف يحول ذلك انتباهها الى ناحية أخرى .

وفكر : «حان الوقت لاستيضاح علاقتنا . فلأعطها لها ، وليكن ما يكون» .

واخرج الرسالة واعطاها لها .

– اقرئى . هذا يخصك .

وبعد ان قال هذه العبارة مضى الى غرفة مكتبه واستلقى على الكنبة فى الظلام بلا وسادة . وقرأت ناديجدا فيودوروفنا الرسالة ، وخيل اليها أن السقف هبط والجدران اقتربت منها . فجأة اصبح المكان ضيقا ومظلما ومرعبا . فرسمت علامة الصليب بسرعة وتمتمت :

– ارحمه يا رب . . ارحمه يا رب . . .

وأجهشت بالبكاء .

ونادته :

– فانيا ! ايفان اندريتش !

ولم تسمع جوابا . وظنت أن لايفسكى جاء ووقف خلف مقعدها ، فشهقت كطفل وهى تقول :

– لماذا لم تقل لى من قبل انه مات ؟ ما كنت ذهبت الى النزهة ، ولما ضحكت بهذه الفظاعة . . . كان الرجال يقولون لى كلاما مبتذلا . يا للخطيئة ! يا للخطيئة ! انقذنى يا فانيا ، انقذنى . . . أنا جننت . . انا ضعت . . .

وسمع لايفسكى شهقاتها . كان يحس باختناق لا يطاق ، بينما دق قلبه بعنف . ونهض فى كآبة ، ووقف فى وسط الغرفة وتحسس فى الظلام بحثا عن كرسى المكتب وجلس .

«هذا سجن – فكر فى نفسه – ينبغى أن اذهب . . . لا أستطيع» .

كان الوقت متأخرا للعب الورق ، ولم يكن فى المدينة مطاعم . فرقد من جديد ، وسد أذنيه لكى لا يسمع الشهقات ، وفجأة تذكر انه من الممكن الذهاب الى صامويلنكو . وحتى لا يمر بجوار ناديجدا فيودوروفنا خرج من النافذة الى الحديقة ، وعبر السياج الى الشارع . كان الجو مظلما . وكانت هناك سفينة وصلت لتوها ،

ويبدو من أنوارها أنها سفينة ركاب كبيرة . . . وقرقعت سلسلة المرساة . ومن الشاطىء تحرك ضوء أحمر بسرعة نحو السفينة . كان ذلك زورق الجمارك .

«الركاب يغطون فى النوم داخل الكبائن . . .» – فكر لايفسكى وهو يغبط طمأنينة الآخرين .

كانت نوافذ بيت صامويلنكو مفتوحة . وأطل لايفسكى فى احداها ، ثم فى الأخرى : كان الظلام والسكون يلفان الغرف .

ونادى :

– الكسندر دافيديتش ، هل انت نائم ؟ الكسندر دافيديتش !

وتردد سعال وصيحة جزع :

– من هناك ؟ أى شيطان ؟

– انه انا يا الكسندر دافيديتش . عفوا .

فتح الباب بعد قليل ، وومض ضوء مصباح ناعم ، وظهر صامويلنكو الضخم ، متشحا كله بالبياض ، وفى طرطور أبيض .

– ماذا حدث ؟ – سأل وهو يلهث اثر النوم ويحك جسمه – انتظر ، سأفتح .

– لا تتعب نفسك ، سأدخل من النافذة . . .

دلف لايفسكى من النافذة ، واقترب من صامويلنكو ، وأمسك بذراعه . وقال بصوت متهدج :

– الكسندر دافيديتش ، انقذنى ! اتوسل اليك ، استحلفك ، افهمنى ارجوك ! وضعى مضن . ولو استمر يوما او يومين فسأشنق نفسى كالـ . . . كالكلب !

– مهلا . . . عن أى شىء تتحدث ؟

– أشعل شمعة .

– أوه ، أوه . . . – تنهد صامويلنكو وهو يشعل الشمعة – يا الهى ، يا الهى . . . الساعة تدور فى الثانية يا أخى .

فقال لايفسكى وهو يشعر بارتياح كبير من الضوء ووجود صامويلنكو :

– اعذرنى ، ولكنى لا استطيع البقاء فى البيت . . أنت يا الكسندر دافيديتش صديقى الوحيد ، اقرب الاصدقاء . . . أملى

كله فيك . وسواء شئت أم لم تشأ انقذنى من أجل الله . لا بد ان اسافر من هنا باى حال . اقرضنى نقودا .

فتنهد صامويلنكو وهو يحك جسمه :

– يـا الهى ، يـا الهى !.. بدأت أنعس فسمعت صفارة . سفينة وصلت ، ثم جئت أنت . . . هل تريد مبلغا كبيرا ؟

– على الأقل ثلاثمائة روبل . يجب ان اترك لها مائة ، ومائتان لى للطريق . . . انا مدين لك بحوالى اربعمائة ، ولكنى سأرسلها لك . . كلها . . .

قبض صامويلنكو بيد واحدة على كلا سالفيـه ، وباعد بين ساقيه واستغرق فى التفكير .

– هكذا . . – دمدم مفكرا – ثلاثمائة . . . نعم . . . ولكنى لا املك هذا المبلغ . ينبغى أن اقترض من أحد ما .

فقال لايفسكى وهـو يرى فى وجه صامويلنكو أنه يرغب فى اعطائه النقود وحتما سيعطيه :

– اقترض من اجل اللـه ، اقترض وسأردهـا لك حتمـا . سأرسلها من بطرسبرج بمجرد وصولى . كن واثقـا من ذلك . – ثم قال منتعشا – اسمع يا ساشا ، هيا نشرب بعض الخمر !

– هكذا . . . هذا ممكن .

وذهبا الى غرفة الطعام .

وسأل صامويلنكو وهو يضع على الطاولة ثلاث زجاجات وطبقا به خوخ :

– وماذا عن ناديجدا فيودوروفنا ؟ هل هى ستبقى ؟

فقال لايفسكى وهو يشعر بموجة سعادة مفاجئة :

– سأدبر كل شيء ، سأدبر كل شيء . . . سأرسل لها نقودا فيما بعد فتأتى الىّ . . . وهناك نستوضح علاقتنـا . فى صحتك يا صديقى .

– مهلا ! – قال صامويلنكو – اشرب هذا اولا . . . هذا من كرمتـى . وهذه الزجاجة من كرمـة نفاريدزه ، وهذه مـن أخاتولوف . . . جرب الأنواع الثلاثة وقل لى بصراحة . . . نبيذى يبدو حامضا قليلا . هه ؟ أليس كذلك ؟

– نعم . لقد خففت عنى يا الكسندر دافيديتش . شكرا لك . . دبت فىّ الروح .
– حامض ؟
– الشيطان يعلم ، انـــا لا أعرف . ولكنك رجل رائـــع ، ساحر .
وتطلع صامويلنكو الى وجهه الطيب الشاحب المنفعل ، وتذكر رأى فون كورين بضرورة القضاء على امثـــال هؤلاء ، فبدا لـــه لايفسكى طفلا ضعيفا عاجزا ، فى مقدور اى شخص أن يهينه ويقضى عليه .
فقال له :
– عندما ترجع تصالح مع أمك . هذا عيب .
– نعم ، نعم ، ضرورى .
وصمتا قليلا . وبعد ان شربا أول زجاجة قال صامويلنكو :
– هلا تصالحت مع فون كورين . كلاكما شخصان ذكيان ، رائعان ، بينما تتبادلان النظرات كالذئاب .
– نعم ، انه شخص رائع ، ذكى – قال لايفسكى مؤمنا ، وكان مستعدا الآن ان يمتدح الجميـــع ويغفر لهم – انه رجل ممتـــاز ، ولكنى لا أستطيع ان اصادقه . كلا ! ان شخصياتنا جد مختلفة . انا شخصية ذابلـــة ، ضعيفة ، خاضعة ، وربمـــا فى لحظة صفاء مددت له يدى ، ولكنه سيشيح بوجهه عنى . . . باحتقار .
وجرع لايفسكى الخمر وتمشى من ركن الى ركن ، ثم استطرد واقفا فى وسط الغرفة :
– انا افهم فون كورين جيدا . انه شخصية صلبة ، قوية ، طاغية . هل سمعت ، انه يتحدث دائما عن البعثة ، وليست هذه كلمات فارغة . انه بحاجة الى صحراء ، الى ليل مقمر . ومن حوله ينام فى الخيام وفى العراء رجالـــه الجوعى والمرضى الذين عذبتهـــم المسيرات الطويلة . . . القوزاق ، والأدلة والحمالون ، والطبيب ، والقسيس ، وهو وحده الذى لا ينام ، ومثل ستانلى * ، يجلس

---

* هنرى مورتون ستانلى (١٨٤١–١٩٠٤) رحالة بريطاني وصـــل لأول مرة الي مناطق نائية فى افريقيا . **المعرب** .

على كرسى سفرى ويشعر بأنه ملك الصحراء وسيد هؤلاء الناس . ويسير ، يسير ، يسير الى جهة ما ، ورجاله يئنون ويتساقطون الواحد تلو الآخر ، بينما هو يمضى فى سيره ، وفى النهاية يلاقى هو ايضا حتفه ، ولكنه يبقى رغم ذلك طاغية وملك الصحراء ، لأن الصليب على قبره يبدو مرئيا للقوافل من على بعد ثلاثين او أربعين ميلا مهيمنا على الصحراء . ان مـــا يؤسفنى هو ان هذا الشخص ليس فى الخدمة العسكريـــة . كان من الممكن ان يصبح قائدا ممتازا ، عبقريا . بوسعه ان يغرق خيوله فى النهر ويصنع من الجثث جسورا ، وهذه الجسارة فى الحرب أهم من أية تحصينات وتكتيكات . أوه ، كم افهمه جيدا ! قل لى : لماذا يتسكع هنا ؟ ما الذى يبغيه ؟

– انه يدرس حيوانات البحر .

فتنهد لايفسكى قائلا :

– لا ، لا يا أخى لا . لقد أخبرنى أحد العلمـاء المسافرين ونحن فى السفينة ان البحر الأسود فقير فيما يخص عالم الحيوانات ، وان الحياة العضوية فى اعماقه مستحيلـــة بسبب وفرة كبريتيد الايدروجين فيها . جميع علماء الحيوان الجادون يعملون فى المحطات البيولوجية فى نابولى أو Villefranche ، ولكن فون كورين مستقل وعنيد . . انه يعمل فى البحر الأسود لأن أحدا لا يعمل هنا . لقد قطع صلته بالجامعة ، ولا يريد أن يقيم علاقات بالعلماء والزملاء لأنه قبل كل شىء طاغية ، ثم بعد ذلك عالم حيوان . وسترى انه سيبلغ شأوا بعيدا . انه ومنذ الآن يحلـم بأنه عندما يعود من البعثة فسوف يطهر جامعاتنا من الدسائس والضحالة ويلوى قرون العلماء . الطغيان قوى ايضا فى العلم مثلمـا هو فى الحرب . انه يعيش فى هذه المدينة العفنة للصيف الثانى لأنه من الأفضل ان تكون الأول فى قرية على ان تكون الثانى فى مدينة . فهو هنا ملك وصقر . انه يطبق على جميع السكان بقبضة حديدية وينيخ عليهم بهيبته . لقد أجبر الجميع على الخضوع له ، وهو يتدخل فى شئون الآخرين ، وكل شىء يهمه ، والجميع يخشونه . أما أنا فانزلق من تحت مخلبه ، وهو يشعر بذلك ويمقتنى . ألم يقل لك انه يجب القضاء علىّ او ارسالى الى اعمال السخرة ؟

فضحك صامويلنكو قائلا :

- بلى .

فضحك لايفسكى هو الآخر وشرب خمرا . وقال وهو يضحك ويمز بالخوخ :

- ومثله العليا ايضا طغيانية . فالبسطاء العاديون عندما يعملون لخير الجماعة فانهم يقصدون بذلك اقرباءهم : انا ، أنت ، أى الانسان باختصار . ولكن بالنسبة لفون كورين فالناس كلاب واشياء تافهة ، اتفه من أن يكونوا غاية حياته . انه يعمل ، وسيذهب فى بعثة ، وسيدق هناك عنقه لا باسم حب الأقرباء ، بل باسم مفاهيم مجردة كالانسانية والأجيال القادمة ، وسلالة البشرية المثالية . . . فما هى السلالة البشرية ؟ انها أوهام ، سراب . . . لقد كان الطغاة دائما ذوى أوهام . اننى افهمه جيدا يا أخى . أنا أقدره ولا أنكر قيمته . فالعالم يقوم على أناس من امثاله ، ولو ان العالم ترك لنا فقط لصنعنا به ، رغم كل طيبتنا ونوايانا الحميدة ، ما فعل الذباب بهذه اللوحة . نعم .

وجلس لايفسكى بجوار صامويلنكو وقال بحماس صادق :

- انا انسان تافه ، فارغ ، ساقط ، والهواء الذى أتنفسه ، وهذا الخمر ، والحب ، وباختصار هذه الحياة كنت اشتريها حتى الآن بالكذب والفراغ والجبن . حتى الآن كنت اخدع الناس واخدع نفسى ، واعانى من ذلك ، وكانت معاناتى رخيصة ومبتذلة . اننى احنى ظهرى بهيبة أمام كراهية فون كورين ، لأننى أحيانا اكره نفسى واحتقرها .

وعاد لايفسكى فتمشى من ركن الى ركن بانفعال .

- اننى سعيد لأنى أرى عيوبى وأعيها . فسوف يساعدنى ذلك على أن أبعث انسانا آخر . آه يا عزيزى لو كنت تدرى بأى شغف وأى شوق انتظر تجددى . واقسم لك اننى سأصبح انسانا ، سأصبح ! لست أدرى هل هى الخمر التى تحرك لسانى الآن ، أم ان الأمر هو كذلك فى الواقع ، الا انه يخيل الىّ اننى منذ زمن بعيد لم أمر بلحظات مشرقة ، صادقة كتلك التى أمر بها الآن عندك .

فقال صامويلنكو :

– آن أن ننام يا صاحبى . . .

– نعم ، نعم . . . عفوا . . . سأنصرف حالا .

وبحث لايفسكى عن عمرتـــه وهو يتخبط بين قطع الاثـاث والنوافذ ، ثم دمدم متنهدا :

– شكرا . . شكرا . . . الحنان والكلمة الطيبة أسمى من الصدقة ، أنت رددت الىّ روحى .

وعثر على عمرته فتوقف ، ونظر الى صامويلنكو نظرة مذنبة ، وقال بصوت ضارع :

– الكسندر دافيديتش !

– ماذا ؟

– اسمح لى يا عزيزى أن أبيت عندك !

– على الرحب والسعة . . ولم لا ؟

ورقد لايفسكى على الكنبة ، وظل طويلاً يحادث الدكتور .

١٠

بعد النزهة بحوالى ثلاثة أيام جاءت ماريا قسطنطينوفنـــا الى ناديجدا فيودوروفنا فجأة ، ودون أن تحيى او تنزع قبعتها امسكت بكلتا يديها وضمتهما الى صدرها وقالت بانفعال شديد :

–آه يا عزيزتى ، كم اننـــــا منفعلة ، مذهولة . لقد أبلـغ دكتورنا العزيز اللطيف بالأمس نيكوديم الكسندريتش بأن زوجك توفى . . قولى لى يا عزيزتى . خبرينى هل هذا صحيح ؟

فأجابت ناديجدا فيودوروفنا :

– نعم ، صحيح ، لقد توفى .

– هذا فظيع ، فظيع يا عزيزتى ! ولكن رب ضارة نافعة . لقد كان زوجك ، فى الغالب ، رجلا مدهشا ، رائعـــــا ، قديسا ، ومثل هؤلاء مطلوبون فى السماء اكثر مما على الارض .

وارتعشت كل الخطوط والنقط فى وجه ماريا قسطنطينوفنـــا كأنما تواثبت تحت جلده ابر صغيرة ، فابتسمت ابتسامة لوزية وقالت بانبهار وهى تختنق :

– وهكذا ، فأنت حرة يا عزيزتى . بوسعك الآن أن ترفعى رأسك عاليـا وتنظرى فى عيون الناس بجرأة . ومنذ الآن يبارك الله والناس ارتباطك بايفان اندريتش . هذا ساحر . اننى ارتجف من الفرحة ، ولا أجد ما أقوله . يا عزيزتى ، سأكون خاطبتك . . . لقد احببناكما أنا ونيكوديم الكسندريتش ، فلتسمحـا لنا بأن نبارك ارتباطكمـا الشرعى الطاهر . متى ، متى تفكرين فى عقد القران ؟

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تحرر يديها :

– انا لم أفكر فى ذلك .

– مستحيل يا عزيزتى . لقد فكرت ، فكرت !

فضحكت ناديجدا فيودوروفنا وقالت :

– أى والله لم أفكر . وما الداعى لعقد القران ؟ أنا لا أرى فى ذلك أية ضرورة . سنعيش كما كنا نعيش .

فارتاعت ماريا قسطنطينوفنا :

– ماذا تقولين ! يا الهى ، ماذا تقولين !

– لن تكون الامور أفضل بعقد قراننا . بالعكس ستصبح اسوأ . سنفقد حريتنا .

فصرخت ماريا قسطنطينوفنا وهى تتراجع وتشيح بيديها :

– يا عزيزتى ، يـا عزيزتى ، ماذا تقولين ! أنت متهورة ! عودى الى رشدك ! اكبحى نفسك !

– ما معنى ان اكبح نفسى ؟ أنا لم أعش بعد وأنت تقولين اكبحى نفسك !

تذكرت ناديجدا فيودوروفنا انها لم تعش بعد بالفعل . فقد تخرجت من المعهد وتزوجت برجل لم تحبه ، ثم ارتبطت بلايفسكى وعاشت معه طوال الوقت على هذا الساحل الممل المقفر فى انتظار شىء ما أفضل . فهل هذه حياة ؟

وفكرت فى نفسها : «ولكن من الواجب عقد القران . . .» ، ثم تذكرت كيريلين وأتشميانوف فتضرجت خجلا ، وقالت :

– كلا . هذا مستحيل . وحتى لو ركع ايفـان اندريتش على ركبتيه طالبا منى هذا لرفضت .

جلست ماريا قسطنطينوفنا حوالى دقيقة على الكنبة ، صامتة ،

حزينة ، جادة ، وهى تحدق فى نقطة واحدة ، ثـــم نهضت وقالت ببرود :

– وداعا يا عزيزتى . اعذرينى على ازعاجك . ورغم ان هذا صعب علىّ ، لكننى ينبغى ان أقول لك ان كل شىء انتهى بيننا من هذه اللحظة ، ورغم كل احترامى لايفان اندريتش فان باب بيتى مغلق أمامكما .

قالت ذلك بمهابة احتفالية ، وكانت هى نفسها ترزح تحت وطأة نبرتها الاحتفالية . وارتعش وجههـا مرة ثانية ، واكتسب تعبيرا ناعما لوزيا ، ثم مدت كلتا ذراعيها الى ناديجدا فيودوروفنا المذعورة المرتبكة وقالت بضراعة :

– يا عزيزتى ، اسمحى لى ان اكون أمك او شقيقتك الاكبر لدقيقة واحدة ! سأكون صريحة معك كأم .

وشعرت ناديجدا فيودوروفنا فى داخلها بدفء وفرحة وشفقة على نفسها كما لو ان أمها بعثت بالفعل ووقفت أمامها . فهمت نحو ماريا قسطنطينوفنا باندفاع وعانقتهـــا ، والصقت وجههـــا بكتفها . واجهشتا بالبكاء معا . جلستا على الكنبة وظلتا بضع دقائق تنشجان دون ان تنظر احداهما الى الاخرى وغير قادرين على نطق كلمة واحدة .

ثم شرعت ماريا قسطنطينوفنا تقول :

– يا طفلتى العزيزة ، سوف أقول لك حقائق قاسية ، ولن اشفق عليك .

– اعملى معروفا ، اعملى معروفا !

– ضعى ثقتك فىّ يا عزيزتى . تذكرى اننى الوحيدة من بين كل النساء هنا التى استقبلتك ، لقد روعتنى من اول يوم ، ولكننى لم أقو على ان اعاملك بلا اكتراث كما يعاملك الجميع . وكنت اقاسى من أجل ايفان اندريتش العزيز الطيب وكأنه ابنى . شخص شاب ، فى أرض غريبة ، عديم الخبرة ، ضعيف ، بلا أم ، فأخذت أقاسى وأقاسى . . . وكان زوجى يعارض التعرف بـــه ، ولكننى أقنعته . . جعلته يعدل عن رأيه . . وأصبحنـــا نستقبل ايفان اندريتش ، وانت معه بالطبع ، والا لشعر بالاهانة . وانا عندى ابنة وابن . . وانت تدركين كم هى سريعة التأثر عقول الأطفال

وقلوبهم البريئة . . . ومن شكك أحد هؤلاء الصغار . . . * كنت استقبلك وانا ارتعش خوفا على اطفالى . أوه ، عندما تصبحين أمّا ستفهمين خوفى . وكان الجميع يدهشون من استقبالى لك كسيدة محترمة ، عفوا ، ويلمحون لى . . . ثم بالطبع القيل والقال ، والافتراضات . . . كنت فى قرارة نفسى أدينك ، ولكنك كنت بائسة ، تعيسة ، متهورة ، فكنت أعانى من الشفقة عليك .

فسألت ناديجدا فيودوروفنا وبدنها كله يرتجف :

– ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ ماذا فعلت بهم ؟

– أنت ارتكبت خطيئة رهيبة . لقد خنت العهد الذى اعطيته لزوجك أمام المذبح . أنت أغويت شابا رائعا لو لم يلقاك ، فربما اتخذ له شريكة حياة شرعية من أسرة طيبة من محيطه ، ولكان الآن مثل الجميع . أنت قضيت على شبابه . لا تجادلى ، لا تجادلى يا عزيزتى ! أنا لا أصدق أن الرجل هو المسؤول عن خطايانا . النساء دائما هن المخطئات . الرجال فى الحياة المنزلية مستهترون ، يعيشون بعقولهم لا بقلوبهم ، ولا يفهمون الكثير ، لكن المرأة تفهم كل شيء . عليها يتوقف كل شيء . لقد وهبت الكثير ، اذن فلتحاسب على الكثير . آه يا عزيزتى ، لو انها كانت فى هذه الناحية اضعف او اغبى من الرجل لما أئتمنها الرب على تربية البنين والبنات . وفوق ذلك يا عزيزتى فقد عبرت حد الخطيئة ونسيت كل خجل . ولو كانت أخرى مكانك لتوارت عن الناس ، ولأغلقت عليها باب بيتها ، ولما رآها الناس الا فى معبد الرب ، شاحبة ، متشحة بالسواد ، باكية ، ولقال كل واحد بحسرة صادقة : «يا الهى ، هذا الملاك الخاطئ عائد اليك ثانية . . .» . ولكنك يا عزيزتى نسيت أى تواضع ، وعشت حياة سافرة ، متهورة ، كأنما تفتخرين بالخطيئة ، كنت تعبثين وتقهقهين ، وكنت ارتعش من الرعب وأنا انظر اليك ، وأخشى أن يرسل الرب صاعقة من السماء على بيتنا وأنت عندنا – وصاحت ماريا قسطنطينوفنا وقد لاحظت أن ناديجدا فيودوروفنا تهم بالكلام – لا تجادلى ، لا تجادلى ! ضعى

* «ومن شكك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فأجدر له لو علق فى عنقه حجر الرحى وزج فى لجة البحر» – الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، انجيل متى ، الفصل الثامن عشر – (٦) . **المعرب** .

ثقتك فىّ ولن اخدعك ، لن اخفى عن انظار روحك حقيقة واحدة . فلتسمعينى اذن يا عزيزتى . . . ان الله يصم كبار الخاطئين ، وكنت أنت موصومة . تذكرى كيف كانت فساتينك كلها فظيعة !

كانت ناديجدا فيودوروفنا تقدر فساتينها دائما أعلى التقدير ، ومن ثمّ كفت عن البكاء وتطلعت اليها بدهشة .

فاستطردت ماريا قسطنطينوفنا تقول :

– نعم فظيعة ! كان فى وسع أى انسان أن يحكم على سلوكك من واقع ثيابك المنتقاة الزاهية . كان الجميع عندما يتطلعون اليك يتضاحكون ويهزون اكتافهم ، أما انا فكنت أقاسى ، اقاسى . . . ثم انك ، واعذرينى يا عزيزتى ، لست نظيفة ! عندما التقينا فى كشك الاستحمام ، جعلتنى أرتجف . كانت ملابسك الخارجية محتملة يعنى . . ولكن الجونلة الداخلية والقميص . . . آننى أحمر خجلا يا عزيزتى ! ولا أحد يعقد لايفان اندريتش المسكين ربطة عنقه كما يجب ، وكان واضحا من ملابس المسكين وحذائه ان احدا لا يهتم به فى البيت ، وهو دائما لديك جوعان ، هذا العزيز ، وبالفعل ، اذا لم يكن هناك فى البيت من يهتم باعداد الشاى والقهوة ، فستضطر رغما عنك الى انفاق نصف مرتبك فى المقصف . . أما عندك فى البيت فشىء رهيب ، رهيب ! لا أحد فى المدينة كلها لديه ذباب ، اما عندك فلا مهرب منه ، وكل الآنية والاطباق سوداء . وعلى النوافذ وعلى الطاولات ، انظرى ، غبار وذباب ميت ، واكواب . . . ما الداعى للأكواب هنا ؟ وحتى الآن يا عزيزتى لم تنظف المائدة . ويخجل المرء من دخول غرفة نومك . . الملابس ملقاة فى كل ركن ، وعلى الجدران تعلقين شتى الاشياء الكاوتشوك ، وهناك آنية ما . . . يا عزيزتى ! الزوج لا ينبغى ان يعرف شيئا ، وعلى الزوجة ان تكون أمامه نظيفة طاهرة كملاك ! انا استيقظ كل يوم فى الفجر وأغسل وجهى بالماء البارد لكى لا يلاحظ زوجى نيكوديم الكسندريتش عليه أثر النوم .

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تنتحب :

– هذه أمور تافهة لو كنت سعيدة ، ولكنى تعيسة جدا !

فتنهدت ماريا قسطنطينوفنا وهى لا تكاد تقوى على منع نفسها من البكاء :

– نعم ، نعـم ، انت تعيسة جدا ! وستواجهين فى المستقبل مصيبة رهيبة . الشيخوخة والوحدة ، والامراض ، ثم الحساب فى يوم القيامة . . . فظيـع ، فظيع ! القدر نفسه يمد لك الآن يد العون ، وانت تنحينها برعونة . اعقدى قرانك ، وبسرعة !

فقالت ناديجدا فيودوروفنا :

– نعم ضرورى ، ضرورى . ولكن هذا مستحيل !

– وما السبب ؟

– مستحيل ! آه لو تدرين !

أرادت ناديجدا فيودوروفنا أن تحدثها عن كيريلين ، وعن لقائها مساء الامس فى المرفأ بأتشميانوف الشاب الجميل ، وكيف واتتها فكرة مضحكة مجنونة بالتخلص من دين الثلاثمائة روبل ، وكيف كان ذلك مضحكا للغاية ، وكيف عادت الى البيت فى ساعة متأخرة وهى تشعر بنفسها ساقطة ، مرتزقة بلا رجعة . لم تكن هى نفسها تعرف كيف حدث ذلك . وأرادت الآن ان تقسم أمام ماريا قسطنطينوفنا بأنها سترد الدين حتما ، ولكن النحيب والخجل منعاها من الكلام .

ثم قالت :

– سأرحل . فليبق ايفان اندريتش ، أما أنا فسأرحل .

– الى أين ؟

– الى روسيا .

– والى اى شىء ستعيشين هناك ؟ فليس لديك شىء .

– سأعمل فى الترجمة أو . . . أو افتتح مكتبة . . .

– دعيك من الاوهام يا عزيزتى . . المكتبة بحاجة الى نقود . حسنا ، سأتركك الآن ، فاهدئى وفكرى ، وتعالى الىّ غدا مرحة . سيكون هذا ساحرا ! حسنا ، وداعا يا ملاكى . هاتى اقبلك .

وقبلت ماريا قسطنطينوفنا ناديجدا فيودوروفنا فى جبينهـا ورسمت عليها علامة الصليب وخرجت فى هدوء . كان الظلام قد حل ، فأشعلت اولجا الضوء فى المطبخ . ومضت ناديجدا فيودوروفنا الى غرفة النوم وهى تواصل البكاء ، ورقدت على السرير . وبدأت تخفها حمى شديدة . ونزعت فستانها وهى راقدة وداسته تحت

قدميها ، وانطوت على نفسها كالكعكة تحت البطانية . شعرت بظمأ ولم يكن هناك من يقدم لها الماء .

– سأسدد ! – قالت لنفسها ، وخيل اليها فى الهذيان انها تجلس بجوار احدى المريضات ، وانها هى نفسها تلك المريضة – سأسدد . من الحماقة الظن بأن النقود هى السبب فى . . . سأسافر وارسل له النقود من بطرسبرج . فى البداية مائة . . . ثم مائة . . . ثم مائة . . .

وجاء لايفسكى فى ساعة متأخرة من الليل .

فقالت له ناديجدا فيودوروفنا :

– فى البداية مائة . . . ثم مائة . . .

– هلا اخذت الكينا . . . – قال لها ثم فكر : «غدا الأربعاء تقلع السفينة ولن أسافر فيها . اذن سيكون علىّ ان أعيش هنا الى السبت» .

ونهضت ناديجدا فيودوروفنا فى السرير على ركبتيها . وسألته وهى تبتسم وتزر عينيها من ضوء الشمعة :

– الم أقل شيئا الآن ؟

– لا شىء . ينبغى استدعاء الطبيب غدا . نامى .

واخذ وسادة ومضى الى الباب . بعد أن استقر قراره على السفر وترك ناديجدا فيودوروفنا ، أصبحت تثير فيه الشفقة والشعور بالذنب . وكان يحس فى حضورها بقليل من تأنيب الضمير ، كما فى حضور فرس مريضة او عجوز قرروا اعدامها . وتوقف عند الباب والتفت اليها .

– لقد كنت متضايقا اثناء النزهة وأغلظت القول . اعذرينى أرجوك .

قال ذلك ومضى الى غرفة مكتبه ، ورقد ، ولكنه لم يستطع طويلا أن ينام .

فى اليوم التالى ، بعد أن جاء صامويلنكو مرتديا ، بمناسبة العطلة الرسمية ، حلته الرسمية الكاملة ، بالكتفيات والاوسمة ، وجس نبض ناديجدا فيودوروفنا ، ونظر الى لسانها ثم خرج من غرفة النوم ، سأله لايفسكى الواقف بجوار العتبة فى قلق :

– ماذا هناك ؟ ماذا ؟

كان وجهه ينم عن الخوف والقلق البالغ والأمل .
فقال صامويلنكو :
— اطمئن ، ليس هناك شيء خطر . . حمى عادية .
فكشر لايفسكى بنفاد صبر :
— انا لا أسألك عن هذا . هل حصلت على النقود ؟
— اعذرنى يا عزيزى — همس صامويلنكو وهو يتطلع نحو الباب ويشعر بالحرج — أرجوك اعذرنى . لا أحد لديه نقود زيادة . جمعت حتى الآن من هذا خمسة ومن ذاك عشرة . كل المتحصل مائة وعشرة . سأتحدث اليوم الى بعض الاشخاص . اصبر قليلا .
فهمس لايفسكى وهو يرتعد من نفاد الصبر :
— ولكن أقصى موعد يوم السبت ! بحق كل القديسين ، قبل السبت ! اذا لم اسافر يوم السبت فلست بحاجة الى شيء . . ابدا ! لا أفهم كيف لا يكون لدى الدكتور نقود !
— هذه مشيئتك يا ربى — همس صامويلنكو بسرعة وتوتر حتى أن شيئا صرّ فى حلقه — سحبوا منى كل ما عندى ، هم مدينون لى بسبعة آلاف ، وأنا مدين للجميع . هل الذنب ذنبى ؟
— اذن فستحصل عليها حتى السبت ؟ نعم ؟
— سأحاول .
— اتوسل اليك يا عزيزى . بحيث تكون النقود فى يدى صباح الجمعة .
وجلس صامويلنكو ، وكتب وصفة من الكينا بمحلول kalii bromati ومنقوع الراوند و tincturae gentianae aquae foeniculi ، وكل ذلك فى مزيج واحد ، وأضاف اليه قليلا من شربات الورد حتى لا يكون مرا ، ثم انصرف .

١١

— منظرك يبدو وكأنك قادم لتلقى القبض علىّ — قال فون كورين عندما رأى صامويلنكو يدخل عليه فى حلته الرسمية .
— كنت مارا من هنا فقلت لنفسى فلأعرج لأرى علم الحيوان — قال صامويلنكو وهو يجلس الى طاولة كبيرة صنعها عالم الحيوان بنفسه من الواح بسيطة — مرحبا يا أبانا المقدس — واومأ برأسه

الى الشماس الذى كان جالسا بجوار النافذة ينسخ شيئـا ما – سأجلس دقيقة ثـم اركض الى البيت لآمر باعداد الغداء . حان الوقت . . . ألم اعطلكما ؟

– أبدا – قال عالم الحيوان وهو يفرش على الطاولة اوراقا مكتوبة بخط دقيق – اننا نقوم بالنسخ .

– هكذا . . . أوه ، يـا الهى ، يـا الهى . . . – تنهد صامويلنكو . وتناول من فوق الطاولة بحذر كتابـا معفرا كان يستقر فوقه عنكبوت ميت جاف ، وقال – يا سلام ! تصور مثلا أن خنفسة خضراء تسير لأمر من أمورها ، واذ بها تقابل فى الطريق هذا الملعون . اننى اتصور مدى رعبها !

– نعم ، طبعا .

– هل منح السم ليحمى به نفسه من الاعداء ؟

– نعم ، ليحمى نفسه ، وليهاجم .

– هكذا ، هكذا ، هكذا . . . كل شىء فى الطبيعة يا احبائى حكيم ومفهوم – وتنهد صامويلنكو – ولكنى لا أفهم التالى . اشرح لى انت ، ايها الرجل النادر الذكـاء . هناك ، اتدرى ، حيوانات صغيرة ، لا تزيد عن حجـم العرسة ، وتبدو جميلة المظهر ، ولكنها ، وأقول لك ، فى غايـة اللؤم والخسة . يسير مثل هذا الحيوان فى الغابة مثلا ، واذ به يرى عصفورا ، فيمسكه ويلتهمه . ويواصل سيره ، فيرى فى العشب عشا به بيض ، ورغم أنه لا يريد أن يأكل بعد ، فهو شبعـان ، لكنه مع ذلك يكسر بيضة ويبعثر الأخريات بمخلبه بعيدا عن العش . ثـم يقابل ضفدعة فيبدأ فى اللهو بها . ويقتل الضفدعة ثم يمضى وهو يلعق شواربه فتقابله خنفسة . فيهوى على الخنفسة بمخلبـه . . . يسير وهو يفسد ويدمر كل شىء فى طريقـه . . . يقتحم جحور الحيوانـات الأخرى ، ويدمر اعشاش النمل عبثا ، ويقرقض القواقع . . . واذا صادفته عرسة اشتبك معها فى عراك ، واذا رأى ثعبانا صغيرا او فأرة فلا بد أن يسعى الى خنقهـا . وهكذا طول النهار . قل لى اذن ، ما الحاجة الى مثل هذا الحيوان ؟ ولماذا خلق ؟

فقال فون كورين :

– انا لا أعرف عن أى حيوان تتحدث . يبدو أنك تقصد أحد

أكلة الحشرات . حسنا ، فماذا ؟ لقد وقع العصفور فى يده لأنه غير حذر . وقد حطم العش مع البيض لأن الطائر ليس حاذقا ، وصنع عشه بصورة سيئة ولم يموهه جيدا . أما الضفدعة فيبدو ان لديها عيبا فى الصبغة اللونية ، والا لما استطاع أن يكتشفها . وهكذا دواليك . ان حيوانك لا يقضى الا على الضعفاء وغير الحاذقين ، اى باختصار من لديهم عيوب لا ترى الطبيعة ضرورة فى نقلها الى الخلف . ولا يبقى على قيد الحياة الا الاكثر مهارة ، المحاذرون ، الأقوياء ، والمتطورون . وهكذا فان حيوانك ، دون أن يدرك ذلك ، يخدم أهداف الرقى العظيمة .

– نعم ، نعم ، نعم . . . بالمناسبة يا أخى – قال صامويلنكو متبسطا – اعطنى مائة روبل سلفا .

– حسنا . هناك حيوانات طريفة جدا من بين أكلة الحشرات . مثلا حيوان الخلد . يقال عنه انه نافع لأنه يقضى على الحشرات الضارة . ويحكى ان أحد الألمان ارسل الى الامبراطور غليوم الأول معطف فراء من جلود الخلد ، ويقال ان الامبراطور أمر بتوبيخه لأنه أهلك هذا العدد الكبير من الحيوانات النافعة . بينما لا يقل الخلد فى قسوته عن حيوانك ، وعلاوة على ذلك فهو ضار للغاية ، لأنه يلحق بالمراعى اضرارا بالغة .

وفتح فون كورين علبة واخرج منها ورقة بمائة روبل .

واستطرد قائلا وهو يغلق العلبة :

– القفص الصدرى لدى الخلد قوى جدا ، مثلما لدى الوطواط . وعظامه وعضلاته متطورة الى درجة رهيبة ، وفمه مسلح بصورة خارقة . ولو كان بحجم الفيل لأصبح حيوانا مدمرا لا يهزم . ومن الطريف انه عندما يلتقى خلدان تحت الارض ، يشرعان فورا ، وكأنما عن اتفاق ، فى حفر فسحة . والغاية من هذه الفسحة أن تعطيهما مجالا اكبر للحركة اثناء العراك . وما أن يحفراها حتى يشتبكا فى قتال ضار ، ويتقاتلان الى أن يسقط الأضعف فيهما . – ثم قال فون كورين وقد خفض نبرة صوته – خذ المائة روبل ، ولكن بشرط الا تكون من أجل لايفسكى .

فانفجر صامويلنكو :

– فلتكن حتى من اجله ! ما دخلك أنت ؟

– لا استطيع ان اعطيك نقودا من أجل لايفسكى . أنا اعرف أنك تحب اعطاء القروض ، ولو طلب منك (كريم) اللص قرضا لأعطيته ، ولكن اعذرنى ، أنـــا لا استطيع أن اساعدك فى هذا الاتجاه .

فنهض صامويلنكو وقال وهو يلوح بذراعه اليمنى :

– نعم ، أنـــا اطلب من أجل لايفسكى ! نعـــم ! من أجـل لايفسكى ! ولا يملك أى شيطان أو عفريت الحق فى أن يعلمنى كيف ينبغى أن اتصرف فى نقودى . أنت لا تريد ان تعطينى ؟ نعم؟

وقهقه الشماس .

فقال عالم الحيوان :

– دعك من الانفعال وفكر بروية . ان البر بسيد مثل لايفسكى هو فى رأيى عمل أحمق ، مثل رىّ الأعشاب الضارة او اطعـــام الجراد .

فصرخ صامويلنكو :

– وفى رأيى أننا ملزمون بمساعدة اقربائنا !

– فى هذه الحالة فلتساعد هذا التركى الجائع الذى ينام هناك بجوار السور ! فهو عامـل ، واكثر ضرورة ونفعـــا من صاحبك لايفسكى . اعطه المائة روبل هذه ! أو تبرع لى بمائة روبل من أجل البعثة !

– اننى اسألك ، هل ستعطينى النقود أم لا ؟

– قل لى بصراحة : ما حاجته الى النقود ؟

– هذا ليس سرا . انـــه بحاجة الى السفر يوم السبت الى بطرسبرج .

فقال فون كورين ببطء :

– هكذا اذن ! آها . . . مفهوم . وهى ، هل ستسافر معه أم ماذا ؟

– ستبقى هنا موقتا . سيرتب أموره فى بطرسبرج ثم يرسل اليها نقودا ، وعندئذ ستسافر .

فقال عالم الحيوان :

– يـــا للبراعـــة ! . . – وضحك ضحكـــا قصيرا رفيعـــا – يا للبراعة ! يا للتدبير المحكم !

واقترب من صامويلنكو بسرعة ، ووقف أمامه وجها لوجه ، وحدق فى عينيه وسأله :

— قل لى بصراحة : هل كف عن حبها ؟ نعم ؟ قل : كف عن حبها ؟ نعم ؟

— نعم . . . — نطق صامويلنكو وتصبب عرقا .

— يا للدناءة ! — قال فون كورين وظهر على وجهه الاحساس بالاشمئزاز — واحدة من اثنتين يا الكسندر دافيديتش : اما انك متواطئ معه ، او انك ، لا مؤاخذة ، أهبل . ألا تفهم حقا أنه يضحك عليك كأنك طفل ، بطريقة فى غاية الانحطاط ؟ أليس واضحا كالشمس انه يريد التخلص منها وتركها هنا ؟ وستبقى عالة عليك ، ومن الواضح كالشمس انه سيكون عليك أن تسفرها الى بطرسبرج على حسابك . أمن المعقول ان صديقك الرائع قد أعماك بفضائله الى هذه الدرجة فأصبحت لا ترى حتى أبسط الأشياء ؟

فقال صامويلنكو وهو يجلس :

— هذه مجرد افتراضات .

— افتراضات ؟ اذن فلماذا يسافر وحده وليس معها ؟ ولتسأله لماذا لا تسافر هى أولا وهو بعدها ؟ هذا المحتال اللئيم !

خار صامويلنكو فجأة وقد صدمته الشكوك والريب المفاجئة بخصوص صديقه ، فهبطت نبرته . وقال وهو يتذكر الليلة التى بات فيها لايفسكى عنده :

— ولكن هذا مستحيل ! انه يعانى جدا !

— وماذا يعنى ذلك ؟ اللصوص والمخربون ايضا يعانون !

فقال صامويلنكو مفكرا :

— لنفرض حتى انك على حق . . . لنفرض . . ولكنه شاب ، فى أرض غريبة . . . طالب ، ونحن ايضا طلبة ، ولا يوجد هنا احد غيرنا يمكن أن يسانده .

— تساعده فى صنع الدناءات ، فقط لأنكما كنتما فى اوقات مختلفة طلاب جامعة ، وكلاكما لم تفعلا هناك شيئا ! ما هذا الهراء !

— مهلا ، دعنا نفكر بأعصاب باردة . اعتقد انه من الممكن

ان نفعل هكذا . . . – قال صامويلنكو مفكرا وهو يلعّب أصابعه – سأعطيه النقود ، ولكنى سأخذ منه كلمة شرف نبيلة بأن يرسل فى طلب ناديجدا فيودوروفنا بعد أسبوع .

– وسيعطيك كلمة شرف ، بل وستدمع عيناه ، وسيصدق نفسه ، ولكن ما قيمة هذه الكلمة ؟ لن يفى بها ، وعندما ستلقاه بعد عام ام عامين فى شارع نيفسكى متأبطا ذراع حب جديد ، سيبرر لك ذلك بأن الحضارة أفسدته ، وبأنه نسخة من رودين * . دعك منه اعمل معروفا ! ابتعد عن القذارة ولا تنقب فيها بكلتا يديك !

ففكر صامويلنكو دقيقة ثم قال بحسم :

– ومع ذلك سأعطيه النقود . كما تشاء . أنا لا استطيع أن ارفض رجاء لشخص على اساس الافتراضات وحدها .

– عظيم جدا . فلتهنأ به .

فرجاه صامويلنكو بوجل :

– اعطنى اذن المائة روبل .

– لن اعطيك .

وحل الصمت . خار صامويلنكو تماما . واكتسب وجهه ملامح الذنب والاستحياء والتزلف . وكان من الغريب أن ترى هذا الوجه البائس الخجول كطفل لرجل ضخم يحمل الكتفيات والأوسمة .

وقال الشماس وهو ينحى القلم :

– قداسة الأسقف المحلى يطوف على أبرشيته لا فى عربة بل على ظهر حصان . منظره وهو راكب على الحصان مؤثر للغاية . . . بساطته وتواضعه مفعمتان بعظمة توراتية .

فسأل فون كورين الذى سره تغير مجرى الحديث :

– هل هو شخص طيب ؟

– وكيف لا ؟ لو لم يكن طيبا فهل كانوا يرسمونه أسقفا ؟

فقال فون كورين :

* رودين بطل احدى روايات الكاتب ايفان تورجينيف . مثقف عاجز متردد . احد الرموز البارزة للجيل الخائب فى القرن التاسع عشر ، او كما كانوا يسمونهم «الاشخاص الزائدين عن الحاجة» .
المعرب .

– يوجد بين الأساقفة اشخاص طيبون جدا وموهوبون . المؤسف فقط ان الكثيرين منهم يعيبهم أنهم يتصورون أنفسهم رجال دولة . فبعضهم يمارس الترويس * ، والبعض الآخر ينتقد العلوم . ليس هذا من شأنهم . الأفضل لو ترددوا اكثر على اداراتهم الدينية .

– رجل الدنيا لا يستطيع أن يحكم على الأساقفة .

– لماذا يا شماس ؟ الأسقف شخص مثلى تماما .

فغضب الشماس وتناول القلم :

– مثلك وليس مثلك . لو كنت مثله لحلت بك البركة ولأصبحت أسقفا ، وما دمت لست أسقفا فمعناه أنك لست مثله .

فقال صامويلنكو بضيق :

– كف عن الهراء يا شماس ! – وقال مخاطبا فون كورين – اسمع ، لقد وجدت حلا . لا تعطنى المائة روبل هذه . أنت ستطعم عندى ثلاثة أشهر أخرى حتى الشتاء ، اذن فلتعطنى مقدما عن هذه الأشهر الثلاثة .

– لن اعطيك .

طرف صامويلنكو بعينيه وتضرج ؛ وسحب بحركة آلية الكتاب ذا العنكبوت وتطلع اليه ، ثم نهض وتناول قبعته . وشعر فون كورين بالشفقة عليه .

فقال وهو يركل بقدمه فى غضب احدى الاوراق الى الركن :

– فلتحاول أن تعيش وتصنع شيئا بمثل هؤلاء السادة ! فلتفهم ان هذه ليست طيبة قلب ، ليس حبا ، بل جبنا ، تسيّبا ، سما ! ما يفعله العقل تدمره قلوبكم المترهلة العاجزة ! عندما كنت تلميذا ومرضت بالتيفود ، اطعمتنى خالتى فطرا مخللا رأفة بحالى فكدت أموت . فلتفهم أنت وخالتى أن حب البشر لا ينبغى أن يكون فى القلب او فى الجوانح او فى الخصر ، بل هنا !

وخبط فون كورين على جبينه . ثم قال :

– خذ !

وألقى بالورقة ذات المائة روبل .

* اي تحويل الأشخاص من غير الروس الى روس . **المعرب** .

فقال صامويلنكو بوداعة وهو يطوى الورقة :

– عبثا تغضب يا كوليا . اننى افهمك تماما ، ولكن . . . ضع نفسك فى مكانى .

– أنت امرأة عجوز ليس إلا !

فقهقه الشماس .

وقال فون كورين بحرارة :

– اسمع يا الكسندر دافيديتش ، رجاء أخير ! عندماتعطى النقود لذلك النذل اعرض عليه هذا الشرط : فاما ان يسافر مع سيدته ، واما يسفرها أولا ، وبغير ذلك لا تعطه . لا مجال للتحرج معه . هكذا قل له . واذا لم تقل فأقسم لك بشرفى اننى سأذهب اليه فى مكتبه واسحبه على الدرج ، ولن اعرفك بعد ذلك . فلتعلم هذا !

فقال صامويلنكو :

– حسنا ، لو سافر معها او أرسلها قبله فسيكون ذلك افضل له . بل سيكون مسرورا لذلك . طيب ، وداعا .

ودّع برقة وخرج ، ولكن قبل ان يغلق الباب خلفه التفت الى فون كورين ، وأصبح وجهه مرعبا ، وقال :

– انهم الالمان الذين افسدوك يا أخى ! نعم ! الالمان !

١٢

فى اليوم التالى ، الخميس ، احتفلت ماريا قسطنطينوفنا بعيد ميلاد ابنها كوستيا . ودعى الجميع لتناول الكعكة ظهرا ، ولشرب محلول الشيكولاتة مساء . وعندما وصل لايفسكى وناديجدا فيودوروفنا فى المساء ، مال فون كورين ، الذى كان جالسا فى غرفة الجلوس يشرب محلول الشيكولاتة ، على صامويلنكو وسأله :

– هل تحدثت معه ؟

– ليس بعد .

– انتبه ، لا تتحرج معه . انا لا أفهم وقاحة هؤلاء السادة . انهما يعلمان جيدا نظرة هذه الأسرة الى علاقتهما غير الشرعية ومع ذلك يقحمان انفسهما هنا .

فقال صامويلنكو :

— لو راعيت كل تحيز مغرض فسيكون عليك ألا تخرج الى أى مكان .

— وهل اشمئزاز العامـة من علاقة الحب غير المشروعة ومن الانحلال . . تحيز مغرض ؟

— طبعا . تحيز مغرض وحقد . فالجنود عندما يرون فتـاة خليعة يقهقهون ويصفرون ، فلتسألهم من يكونون هم ؟

— ليس عبثا يصفرون . فعندما تخنق البغايا اطفالهن الحرام ويمضين الى الاشغال الشاقة ، وعندما تلقى أنّا كارينينا بنفسها تحت عجلات القطار ، وعندما يلوثون الأبواب بالقطران فى القرى * ، وعندما لسبب ما يعجبنى واياك فى كاتيا طهارتها ، وعندما يشعر كل منا بالحاجة المبهمة الى الحب الطاهر ، رغم انه يعلم ان مثل هذا الحب غير موجود . . . فهل هذا كله تحيز مغرض ؟ ان هذا يا أخى هو الشىء الوحيد الذى تبقى من قانون الانتخاب الطبيعى ، ولولا هذه القوة المجهولة التى تنظم العلاقة بين الجنسين لأراك السادة آل لايفسكى الويل ، ولتفسخت البشرية فى غضون عامين .

دخل لايفسكى غرفة الجلوس وسلـــم على الجميع ، وابتسم بتزلف وهو يصافـــح فون كورين . وانتظر فرصة مناسبة وقال لصامويلنكو :

— عفوا يا الكسندر دافيديتش ، أريدك فى كلمتين .

ونهض صامويلنكو ، وضمه اليه من خصره ، وذهبا معا الى غرفة مكتب نيكوديم الكسندريتش .

وقال لايفسكى وهو يقضم اظافره :

— غدا الجمعة . . . هل حصلت على ما وعدتنى به ؟

— حصلت فقط على مائتين وعشرة . الباقى سأحصل عليه اليوم او غدا . كن مطمئنا .

فتنهد لايفسكى وارتعشت يداه من الفرحة :

— الحمد لله ! . . لقد أنقذتنى يـــا الكسندر دافيديتش ،

---

* كان من العادات القديمة فى الريف اذا ظهر ان العروس لم تكن عذراء ان يلوثوا باب بيتها بالقطران الأسود . **المعرب** .

واقسم لك بالله ، بسعادتى ، بكل ما تريد ، اننى سأرسل اليك هذه النقود بمجرد وصولى . ودينى القديم سأرسله .

فقال صامويلنكو وهو يمسك بزرار لايفسكى ويتضرج :

– اسمع يا فانيا . . . اعذرنى اذا كنت اتدخل فى شئونك العائلية ، ولكن . . . لماذا لا تسافر مع ناديجدا فيودوروفنا ؟

– يا لك من غريب ، وهل هذا ممكن ؟ لا بد أن يبقى أحدنا ، والا جن جنون الدائنين . فأنا مدين لأصحاب المحلات بحوالى سبعمائة روبل ، او اكثر . انتظر ، سأرسل لهم النقود ، وأسد افواههم ، وعندها ستسافر هى ايضا من هنا .

طيب . . . ولماذا لا تسفرها هى أولا ؟

فقال لايفسكى بجزع :

– آه يا الهى ، وهل هذا ممكن ؟ انها امرأة ، فما الذى ستستطيع أن تفعله هناك ؟ ما الذى تعرفه ؟ سيكون هذا مجرد تعطيل وتبديد للنقود بلا معنى .

فقال صامويلنكو فى نفسه : «معقول . . .» ، ولكنه تذكر حديثه مع فون كورين فأطرق وقال عابسا :

– انا لا استطيع ان اوافقك على رأيك . فاما أن تسافر معها ، واما أن تسفرها أولا ، والا . . . والا فلن أعطيك النقود. هذا آخر كلام عندى . . .

وتقهقر بظهره وناخ به على الباب ، وخرج الى غرفة الجلوس محمرا ، فى غاية الارتباك .

وفكر لايفسكى وهو يعود الى غرفة الجلوس : «الجمعة . . . الجمعة . . الجمعة . . .» .

وقدموا له كوب شيكولاتة . ولسعت الشيكولاتة الساخنة شفتيه ولسانه ومضى يفكر :

«الجمعة . . . الجمعة . . .» .

لسبب ما لم تترك كلمة «الجمعة» ذهنه ، فلم يفكر فى شىء آخر سوى الجمعة ، وأصبح واضحا له فقط ، ولكن ليس فى رأسه ، بل فى مكان ما تحت قلبه ، أنه لن يستطيع السفر يوم السبت . ووقف امامه نيكوديم الكسندريتش مهندما ، بصدغين ممشطين ، وراح يرجوه :

– تفضل كل ، لو تكرمت . . .

وعرضت ماريا قسطنطينوفنا على الضيوف علامات كاتيا المدرسية وهى تقول ببطء :

– اصبحت الدراسة الآن صعبة جدا ، جدا ! يطالبونهم بأشياء كثيرة . . .

فتئن كاتيا :

– ماما !

ولا تعرف أين تخفى وجهها من الخجل والمديح .

وشاهد لايفسكى ايضا العلامات وامتدحها . وقفزت أمام عينيه مواد الدين ، واللغة الروسية ، والسلوك ، والخمسات والأربعات * ، وبدا له ذلك كله ، بالاضافة الى الجمعة التى ألحت عليه ، وصدغى نيكوديم الكسندريتش الممشطين ، وخدى كاتيا الأحمرين ، بدا له وحشة لا تحد ولا تقهر حتى انه كاد يصرخ يأسا ، وسأل نفسه : «أحقا ، أحقا لن اسافر ؟» .

ووضعوا طاولتى لعب متجاورتين وجلسوا ليلعبوا «ساعى البريد» . وجلس لايفسكى أيضا .

«الجمعة . . . الجمعة . . . – فكر وهو يبتسم ويخرج قلما من جيبه – الجمعة . . .» .

وأراد أن يفكر فى أمره وفى الوقت نفسه خاف من التفكير . كان مخيفا ان يعترف بأن الدكتور كشف خداعه الذى اخفاه طويلا وبعناية عن نفسه . ففى كل مرة فكر فيها فى مستقبله لم يكن يترك الحرية الكاملة لأفكاره . سيستقل القطار ويرحل . . وبهذا تحل قضية حياته ، ولم يكن يترك افكاره تمضى الى أبعد . وكضوء كاب بعيد فى حقل كانت تومض فى رأسه احيانا فكرة ، بأنه فى مكان ما ، باحدى حارات بطرسبرج ، فى المستقبل البعيد، سيضطر الى كذبة صغيرة لكى يفترق عن ناديجدا فيودوروفنا ويسدد الديون . سيكذب مرة واحدة فقط ، ثم يأتى التجدد الشامل . وهذا حسن : فبكذبة صغيرة سيشترى الحقيقة الكبيرة.

* كان نظام تقدير الدرجات المدرسية والجامعية فى روسيا نظاما خمسيا (أعلى درجة خمسة وأقل درجة واحد) . وما زال هذا النظام ساريا حاليا . **المعرب** .

اما الآن ، وعندما ألمح الدكتور بصراحة فجة الى خداعه حين رفض طلبه ، فقد اصبح واضحا لديه انه سيلجأ الى الكذب لا فى المستقبل البعيد فحسب ، بل اليوم ، وغدا ، وبعد شهر ، وربما حتى الى آخر العمر . وبالفعل ، فلكى يرحل سيكون عليـــه ان يكذب على ناديجدا فيودوروفنا وعلى الدائنين وعلى رؤسائه . وبعد ذلك ، ولكى يحصل فى بطرسبرج على نقود ، سيضطر الى الكذب على أمه فيقول لها انه انفصل فعلا عن ناديجدا فيودوروفنا . ولن تعطيه أمه اكثر من خمسمائـــة روبل ، واذن فقد خدع الدكتور أيضا ، لأنه لن يكون قادرا على ارسال النقود اليه فى وقت قريب. وبعد ذلك ، وعندما تأتى ناديجدا فيودوروفنا الى بطرسبرج ، سيكون عليه ان يلجأ الى سلسلة كاملة من الأكاذيب الصغيرة والكبيرة لكى ينفصل عنها . ومن جديد الدموع ، والملل ، والحياة المقرفة ، والندم ، واذن فلن يكون هناك أى تجدد . الخداع ولا شيء سواه . وارتفع فى خيـــال لايفسكى تل كامل من الأكاذيب . ولكى يقفز من فوقه دفعة واحدة ولا يلجأ الى الكذب على دفعات ، لا بد من الاقدام على خطوة حاسمة ، كأن ينهض مثلا ، دون كلمة واحدة ، ويرتدى قبعته ، ويرحل فورا بدون نقود ، ودون كلمة واحدة . ولكن لايفسكى كان يشعر بأن هذا مستحيل بالنسبة له.

«الجمعة . . . الجمعة . . . -فكر لايفسكى - الجمعة . . .».

كانوا يكتبون رسائل قصيرة ، ويطوونها نصفين ، ويضعونها فى قبعة نيكوديم الكسندريتش الاسطوانية القديمة ، وعندما يتجمع منها عدد كاف ، يقوم كوستيا ، الذى يمثل دور ساعى البريد ، بالطواف على المائدة وتوزيعها عليهم . وكان الشماس وكاتيـــا وكوستيا ، الذين تلقوا رسائل مضحكة ويحاولون كتابة رسائل اكثر اضحاكا ، كانوا فى قمة الاعجاب .

«نحن بحاجة الى ان نتحدث» - قرأت ناديجدا فيودوروفنـــا فى الرسالة . تبادلت النظر مع ماريا قسطنطينوفنا فابتسمت هذه ابتسامة لوزية واومأت برأسها .

«وعم نتحدث ؟ - فكرت ناديجدا فيودوروفنا - اذا لم يكن من الممكن ان اروى كل شيء فلا معنى للحديث» .

قبل أن تخرج الى الزيارة عقدت للايفسكى ربطة عنقه ، فملأ

14*

هذا العمل التافه روحها بالرقـــة والحزن . وأوحى اليها القلق المرتسم على وجهه ، ونظراته الشاردة ، وشحوبه ، والتغير غير المفهوم الذى طرأ عليه فى الأيام الأخيرة ، وكتمانهـــا عنه سرا رهيبا شنيعا ، وارتعاش يديها عندما كانت تعقد ربطة عنقه . . كل ذلك أوحى اليها لسبب ما بأنه لم يبق لهما الا وقت قصير للحياة معا . وأخذت تتطلع اليه كما تتطلع الى ايقونة ، بخوف وندم ، وهى تقول فى خاطرهـــا : «سامحنى ، سامحنى . . .» . وكان اتشميانوف جالسا قبالتها الى الطاولة ولا يحول عنها عينيه السوداوين العاشقتين . وأثارتها الرغبات ، فخجلت من نفسها وخافت من انه حتى الكآبة والحزن لن يمنعاها من الاستســـلام للشهوة المدنسة ، ان لم يكن اليوم فغدا ، وأنهـــا ، كالسكير المدمن ، لم تعد قادرة على التوقف .

ولكى لا تمضى فى هذه الحياة المشينـــة لها ، والمهينـــة للايفسكى ، فقد قررت أن ترحل . سوف تضرع اليه باكية أن يدعها ترحل ، فاذا عارض فسوف تتركه خفية . ولن تخبره بما حدث . فلتبق ذكراها لديه طاهرة .

«احبك ، احبك ، احبك» — قرأت فى الورقة — انها من اتشميانوف.

وستعيش فى مكان ناء ، وستعمل ، وترسل الى لايفسكى «من مجهول» بالنقود والقمصان المطرزة ، والتبغ ، ولن ترجع اليه الا فى الشيخوخة وفى حالة ما اذا مرض مرضا خطيرا واحتاج الى من يرعاه . وعندما يعلم فى الشيخوخة بالأسباب التى جعلتها ترفض ان تصبح زوجته وتتركه ، فسوف يقدر تضحيتها ويغفر لها .

«أنفك طويل» — يبدو أنها من الشماس أو من كوستيا .

وتخيلت ناديجدا فيودوروفنا كيف ستعانق لايفسكى بشدة عند الوداع ، وتقبل يده ، وتقســـم له بأنها ستظل تحبه طول العمر ، وكيف ستفكر بعد ذلك كل يوم ، وهى تعيش فى المكان النائى ، بين أناس غرباء ، بأن لديها صديقا ، حبيبا ، طاهرا ، نبيلا ، ساميا ، يحفظ لها ذكرى طاهرة .

«اذا لم تحددى لى اليوم موعدا فسأتخذ اجراءاتى ، اؤكد لك بشرفى . الناس المحترمون لا يُعامَلون بهذه الصورة ، ينبغى ان تفهمى ذلك» — هذه من كيريلين .

١٣

وصلت لايفسكى رسالتان ، ففض احديهما وقرأ : «لا تسافر أيها الغالى» * .

«من يا ترى كاتب هذا ؟ – فكر لايفسكى – بالطبع ليس صامويلنكو . . . وليس الشماس لأنه لا يعرف اننى أريد ان أسافر . أهو فون كورين اذن ؟»

كار عالم الحيوان منكبا على الطاولة يرسم هرما . وخيل الى لايفسكى ان عينيه تبتسمان .

وفكر لايفسكى : «يبدو أن صامويلنكو ثرثر عفوا . . .»

وفى الرسالة الثانية ، التى كانت مكتوبة بنفس الخط المكسر، بحروف ذات ذيول طويلة وزخارف ، قرأ : «هناك شخص لن يسافر يوم السبت» .

وفكر لايفسكى : «سخرية سخيفة . الجمعة ، الجمعة . . .» .

وصعد شيء ما الى حلقه . فتحسس لايفسكى ياقة قميصه وسعل ، ولكن بدلا من السعال انطلق من حلقه الضحك .

– ها-ها-ها ! – قهقه لايفسكى – ها-ها-ها ! – وفكر «ما هذا ، ما الذى يضحكنى ؟» – ها-ها-ها !

وحاول ان يكبح نفسه ، وسد فمه براحته ، ولكن الضحك ضغط على صدره وعنقه ، ولم تستطع يده أن تسد فمه .

«ما أغبى هذا مع ذلك ! – فكر وهو يتلوى من الضحك – هل جننت ام ماذا ؟»

تعالت الضحكات اكثر فأكثر وتحولت الى ما يشبه نباح كلب صغير . واراد لايفسكى ان ينهض ويغادر الطاولة ولكن قدميه لم تطاوعاه ، بينما قفزت يده اليمنى بصورة غريبة ورغما عنه فوق الطاولة ، وراحت تلتقط الأوراق بعصبية وتعصرها . ورأى امامه عيون مندهشة ، ووجه صامويلنكو الجاد المذعور ، ونظرة عالم الحيوان المليئة باستهزاء بارد وتقزز ، فأدرك انه اصيب بحالة هستيريا.

«يا للخزى ، يا للفضيحة – فكر لايفسكى وهو يشعر بدفء

---

* مطلع اغنية غجرية كانت ذائعة فى سبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر . **المعرب** .

الدموع على وجهه – آه ، آه ، يا للعار ! لم يحدث لى هذا ابدا من قبل . . .»

وها هم قد رفعوه من تحت ابطيه وقد أسندوا رأسه من الخلف ، وجروه الى مكان ما . وها هو كوب يلمع أمام عينيه ويصطدم بأسنانه ، فينسكب الماء على صدره . وها هى غرفة صغيرة فى وسطها سريران متجاوران مغطيان بغطائين نظيفين ابيضين كالثلج . وتهالك على أحدهما وانخرط فى النحيب .

– لا بأس ، لا بأس . . . – قال صامويلنكو – هذا يحدث . . . هذا يحدث . . .

كانت ناديجدا فيودوروفنا متثلجة الاطراف من الخوف ، وبدنها كله يرتجف وهى تتوقع حدوث شىء رهيب . ووقفت بجوار السرير تسأل لايفسكى :

– ماذا بك ؟ ماذا ؟ قل لى أرجوك . . .

وفكرت : «أيكون كيريلين قد كتب له شيئا ما ؟»

فقال لايفسكى وهو يضحك ويبكى :

– لا شىء . . . اخرجى من هنا . . . يا عزيزتى .

لم يكن وجهه يعبر عن الكراهية أو الاحتقار ، اذن فهو لا يعلم بشىء . واطمأنت ناديجدا فيودوروفنا قليلا وخرجت الى غرفة الجلوس .

– لا تقلقى يا عزيزتى – قالت لها ماريا قسطنطينوفنا وهى تجلس الى جوارها وتمسك يدها – هذا سيمر . الرجال ايضا ضعفاء مثلنا نحن الخاطئات . أنتما الاثنان تمران الآن بأزمة . . . هذا مفهوم تماما ! حسنا يا عزيزتى ، اننى انتظر الرد . هيا نتحدث .

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تصغى الى نحيب لايفسكى :

– كلا ، لن نتحدث . . . عندى انقباض . . . اسمحى لى أن أذهب .

فقالت ماريا قسطنطينوفنا بجزع :

– ماذا تقولين يا عزيزتى ! أتظنين حقا اننى اتركك تذهبين بدون عشاء ؟ فلنأكل أولا ثم اذهبى فى رعاية الله .

فهمست ناديجدا فيودوروفنا :

– عندى انقباض . . . – وتشبثت بذراع المقعد بكلتا يديها حتى لا تسقط .
– عنده تشنج ! – قال فون كورين بمرح وهو يدلف الى غرفة الجلوس ، ولكنه احرج عندما رأى ناديجدا فيودوروفنا فخرج .
وعندما انتهت الهستيريا جلس لايفسكى على السرير الغريب وفكر :
«يا للعار ، تملكنى البكاء كطفلة ! لا بد أننى مضحك ومقزز. فلأنصرف من الباب الخلفى . . . ولكن سيكون معنى ذلك أننى اولى أهمية كبيرة لهذه الهستيريا . من الأفضل تحويل الأمر الى مزحة . . .»
وتطلع فى المرآة ، ثم جلس بعض الوقت ، وخرج الى غرفة الجلوس .
– ها أنذا ! – قال مبتسما . كان يشعر بخجل مضن ، وأحس ان الآخرين يعانون ايضا من الخجل فى حضوره . فقال وهو يجلس – ما أغرب ما يحدث احيانا . كنت جالسا وفجأة ، أتدرون ، أحسست بألم رهيب يخزنى فى جنبى . . . ألم لا يطاق ، فلم تتحمل اعصابى و . . . وحدث هذا الأمر السخيف . نحن فى عصر القلق ، فما العمل !
اثناء العشاء كان يشرب الخمر ويتحدث ، ويزفر أحيانا بتوتر وهو يمسح على جنبه كأنما ليظهر أن الألم لم يزايله تماما . ولم يصدقه أحد ، سوى ناديجدا فيودوروفنا ، ورأى هو ذلك .
فى حوالى الساعة العاشرة ذهبوا للتنزه فى البوليفار . وخافت ناديجدا فيودوروفنا أن يتحدث كيريلين اليها ، فحاولت طوال الوقت ان تظل الى جوار ماريا قسطنطينوفنا والأولاد . أحست بالضعف من الخوف والضيق ، وأدركها التعب وهى تشعر باقتراب نوبة الحمى ، فسارت تجرجر قدميها ، ولكنها لم تنصرف الى البيت لأنها كانت واثقة من ان كيريلين أو اتشميانوف ، أو الاثنين معا سيتبعانها . وسار كيريلين خلفها مع نيكوديم الكسندريتش وهو يدندن بصوت خافت :
– لن أسمح باللعب بى ! لن أسـ . . . ـمح !

انعطفوا من البوليفار الى المقصف ، ثم ساروا على الشاطئ ، وظلوا ينظرون طويلا الى مياه البحر الفوسفورية المضيئة . ومضى فون كورين يشرح هذه الظاهرة .

١٤

– عليّ ان اذهب للعب الفنت . . . انهم فى انتظارى – قال لايفسكى – وداعا يا سادة .

– وأنا معك ، انتظر – قالت ناديجدا فيودوروفنا وتأبطت ذراعه .

وودعا الجماعة وانصرفا . وودع كيريلين أيضا وقال انه فى نفس اتجاههما ، وسار الى جوارهما .

«فليكن ما يكون . . . – فكرت ناديجدا فيودوروفنـــا – فليكن . . .»

وخيل اليهـــا أن كل الذكريات السيئة خرجت من رأسهـــا وتسير فى العتمة الى جوارهـــا وتلهث بتوتر ، أما هى ، فكانت كالذبابة التى وقعت فى حبر ، تسير بصعوبة فى الشارع وتلوث جنب لايفسكى ويده بالسواد . وفكرت : «لو أقدم كيريلين على ارتكاب عمل سيئ فلن يكون هو المذنب فى ذلك ، بل هى . ألم يكن هناك زمن لم يتحدث فيه اى رجل معها كما يتحدث كيريلين، وهى نفسها التى قطعت ذلك الزمن كما يقطع الخيط وقضـــت عليه دون رجعة . . فمن المذنب فى ذلك ؟ لقد أعمتها رغباتهـــا فراحت تبتسم لرجل غريب عنها تماما ، ربما فقط لأنه فخم الهيئة وفارع الطول ، وأضجرها بعد لقائين اثنين فهجرته ، أفلا يحق له لهذا السبب – فكرت الآن – ان يعاملها كما يحلو له ؟»

وتوقف لايفسكى عن السير وقال :

– هنا يا عزيزتى سأودعك . سيوصلك ايليا ميخايليتش .

وانحنى لكيريلين ، ومضى بسرعة بعرض البوليفار ، وعبر الشارع الى منزل شيشكوفسكى ، حيث لاح الضوء فى النوافذ ، وتناهى بعد ذلك صوت باب السياج وهو يغلقه خلفه .

وبدأ كيريلين يقول :

– فلتسمحى لى أن استوضح منك . أنا لست صبيا ، لست

أحد هؤلاء الأتشكاسوف أو لاتشكاسوف ، زاتشكاسوف . . . أنا اطالبك باهتمام جدى !

دق قلب ناديجدا فيودوروفنا بعنف . ولم ترد بشيء .

فمضى كيريلين يقول :

– فى البداية فسرت تحولك الحاد فى التعامل معى بأنه دلال . أما الآن فأرى انك ببساطة لا تجيدين معاملة الناس المحترمين . لقد أردت ببساطة أن تلعبى بى ، مثلما تلعبين بهذا الصبى الأرمنى ، ولكنى رجل محترم وأطالب بأن أعامل كرجل محترم . وهكذا فأنا تحت أمرك . . .

– أنا عندى انقباض . . . – قالت ناديجدا فيودوروفنا وبكت ، ولكى تخفى دموعها حولت وجهها .

– أنا أيضا عندى انقباض ، ولكن ماذا يترتب على ذلك ؟

وصمت كيريلين قليلا ، ثم قال بوضوح وبطء :

– اكرر لك يا سيدتى انه اذا لم تحددى لى اليوم لقاء ، فسوف أثير اليوم فضيحة .

– دعنى اليوم أرجوك . . . – قالت ناديجدا فيودوروفنا وهى لا تتعرف على صوتها ، اذ كان رفيعا يثير الشفقة .

– يجب أن القنك درسا . . . اعذرينى على هذه اللهجة القاسية ، ولكن من الضرورى ان القنك درسا . نعم ، للأسف ينبغى أن القنك درسا . أنا اطلب لقائين : اليوم وغدا . وبعد غد أنت حرة تماما ويمكنك أن تمضى الى حيث تشائين ومع من تريدين . اليوم وغدا .

اقتربت ناديجدا فيودوروفنا من باب سور بيتها وتوقفت .

وهمست وبدنها كله يرتجف وهى لا ترى أمامها شيئا فى الظلام سوى سترة بيضاء :

– اتركنى أرجوك ! انت على حق ، أنا امرأة فظيعة . . . أنا مذنبة ، ولكن اتركنى . . . أرجوك . . . – ولمست يده الباردة فانتفضت – أتوسل اليك . . .

فزفر كيريلين قائلا :

– وا أسفاه ، وا أسفاه ! ليس فى نيتى أن اتركك ، أريد

فقط أن القنك درسا ، اجعلك تفهمين . وعلاوة على ذلك يا مدام فأنا لا اثق كثيرا فى النساء .

– أنا عندى انقباض . . .

أصغت ناديجدا فيودوروفنا الى صخب البحر المنتظم ، ونظرت الى السماء المرصعة بالنجوم ، فأحست بالرغبة فى الانتهاء من كل هذا بسرعة ، والتخلص من الاحساس اللعين بالحياة ببحرها ونجومها ورجالها وحُمّاها . . .

فقالت ببرود :

– فقط ليس عندى فى البيت . . . خذنى الى أى مكان .

– فلنذهب الى مريدوف . أفضل مكان .

– أين هذا ؟

– قرب الجسر القديم .

مضت فى الشارع بسرعة ، ثم انحرفت الى حارة تفضى الى الجبال . كان الجو مظلما . وهنا وهناك تناثرت على أرض الشارع خطوط ضوئية شاحبة من النوافذ المضاءة ، فخيل اليها أنها كالذبابة ، تارة تسقط فى الحبر ، وتارة أخرى تخرج منه الى النور . وسار كيريلين خلفها . وفى أحد الأماكن تعثر وكاد أن يسقط فضحك .

وفكرت ناديجدا فيودوروفنا : «انه سكران . . . سيان . . . سيان . . . فليكن» .

وبعد فترة قصيرة ودع اتشميانوف أيضا الجماعة ، ومضى فى اثر ناديجدا فيودوروفنا لكى يدعوها لنزهة فى قارب ، اقترب من بيتها ، ونظر عبر الحديقة : كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ولا ضوء فيها .

ونادى :

– ناديجدا فيودوروفنا !

ومرت دقيقة ، فنادى ثانية .

– من هناك ؟ – سمع صوت أولجا .

– ناديجدا فيودوروفنا موجودة ؟

– لا . لم تأت بعد .

«غريبة . . غريبة جدا . . . – فكر أتشميانوف وقد بدأ يشعر بقلق شديد – لقد انصرفت عائدة الى البيت . . .»

وتمشى فى البوليفار ، ثم فى الشـــارع ، وأطل فى نوافذ دار شيشكوفسكى . كان لايفسكى يجلس الى الطاولـــة بدون سترة وينظر الى أوراق اللعب باهتمام .

– غريبة ، غريبة . . . – دمدم أتشميانوف ، وأحس بالخجل عندما تذكر الهستيريـــا التى اصابت لايفسكى – اذا لم تكن فى البيت فأين هى ؟

وذهب ثانية الى بيت ناديجدا فيودوروفنا ، ونظر الى النوافذ المظلمة .

«هذا خداع ، خداع . . .» – فكر وهو يتذكر انها هى التى وعدته بالتنزه معه مساء فى القارب عندما إلتقى بهـــا ظهر اليوم عند آل بيتوجوف .

كانت نوافذ المنزل الذى يقطنه كيريلين مظلمـــة ، وجلس شرطى على الأريكة قرب البوابة مستغرقا فى النوم . وعندما نظر اتشميانوف الى النوافذ والى الشرطى أدرك كل شىء . وقرر أن يعود الى بيته ، ومضى ، ولكنه وجد نفسه من جديد بالقرب من بيت ناديجدا فيودوروفنا . وهنا جلس على الأريكة ، ونزع قبعته وهو يشعر برأسه يحترق من الغيرة والحنق .

كانت ساعة كنيسة المدينة لا تدق الا مرتين فى اليوم : فى الظهر وفى منتصف الليل . وبعد أن دقت معلنة منتصـــف الليل بقليل تناهى صوت خطوات مستعجلة .

– اذن غدا مساء عند مريدوف ثانية ! – سمع اتشميانوف فعرف صوت كيريلين – فى الثامنة . الى اللقاء !

وظهرت ناديجدا فيودوروفنا بجوار حديقة المنزل . ولم تلحظ اتشميانوف وهو جالس على الأريكة فمرت بجواره كالظل ، وفتحت باب السور وتركته مفتوحا ودلفت الى البيت . وأشعلت فى غرفتها شمعة ، ونزعت ثيابها بسرعة ، ولكنها لم تذهب الى الفراش ، بل جثت على ركبتيها أمام الكرسى ، واحتضنته ، والصقت جبينها به .

وعاد لايفسكى الى البيت والساعة تدور فى الثالثة .

١٥

قرر لايفسكى الا يكذب دفعة واحدة بل على اجزاء ، فتوجه فى اليوم التالى الى صامويلنكو ليطلب نقودا ليرحل يوم السبت من كل بد . كان من المستحيل أن يبقى فى المدينة بعد نوبة الهستيريا بالأمس ، والتى اضافت الى حالته النفسية السيئة احساسا حادا بالخجل . فاذا ما أصر صامويلنكو على شروطه – فكر لايفسكى – فسيوافقه عليها ويأخذ النقود ، ثم يقول له غدا ، فى لحظة الرحيل الأخيرة ان ناديجدا فيودوروفنا رفضت أن تسافر . وسيعمل فى المساء على اقناعها بأنه يفعل كل ذلك من أجل مصلحتها . أما اذا رفض صامويلنكو ، الواقع تحت تأثير فون كورين الواضح ، ان يعطيه النقود بتاتا ، أو تقدم بشروط جديدة ، فان لايفسكى سيرحل اليوم مباشرة على سفينة بضائع أو فى قارب شراعى الى «نوفى أفون» أو «نوفوروسيسك» ، ويرسل من هناك برقية ذليلة الى أمه ، ويبقى هناك الى أن ترسل له أمه أجرة الطريق .

عندما وصل الى بيت صامويلنكو وجد فى غرفة الجلوس فون كورين . كان عالم الحيوان قد جاء لتوه لتناول الغداء ، وكالعادة فتح الألبوم وراح يتفحص الرجال ذوى القبعات الاسطوانية والنساء ذوات القلنسوات .

وفكر لايفسكى عندما رآه : «جاء فى غير وقته . يمكن أن يفسد الأمر» .

– مرحبا !

– مرحبا – اجاب فون كورين دون أن ينظر اليه .

– الكسندر دافيديتش موجود ؟

– نعم . فى المطبخ .

توجه لايفسكى الى المطبخ ، ولكنه رأى من الباب أن صامويلنكو مشغول باعداد السلاطة ، فعاد الى غرفة الجلوس وجلس . كان يشعر فى حضرة عالم الحيوان دائما بالحرج ، أما الآن فكان يخشى انه سيضطر الى الحديث عن نوبة الهستيريا . ومر اكثر من دقيقة فى صمت . وفجأة رفع فون كورين عينيه الى لايفسكى وسأله :

– كيف حالك بعد نوبة الأمس ؟
فأجاب لايفسكى وهو يتضرج :
– رائع . فى الواقع لم يحدث شيء يذكر . . .
– حتى الأمس كنت اعتقد ان الهستيريا لا تصيب الا السيدات ، ولذلك ظننت فى البداية أنك أصبت بالرقّاص .
فابتسم لايفسكى بتزلف وفكر :
«يا لها من عدم لباقة من جانبه . . . انه يعلم جيدا اننى فى حالة صعبة . . .»
وقال وهو لا يزال يبتسم :
– نعم ، كانت حادثة مضحكة . لقد اخذت اضحك اليوم طول الصباح . المفارقة فى نوبة الهستيريا انك تعلم أنها سخيفة ، وتسخر منها فى نفسك ، وفى الوقت نفسه تنتحب . اننا فى عصرنا القلق هذا عبيد أعصابنا . فهى أسيادنا وتفعل بنا ما تشاء . وفى هذا الصدد فقد أسدت الحضارة الينا خدمة كخدمة الدب لصاحبه . . .
كان لايفسكى يتحدث ويشعر بالضيق من أن فون كورين يصغى اليه بجدية واهتمام ، ويحدق فيه باهتمام دون ان تطرف عيناه ، وكأنه يدرسه . واحنقه من نفسه انه رغم كل نفوره من فون كورين ، لم يستطع ابدا أن يمسح عن وجهه ابتسامته المتزلفة .
ومضى يقول :
– وان كان علىّ ان اعترف بأنه كانت هناك أسباب مباشرة للنوبة ، وأسباب لها ما يبررها . لقد تدهورت صحتى بشدة فى الآونة الأخيرة . أضف الى ذلك الملل ، والافلاس المستمر . . . وعدم وجود ناس أو اهتمامات مشتركة ... وضعى فى سوء ما بعده سوء .
فقال فون كورين :
– نعم ، وضعك بلا مخرج .
هذه الكلمات الهادئة الباردة ، التى لا يعرف ان كانت تنطوى على سخرية ام على نبوءة متطفلة ، أهانت لايفسكى . وتذكر نظرة

عالم الحيوان بالأمس ، المليئة بالسخرية والاشمئزاز ، فصمت قليلا ، ثم سأل وقد كف عن الابتسام :

– ومن أين عرفت بوضعى ؟

– أنت تحدثت عنه بنفسك الآن ، ثم ان اصدقاءك يبدون تعاطفا حارا معك ، الى درجة اننا لا نسمع طوال اليوم الا عنك .

– أى اصدقاء ؟ تقصد صامويلنكو ؟

– نعم ، وهو أيضا .

– أرجو من الكسندر دافيديتش ، وعموما من اصدقائى ، أن يقللوا من اهتمامهم بى .

– ها هو صامويلنكو بنفسه ، فلتطلب منه أن يقلل من اهتمامه بك .

فدمدم لايفسكى :

– أنا لا أفهم لهجتك هذه . . . – وتملكه احساس وكأنما ادرك الآن فقط أن عالم الحيوان يكرهه ويحتقره ويهزأ به ، وان عالم الحيوان هو أخبث وألدّ اعدائه . فقال بصوت خافت وهو لا يقوى على الكلام بصوت عال من الكراهية التى ضغطت على صدره وعنقه كرغبته فى الضحك أمس . – وفر هذه اللهجة لشخص آخر غيرى . . .

ودخل صامويلنكو بدون سترة ، عرقان ، أحمر من جو المطبخ الخانق .

وقال :

– آه ، انت هنا ؟ مرحبا يا عزيزى . هل تغديت ؟ لا تتكلف وقل : تغديت ؟

فقال لايفسكى ناهضا :

– الكسندر دافيديتش . اذا كنت قد قصدتك فى طلب شخصى فان هذا لا يعنى اننى اعفيتك من مسئولية أن تكون متواضعا وتحترم اسرار الآخرين .

فدهش صامويلنكو :

– ماذا هناك ؟

فمضى لايفسكى يقول رافعا صوته ومبدلا قدميه من شدة الانفعال :

– اذا لم يكن لديك نقود ، فلا تعط ، ارفض الطلب ، ولكن ما الداعى للصراخ فى كل حارة بأن وضعى بلا مخرج وخلافه ؟ أنا لا أطيق أعمال الخير هذه ، عندما تساوى الأعمال درهما والأقوال قنطارا ! يمكنك أن تتفاخر بأعمال خيرك هذه كمـــا يحلو لك ، ولكن أحدا لم يعطك الحق فى افشاء أسرارى !

– أية أسرار ؟ – ســـأل صامويلنكو بدهشـــــة وقد بدأ يغضب – اذا كنت قد جئت لتتشاجر فلتذهب . عد فيما بعد !

وتذكر القاعدة التى بمقتضاها ينبغى على المرء ، اذا غضب من قريبه ، أن يعد فى ذهنه الى المائة ، وعندئذ يهدأ ، فبدأ يعد بسرعة .

واستطرد لايفسكى :

– ارجوك الا تهتم بى ! لا تلق الىّ بالا . وما دخل الآخرين بى وبحياتى ؟ نعم ، انا اريد أن اســـافر ! نعم ، أنا استدين ، وأسكر ، واعاشر زوجة رجل آخر ، وعندى هستيريا ، أنا مبتذل، ولست عميق التفكير كبعضهم ، ولكن ما دخل الآخرين بذلك ؟ فلتحترموا الفرد !

فقال صامويلنكو وقد عدّ الى الخامسة والثلاثين :

– اعذرنى يا صاحبى ، ولكن . . .

فقاطعه لايفسكى :

– احترموا الفرد ! هذه الأقاويل المستمرة فى حق الآخرين ، هذه الآهات والتأوهات ، هذه المراقبة المستمرة والتسمع ، هذا العطف الودى . . . الى الشيطان ! يقرضوننى النقود ويعرضون علىّ شروطا كأننى طفل ! يزدروننى الشيطان يعلم مثل ماذا ! لا أريد شيئا ! – صاح لايفسكى مترنحا من الانفعـــال وخاف أن تنتابه الهستيريا مرة أخرى . «اذن فلن أســافر يوم السبت» – ومض هذا الخاطر فى ذهنه – أنا لا أريد شيئا ! أرجوكم فقط أن ترحمونى من وصايتكم ! انا لست طفلا ولست مجنونا ، فأرجو أن ترفعوا عنى هذه المراقبة !

ودخل الشماس ، وعندما رأى لايفسكى شاحبا يشيح بيديه ، ومتوجهـا بخطابه الغريب الى صورة الأمير فورونتسوف ، وقف بجوار الباب متسمرا .

واستطرد لايفسكى يقول :
– ان استراق النظر الدائم الى ما فى داخلى يهيـــن كرامتى الانسانية ، ولذا أرجو من المخبريـــن المتطوعين أن يكفوا عن تجسسهم ! كفى !
– ماذا قلت ؟ – سأل صامويلنكو وقد عد الى المائـــة ، واقترب من لايفسكى بوجه محتقن .
فكرر لايفسكى متناولا قبعته وهو يكاد يختنق :
– كفى !
فقال صامويلنكو ببطء :
– أنا طبيب روسى من النبلاء ومستشار دولة ! – ثم صرخ بصوت مرتعش مشددا على الكلمة الأخيرة – انا لم اكن جاسوسا أبدا ولن اسمح لأحد باهانتى . اخرس !
لم يسبق للشماس أبدا أن رأى الدكتور مهيبا ، منتفخا ، محتقنا ورهيبا بهذا الشكل ، فسد فمه بيده وركض الى المدخل وانفجر هناك بالضحك . وكما من خلال ضباب رأى لايفسكى كيف نهض فون كورين ، ووضـــع يديه فى جيبى سرواله ، ووقف فى وضع يوحى وكأنما ينتظر ما الذى سيحدث بعد ذلك . وبدا هذا الوضع الهادئ للايفسكى وقحا ومهينا الى أقصى درجة .
وصرخ صامويلنكو :
– اسحب كلامك أرجوك !
فأجاب لايفسكى ، الذى لم يعد يذكر ما هو الكلام الذى قاله:
– دعنى وشأنى ! انا لا أريد شيئا ! أريد فقط أن تتركنى وشأنى أنت وابناء اليهود الألمان هؤلاء ! والا فسأتخذ اجراءاتى ! سوف اتعارك !
فقال فون كورين خارجا من وراء الطاولة :
– الآمر الآن مفهوم . السيد لايفسكى يريد قبل السفر أن يرقه عن نفسه بمبارزة . بوسعى أن اتيح له هذه المتعـــة . يا سيد لايفسكى ، لقد قبلت التحدى .
– التحدى ؟ – قال لايفسكى بصوت خافت مقتربا من عالم الحيوان وناظرا بحقد الى جبينه الأسمر وشعره المجعد – التحدى! حسنا ! تفضل ! اننى اكرهك ! اكرهك !

– سعيد جدا . غدا فى الصباح المبكر قرب كربلاى ، مع كل التفاصيل التى ترضى ذوقك . أما الآن فاغرب من هنا !

فقال لايفسكى بصوت خافت وهو يلهث :

– اكرهك ! من زمان اكرهك ! المبارزة ! نعم !

فقال فون كورين :

– ابعده من هنا يا الكسندر دافيديتش أو اذهب أنا . انـه سيعضنى .

اطفأت لهجة فون كورين الهادئة ثائرة الدكتور ، فعاد الى وعيه فجأة واسترد رشده ، فأمسك بخصر لايفسكى بكلتا يديـــه ، وأبعده عن عالم الحيوان ، ودمدم بصـــوت رقيـــق متهدج من الانفعال :

– يا اصدقائى . . . يا اصدقائى الطيبين . . لا داع . . تشاجرتم وكفى . . كفى . . يا اصدقائى الطيبين . . .

وعندما سمع لايفسكى صوتا ناعما ، ودودا أحس بأنه قد وقع فى حياته الآن توا شىء لم يسبق له مثيل ، شىء رهيب ، وكأنمـــا كاد يدهمه قطار . وأوشك ان يبكى ، فأشاح بيده ، واندفع من الغرفة راكضا .

«أن احس بوقع كراهية الآخرين لى ، وأظهر نفسى أمـــام شخص يكرهنى فى ابأس وأحقر وأعجز صورة ، أوه يا إلهى ما أصعب ذلك ! – فكر لايفسكى بعد فتـــــرة ، وهو جالس فى المقصف ، وقد أحس كأنما على جسده بقعة صدأ من وقع كراهية الغير التى عاناها لتوه – يا إلهى ياله من شىء فج !» .

وانعشته المياه المثلجة والكونياك . وتصور بوضوح وجه فون كورين الهادئ المتغطرس ، ونظرته بالأمس ، وقميصه الذى يشبه السجادة ، وصوته ، ويديه البيضاوين فتململت فى قلبه كراهية ثقيلة ، كراهية مستعرة ، جوعى ، تطالب بالاشباع . وطرح فى خياله فون كورين أرضا وراح يدوسه بقدميه . وتذكر ما حدث بأدق التفاصيل ، وأدهشه من نفســـه كيف رضى بأن يبتسم بتزلف لشخص تافه ، وعموما كيف يقيم وزنا لرأى أناس حقراء ، لا يعرفهم أحد ، يعيشون فى مدينة تافهة ، ربما ليست مذكورة حتى فى الخرائط ، مدينة لا يعلم بوجودها اى شخص

محترم فى بطرسبرج . ولو أن هذه المدينة الحقيرة غابت فجأة فى حوف الأرض أو احترقت لقرأوا فى روسيا هذا النبأ بنفس الملل الذى يقرأون به اعلانا عن بيع أثاث مستعمل . وأن يقتل غدا فون كورين أو يتركه حيا هو أمر غير مجد وغيـــــر طريف بنفس الدرجة على حد سواء . فليطلق النار على ساقه أو ذراعه ، وليجرحه ، ثم يضحك منه بعد ذلك وهو يختفى بآلامه المكبوتة فى غمرة الناس التافهين مثله كما تختفى الحشرة المقطوعة الساق وسط العشب .

ذهب لايفسكى الى شيشكوفسكى وروى له كل ما حدث ، ودعاه أن يكون شاهده . ثم ذهبا معا الى مدير ادارة البريـــــد والبرق ووجها اليه الدعوة ان يكون شاهدا ، ثم بقيا عنده للغداء . واثناء الغداء مزحوا كثيرا وضحكوا . وسخر لايفسكى من أنه لا يعرف تقريبا كيف يطلق النار وسمى نفسه رامى البلاط ووليام تـــل .

وقال :

– ينبغى تلقين هذا السيد درسا . . .

وجلسوا ليلعبوا الورق بعد الغداء . وكان لايفسكى يلعب ويشرب الخمر ويفكر بأن المبارزة عموما شىء سخيف وأخرق ، لأنها لا تحل القضية بل تزيدها تعقيدا ، ولكن أحيانا لا يمكـــن الاسغناء عنها . فى هذه الحالة مثلا . . فليس من المعقـول ان يذهب الى القاضى ويشكو فون كورين ! والناحية الأخرى الجيدة فى المبارزة القادمة انه سيكون من المستحيل عليه بعدها ان يبقى فى المدينة . وثمل قليلا ، وسرّى عنه اللعب فأحس بأنه فى حالة طيبة .

ولكن عندما غربت الشمس وهبط الظلام تملكه القلق . لم يكن ذاك خوفا من الموت ، فقد ترسخت فى نفسه اثنـاء الغداء واللعب لسبب ما ثقة بأن المبارزة لن تنتهى بشىء . كان ذاك خوفا من شىء مجهول سيقع فى حياته لأول مرة صباح الغـــد ، وخوفا من الليل المقبل . . . كان يعلم أنها ستكون ليلة طويلة ، مسهدة ، وأنه سيكون عليه أن يفكر لا فى فون كورين وكراهيته فحسب ، بل وفى ذلك التل من الأكاذيـــب الذى كان عليه ان

يجتازه والذى لم يكن لديـــه لا القدرة ولا المهارة للالتفاف من حوله . وبدا وكأنما داهمه المرض بغتة ، ففقد فجأة كل اهتمام باللعب والناس ، وأخذ يتصرف بقلق ويرجو أن يدعوه ينصرف الى البيت . كان يريد أن يأوى الى الفراش بسرعـــة ويكف عن الحركة ويرتب أفكاره لليل . وأوصله شيشكوفسكى ومدير البريد الى داره ، ثم ذهبا الى فون كورين ليبحثا أمر المبارزة .

وجد لايفسكى قرب البيت أتشميانوف . كان الشاب يلهث وبدا منفعلا .

وقال للايفسكى :

– اننى ابحث عنك يا ايفان اندريتش . أرجوك هيا معـــى بسرعة . . .

– الى أين ؟

– هناك سيد لا تعرفه. يريد أن يراك فى أمر هام جدا . وهو يرجوك بشدة أن تأتى لدقيقة واحدة . انه يريد أن يقول لـــك شيئا . . . وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت . . .

كان اتشميانوف منفعلا فتحدث بلكنة أرمنية شديدة بـدت واضحة فى تحويره لنطق الكلمات .

وسأل لايفسكى :

– ومن هو ؟

– طلب الا أذكر لك اسمه .

– قل له اننى مشغول . ليكن غدا اذا شاء . . .

فروّع اتشميانوف :

– كيف هذا ! انه يريد ان يقول شيئا هاما جدا بالنسبـــة لك . . . هاما جدا ! اذا لم تذهب فستقع مصيبة .

– غريبة . . . – دمدم لايفسكى وهو لا يفهم لماذا يبدو اتشميانوف مضطربا هكذا ، وأية اسرار يمكن أن توجد فـــى هذه المدينة المملـــة التى لا ضرورة لها – عجيبة . . . – كرر وهو يفكر – طيب ، فلنذهب . سيان .

انطلق اتشميانوف امامه بسرعة وسار هو من خلفه . عبرا الشارع ثم سارا فى حارة .

وقال لايفسكى :

– يا له من شيء ممل .

– حالا ، حالا . . أصبحنا قريبا .

وعند الجسر القديم مـرا فى حارة ضيقـة بين خرابتين مسيجتين ، ثم دلفا الى فناء كبير ، واتجها الى منزل صغير . . . فسأل لايفسكى :

– أليس هذا منزل مريدوف ؟

– بلى .

– فلماذا جئنا من الشوارع الخلفية ، انا لا أفهـم ؟ كان بامكاننا ان نأتى من الشارع الرئيسى . . . هناك أقرب .

– لا بأس ، لا بأس . . .

بدا للايفسكى غريبا كذلك ان اتشميانوف قاده الى المدخل الخلفى ، واشار بيده كأنما يدعوه الى السير بهدوء وفى صمت .

– هنا ، هنا . . . – قال اتشميانوف وهو يفتح البـاب بحذر ويدلف الى المدخل على اطراف اصابعه – حاسب ، حاسب ، أرجوك . . . قد يسمعوننا .

وأصاخ السمع ، واسترد أنفاسه بقوة ، ثم قال هامسا :

– افتح هذا الباب وادخل . . . لا تخف .

فتح لايفسكى الباب مندهشا ، ودخل غرفة بسقف منخفض ونوافذ مسدلة الستائر . وكانت هناك شمعة مشتعلة على طاولة .

– من تريد ؟ – سأل صوت فى الغرفة المجاورة – أهـو أنت يا مريدوف ؟

تحول لايفسكى الى تلك الغرفة فرأى كيريلين وبجـواره ناديجدا فيودوروفنا .

لم يسمع ما قيل له ، وتراجع بظهـره ، ولم يلحظ كيف أصبح فى الشارع . تبدد من قلبه كل شيء فجأة : كراهية فـون كورين ، والقلق . وبينما كان عائدا الى المنزل راح يهز ذراعه اليمنى بحركة نافرة ، وينظر تحت قدميـه باهتمام محاولا ان يسير على الأماكن المستوية . وفى غرفة مكتبه فى البيت اخـذ يفرك راحتيه ويحرك كتفيه وعنقه على نحو أخرق ، كأنما كانـت السترة والقميص ضيقين عليه ، وذرع الغرفة من ركن الى ركن ، ثم أشعل شمعة وجلس الى المكتب . . .

– ان العلوم الانسانية التى تتحدث عنها لن ترضى الفكـــر الانسانى الا عندما تلتقى فى حركتها بالعلوم الدقيقة فتسير الى جوارها . ولست أدرى هل سيلتقيان تحت عدسة المجهر ، أم فى منولوجات هاملت الجديد ، أم فى دين جديد ، ولكنى اعتقد ان الجليد سيغطى وجه الأرض قبل ان يحدث هذا اللقاء . ان اكثر المعارف الانسانية ثباتا وقدرة على الحياة هى بالطبع تعاليــــم المسيح ، ولكن انظر ، حتى هى ، كم يختلف فهمها ! انها تعلمنا ان نحب جميع اقربائنــــا وتستثنى من ذلك الجنود والمجرمين والمجانين : فتسمح لنا بقتل المذكورين أولا فى الحرب ، وبعزل أو اعدام المذكورين ثانيا ، أما المذكورون ثالثا فتحرم عليهم الزواج . وهناك شرّاح اخرون يعلموننا ان نحب جميع الأقرباء بلا استثناء ، دون تمييز بين ما لهم وما عليهم . وحســـب تعاليمهم ، اذا جاءك مجدور أو قاتل أو صريع يطلب يد ابنتك فلتزوجها له . واذا هاجم الأوغاد اناسا اصحاء العقل والبدن ، فليسلم لهم هؤلاء رؤوسهم . ان هذه الموعظة بالحب من أجـل الحب ، مثل الفن من أجل الفن ، لو قدّر لها أن تصبح ساريـــة المفعول ، لأفضت بالبشرية فى نهاية المطاف الى الفنـــاء التام ، ولتحقق عندئذ اكبر شر من الشرور التى وقعت فى وقت ما على سطح الارض . ان الشروح كثيرة ، وطالما هى كثيرة فان الفكر الجاد لا يرضى بأىٍّ منها فيسارع الى اضافة شرحه هو الى هــذه الكمية الكبيرة من الشروح . ولذلك فلا تضع القضية ابدا ، كما تقول ، على أساس فلسفى أو على ما يسمى بالأساس المسيحى ، فان ذلك لن يؤدى الا الى الابتعاد بك من حل القضية .

أصغى الشماس بانتباه الى عالم الحيوان ، ثم فكر قليــــلا وسأله :

– القانون الأخلاقى المميز لكل فرد من البشر . . هل اخترعه الفلاسفة ، أم خلقه الله مع الجسد ؟

–لا أدرى . ولكن هذا القانون عام لجميع الشعوب والعصور الى درجة يبدو لى معها انه ينبغى علينــــا الاعتراف بأنه مرتبط

عضويا بالانسان . انه ليس ابتكارا ، بل هو موجود وسيوجد . لن أقول لك اننا سنراه فى وقت ما تحت عدسة المجهر ، ولكن ارتباطه العضوى تثبته الآن بالفعل الدلائل الجلية : فجميع آلام المخ وكل ما يسمى بالأمراض النفسية تنعكس قبل كل شيء فى فساد القانون الاخلاقى على حد علمى .

– حسنا . اذن فكما تريد المعدة أن تأكل يريد الشعور الأخلاقى منا أن نحب اقرباءنا . هكذا ؟ ولكن طبيعتنا تقاوم صوت الضمير والعقل بسبب حبها لذاتها ، ولهذا تثور قضايا محيرة كثيرة . فالى من نلجأ لحل هذه القضايا اذا كنت لا تريد منا أن نضعها على أساس فلسفى ؟

– فلتلجأ الى تلك المعارف الدقيقة القليلة التى هى بحوزتنا . ثق فى جلاء الحقائق ومنطقها . بالطبع هذا شحيح ، ولكنه فى المقابل ليس مزعزعا ومبهما كالفلسفة . فلنفرض أن القانون الاخلاقى يتطلب ان تحب الناس . حسنا ، ليكن . ينبغى اذن أن يكمن الحب فى ازالة كل ما يلحق الضرر بالانسان بهذه الصورة أو تلك ويهدده بالخطر فى الحاضر والمستقبل . ومعارفنا والحقائق الجلية تشير اليك بأن الخطر الذى يتهدد البشرية يأتى من جانب الأشخاص المنحرفين خلقيا وبدنيا . واذا كان الأمر كذلك فلتقاوم المنحرفين . فاذا لم تكن قادرا على رفعهم الى المستوى السوىّ فستكون قادرا على التخلص من ضررهم ، أى القضاء عليهم .

– اذن فالحب يكمن فى أن ينتصر القوى على الضعيف ؟

– بلا جدال .

فقال الشماس بحرارة :

– ولكن الأقوياء صلبوا ربنا يسوع المسيح !

– بل ان المسألة هى ان الضعفاء ، لا الأقوياء ، هم الذين صلبوه . لقد اضعفت الحضارة الانسانية الصراع من أجل الوجود ، والانتخاب الطبيعى ، وتسعى الى جعلهما يقتربان من الصفر . ومن هنا تجد هذا التكاثر السريع للضعفاء وتفوقهم على الأقوياء . فلتتصور أنك تمكنت من أن تقنع النحل بالأفكار الانسانية فى صورتها الجنينية غير المدروسة . فما الذى

سيترتب على ذلك ؟ ستبقى على قيد الحياة ذكور النحل التى من المفروض أن تُقتل ، وسوف تلتهم العسل وتفسد النحلات وتخنقها ، وفى النتيجة يتفوق الضعفاء على الأقوياء ويفنى الأواخر . وهذا ما يحدث الآن للبشرية ، فالضعفاء يضطهدون الأقوياء . ولدى المتوحشين ، الذين لم تمسهم الحضارة بعد ، تجد الأقوى ، والأحكم والأقوم خلقا يسير دائما فى المقدمة . انه الزعيم والحاكم . أما نحن المتحضرين فقد صلبنا المسيح وما زلنا نصلبه . اذن فهناك شىء ما ينقصنا . . . وهذا «الشىء الما» ينبغى أن نستعيده ، والا فلن تكون هناك نهاية لهذه الأخطاء .

– ولكن ما هو المعيار لديك للتمييز بين الأقوياء والضعفاء ؟

– المعارف وجلاء الحقائق . ان المجدورين والمصابين بتدرن العقد العنقية يُعرفون بأمراضهم أما المنحلون والمجانين فبتصرفاتهم .

– ولكن الخطأ محتمل !

– نعم ، ولكن هل نخشى البلل اذا كان الطوفان يتهددنا ؟

فضحك الشماس وقال :

– هذه فلسفة .

– أبدا . لقد أفسدتك فلسفة المعهد الدينى الى درجة انك تريد أن ترى فى كل شىء مجرد ضباب . فالعلوم المجردة ، التى حشى بها رأسك الشاب ، انما تسمى كذلك لأنها تصرف ذهنك عن جلاء الحقائق . انظر مباشرة فى عينى الشيطان ، فاذا كان شيطانا فلتقل أنه شيطان ، ولا تتطفل على كانط أو هيجل طلبا للتفسيرات .

وصمت عالم الحيوان قليلا ثم استطرد :

– اثنان فى اثنين يساوى أربعة ، والحجر هو حجر . غدا ستكون لدينا مبارزة . سنقول ان هذه سخافة وحماقة ، وان المبارزات انتهى عهدها ، وان المبارزة الارستقراطية لا تختلف فى الواقع عن شجار سكر فى حانة ، ولكننا لن نتراجع ، بل سنمضى ونتقاتل . اذن فهناك قوة أقوى من أحكامنا . اننا نصرخ بأن الحرب قرصنة وهمجية وفظاعة وقتل أشقاء ، ولا

نستطيع ان نرى الدم دون أن نصاب بالاغماء . ولكـــن ما أن يهيننا الفرنسيون أو الألمان حتى نشعر فورا بالحمية ، ونصيح «هورا» من صميم القلب ونهجم على العدو ، وأما أنت فستبتهـــل الى الرب أن يبارك سلاحنا ، وستثير بطولاتنا الاعجاب الشامل ، والصادق فى الواقع . واذن فمرة أخرى هناك قوة ، ان لم تكـن أسمى ، فهى اقوى منا ومن فلسفتنا . وليس بامكاننا أن نوقفها ، كما لا نستطيع ايقاف هذه الغيمة القادمـــة من وراء البحر . فلا تنافق اذن ، ولا تهددها بقبضة داخل الجيب ولا تقل : «أوه ، هذا سخيف ! هذا قديم ، هذا لا يتفق والكتاب المقدس !» ، بل حدق مباشرة فى عينيها ، واعترف بشرعيتها الحكيمة ، واذا مـــا أرادت ، مثلا ، أن تقضى على قبيلة ضعيفة ، موبوءة ، منحلة ، فلا تعرقلها بعقاقيرك وبمقتطفات من انجيل أسيئ فهمه . توجد لدى ليسكوف * شخصية دانيلا ذى الضمير الحى . وقد وجد دانيلا خارج المدينة مجذوما فآواه وأطعمه باسم المحبة والمسيح . ولو كان دانيلا هذا يحب الناس حقا لجر ذلك المجذوم بعيدا عن المدينة والقى به فى الخور ، وذهب ليخدم الأصحـــاء . أظن ان المسيح أوصانا بالحب العاقل والمدرك والنافع .

فضحك الشماس وقال :

— يا لك من مخادع ! أنت لا تؤمن بالمسيح ، فلماذا تذكره كثيرا فى كلامك ؟

— كلا ، بل أومن . ولكن بالطبع على طريقتى الخاصة وليس على طريقتك . آه يا شماس ، يا شماس ! — وضحك عالم الحيوان . وأمسك بخصر الشماس وقال بمرح — ماذا ؟ هل تذهب معى غدا الى المبارزة ؟

— الرتبة لا تسمح ، والا ذهبت .

— وما معنى الرتبة ؟

— أنا مرسوم . منحت بركة الله .

---

* نيقولاى ليسكوف (١٨٣١ــ١٨٩٥) كاتب روسى اشتهر بقصصه ورواياته المأخوذة من واقع الحياة الشعبية . **المعرب** .

– آه يا شماس ، يا شماس – كرر فون كورين ضاحكا – كم أحب الحديث معك .

فقال الشماس :

– أنت تقول ان لديك ايمانا . ما هو هذا الايمان ؟ أما انا فعندى عم قس ، يؤمن الى درجة انه عندما يذهب الى الحقل فى وقت الجفاف ليسأل الله مطرا ، يأخذ معه مظلة ومعطفا جلديا اكيلا يبلله المطر فى طريق العودة . هذا هو الايمان ! وعندما يتحدث عن المسيح يشع نورا ، وتبكى جميع النساء والرجال بحرقة . ولو كان هنا لأوقف هذه الغيمة ، ولجعل أية قوة تتحدث عنها تلوذ بالفرار . نعم . . . الايمان يحرك الجبال .

وضحك الشماس ، وربت على كتف عالم الحيوان ، واستطرد :

– هكذا بالضبط . . . ها أنت ذا تدرّس ، وتكتشف اعماق البحر ، وتميز بين الضعفاء والأقوياء ، وتؤلف الكتب وتتحدى للمبارزة . . ومع ذلك يبقى كل شىء كما كان . ولكن قد يأتى شخص ما ، عجوز ضعيف ، فيتمتم باسم الروح القدس بكلمة واحدة ، أو يقدم من الجزيرة العربية محمد جديد على متن جواد ، شاهرا سيفه ، فينقلب كل شىء لديك رأسا على عقب ، ولا يبقى فى أوربا حجر على حجر .

– هذا يا شماس كلام فى الهواء !

– الايمان بلا عمل جسد ميت ، أما العمل بلا ايمان فأسوأ من ذلك ، ليس الا مضيعة للوقت لا أكثر .

وظهر الدكتور على الكورنيش . وعندما رأى الشماس وعالم الحيوان توجه اليهما .

وقال وهو يلهث :

– يبدو ان كل شىء جاهز . الشهود : جفروفسكى وفويكو . سيمران صباحا ، فى الساعة الخامسة . كم تلبدت ! – قال وهو ينظر الى السماء – اظلمت تماما . سيسقط المطر الآن .

وسأله فون كورين :

– ستأتى معنا كما آمل ؟

– كلا ، اعوذ بالله . يكفينى ما لقيته من عذاب . سيذهب أوستيموفتش بدلا منى . لقد أخبرته بذلك .

ومض البرق بعيدا وراء البحر ، وتردد هزيم رعد مكتوم .

وقال فون كورين :

– يا للجو الخانق قبل العاصفة ! أراهن أنك زرت لايفسكى وبكيت على صدره .

– فأجاب الدكتور مرتبكا :

– ولماذا أذهب اليه ؟ ما لى به !

قبل الغروب قطع البوليفار والشارع عدة مرات على أمل أن يرى لايفسكى . كان يشعر بالخجل من ثورته ومن نوبة الطيبة المفاجئة التى أعقبت ذلك . أراد ان يعتذر للايفسكى بلهجة مازحة ويزجره ويطمئنه ويقول له ان المبارزة شىء من مخلفات همجية القرون الوسطى ، الا أن العناية الالهية هى التى اشارت اليهما بالمبارزة كوسيلة للتصالح : فغدا سيتبادلان ، همـا الرجلان الرائعان ، النادرا الذكاء ، الطلقات فى الهواء فيقدر كل منهما نبل الآخر ويصبحان صديقين . الا انه لم يصادف لايفسكى ولا مرة .

وردد صامويلنكو :

– ولماذا اذهب اليه ؟ لست انا الذى اهنته بل هو الذى اهاننى . قل لى لو تكرمت ، لماذا انقض علىّ ؟ أىّ سوء صنعت به ؟ دخلت غرفة الجلوس واذا فجأة ، أهلا ، أنت جاسوس ! أماّ غريبة ! خبرنى ، كيف بدأت بينكما ؟ ماذا قلت له ؟

– قلت له ان وضعه بلا مخرج . وكنت على حق . الشرفاء والنصابون هم فقط الذين يستطيعون ايجاد مخرج من أى وضع . أما من يريد ان يكون شريفا ونصابا فى آن واحد ، فليس لديه مخرج . ولكن يا سادة ، الساعة بلغت الحادية عشرة ، وغـدا علينا ان نستيقظ مبكرا .

وفجأة هبت الريح ، وأثارت التراب على الكورنيش وزوبعت ، وزأرت فغطت على هدير البحر .

فقال الشماس :

– عاصفة ! فلنذهب ، عيونى امتلأت بالتراب .

وعندما مضوا تنهد صامويلنكو وقال وهو يثبت عمرتـــه بيده :

– يبدو أننى لن أنام الليل .

فضحك عالم الحيوان قائلا :

– لا تقلق ، كن مطمئنا ، فلـن تنتهى المبـــارزة بشىء . سيطلق لايفسكى النار فى الهواء بسماحة ، فهو لا يستطيع بدون ذلك ، أما أنا فلن أطلق النار عموما فيما يبدو . فأن أقـــدم للمحاكمة من جراء لايفسكى وأضيع الوقت – لعبـــة لا تساوى ثمنها . وبالمناسبة ، ما هو الجزاء الذى يوّقع بسبب المبارزة ؟

– الاعتقال ، وفى حالةْ وفاة الخصم السجن فى القلعة حتى ثلاث سنوات .

– قلعة بطرس وباول ؟

– كلا ، فى القلعة الحربية على ما أظن .

– وان كان ينبغى ان ألقن هذا الفتى درسا !

ومض البرق خلفهم فوق البحر ، واضاء للحظة اسطـــح المنازل والجبال . وافترق الأصدقاء عند البوليفار . وعندما اختفى الدكتور فى الظلام وخفت رقع خطواته صاح فون كورين له :

– أخشى أن يعوقنا الطقس غدا !

– محتمل جدا ! يا ليت هذا يكون !

– ليلة سعيدة !

– ليلة ماذا ؟ ماذا قلت ؟

كان من الصعب تمييز ما يقال فى صخب الريح والبحر وهزيم الرعد . فصاح عالم الحيوان :

– لا شىء !

وأسرع الى المنزل .

١٧

. . . فى ذهنى المسحوق بالكآبة
افكارى الثقال تزدحم
والذكريات صمتت امامى
شريطها الطويل ينسحب
اشحت باحتقار اذ قرأت
فى طيه ايام عمرى وارتجفت . .
كم لعنت !
بثثت مرّ شكواى . . ذرفت ادمعى السخينة
لكننى لم أمح تلك الأسطر الحزينة .
بوشكين

سيان اذا ما قتلوه غدا أم سخروا به ، أى تركوا له هذه الحياة ، فهو فى كلا الحالين قد انتهى . وسواء قتلت هذه المرأة المجللة بالعار نفسها من اليأس والخزى أم أمضت فى الشقاء بقية أيامها التعيسة ، فهى فى كلا الحالين قد انتهت . . .

هكذا كان لايفسكى يفكر وهو جالس الى المكتب فى ساعة متأخرة ولا يزال يفرك راحتيه . وفجأة انفتحت النافذة واصطفقت ، واندفعت الى الغرفة دفقة ريح قوية فتطايرت الأوراق من على المكتب . وأغلق لايفسكى النافذة ، وانحنى ليجمع الأوراق من الأرض . وأحس فى جسده بشىء جديد ، نوع من اضطراب الحركة لم يصبه من قبل ، فلم يعد يتعرف على حركاته . كان يسير فى وجل ، ويتدافع مرفقاه جانبا وتتقافز كتفاه ، وعندما جلس الى المكتب عاد يفرك راحتيه . لقد فقد جسده مرونته .

على المرء قبيل الموت ان يكتب الى أقرب الناس . وكان لايفسكى يذكر ذلك . فتناول القلم وكتب بخط مرتعش :
«أماه» .

أراد ان يكتب الى أمه بأن تأوى من اجل الله الرحيم الذى تؤمن به وتسبغ عطفها وحنانها على هذه المرأة البائسة التى سلبها شرفها ، هذه المسكينة الوحيدة الفقيرة ، وأن تنسى وتغفر كل كل ، كل شىء ، لتكفّر بالتضحية ولو عن جزء من خطيئة

ابنها . ولكنه تذكر كيف تخرج أمه ، هذه العجوز الممتلئة الثقيلة الحركة ، الى الحديقة صباحا في قلنسوة من الدانتلا ، ومن خلفها تسير ربيبتها مع كلب بولونيز ، وكيف تصيح أمه في البستاني والخدم بصوت آمر ، وكيف يبدو وجهها ابيّا متغطرسا . . تذكر كل هذا فشطب الكلمة التي خطها .

لمع البرق بقوة في النوافذ الثلاث جميعا ، وتبعه دوى رعد هادر متدحرج ، جاء في البداية مكتوما ، ثم بعد ذلك مجلجلا صاخبا ، قويا الى درجة هزت زجاج النوافذ فأرسل رنينا . ونهض لايفسكي فاقترب من النافذة ، والصق جبينه بالزجاج . كانت في الخارج عاصفة رعدية قوية جميلة . وعند الأفق كان البرق يلقى من السحب الى البحر أشرطة بيضاء بلا توقف فتضيئ الأمواج السوداء العالية الى مسافة بعيدة . ومن يمين المنزل ، ومن يساره ، وربما أيضا من أعلاه ومضت البروق .

— العاصفة ! — دمدم لايفسكي . أحس برغبة في أن يصلي لأحد ما أو الشيء ما ، ولو للبرق أو السحب — يا عاصفتي الحبيبة !

وتذكر كيف كان يخرج في طفولته راكضا الى الحديقة ساعة العاصفة ، حاسر الرأس ، ومن خلفه تركض فتاتان شقراوان بعيون زرقاء فيبللهم المطر . كانوا يقهقهون من شدة الاعجاب ، ولكن عندما تدوى قصفة رعد قوية تلتصق الفتاتان به باستسلام وبراءة ، أما هو فيرسم علامة الصليب ويسارع الى التمتمة : «قدوس ، قدوس ، قدوس . . .» أوه ، أين ، أنت ، في أي بحر غبت يا منابع الحياة الرائعة النقية ؟ لم يعد يخاف العاصفة ، ولا يحب الطبيعة ، ولم يعد لديه اله ، وكل الفتيات البريئات اللاتي عرفهن في وقت ما قد قضى عليهن هو واترابه ، ولم يغرس في حديقة داره طوال حياته شجرة واحدة ولم يزرع نبتة واحدة ، وعاش بين الاحياء دون ان ينقذ ذبابة واحدة ، بل كان يدمر ، ويهلك ، ويكذب يكذب . . .

«ما الذي في ماضيّ ليس رذيلة ؟» — سأل نفسه وهو يحاول ان يتشبث بأية ذكرى مشرقة كما يتشبث الساقط في الهاوية بغصون الشجيرات .

المدرسة ؟ الجامعة ؟ ولكن ذلك خداع . كان يدرس بصورة سيئة وقد نسى ما تعلمه . خدمة المجتمع ؟ هذا ايضا خداع ، لانه لم يكن يفعل شيئا فى الخدمة ، بل كان يتقاضى الراتب دون وجه حق ، وخدمته نفسها هى اختلاس حقير لا يقدم مرتكبه الى المحكمة .

لم يكن بحاجة الى الحقيقة ، فلم يبحث عنها . وكان ضميره نائما او صامتا وقد سحرته الرذيلة والكذب . كان كالغريب او الاجير من كوكب آخر لا يشعر فى الحياة العامة بالناس ، غير مبال بآلامهم وافكارهم واديانهم ومعارفهم وبحثهم وصراعهم ، ولم يقل للناس كلمة طيبة واحدة ، ولم يكتب سطرا مفيدا غير مبتذل واحدا ، ولم يفعل مثقال ذرة خير للناس ، بل كان يأكل خبزهم ، ويشرب خمرهم ، ويسرق زوجاتهم ، ويعيش على افكارهم ، ولكى يبرر حياته المزرية الطفيلية امامهم وامام نفسه سعى دائما الى ان يضفى على نفسه مظهر من هو ارفع وافضل منهم . كذب ، كذب ، كذب . . .

وتذكر بوضوح ما رآه مساء فى منزل مريدوف ، فأحس بانقباض لايطاق من التقزز والكآبة . نعم ، كيريلين واتشميانوف كريهان ، ولكنهما يواصلان ما بدأه هو . انهما شريكاه وتلميذاه . لقد سلب سيدة شابة ضعيفة وثقت به اكثر من ثقتها بأخيها ، سلبها زوجها ، ومعارفها ووطنها وجاء بها الى هنا ، الى القيظ والحمى والملل . وكان عليها يوما بعد يوم ان تعكس كما المرآة فراغه ، وفساده وكذبه ، وبهذا ، بهذا وحده امتلأت حياتها الضعيفة الذابلة البائسة . وبعد ذلك شبع منها وابغضها ، ولكن اعوزته الشجاعة ان يهجرها ، فسعى الى ان يكبلها بقوة بحبال كذبه كالعنكبوت . . . اما الباقى فأكمله هذان الشخصان .

كان لايفسكى تارة يجلس الى المكتب ، وتارة يقترب من النافذة ، ومرة يطفئ الشمعة ومرة يشعلها . كان يلعن نفسه بصوت مسموع ويبكى ويشكو ويسأل الصفح . وجرى عدة مرات الى المكتب فى يأس ليكتب : «أماه !» .

لم يكن لديه من الاهل والاقارب احد سوى امه . ولكن كيف كان بوسع امه ان تساعده ؟ واين هى ؟ واراد ان يهرع الى

ناديجدا فيودوروفنا لكى يجثو أمامها ويقبل يديهـا وقدميهـا ويتوسل منها الصفح ، ولكنها كانت ضحيته ، وكان يخاف منهـا وكأنما هى ميتة .

وتمتم وهو يفرك راحتيه :

– ضاعت حياتى ! يا ألهى ، لماذا لا أزال حيا ؟ ! . .

لقد دفع من السماء نجمه الكابى فهوى واختفى اثره فى ظلام الليل . ولن يعود الى السماء ، لأن الحيـاة تمنـح مرة واحدة لاتتكرر . ولو كان بمقدوره ان يسترجع الايام والسنـوات الماضية لاستبدل بكذبهـا الحقيقة وبالفراغ العمـل ، وبالملل الفرحة ، ولاعاد الطهارة الى من سلبهم اياها ، ولوجد اللـه والعدالة ، ولكن ذلك ايضا مستحيل كاستحالة اعادة النجم الغارب الى السماء من جديد . ولان ذلك مستحيـل فقد تملكه اليأس .

عندما انتهت العاصفة كان جالسا بجوار النافذة المفتوحة يفكر بهدوء فيما سيحدث له . فى الغالب سيقتله فون كوريـن ؛ فتفكير هذا الرجل الواضح البارد يجيز تصفية الضعفاء والتافهين . فاذا خانه تفكيره فى اللحظة الحاسمة فستساعده الكراهيـة والاحساس بالتقزز اللذان يثيرهما فيه لايفسكى . واذا ما اخطأ فون كورين الهدف ، او جرحه فقط ، او اطلق النار فى الهواء لكى يسخر من خصمه البغيض ، فما العمل حينئذ ؟ والى ايـن يذهب ؟

وسأل لايفسكى نفسه :

– اسافر الى بطرسبرج ؟ ولكن هذا معناه ان أبدأ حياتى القديمة التى ألعنها . ومن يبحث عن الخلاص فى تغيير المكان ، كالطير المهاجر ، فلن يجد شيئا لان الارض كلها بالنسبة لـه واحدة . ايبحث عن الخلاص فى الناس ؟ فيمن منهم وكيف ؟ فطيبة ساموبلنكو وسماحته لا يعول عليهما فى الخلاص ، مثلهما مثـل مرح الشماس او كراهية فون كورين . يجب ان يبحث عن الخلاص فى نفسه فقط ، فاذا لم يجده فلا داعى لتضييع الوقت ، فليقتل نفسه وانتهى الامر . . .

تردد دفع عربة . وكان ضوء الفجر قد لاح . ومرت العربة

امامه ، وانحرفت وتوقفت بجوار المنزل وعجلاتها تصر فوق الرمل المبلل . وكان يجلس فى العربة شخصان .
فقال لهما لايفسكى من النافذة :
—انتظرا ، سآتى حالا ! انا لست نائما . هل حان الوقت حقا ؟
— نعم . الساعة الرابعة ، والى ان نصل . . .
ارتدى لايفسكى المعطف والعمرة ، ووضع السجائر فى جيبه ، ووقف متفكرا . خيل اليه انه ينبغى ان يفعل شيئا آخر . ومن الخارج تناهى حديث الشاهدين الخافت وشخير الخيول ، فملأت هذه الاصوات المترددة فى الصباح الرطب ، والناس جميعا نيام ، والسماء لا تكاد تضئ ، روح لايفسكى باكتئاب اشبه بهاجس سيئ . ووقف متفكرا بعض الوقت ، ثم ذهب الى غرفة النوم .
كانت ناديجدا فيدوروفنا مستلقية فى سريرها ، ممددة بطول جسدها ومغطاة بالحرام حتى رأسها . لم تكن تتحرك . فبدت ، وخاصة برأسها ، أشبه بمومياء مصرية . وسألها لايفسكى الصفح فى سره وهو ينظر اليها فى صمت ، وفكر فى انه اذا لم تكن السماء خاوية وفيها إله حقا ، فسوف يصون هذه المرأة ، واذا لم يكن هناك إله ، فلتهلك اذن ، فلا داعى لان تعيش .
وفجأة هبت وجلست فى الفراش . وسألت لايفسكى وهى ترفع نحوه وجهها الشاحب وتنظر برعب :
— أهو انت ؟ هل انتهت العاصفة ؟
— انتهت .
وتذكرت ما حدث ، فوضعت كلتا يديها فوق رأسها وارتجف بدنها كله .
وقالت :
— كم اتعذب ! آه لو تدرى كم اتعذب ! — ومضت تقول وقد اغمضت عينيها — كنت انتظر ان تأتى وتقتلنى ، او تطردنى من البيت فى العاصفة تحت المطر ، ولكنك كنت تتباطأ . . تتباطأ . . .
عانقها باندفاع وقوة وانهال على ركبتيها ويديها تقبيلا ، وبعد ذلك ، وبينما كانت تتمتم له بكلمات ما وتنتفض من الذكريات

راح يمسد شعرها ، وادرك وهو يحدق فى وجهها ان هذه المرأة التعيسة الخاطئة هى الانسان الوحيد القريب والحبيب لديه .

وعندما خرج من البيت وجلس فى العربة أحس بالرغبة فى العودة الى البيت حيا .

١٨

نهض الشماس ، وارتدى ملابسه ، واخذ عصاه الغليظة المعقدة وخرج من البيت فى هدوء . كان الجو مظلما فلم ير الشماس فى اللحظات الاولى عندما سار فى الشارع حتى عصاه البيضاء . ولم تكن فى السماء نجمة واحدة ، وبدا وكأن المطر سيسقط ثانية . وفاحت رائحة الرمل الرطب والبحر .

«الخوف ان يهجم التشتشين» — فكر الشماس وهو يسمع كيف تدق عصاه على ارض الشارع وكيف تتردد هذه الدقات رنانة وحيدة فى سكون الليل .

وعندما اصبح خارج المدينة بدأ يرى الطريق وعصاه وظهرت فى السماء هنا وهناك بقع عكرة ، وبعد قليل اطلت نجمة واحدة ، وطرفت بعينها الوحيدة فى وجل . كان الشماس يسير على الشاطئ الصخرى المرتفع ولا يرى البحر ، الذى كان نائما فى الاسفل ، وامواجه غير المرئية تضرب الشاطئ بكسل وتثاقل وكأنها تتنهد : أف ! وكم كانت بطيئة ! ضربت موجة ، وعدّ الشماس حتى ثمانى خطوات وعندئذ ضربت موجة اخرى ، وبعد ست خطوات ضربت الثالثة . هكذا لم يكن يرى شىء ، وفى الظلام تردد صخب البحر الكسول النعسان فى ذلك الزمن البعيد بلا نهاية وغير المتصور ، عندما كان روح الله يـرف على فوضى الكون .

احس الشماس بالرهبة . وخاف فى سره من ان يعاقبه الله لانه يصاحب اناسا غير مؤمنين ، بل ويذهب حتى لمشاهدة مبارزتهم . ستكون مبارزة تافهة ، بلا سفك دماء ، مضحكة ، ولكن ايا كان الامر فهى مشهد وثنى ، ولا يليق ابدا برجل دين ان يشهدها . وتوقف وفكر : الا ينبغى ان يعود ؟ بيد ان حب الاستطلاع القوى المقلق تغلب على الشكوك ، فواصل سيره .

وراح يهدئ نفسه : «رغم انهم ليسوا مؤمنين ، الا انهم ناس طيبون ، وستكتب لهم النجاة . حتما ستكتب لهم النجاة !»
- قالها بصوت مسموع واشعل لفافة .

باى معيار ينبغى ان نقيس فضائل الناس لكى نحكم عليهم بالعدل ؟ تذكر الشماس عدوه ، مفتش المعهد الدينى ، الذى كان يؤمن بالله ، ولا يتقاتل فى المبارزات ، ويعيش عفيفا ، ولكنه فى وقت ما كان يطعم الشماس خبزا مخلوطا برمل ، وكاد ان يقطع له اذنه ذات مرة . واذا كانت الحياة البشرية قد رتبت بهذه الصورة غير الحكيمة بحيث كان الجميع فى المعهد يحترمون هذا المفتش القاسى الغشاش الذى كان يسرق طحين العهدة ، ويصلون من اجل صحته وخلاصه ، فهل من العدل ان يتجنب اناسا مثل فون كورين ولايفسكى فقط لانهما غير مؤمنين ؟ وراح الشماس يبحث هذه المسألة ولكنه تذكر كم كان منظر صامويلنكو اليوم مضحكا فقطع عليه هذا حبل افكاره . اوه كم سيضحك غدا ! تصور الشماس كيف سيقبع تحت احدى الخمائل ويسترق النظر ، وعندما يشرع فون كورين غدا اثناء الغداء فى التباهى بنفسه ، فان الشماس سيقص عليه وهو يضحك كل تفاصيل المبارزة .

وسيسأله عالم الحيوان : «من اين عرفت كل شيء ؟» فيرد عليه : «تلك هى المسألة . هكذا . كنت جالسا فى البيت ولكنى اعرف» .

وكم يكون طريفا لو كتب وصفا مضحكا للمبارزة . فسوف يقرأه حموه ويضحك ، فحموه يفضل الا تطعمه شيئا ولكن قص عليه او اكتب له اى شيء مضحك .

انكشف امامه وادى النهير الاصفر . اصبح النهير من المطر اعرض واشرس ، ولم يعد يزمجر كما كان فى السابق بل يزأر . وبدأ الفجر يشرق . وبدا الصباح الرمادى الكابى ،والسحب الراكضة نحو الغرب لتلحق بغيمة العاصفة ، والجبال المطوقة بالضباب ، والاشجار المبللة . . بدا كل ذلك للشماس قبيحا وغاضبا . . واغتسل من جدول ، وقرأ صلوات الصباح ، وهفت نفسه الى الشاى والشطائر الساخنة بالقشدة التى يقدمونها عند

حميه كل صباح . وتذكر زوجته و«العهـــد الذى لن يعود» الذى تعزفه على البيانو . اية أمرأة هى ؟ لقد عرفوا الشماس عليها ، وخطبوها له ، وزوجوه بها فى اسبوع واحد ، وعاش معها اقل من شهر ثم ارسلوه فى مهمة الى هنا ، حتى انه لم يعرف حتى الآن اى شخص هى . ومع ذلك فهو يشعر بالملل بدونها .

وفكر : «ينبغى ان اكتب لها رسالة . . .» .

ابتلت الراية فوق الدوخان وتهدلت ، وبدا الدوخان نفسه بسقفه المبلل ادكن واقصر مما كان عليه سابقا . وبجوار الباب وقفت عربـــة جر . وكان كربلاى وشخصان ابخازيان ، وامرأة تترية شابة فى سروال فضفاض ، ربما كانت زوجة كربلاى او ابنته ، ينقلون من الدوخان اجولة ما ويضعونها فى العربة فوق عيدان الذرة الجافة . وبجوار العربة وقف زوج من البغال منكس الرأس . وبعد ان رصوا الاجولة اخذ الابخازيان والتترية يغطونها بعيدان الذرة ، بينما مضى كربلاى يسرج العربة على عجل .

وفكر الشماس : «يبدو انه تهريب» .

وها هى الشجرة الممددة ذات الابر الجافة ، وها هى البقعة السوداء المتخلفة عن النار . وخطرت له النزهة بكل تفاصيلها . . النار ، وغناء الابخازيين ، والاحلام المعسولة عن منصب الكاهن والموكب الدينى . . واصبح النهير الاسود من المطر اشـــد سوادا واعرض . وعبر الشماس بحذر الجسر الواهى الذى اصبحت الامواج القذرة تطاله بذؤاباتها ، وصعد على السلـــم الى حظيرة التجفيف .

«عقل رائع ! — فكر فى فون كورين وهو يتمدد على القش — عقل طيب ، فليعطه الله الصحة . لكن فيه قسوة . . .»

ترى لماذا يكره لايفسكى ، وذلك يكرهه ؟ ولماذا سيتقاتلان فى المبارزة ؟ لو انهما عرفا منذ الطفولة تلك الفاقة التى عرفها الشماس ، ولو انهما تربيا وسط اناس اجلاف ، غلاظ القلوب ، جشعين ، يعيرون بكسرة الخبز ، افظاظ خشنين فى المعاملة ، يبصقون على الارض ويتجشأون على الغداء واثناء الصلاة ، ولو لم تدللهما منذ الطفولة ظروف الحياة الطيبـــة ودائرة الاصدقـــاء المختارين ، اذن لتمسك كل منهما بصاحبه ، ولغفر له عن طيب

خاطر كل عيوبه ، ولقدر فيه ما يتحلى به . فما اقل الناس المستقيمين ، ولو ظاهريا ، فى هذه الدنيا ! صحيح ان لايفسكى عابث ، منحل ، غريب ، ولكنه لن يسرق ، ولن يبصق على الارض بصوت عال ، ولن يؤنب زوجته : «تلتهمين ولا تعملين» ، ولن يقدم على ضرب طفل باللجام او يطعم خدمه قديدا عفنا . . افلا يكفى هذا لكى ننظر اليه بتسامح ؟ وعلاوة على ذلك فهو اول من يعانى من عيوبه ، كالجريح من جراحه . وبدلا من ان يبحثوا ، بسبب الملل وسوء فهم ما ، كلٌ فى صاحبه عن التحلل والانقراض والوراثة وغيرها من الاشياء الصعبة الفهم ، افلا يجدر بهم ان يهبطوا الى اسفل لكى يوجهوا كراهيتهم وسخطهم الى هناك حيث تضج شوارع بأكملها بالانين من الجهل الفظ والجشع والتعيير والقذارة والسب وولولة النساء . . .

تردد وقع عربة فقطع على الشماس حبل افكاره . واطل من الباب فرأى عجلة فيها ثلاثة : لايفسكى وشيشكوفسكى ورئيس مكتب البريد والبرق .

وقال شيشكوفسكى :

— قف !

وهبط ثلاثتهم من العجلة وتطلعوا بعضهم الى بعض .

وقال شيشكوفسكى وهو ينفض عنه الوحل :

— لم يأتوا بعد . حسنا . الى ان يبدأ الامر هيا بنا نبحث عن مكان مناسب . المكان هنا ضيق جدا .

ومضوا الى اعلى النهر ، وسرعان ما غابوا عن الانظار . وجلس الحوذى التترى فى العجلة وامال رأسه الى كتفه ونعس . وانتظر الشماس حوالى عشر دقائق ثم خرج من حظيرة التجفيف ، ونزع قبعته السوداء حتى لا يلاحظوه ، وراح يتسلل على الشاطئ بين الخمائل واعواد الذرة وهو ينكمش نحو الارض ويتلفت . وتساقطت عليه قطرات كبيرة من الاشجار والخمائل ، وكان العشب والذرة مبللين .

— يا للعار ! — دمدم وهو يلملم اطرافه المبللة الملوثة — لو كنت ادرى لما جئت .

وسرعان ما سمع اصواتا ثم رأى الناس . كان لايفسكى

يسير بسرعة غدوة ورواحا فى فسحة صغيرة وقد دس يديه فى جيبيه واحنى ظهره . ووقف شاهداه عند الشاطئ تماما يلفان لفائف تبغ .

«غريبة . . . — فكر الشماس مستغربا مشية لايفسكى — كأنه عجوز» .

وقال رئيس البريد وهو ينظر فى ساعته :

— يالها من قلة ذوق من جانبهم . ربما كان التأخير فى رأى العلماء شيئا طيبا ، اما فى رأيى فهو سفالة .

واصغى شيشكوفسكى ، ذلك الرجل البدين ذو اللحية السوداء ثم قال :

— قادمون !

١٩

— اول مرة فى حياتى ارى هذا ! يا للروعة ! — قال فون كورين وقد ظهر فى الفسحة ، مادا كلتا يديه نحو الشرق — انظروا : اشعة خضراء !

امتد من خلف الجبال ناحية الشرق شعاعان اخضران ، وكان ذلك جميلا بالفعل . كانت الشمس تشرق .

—مرحبا ! — واصل عالم الحيوان كلامه مومئا برأسه نحو شاهدى لايفسكى — هل تأخرت ؟

سار من خلفه شاهداه ، بويكو وجفروفسكى ، اثنان من الضباط الشبان جدا ، من طول واحد ، فى سترتين بيضاوين ، ثم الدكتور اوستيموفتش ، النحيل المنطوى ، الذى كان يحمل فى احدى يديه لفة ما بينما وضع الاخرى خلف ظهره . وكالعادة كانت هناك عصى ممدودة بطول ظهره . وضع اللفة على الارض ودون ان يحيى احدا ، ارسل يده الثانية ايضا وراء ظهره وراح يتمشى فى الفسحة .

احس لايفسكى بذلك التعب والحرج الذى ينتاب شخصا ربما سيموت بعد قليل ، ولذلك يستلفت انظار الجميع . واراد ان يسرعوا بقتله او بحمله الى البيت . كانت هذه اول مرة يرى فيها شروق الشمس . وبدا له هذا الصباح الباكر ، والاشعة

الخضراء ، والرطوبة ، وهولاء الناس ذوو الاحذية المبللة ، بدوا زائدين فى حياته ، لا لزوم لهم ، وضايقوه . لم يكن لكل هـذا اية علاقة بالليلة التى مرت به ، وبافكاره واحساسه بالذنب ولذلك كان يود عن طيب خاطر لو انصرف دون انتظار المبارزة .

وكان فون كورين بادى الانفعال ، وحاول ان يخفى ذلك ، متظاهرا بانه مهتم اكثر شيء بالاشعة الخضراء . وكان الشهود محرجين ، يتبادلون النظرات ، كأنما يتساءلون لماذا هم هنا وماذا يفعلون .

وقال شيشكوفسكى :

– اعتقد يا سادة انه لاداعى للابتعاد اكثر . المكان هنا لا بأس .

فوافق فون كورين :

– نعم ، طبعا .

وحل الصمت . وفجأة انحرف اوستيموفتش ، الذى كان يتمشى ، واتجه الى لايفسكى وقال بصوت خافت وهو يزفر فى وجهه :

– من المحتمل انهم لم يتمكنوا بعد من ابلاغك بشروطى . كل طرف يدفع لى خمسة عشر روبلا ، وفى حالة وفاة احد الخصمين يدفع الباقى على قيد الحياة الثلاثين روبل كلها .

كان لايفسكى يعرف هذا الرجل من قبل ، الا انه رأى لاول مرة بوضوح عينيه الكابيتين ، وشاربه المتصلب وعنقه النحيل المسلول : مراب لا دكتور ! وكان لانفاسه رائحة لحم بقرى كريهة .

وفكر لايفسكى : «ما اغرب ما يوجد فى هذه الدنيا من اشخاص !» . واجاب :

– حسنا .

واومأ الدكتور برأسه وعاد الى مشيه ، وكان واضحا انه ليس بحاجة ابدا الى النقود ، بل كان يطلبها بدافع الكراهية . واحس الجميع انه قد حان الوقت للبدء ، او للانتهاء مما بدأ بالفعل ، ولكنهم لم يبدأوا ولم ينهوا ، بل ساروا ووقفوا ودخنوا . وكان الضابطان الشابان ، اللذان يشهدان مبارزة لاول مرة فى

حياتهما ، واصبحا الآن لا يثقان كثيرا فى هذه المبارزة المدنية التى لا ضرورة لها فى رأيهما ، كانا يتفحصان باهتمام سترتيهما ويمسحان اكمامهما . واقترب منهمـــا شيشكوفسكى وقال بصوت خافت :

– يا سادة ، ينبغى علينا ان نبذل كل جهودنا من اجل الا تقع هذه المبارزة . يجب ان نصالحهما .

وتضرج ثم استطرد :

– بالامس جاءنى كيريلين واشتكى من ان لايفسكى ضبطه بالامس مع ناديجدا فيودوروفنا ، والذى منه .

فقال بويكو :

– نعم ، نحن ايضا نعرف ذلك .

– اذن وكما ترون . . . لايفسكـى يداه ترتعشان ، والذى منه . . . لن يقوى الآن حتى على رفع المسدس . ان مقاتلتـه الآن غير انسانية كمقاتلة ثمل او محموم . فاذا لم يتم التصالح فمن الضرورى يا سادة ان نعمل شيئا . . . ربما تأجيـــل المبارزة . . . يا للشيطان ، لو انى ما رأيت هذا .

– هلا تحدثت مع فون كورين ؟

– انا لا اعرف قواعد المبارزة عليها الف لعنة ، ولا اريد ان اعرفها . وربما ظن لو كلمته ان لايفسكى جبن ودفعنـى اليه . وعموما فليظن مايشاء ، سأكلمه .

توجه شيشكوفسكى الى فون كوريـــن بتردد وهو يعرج قليلا كأنما تخدرت ساقه ، وكانت هيئته كلها تطفح كســلا وهو يسير ويزحر .

وشرع يقول وهو يتفحص الازهـــار على قميص فون كورين باهتمام :

– اليك ما رايـــد اقوله يا سيـــدى . هذا شىء سرى ، بيننا . . . انا لا اعرف قواعد المبارزة عليهـــا الف لعنة ، ولا اريد ان اعرفها ، واتحدث لا كشاهد والذى منه ، بل كانســان وخلافه .

– نعم . وماذا ؟

– عندما يعرض الشهود التصالح ، فعادة لا يصغى احد الى

كلامهم ، ويعتبر ذلك مسألة شكلية . غرور وخلافه ولكنى ارجوك لو تكرمت ان تنتبه الى ايفان اندريتش . انه اليوم ليس فى حالة طبيعية ، ليس فى وعيه كما يقال ، وبائس لقد حلت به مصيبة . اننى لا اطيق الاقاويل - وتضرج شيشكوفسكى وتلفت حوله - ولكن بسبب المبارزة اجد من الضرورى ان ابلغك ففى مساء الامس وجد مدامه فى بيت مريدوف . مع . . . احد السادة .

- ياللقرف ! - دمدم عالم الحيوان . وشحب وجهه ، وامتعض وبصق بصوت عال - اتفو !

ارتعشت شفته السفلى . وابتعد عن شيشكوفسكى وهو لا يرغب فى سماع المزيد ، وبصق مرة اخرى بصوت عال وكأنه ذاق عن غير قصد شيئا مرا ، وتطلع بكراهية الى لايفسكى لاول مرة فى هذا الصباح . كان انفعاله وحرجه قد زايلاه فهز رأسه وقال بصوت عال :

- اننى اسألكم يا سادة ، ماذا ننتظر ؟ لماذا لا نبدأ ؟

تبادل شيشكوفسكى النظرات مع الضابطين وهز كتفيه . ثم قال بصوت عال ودون ان يخاطب احدا :

- يا سادة ! يا سادة ! نحن نعرض عليكما التصالح .

فقال فون كورين :

- فلننته بسرعة من الشكليات . لقد تحدثتم عن التصالح . ما هى الشكليات الاخرى الآن ؟ لتسرعوا يا سادة ، فالوقت ضيق .

فقال شيشكوفسكى بنبرة مذنبة كشخص مضطر الى التدخل فى شؤن الآخرين :

ولكننا نصر على التصالح مع ذلك - وتضرج ، ووضع يده على قلبه واستطرد - يا سادة ، نحن لا نرى علاقة سببية بين الاهانة والمبارزة . ليس هناك شىء مشترك بين الاهانة التى يوجهها احدنا للآخر احيانا بسبب ضعفنا الانسانى ، وبين المبارزة . كلاكما شخصان جامعيان ، مثقفان ، وبالطبع تعتبران المبارزة احدى الشكليات البالية الجوفاء فحسب والذى منه . ونحن ايضا ننظر اليها نفس النظرة والا لما جئنا ، لاننا لا نستطيع السماح فى حضورنا بان يطلق الناس النار بعضهم على بعض

وخلافه – ومسح شيشكوفسكى العرق من على وجهه واستطرد – صفيا يا سادة خلافكما ، ومدا ايديكما لبعضكما البعض ، ولنذهب الى البيت لنحتفل بالصلح . اقسم بشرفى يا سادة !

لزم فون كورين الصمت . ولما لاحظ لايفسكى انهم ينظرون اليه قال :

– انا ليس لدى شيء ضد نيقولاى فاسيليفتش . اذا كان يعتبر اننى مخطئ فانا على استعداد للاعتذار اليه .

وغضب فون كورين وقال :

– من الواضح يا سادة انكم ترغبون فى ان يعود السيد لايفسكى الى البيت رجلا سمحا ، فارسا ، ولكننى لا استطيع ان اتيح لكم وله هذه المتعة . لم يكن هناك داع للنهوض مبكرا والرحيل عشرة كيلومترات خارج المدينة . لكى نشرب احتفالا بالصلح ونمز ، ولكى توضحوا لى ان المبارزة هى احدى الشكليات البالية . المبارزة هى المبارزة ولا ينبغى ان تجعلوها اسخف وازيف مما هى عليه فعلا . انا ارغب فى القتال !

وحل الصمت . واخرج الضابط بويكو من الصندوق مسدسين مد احدهما الى فون كورين ، والآخر الى لايفسكى ، ثم وقع ارتباك بعث المرح لفترة قصيرة فى نفس فون كورين والشهود . فقد اتضح انه لا يوجد من بين جميع الحاضرين شخص واحد شهد مبارزة طوال حياته . ولم يكن احد يعرف على وجه الدقة كيف ينبغى ان يقف المتبارزان وما الذى يجب ان يقوله ويفعله الشهود . ولكن بويكو تذكر بعد قليل وراح يشرح لهم وهو يبتسم .

وسأل فون كورين مبتسما :

– يا سادة ، من الذى يذكر كيف وصف ليرمونتوف ذلك ؟ وعند تورجينيف ايضا تقاتل بازاروف مع شخص ما . . . *

فقال اوستيموفتش بعجلة وقد توقف عن المشى :

– وما الداعى الآن للتذكر ؟ قيسوا المسافة وانتهينا .

---

* فى راوية «بطل من هذا الزمان» لميخائيل ليرمونتوف ، ورواية «الاباء والابناء» لايفان تورجينيف . **المعرب** .

وخطا ثلاث خطوات كأنما يبين لهم كيف يقيسون . وقاس بويكو المسافة بالخطوات بينما شهر رفيقه سيفه وخدش به الارض عند نقطتى البدء لكى يحدد الخط الفاصل .

وشغل الخصمان مكانيهما والصمت يخيم على الجميع .

«حيوانات الخلد» - تذكر الشماس وهو قابع فى الخميلة .

وقال شيشكوفسكى شيئا ما ، وعاد بويكو فاوضح شيئاما ، ولكن لايفسكى لم يسمعهما ، او بالاحرى سمعهما لكنه لم يفهم . وعندما حان الوقت شد الزناد ورفع فوهة المسدس الثقيل البارد الى اعلى . ونسى ان يفك ازرار المعطف فاحس بضغط شديد على كتفه وتحت ابطه وارتفعت ذراعه بصعوبة بالغة وكأنما كان كمه مصنوعا من الصفيح . وتذكر كراهيته بالامس لذلك الجبين الاسمر والشعر المجعد ، وفكر بأنه حتى بالامس ، فى سورة حقده وغضبه ، ما كان ليقوى على اطلاق النار على انسان . وخوفا من ان تنطلق الرصاصة عفوا بطريقة ما فتصيب فون كورين راح يرفع المسدس اعلى فاعلى ، واحس ان هذه السماحة المبالغ فى اظهارها ليست لبقة ولا سمحاء ، ولكنه لم يكن يعرف او يستطيع ان يتصرف على نحو آخر . وفكر لايفسكى وهو ينظر الى وجه فون كورين الشاحب الباسم بسخرية ، والذى كان فيما يبدو واثقا منذ البداية من ان غريمه سيطلق النار فى الهواء ، فكر بان كل شىء سينتهى الآن والحمد لله ، وانه عليه فقط ان يضغط بقوة على حرك المسدس . . .

واحس بصدمة قوية فى كتفه ، ودوت طلقة ، وتجاوب صداها فى الجبال : باخ - طاخ !

ورفع فون كورين الزناد ، ونظر ناحية اوستيموفتش الذى كان يتمشى كما فى السابق ، عاقدا يديه خلف ظهره ، غير مهتم باى شىء .

وقال له عالم الحيوان :

- يا دكتور ، ارجوك ، لا تتمشى كالبندول . بصرى يزوغ من حركتك .

وتوقف الدكتور . وراح فون كورين يسدد نحو لايفسكى .

«خلاص !» - فكر لايفسكى .

فوهة المسدس ، المصوبة مباشرة الى الوجه ، وتعبير الكراهية والاحتقار فى وقفة فون كورين وفى هيئته كلها ، وهذا القتل الذى سيقدم عليه شخص شريف فى وضح النهار وعلى مرأى من اناس شرفاء ، وهذا الهدوء ، وتلك القوة المجهولة التى اجبرت لايفسكى على الوقوف ومنعته من الهرب . . . كم يبدو ذلك كله غامضا ، غير مفهوم ، ورهيبا ! وبدا الزمن الذى قضاه فون كورين فى التسديد للايفسكى اطول من تلك الليلة . وتطلع الى الشهود ضارعا ، الا انهم لم يتحركوا وكانوا شاحبين .

«هيا اطلق ، بسرعة !» — فكر لايفسكى وشعر بان وجهه الشاحب المرتعش البائس لابد وان يثير فى نفس فون كورين مزيدا من الكراهية .

«سأقتله الآن — فكر فون كورين وهو يسدد الى جبين لايفسكى ويتحسس حرك المسدس باصبعه — نعم ، طبعا ، سأقتله . . .»

— انه سيقتله ! — ترددت فجأة صرخة يائسة من مكان قريب جدا .

وعلى الفور دوت الطلقة . وعندما رأى الجميع ان لايفسكى واقف فى مكانه ولم يسقط ، نظروا الى الجهة التى صدرت منها الصرخة فرأوا الشماس . كان واقفا بين اعواد الذرة على الشاطئ الآخر ، شاحبا ، مبللا كله وملطخا بالوحل وشعره المبلل ملتصق بجبينه وخدية ، وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويلوح بقبعته المبللة . وضحك شيشكوفسكى من الفرحة ثم بكى ، وانتحى جانبا . . .

٢٠

بعد ذلك بقليل التقى فون كورين بالشماس عند الجسر . كان الشماس منفعلا ، يلهث ويتحاشى النظر فى عينى فون كورين . كان يشعر بالخجل من خوفه ومن ملابسه القذرة المبللة . ودمدم الشماس :

— خيل الى انك كنت تريد ان تقتله . . . كم ان هذا مناف للطبيعة الانسانية ! والى اية درجة هو غير طبيعى !

فسأله عالم الحيوان :

– ولكن كيف جئت الى هنا ؟
فاشاح الشماس بيده :
– لا تسأل ! اغوانى الشيطان ان اذهب . . . وها قد ذهبت ، فكرت اموت من الخوف بين اعواد الذرة . ولكن الحمد لله الآن ، الحمد لله . . . انا راض عنك تماما – دمدم الشماس . – وجدّنا العنكبوت سيكون راضيا ايضا . . . كم كان ذلك مضحكا ، كم كان مضحكا ! ولكنى ارجوك بشدة الا تقول لاحد اننى كنت هنا ، والا فان الرؤساء سيصفعوننى على قفاى فى الغالب . سيقولون كان الشماس شاهدا .
فقال فون كورين :
– يا سادة ، الشماس يرجوكم الا تخبروا احدا بانكم رأيتموه هنا ، قد يسبب له ذلك مشاكل .
وتنهد الشماس :
– كم ان هذا مناف للطبيعة الانسانية ! ارجوك ان تسامحنى ولكن منظر وجهك جعلنى اعتقد انك ستقتله حتما .
فقال فون كورين :
–راودنى اغراء شديد بأن اقضى على هذا الوغد ، ولكنك صرخت وانا اصوب فأخطات الهدف . ومع ذلك فهذه العملية كلها كريهة ، غير معتادة ، وقد ارهقتنى ياشماس . احس بضعف شديد . هيا ، اركب . . .
– لا ، ارجوك دعنى اعود ماشيا . ينبغى ان اجفف ثيابى فقد تبللت تماما وبردت .
– كما تشاء . . . – قال عالم الحيوان بصوت فاتر واهن وهو يجلس فى العجلة مغمضا عينيه . – كما تشاء . . .
وبينما كانوا يتحركون بجوار العربات ويستقلونها ، وقف كربلاى بجوار الطريق وقد امسك بطنه بكلتا يديه ، وراح ينحنى بشدة ويكشف عن اسنانه . كان يظن ان السادة قد جاءوا للاستمتاع بالطبيعة وتناول الشاى فلم يفهم لماذا يستقلون العربات . وتحرك الركب والجميع صامتون ، ولم يبق بجوار الدوخان سوى الشماس .
وقال الشماس لكربلاى :

– ادخل دوخان ، اشرب شاى . نفسى عايز ياكل .
كان كربلاى يتحدث الروسية جيدا ، ولكن الشماس ظن ان التترى سيفهمه اسرع لو خاطبه بروسية ركيكة .
– بيض اقلى ، جبنة اعطى . . .
فقال كربلاى منحنيا :
– تعال ، تعال يا قسيس . سأعطيك كل شىء . . عندنا جبن وعندنا خمر . . كل ماتشاء .
وسأله الشماس وهو يدخل الدوخان :
– كيف يسمى الاله بالتترية ؟
فقال كربلاى دون ان يفهمه :
– الهك والهى واحد . الاله واحد عند الجميع ، ولكن الناس مختلفون . منهم الروس ، ومنهم الاتراك ومنهم الانجليز . . الناس كثيرون والاله واحد .
– حسنا . اذا كان جميع الشعوب يعبدون الها واحدا ، فلماذا اذن تعتبرون ، انتم المسلمين ، ان المسيحيين هى اعداؤكم الابديون ؟
فقال كربلاى قابضا على بطنه بكلتا يديه :
– لماذا انت زعلان ؟ انت قسيس وانا مسلم . انت تقول : اريد ان اكل ، وانا اعطيك . . . الغنى فقط هو الذى يميز من هو ربك ومن هو ربى ، اما الفقير فلا فرق لديه . تفضل كل .
بينما دار هذا الحديث الدينى فى الدوخان كان لايفسكى يتذكر وهو عائد فى العربة الى البيت كيف كان يشعر بالرهبة من الرحيل فى الفجر ، عندما كانت الطريق والصخور والجبال مبللة ومظلمة ، وبدا له المستقبل المجهول رهيبا كالهوة التى لا يرى قرارها ، اما الآن فكانت قطرات المطر العالقة بالعشب والصخور تشع فى الشمس كالماسات ، والطبيعة تبتسم بفرح ، والمستقبل الرهيب اصبح وراء ظهره . واخذ ينظر بين الحين والحين الى وجه شيشكوفسكى الباكى العابس ، والى العربتين السائرتين فى الامام ، حيث يجلس فون كورين وشاهداه والدكتور ، وخيل اليه انهم جميعا عائدون من المقابر ، حيث دفنوا لتوهم شخصا صعبا بغيضا كان ينغص على الجميع حياتهم .

«انتهى كل شيء» – فكر لايفسكى فى ماضيه وهو يحك رقبته باصابعه فى حذر .

ظهر لديه ورم صغير فى الناحية اليمنى من رقبته بجوار الياقة بطول وسمك الاصبع الخنصر ، واحس بألم هناك وكأن احدا مر بمكواة على عنقه . وكان ذلك من اثر لفح الرصاصة .

وبعد ان وصل الى البيت امتد بالنسبة له نهار طويل ، غريب ، عذب ومضبب كالغيبوبة . وراح كمن اطلق سراحه من سجن او مستشفى يتفحص الاشياء المألوفة له منذ زمن بعيد ويدهش من ان الطاولات والنوافذ والكراسى وضوء النهار والبحر ، تثير فيه فرحة طفولية حية لم يشعر بها منذ عهد بعيد . ولم تفهم ناديجدا فيودوروفنا التى شحبت ، وهزلت بشدة ، صوته الوديع ومشيته الغريبة . واسرعت تروى له كل ما حدث لها . . . وبدا لها انه على الارجح لا يسمع ولا يفهم جيدا ما تقوله ، وانه لو عرف كل شيء فسيلعنها ويقتلها ، اما هو فكان يسمعها ويمسح على وجهها وشعرها ، ويحدق فى عينيها ويقول :

– ليس عندى احد سواك . . .

وبعد ذلك جلسا طويلا فى حديقة الدار متلاصقين ، صامتين ، او تبادلا بعض الجمل القصيرة المبتورة وهما يحلمان بصوت مسموع بحياتهما السعيدة المقبلة ، وخيل اليه انه لم يتحدث ابدا من قبل بمثل هذا الاسترسال والجمال .

٢١

مر اكثر من ثلاثة اشهر بقليل .

وحل اليوم الذى حدده فون كورين موعدا لرحيله . هطل منذ الصباح الباكر مطر غزير بارد وهبت رياح شمالية شرقية فارتفعت امواج البحر عاليا . وقيل انه من المستبعد فى جو كهذا ان ترسو السفينة فى الميناء . وكان من المفروض حسب جدول المواعيد ان تأتى فى العاشرة صباحا . ولكن فون كورين ، الذى خرج الى الكورنيش فى منتصف النهار وبعد الغداء ، لم ير عبر المنظار شيئا سوى الامواج الرمادية والمطر الذى كان يحجب الافق .

وفى آخر النهار توقف المطر وهدأت الريح بدرجة ملحوظة . وكان فون كورين قد استسلم لفكرة انه لن يتمكن من الرحيل اليوم وجلس يلاعب صامويلنكو الشطرنج . ولكن عندما هبط الظلام ابلغهم جندى المراسلة انه قد لاحت اضـــواء فى البحر وشوهد صاروخ اشارة .

ونهض فون كورين على عجل . وعلق الحافظة فى كتفه وتبادل القبلات مع صامويلنكو والشماس ، وبلا اى داع طاف بالغرف جميعا ، وودع الجندى والطاهية ، وخرج الى الشارع باحســاس كأنما نسى شيئا ما عند الدكتور او فى شقته . سار فى الشارع بجوار صامويلنكو ، وتبعهما الشماس حاملا صندوقا ، ومن خلف الجميع سار الجندى حاملا حقيبتين . ولم ير الاضواء الكابية فى البحر سوى صامويلنكو والجندى ، اما الباقون فحدقوا فى الظلام ولم يروا شيئا . كانت السفينة تقف بعيداً عند الشاطئ .

– بسرعة ، بسرعة – قال فون كورين بعجلة – اخشى ان تقلع !

وعندما مروا بجوار منزل بثلاث نوافذ ، كان لايفسكى قــد انتقل اليه عقب المبارزة ، لم يتمالك فون كورين نفســه وأطل فى النافذة . كان لايفسكى يجلس محنيا على المكتب ، يكتب شيئا ما وظهره الى النافذة .

فقال عالم الحيوان بصوت خافت :

– اننى مندهش . كيف كبح نفسه هكذا !

فتنهد صامويلنكو :

– نعم ، جدير بالدهشة . . . هكذا يجلس من الصباح الى المساء ، يجلس ويعمل . ويريد ان يسدد ديونه . ويعيش يا اخى ابأس من شحاذ .

مر نصف دقيقـــة فى صمت . وقف عالم الحيوان والدكتور والشماس قرب النافذة وهم لا يحولون انظارهم عن لايفسكى .

وقال صامويلنكو :

– وهكذا لم يسافر المسكين من هنا . اتذكر كيف كان يلح على السفر ؟

فردد فون كورين :

– نعم ، كبح نفسه بشدة . زواجه ، وهذا العمل طول النهار من اجل لقمة الخبز ، وهذا التعبير الجديد على وجهه ، وحتى مشيته . . . كل هذا غير مألوف الى درجة انى لا اعرف كيف اسميه – وأمسك عالم الحيوان بكم صامويلنكو ومضى يقول بانفعال : – ابلغه وابلغ زوجته اننى قبيل رحيلى ابديت دهشتى بهما وتمنيت لهما كل خير . . . واطلب منه الا يذكرنى بسوء ان كان يستطيع . انه يعرفنى ، يعرف انه لو كان بوسعى ان اتنبأ آنذاك بهذا التحول لاصبحت اصدق اصدقائه .

– ادخل وودعه .

– كلا . هذا محرج .

– ولماذا ؟ من يدرى ، فربما لم تره بعد ذلك ابدا .

وفكر عالم الحيوان قليلا ، ثم قال :

– هذا صحيح .

طرق صامويلنكو النافذة باصبعه طرقات خفيفة ، فانتفض لايفسكى والتفت .

فقال صامويلنكو :

– يا فانيا ، نيقولاى فاسيليتش يريد ان يودعك . انه مسافر الآن .

نهض لايفسكى من امام المكتب وذهب الى المدخل لكى يفتح الباب . ودلف صامويلنكو وفون كورين والشماس الى البيت .

– جئت لدقيقة واحدة – قال عالم الحيوان وهو ينزع خف حذائه فى المدخل ، وقد احس بالاسف لانه استسلم لاحاسيسه ودخل الى هنا بدون دعوة . وفكر «كما لو كنت افرض نفسى عليه . هذا سخيف» . وقال وهو يدخل فى اثر لايفسكى الى غرفته – آسف على هذا الازعاج ، ولكنى مسافر الآن ، وشعرت برغبة فى ان اراك . فمن يدرى ان كنا سنلتقى بعد .

– سعيد جدا . . . تفضل ارجوك – قال لايفسكى ووضع الكراسى امام الضيوف بطريقة خرقاء ، وكأنما يريد ان يسد عليهم الطريق ، ووقف فى وسط الغرفة يفرك يديه .

وفكر فون كورين : «كان ينبغى ان اترك هؤلاء الشهود فى الخارج» ، ثم قال بنبرة حازمة :

– لا تذكرنى بســـوء يا ايفان اندريتش . بالطبع لا يمكن نسيان الماضى ، فهو محزن الى درجة ، كما انى لم ات الى هنـــا لاعتذر او لاؤكد اننى لم اكن مخطئا . لقد تصرفت عن اخلاص ولم اغير معتقداتى منذ ذلـــك الحين . . . صحيح اننـــــى ارى الآن ولسرورى البالغ اننى اخطأت بشأنك ، ولكن قد يتعثر المرء على ارض مستويـــة ، وذلـــك هو قدر الانسان : اذا لم تخطئ فى الشىء الرئيسى فستخطئ فى الجزئيات . لا احد يعرف الحقيقـــة الاصيلة .

فقال لايفسكى :

– نعم ، لا احد يعرف الحقيقة . . .

– حسنا ، وداعا . . . ارجو من الله لك كل خير .

ومد فون كورين يده الى لايفسكى ، فشد هذا عليها وانحنى .

وقال فون كورين .

– لا تذكرنى بسوء اذن . ابلغ تحياتى الى زوجتك وقل لها اننى اسفت جدا لعدم تمكنى من توديعها .

– انها هنا .

مضى لايفسكى نحو الباب وقال متوجها الى الغرفة الاخرى :

– يا نادية ، نيقولاى فاسيليتش يريد ان يودعك .

ودخلت ناديجدا فيودوروفنا . وقفت بجوار الباب ونظرت الى الضيوف بوجل . كان وجهها يعبر عن الفزع والاحساس بالذنب ، وشدت يديها كتلميذة تصغى الى توبيخ .

وقال فون كورين :

– اننى مسافر الآن يا ناديجدا فيودوروفنا . وقد جئت لاقول الوداع .

مدت له ذراعها بتردد ، بينما انحنى لايفسكى .

وفكر فون كورين : «يالهما من بائسين حقا . هذه الحيـــاة تكلفهما غاليا» . وسأل :

– ساكون فى موسكو وبطرسبرج ، الا ترغبان فى شئ ارسله لكما من هناك ؟

– ماذا ؟ – قالت ناديجـــدا فيودوروفنا وتبادلت النظرات مع زوجها بقلق – اعتقد لا شىء . . .

– نعم ، لا شيء . . . – قال لايفسكى وهو يفرك يديه – ابلغ تحياتنا .

لم يدر فون كورين ما الذى يمكن او ينبغى ان يقوله بعد ، اما قبل ان يدخل الى هنا فقد ظن انه سيقول الكثير من الكلمات الطيبة والدافئة والهامة . وصـــافح لايفسكى وزوجته فى صمت وخرج من عندهما بشعور مقبض .

وقال الشماس بصوت خافت وهو يسير خلفهم :

– يالهم من ناس ! يا الهى ، يالهم من ناس ! حقا يمنـــاك يارب غرست هذا الكرم ! يا الهى ، يا الهى ! احدهم هزم الآلاف والآخر عشرات الآلاف – وقال باعجاب – يا نيقولاى فاسيليتش ، اتدرى انك انتصرت اليوم على الد اعداء الانسان . . على الكبرياء !

– كفاك يا شماس ! اى منتصرين انا وهو ! المنتصرون يبدون كالنسور ، اما هو فبائس ، وجل ، ذليل ، ينحنى كالمعتـــوه وانا . . . انا حزين .

وتردد خلفهم وقع خطوات . كان لايفسكى يلحق بهـــم ليودعه . وفى المرفأ وقف جندى المراسلة مع الحقيبتين ، وغير بعيد عنه اربعة بحارة .

وقال صامويلنكو :

– يا للريح الباردة . . بررر ! لا بد ان العاصفة تعربد الآن فى البحر ! ليس وقتا مناسبا للسفر يا كوليا .

– انا لا اخشى دوار البحر .

– لا اقصـــد هذا . . . اخشى ان يقلبك فى البحر هؤلاء الاغبياء . كان ينبغى ان تركب زورق الوكالة – وصاح فى البحارة :

– اين قارب الوكالة ؟

– اقلع يا صاحب المعالى .

– وقارب الجمارك ؟

– ايضا اقلع .

وغضب صامويلنكو :

– ولماذا لم يبلغونى ؟ هؤلاء الحمقى !

فقال فون كورين :

– لا يهم ، اطمئن . . . حسنا ، وداعا . ليحفظك الله .

وعانق صامويلنكو فون كورين ورسم عليه علامـــة الصليب ثلاثا .

– لا تنسنى يا كوليا . . اكتب . . . ســـوف ننتظرك فى الربيع القادم .

– وداعا يا شماس – قال فون كورين شادا على يد الشماس – شكرا لك على صحبتك ، وعلى الاحاديث الممتعة . فكر بخصوص البعثة .

فضحك الشماس وقال :

– يا الهى ، ولو الى آخر الدنيا ! وهل انا اعارض ؟

وتعرف فون كورين فى الظلام على لايفسكى فمد له يده فى صمت . وكان البحارة قد وقفوا فى الاسفل ممسكين بالزورق الذى كان يصطدم بقوائم الرصيف ، رغم ان حاجز الامواج كان يحميه من الموج العالى . وهبط فون كورين على السلــــم ، وقفز فى الزورق ، وجلس الى الدفة .

وصاح صامويلنكو له :

– اكتب لنا ! حافظ على صحتك !

«لا احد يعرف الحقيقة الاصيلة» – فكر لايفسكى وهو يرفع ياقة معطفه ويدس يديه فى جيبيه .

ودار القارب بهمـــــة من حول الرصيف وخرج الى الميــــاه المكشوفة . واختفى بين الامواج ، ولكنه قفز على الفور من هوة عميقة الى تل مرتفع حتى بدا واضحا ركابه بل وحتى مجاذيفه . وقطع القارب حوالى ثلاث اذرع ثم القت به الامواج الى الوراء مقدار ذراعين .

وصاح صامويلنكو :

– اكتب ! اى شيطان دفعك للرحيل فى هذا الجو !

«نعم ، لا احد يعرف الحقيقة الاصيلة . . .» – فكر لايفسكى وهو ينظر باسى الى البحر الهائج المظلم .

ومضى يفكر : «البحر يدفع القارب الى الوراء . يتقدم خطوتين الى الامام وخطوة الى الوراء ، ولكن البحارة عنيدون ، يضربون بالمجاذيف بلا كلل ولا يخشون الامواج العالية . ويمضى القارب الى الامام قدما ، وها هو يختفى عن الانظـــار ، وما ان ينقضى

نصف ساعة حتى يرى البحارة اضواء السفينة بوضــوح ، وبعد ساعة سيكونون عند سلم السفينة . وهكذا الحياة . . . يخطو الناس بحثا عن الحقيقة خطوتين الى الامام وخطــوة الى الوراء . وتدفعهم الالام والاخطاء وملل الحياة الى الوراء ، ولكن الشوق الى الحقيقة والعزيمة الصلبة تدفعهم الى الامام قدما . ومن يدرى ؟ ربما يبلغون شاطئ الحقيقة الاصيلة . . .»

وصاح صامويلنكو :

– مع السلام . . ا . . ا . . ة !

وقال الشماس :

– لا حس ولا خبر . . طريق السلامة !

وامطرت السماء رذاذا .

١٨٩١

اللعوب

١

شهد زفاف اولجا ايفانوفنا كل اصدقائها ومعارفها الطيبين .
— انظروا اليه ، اليس صحيحا ان فيه شيئا ما ؟ — قالت لاصدقائها وهى تومئ الى زوجها وكأنما تريد ان توضح لهم لماذا تزوجت هذا الرجل البسيط والعادى للغاية والذى ليس فيه اى شيء مميز .
وكان زوجها اوسيب ستيبانتش ضيموف طبيبا يحمل لقب المستشار الاعتبارى * . وكان يعمل فى مستشفيين ، فى احدهما طبيبا ممارسا منتدبا ، وفى الآخر طبيب مشرحة . وكان يستقبل المرضى ويعمل فى العنبر يوميا من التاسعة صباحا حتى منتصف النهار ، وبعد الظهر يتوجه بالعربـــة الى المستشفى الآخر حيث يشرح من يتوفى من المرضى . وكان دخله من الممارسة الخاصة ضئيلا ، لا يتعدى خمسمائة روبل فى العام . وهذا كل ما هنالك . فما الذى يمكن ان نضيفه عنه ؟ بينما كانت اولجا ايفانوفنـــا واصدقاؤها ومعارفها الطيبون اناسا غير عاديين ابدا . كان كل منهم يتميز بشيء ما ، ومعروفا قليلا ، وله اسمه وشهرته ، او اذا لم يكن بعد مشهورا فقد كان يبشر بآمال رائعة . كان هناك ممثل من مسرح الدراما ، موهبة كبيرة ، معترف بها منذ زمن ورجل رشيق ، ذكى ومتواضع واستاذ ممتاز فى الالقاء كان يعلم اولجا ايفانوفنا فن الالقـــاء . ومغنى اوبرا . . رجل بدين طيب ، كان

* المستشار الاعتبارى من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية . المعرب .

يؤكد لاولجا ايفانوفنا متنهدا انها تقضى على نفسها ، فلو لم تركن الى الكسل ، وحزمت امرها لاصبحت مغنية رائعة . وكان هناك ايضا عدد من المصورين وعلى رأسهم ريابوفسكى مصور المواضيع والحيوانات والمناظر . . شـــاب اشقر ، جميل جدا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، حقق نجاحا فى المعارض وباع لوحته الاخيرة بخمسمائة روبل . كان يصحح لاولجا ايفانوفنا رسوماتها ويقول انها ربما بلغت شيئا ما . وكان هناك ايضـــا عازف الفيولنشلو الذى كانت آلته تنتحب ، والذى اعترف صراحة بانه من بين جميع من يعرفهن من النساء لا توجد من تستطيع مصاحبته فى العزف سوى اولجا ايفانوفنا . وكان هناك اديب ، شاب ولكنه معروف ، يكتب الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة . ثم من ايضا ؟ نعم ، كان هناك فاسيلى فاسيليتش ، السيد الاقطاعى، المصور الهاوى والمزخرف ، والذى كان يجيـــد تذوق الاسلوب الروسى القديم والروايات الشعبيـــة والملاحم . وكان يصنـــع المعجزات على الورق والخزف والاطباق المدخنـــة . ووسط هذه الجماعة الارستقراطية الحرة التى دللها القدر ، وان كانت مهذبة ومتواضعة ، هذه الجماعة التى لم تكن تتذكر وجود اطباء ما الا ساعة المرض ، والتى كان اسم ضيموف لا يثير اهتمامها تماما كاسماء مثل سيدروف او ساراتوف . . وسط هذه الجماعة كان ضيموف يبدو غريبا ونشازا وصغيرا ، رغم انه كان طويل القامة عريض المنكبين . وبدا كأنه يرتدى حلة ليست له ، وان له لحية خولى . وعموما فلو انه كان كاتبا او مصورا لقالوا ان لحيتـــه تذكر بالاديب زولا .

وكان الممثل يقول لاولجا ايفانوفنا انها بشعرها الكتانى وفى ثوب الزفاف تشبه الى حد كبير شجرة كرز رشيقة عندما تغطيها الازهار البيضاء الرقيقة تماما فى الربيع .

وقالت له اولجا ايفانوفنا وهى تقبض على يده :

— كلا ، بل اسمع ! كيف امكن ان يحدث ذلك فجأة ؟ اسمع، اسمع . . . ينبغى ان اقول لك ان ابى كان يعمل مع ضيموف فى مستشفى واحد . وعندما مرض ابى المسكين ظل ضيمـــوف مرابطا الى جوار سريره ليل نهار . اوه ، ياللتفانى ! اسمـــع

يا ريابوفسكى . . وانت يا حضرة الاديب اسمـــع ، فهذا طريف جدا . اقترب منا . ياللتفانى والمشاركة المخلصة ! انا ايضا لم انم الليالى جالسة بجوار ابى ، وفجـــأة . . اهلا ، انتصرت على الفارس الشجاع ! غرق ضيموف فى حبى حتى اذنيه . حقا ما اغرب تصاريف القدر . حسنا ، بعد وفاة والدى كان يزورنى احيانـــا ويلقانى فى الشارع ، وذات مساء رائع ، هوب ! طلب يدى . . وكان لذلك وقع الصاعقة على . . . قضيت الليل كله فى النحيب ووجدت نفسى احبه بجنون . وها قد اصبحت كما ترون زوجة . أليس صحيحا ان فيه شيئا ما قويا ، هائلا ، شيئا من الدببة ؟ ان وجهه الآن لا يبدو لنا من هنا كاملا ، والاضاءة ضعيفة ، ولكن عندما يلتفت انظروا الى جبينـــه . ماذا تقول فى هذا الجبيـــن يا ريابوفسكى ؟ – وصاحت زوجها – يا ضيموف ، اننا نتحدث عنك ! تعال هنا . مد يدك الشريفـــة الى ريابوفسكى . . . نعم هكذا . فلتكونا صديقين .

ومد ضيموف يده الى ريابوفسكى وهو يبتسم ببشاشـــة وسذاجة وقال :

– سعيد جدا . لقد تخرج معى شخص يدعى ريابوفسكى ، اليس قريبك ؟

٢

كانت اولجا ايفانوفنا فى الثانية والعشرين من عمرها بينمـــا كان ضيموف فى الحادية والثلاثين . وعاشا بعد الزفاف حياة رائعة. وغطت اولجا ايفانوفنا جدران غرفة الجلوس كلها برسوماتهـــا ورسومات الآخرين ، فى اطر وبدون اطر ، وصنعت بجوار البيانو والاثاث ازدحاما جميلا من المظلات الصينيـــة والحوامل والخرق الملونة والخناجر والتماثيل النصفية والصور . . . وغطت جدران غرفة الطعام برسومات «اللوب» وعلقت على الجدران احذيـــة «اللابتى» * والمناجل ، ووضعت فى احد الاركان محصدة ومجرفة ،

* صور «اللوب» هى لون من التصوير الشعبى بالالوان على الواح خشبية ، و«اللابتى» احذية فلاحية قديمة كانت تصنع من لحاء الشجر .
المعرب .

فاصبحت غرفة طعام على الطراز الروسى . اما غرفة النوم فارادت ان تجعلها تشبه الكهف فكست السقف والجدران بقماش داكن ، وعلقت فوق الاسرة مصباحا من طراز مصابيح البندقية ووضعت بجوار الباب تمثالا يحمل رمحا برأس بلطة . وقال الجميع ان لدى الزوجين الشابين ركنا لطيفا .

وعندما تنهض اولجا ايفانوفنا من الفراش كل صباح فى الساعة الحادية عشرة تلعب على البيانو ، او اذا كان النهار مشمسا ، ترسم شيئا ما بالوان الزيت . ثم ترحل بعد الثانية عشرة الى خياطتها . ولما كانت نقودها هى وضيوف قليلة وتكفى بالكاد فقد لجأت هى وخياطتها الى الحيلة لكى تبدو كثيرا فى ازياء جديدة وتبهر الناس بفساتينها . وكثيرا جدا ما كان يخرج من الفستان القديم المعاد صبغه ومن قطع الدانتلا والقطيفة والحرير التى لا قيمة لها معجزات حقيقية ، شىء ما خلاب ، ليس فستانا بل حلم . ومن الخياطة كانت اولجا ايفانوفنا تتوجه عادة الى احدى معارفها من الممثلات لتعرف اخبار المسرح وبالمناسبة تدبر امر بطاقة لاول عرض لمسرحية جديدة او بنفيس . ومن الممثلة كان عليها ان تذهب الى مرسم مصور او الى معرض صور ، ثم الى احد المشهورين لتدعوه لزيارتهم او لترد الزيارة او لمجرد الثرثرة . وفى كل مكان كانوا يستقبلونها بمرح ومودة ويؤكدون لها انها جميلة ورقيقة ونادرة . . . وأولئك الذين كانت تسميهم بالمشهورين او العظام كانوا يستقبلونها كواحدة منهم ، على قدم المساواة ، ويتنبأون لها فى صوت واحد بأنها بمواهبها وذوقها وذكائها يمكن ان تصبح ذات شأن كبير اذا لم تبعثر قواها . لقد كانت تغنى وتعزف على البيانو وترسم بالالوان وتشكل الصلصال وتشترك فى تمثيليات الهواة ، ولكنها لم تكن تفعل ذلك كيفما كان ، بل بموهبة . وسواء أكانت تصنع المصابيح للزينات ، ام تتزين ، ام تعقد ربطة العنق لشخص ما . . فقد كان كل شىء يخرج من بين يديها بفن ورشاقة ولطف لا مثيل له . ولكن موهبتها لم تتجل فى اى شىء بمثل هذا السطوع كما تجلت فى قدرتها على التعارف بسرعة والتقرب من مشاهير الناس . فما ان يشتهر شخص ما ولو قليلا ، وما ان يجعل الناس تتحدث عنه

حتى تتعرف به على الفور وتتصادق معـــه فى نفس اليوم وتدعوه لزيارتها . وكان كل تعارف جديد عيدا حقيقيا بالنسبة لها . كانت تعبد المشاهير وتفخر بهم وتراهم كل ليلـــة فى الحلم . كانت متعطشة اليهم ولم تستطع ابدا ان تروى ظمأها . كان القدامى يرحلون او يطويهم النسيان ، ويأتى محلهم آخرون جدد ، ولكنها كانت تعتاد عليهم بسرعة او يخيب املها فيهم فتبدأ فى البحث بنهم عن الجديد والجديد من المشاهير فتجدهم ، ثم تعود تبحث ثانية . لاى شىء ؟

وبعد الرابعة كانت تتغدى فى البيت مع زوجها . كانت بساطته وتفكيره الراجح وطيبة قلبه تثير تأثرها واعجابها .

كانت تقول له :

– انت يا ضيموف انسان ذكى ، نبيل . ولكن فيك عيبـــا واحدا خطيرا جدا . انت لا تهتم ابدا بالفن . انت تنكر الموسيقى والتصوير .

فيقول باستكانة :

– انا لا افهمهما . لقـــد اشتغلت طوال حياتـــى بالعلوم الطبيعية والطب ولم يكن لدى وقت للاهتمام بالفنون .

– ولكن هذا فظيع يا ضيموف !

– لماذا ؟ ان معارفك لا يعرفون العلوم الطبيعية والطب ، ولكنك لا تعيبين عليهم ذلك . كل شخص ما يخصه . انا لا افهم المناظر او الاوبرات ، ولكنى افكر هكذا : اذا كان بعض الناس الاذكياء يكرسون لها حياتهم كلها ، وبعض الناس الاذكياء الآخرين يدفعون مقابلها مبالغ ضخمة ، اذن فهى ضرورية . اننى لا افهمها ولكن عدم الفهم لا يعنى الانكار .

– دعنى اشد على يدك الشريفة !

وبعد الغداء كانت اولجا ايفانوفنا تذهب الى معارفها ، ثم الى المسرح او الى حفلة موسيقية ، وتعود الى البيت بعد منتصـــف الليل . هكذا كل يوم .

وفى ايام الاربعاء كانت تقيم حفلات . وفى هذه الحفلات لم تكن ربة البيت او الضيوف يلعبون الورق او يرقصون ، بل يسرون عن انفسهم بشتى الالوان الفنية . فكان فنان مسرح الدراما يلقى،

والمغنى يغنى ، والمصورون يرسمون فى الالبومات التى كانت اولجا ايفانوفنا تحتفظ بعدد ضخم منهـــا ، وعازف الفيولنشلو يعزف ، اما ربة الدار فكانت ايضا ترسم وتشكل الصلصـــال وتغنى وتصاحب العازفين والمغنين .

وفى فترات الراحة ما بين الالقاء والعزف والغناء كانوا يتحدثون ويتناقشون فى الادب والمسرح والتصوير . ولم تكن هناك نساء ، لان اولجا ايفانوفنا كانت تعتبر جميع النساء ، ما عدا الممثلات المسرح والموسيقى والتصوير .

كان الزوجان الشابان سعيدين ، وسارت حياتهما على اروع ما يكون . ولكن الاسبوع الثالث من شهر العســـل لم يمض فى سعادة تامة ، بل مضى فى حزن ، فقد مرض ضيموف بعدوى الحمرة ولزم الفراش ستة ايام ، واضطر ان يحلق تماما شعره الاســود الجميل . وجلست اولجا ايفانوفنا الى جواره وبكت بحرقة ، ولكن عندما تحسنت حالته قليلا ، وضعت على رأســه الحليق منديلا ابيض ، وراحت ترسم عنه صورة بدوى . وشعر كلاهما بالمرح. وبعد ثلاثة ايام من شفائه وتردده ثانيـــة على المستشفى وقع له حادث جديد .

— اننى سيئ الحظ يا ماما — قال ذات مرة على الغداء — كان لدى اربع عمليات تشريح اليوم فجرحت اصبعين دفعة واحدة. ولم الحظ ذلك الا فى المنزل .

وخافت اولجا ايفانوفنا . فابتسم وقال ان هذا شىء تافه وانه كثيرا ما يجرح اصابعه اثناء التشريح .

— اننى انهمك فى التشريح يا ماما فاصبح شاردا .

وراحت اولجا ايفانوفنا تتوقع عدوى لجثة بقلق وتصلى لله فى الليل ، ولكن كل شىء مر على ما يرام . ومن جديد ســـارت حياتهما وخياطتها ، مملات ومبتذلات . ولم تكن حفلة تمر دون ان تنتفض ربة الدار لدى كل قرع لجرس الباب ، ودون ان تقول بتعبير انتصار على وجهها : «هذا هو !» وهى تعنى بـ«هو» شخصية شهيرة جديدة دعتها الى الحفلة . لم يكن ضيموف يبقى فى غرفة الاستقبال ، ولم يكن احد يتذكر غيابه . ولكن فى الحادية عشرة

والنصف تماما كان الباب المفضى الى غرفة الطعام يفتح ، ويظهر ضيموف بابتسامته البشوش المستكينة ويقول وهو يفرك راحتيه:
– تفضلوا الى المائدة يا سادة .

فيسير الجميع الى غرفـــة الطعام ويرون فى كل مرة نفس الاشياء على المائدة : طبق «ام الخلول» ، وقطعة من لحم الخنزير او العجل ، وسردين وجبن وكافيـــار وفطر وفودكا ودورقان من النبيذ .

وتقول اولجا ايفانوفنا وهى تشيح بيديها من الاعجاب :
– آه يا مترودوتيلى العزيز ! انت ساحر ! انظروا يا سادة الى جبينه ! ضيموف ، استدر الينـــا بجانب وجهك . انظروا يا سادة : وجه نمر بنغالى ، بينما التعبير طيب ورقيق كأنـــه لغزال . اوه يا حبيبى !

ويأكل الضيوف وهم يتطلعون الى ضيمـــوف ويفكرون : «بالفعل ، انه شـــاب رائع» ، ولكنهم سرعان ما ينسونـــه ، ويواصلون الحديث عن هادئة سعيدة بلا احزان او هموم . كان الحاضر رائعا ، واقترب الربيع ليحل محله وهو يبتسم من بعيد ويبشر بألف فرحة . ولن تكون للسعادة نهاية ! سينقضى أبريل ومايو ويونيو فى البيت الريفى البعيد عن المدينة ، وفى التريض والرسم وصيد السمك وسماع غناء البلابل ، وبعد ذلك ، ومن يوليو حتى الخريف ستكون رحلة للمصورين فى نهر الفولجا . وفى هذه الرحلة سوف تشارك اولجا ايفانوفنا باعتبارها عضوا اساسيا فى ال«سوسيتى» * . وقـــد اعدت لنفسها بالفعل ثوبى سفر من الخيش ، وابتاعت الوانا وفرشا وقماش رسم ولوحة الوان جديدة. واصبح ريابوفسكى يتردد عليها كل يوم تقريبا لكى يرى مدى التقدم الذى احرزته فى التصوير . وعندما كانت تعرض عليـــه رسومها ، كان يدفع يديه عميقا فى جيبى سرواله ، ويزم شفتيه بقوة ويشن بأنفه ثم يقول :
– هكذا . . هذه السحابة عندك تصرخ . . ليست مضـــاءة بضوء الغروب . المنظر الامامى ممضوغ قليلا ، وليس بالشكل

* الجماعة (بالفرنسية فى الاصل) .

المطلوب يعنى . . . اما المنزل فقد ضغط عليه شيء ما وهو لذلك يعول متوجعا . . . هذا الركن ينبغى رسمه بصورة ادكن قليلا . وعموما فلا بأس . . . اثنى عليك .

وكلما ازدادت كلماته غموضا ، سهل على اولجا ايفانوفنا ان تفهمه .

٣

فى اليوم التالى لعيد العنصرة بعد الغداء اشترى ضيموف مزات وحلوى ورحل الى زوجته فى البيت الريفى . لم يكن قد رآها منذ اسبوعين واشتاق اليها كثيرا . وعندما كان جالسا فى عربة القطار ، وبعد ذلك عندما كان يبحث عن داره فى الغيضة الكبيرة ، كان يشعر دائما بالجوع والتعب ويحلم بالعشاء مع زوجته فى حرية ثم بالخلود الى النوم . واحس بالمرح وهو ينظر الى اللفة التى يحملها وبها الكافيار والجبن والسمك الابيض .

وعندما وجد داره وتعرف عليها كانت الشمس تميل نحو المغيب . وقالت الخادم العجوز ان السيدة ليست فى الدار ومن المفروض ان تعود قريبا . لم يكن منظر الدار جذابا ابدا . وكان بها ثلاث غرف فقط ، واسقفها منخفضة ومغطاة بورق ابيض وارضيتها مشققة وغير مستوية . وكان فى احدى الغرف سرير ، وفى الثانية تراكمت الفرش وقماش الرسم والاوراق المشحمة والمعاطف والقبعات الرجالية على الكراسى . وفى الغرفة الثالثة وجد ضيموف ثلاثة رجال لا يعرفهم . كان اثنان منهم اسودى الشعر وبلحى صغيرة ، اما الثالث فكان حليقا تماما وبدينا ، ويبدو انه ممثل . وعلى المائدة كان السماور يغلى .

وسأل الممثل ضيموف بصوت غليظ وهو يتفحصه بنظرة غير ودود .

— ماذا تريد ؟ هل تريد اولجا ايفونوفنا ؟ انتظر ، سوف تأتى قريبا .

وجلس ضيموف وراح ينتظر . وتطلع اليه احد الرجلين الاسودى الشعر بكسل وتراخ وسأله وهو يصب لنفسه شايا :

— ربما تريد شايا ؟

كان ضيموف يريد ان يشرب وان يأكل ، ولكنه امتنع عن تناول الشاى لكيلا يفسد شهيته . وسرعان ما تردد وقع خطوات وتناهى الضحك المألوف . واصطفق الباب واندفعت اولجا ايفانوفنا الى داخل الغرفة وهى ترتدى قبعة عريضة الحواف وتحمل فى يدها صندوقا ، ودخل وراءها ريابوفسكى مرحا ، احمر الوجه يحمل مظلة كبيرة وكرسيا مطويا .

وصاحت اولجا ايفانوفنا وتضرجت من الفرحة :

– ضيموف ! ضيموف ! – رددت وهى تضع يديها ورأسها على صدره – أهو انت ! لماذا لم تأت طوال هذه المدة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

– متى استطيع يا ماما ؟ اننى مشغول دائما ، وعندما افرغ قليلا اجد مواعيد القطارات غير مناسبة دائما .

– اوه كم انا مسرورة برؤياك ! حلمت بك طوال الليل ، وخفت ان تمرض . آه لو تعرف كم انت غال وكم جئت فى الوقت المناسب ! ستكون مخلصى .انت الوحيد الذى يستطيع ان ينقذنى ! – ومضت تقول وهى تضحك وتربط ازوجها ربطة العنق – ستقام هنا حفلة زفاف طريفة للغاية . سيتزوج عامل البرق فى المحطة ، المدعو تشيكيلدييف . وهو شاب جميل ، ليس غبيا ، وفى وجهه ، المدعو اتدرى . . شيء ما قوى ، شيء من الدببة . . يمكن ان ترسم منه شابا من النورمانديين . ونحن المصطافين جميعا نشاركه الفرحة واعطيناه كلمة شرف ان نشهد العرس . . انه شخص غير ثرى ووحيد وخجول ، وحرام بالطبع الا نشاركه فرحته . تصور ، الزفاف بعد الصلاة مباشرة ، ثم سيتوجه الجميع من الكنيسة سيرا على الاقدام الى شقة العروس . . اتفهم . . الغيضة ، وصدح الطيور ، وبقع الشمس على العشب ، ونحن جميعا نسير كالبقع الملونة على خلفية خضراء زاهية . . شيء طريف للغاية ، حسب ذوق الانطباعيين الفرنسيين – ثم سألت واكسبت وجهها تعبيرا باكيا – ولكن يا ضيموف ماذا ارتدى للكنيسة ؟ ليس لدى شيء هنا ، ليس لدى شيء اطلاقا ! لا فساتين ولا ازهار ، ولا قفازات . . عليك ان تنقذنى . اذا كنت قد جئت فان القدر نفسه قد ارسلك لتنقذنى . خذ يا عزيزى المفتاح وارحل الى المنزل وخذ من الصوان فستانى

الوردى . انت تذكره ، انه اول فستان على المشجب . . . وفى غرفة المخزن سترى الى اليمين على الارض علبتين من الكرتون . تفتح العلبة العليا فتجدها مليئة بالدانتلا وقطع القماش المختلفة ، وتحتها الازهار . اخرج الازهار كلها بحذر ، وحاول يا روحى الا تجعدها ، وسوف اختار منها . . . واشتر قفازا .

فقال ضيموف :

— حسنا ، سأرحل غدا وارسلها لك .

فتساءلت اولجا ايفانوفنا وهى تنظر اليه بدهشة :

— متى غدا ؟ متى تلحق غدا ؟ غدا يمضى اول قطار فى التاسعة ، والزفاف فى الحادية عشرة . كلا يا عزيزى ، بل اليوم ، لا بد اليوم ! اذا لم يكن فى وسعك ان تأتى غدا ارسلها مع رسول . حسنا ، اذهب اذن . . سيأتى القطار الآن . لا تتأخر يا روحى .

— حسنا .

فقالت اولجا ايفانوفنا والدموع تترقرق فى عينيها :

— آه ، كم يحزننى ان ترحل ! يا لى من حمقاء لماذا وعدت عامل البرق ؟

وشرب ضيموف كوبا من الشاى بسرعة ، واخذ سميطة ، وابتسم باستكانة ، ثم اتجه الى المحطة . اما الكافيار والجبن والسمك الابيض فقد اكله صاحبا الشعر الاسود والممثل .

٤

فى ليلة هادئة مقمرة من ليالى يوليو وقفت اولجا ايفانوفنا على ظهر مركب من مراكب الفولجا ومضت تنظر تارة الى المياه وتارة الى الشواطئ الجميلة . ووقف ريابوفسكى الى جوارها وهو يقول لها ان الظلال السوداء فى الماء ليست ظلالا ، بل حلم ، وانه عند رؤية هذه المياه الساحرة ذات البريق الخيالى ، وعند رؤية السماء اللانهائية والشواطئ الحزينة المتأملة التى تتحدث عن باطل حياتنا وعن وجود شيء ما سام وخالد ومقدس ، يجدر بالمرء ان يندثر ، ان يموت ، ان يصبح ذكرى . فالماضى مبتذل وليس طريفا ،

والمستقبل تافه ، اما هذه الليلة الرائعة ، الليلة الوحيدة فى العمر كله فسرعان ما تنتهى وتتحد بالخلود – فلماذا العيش ؟

وكانت اولجا ايفانوفنا تصغى تارة لحديث ريابوفسكى وتارة لسكون الليل وهى تفكر فى انها خالدة ولن تموت ابدا . وحدثها لون المياه الفيروزى ، الذى لم تره من قبل ابدا ، والسماء ، والشطآن والظلال السوداء والفرحة الغامرة التى ملأت روحها بأنها ستصبح مصورة عظيمة ، وانه هناك فى مكان ما ، وراء الافق ، وخلف الليلة المقمرة ، فى الفضاء اللامتناهى ، ينتظرها النجاح والشهرة وحب الشعب . . . وعندما حدقت طويلا فى الافق وهى لا تطرف خيل اليها انها ترى جموع الشعب والاضواء وانغام الموسيقى المهيبة ، وصيحات الاعجاب ، وكانت هى نفسها فى رداء ابيض ، بينما انهالت عليها الازهار من جميع الجهات . وجال بخاطرها ايضا انه يقف الى جوارها مرتكزا على الحاجز انسان عظيم حقيقة ، عبقرى ، من الذين اختارهم الله . . . كل ما ابدعه حتى الآن رائع وجديد وغير عادى ، وكل ما سوف يبدعه فى المستقبل ، عندما يشتد عوده وتترسخ موهبته الفريدة ، سيكون باهرا وساميا الى ما لا نهاية ، وهذا واضح من وجهه وطريقة تعبيره ومن نظرته الى الطبيعة . فهو يتحدث عن الظلال ، والوان المساء وبريق القمر بطريقة خاصة ، وبكلماته هو ، بحيث تشعر لااراديا بسحر سلطانه على الطبيعة . اما هو نفسه فجميل جدا ، وفريد ، وحياته حرة ، مستقلة ، بعيدة عن امور المعيشة ، وتشبه حياة طائر .

وقالت اولجا ايفانوفنا :

– الجو مال الى البرودة .

وانتفضت .

ودثرها ريابوفسكى بردائه وقال بحزن :

– اننى اشعر اننى تحت سيطرتك . اننى عبد . لم انت باهرة هكذا اليوم ؟

كان يحدق فيها طوال الوقت دون ان يحول عنها عينيه . وكانت عيناه مرعبتين فخافت ان تتطلع فيهما .

وهمس وهو يزفر انفاسه على خدها :

– انني احبك بجنون . . . قولى لى كلمة واحدة فأنهي حياتي ،

اهجر الفن . . . – دمدم فى اضطراب شديد – احبينى ، احبينى . .
فقالت اولجا ايفانوفنا وهى تغمض عينيها :
– لا تتكلم هكذا . . رهيب . وضيموف ؟
– ماذا ضيموف ؟ لماذا ضيموف ؟ وما شأنى بضيموف ؟ هنا الفولجا ، والقمر ، والجمال ، وحبى ، واعجابى ، وليس هنا اى ضيموف . . آه ، انا لا اعرف شيئا . . . لا اريد الماضى . . اعطنى لحظة واحدة . . برهة واحدة .
وخفق قلب اولجا ايفانوفنا . ارادت ان تفكر فى زوجها ، لكن ماضيها كله ، بحفل الزفاف ، وضيموف ، والحفلات ، بدا لها صغيرا ، تافها ، كابيا ، لا داعى له ، وبعيدا بعيدا . . . وبالفعل ، ماذا ضيموف ؟ ولماذا ضيموف ، وما شأنها بضيموف ؟ وهل هو موجود على قيد الحياة ام هو مجرد حلم ؟
وقالت لنفسها وهى تغطى وجهها : «بالنسبة لرجل بسيط وعادى مثله ، يكفيه ما حصل عليه من سعادة . فليستنكروا هناك ، وليلعنونى ، اما انا فكيدا فيهم سأقتل نفسى . . نعم ، اقتل نفسى . ينبغى ان يجرب المرء كل شىء فى الحياة . يا الهى ما افظع هذا وما اطيبه !»
ودمدم المصور وهو يحضنها ويقبل بنهم يديها اللتين كانت تحاول بهما ان تدفعه عنها بوهن :
– حسنا ، ماذا ؟ ماذا ؟ هل تحبيننى ؟ نعم ؟ نعم ؟ اوه يا لها من ليلة ! ليلة رائعة !
– نعم ، يا لها من ليلة ! – همست وهى تتطلع الى عينيه البراقتين بالدموع ، ثم تلفتت بسرعة ، وعانقته ، وقبلته فى شفتيه بقوة .
– نقترب من كينشما ! – قال شخص ما من الطرف الآخر لسطح المركب .
وسمع وقع خطوات ثقيلة . كان ذلك عامل البوفيه . فقالت له اولجا ايفانوفنا وهى تضحك وتبكى من فرط السعادة :
– اسمع . . احضر لنا نبيذا .
وجلس المصور على الاريكة ، شاحبا من شدة الانفعال ، ونظر

الى اولجا ايفانوفنا بعينين والهتين شاكرتين ، ثم اغمض عينيه وقال وهو يبتسم ساهما :
– انني متعب .
واسند رأسه الى حاجز المركب .

٥

كان الثانى من سبتمبر يوما دافئا هادئا ولكنه مكفهر . وفى الصباح الباكر انتشر ضباب خفيف على الفولجا ، وبعد التاسعة تساقط المطر رذاذا . ولم يكن هناك اى امل فى ان تصفو السماء . واثناء تناول الشاى قال ريابوفسكى لاولجا ايفانوفنا ان التصوير هو اشد الفنون مللا وانحطاطا ، وانه ليس فنانا ، وان الحمقى وحدهم هم الذين يعتقدون انه موهوب . وفجأة ، ودون مقدمات ، التقط سكينا وخدش به افضل رسومه . وبعد الشاى جلس الى النافذة عابسا وراح يتطلع الى الفولجا . ولم يعد الفولجا براقا ، بل كابيا ، مغبشا ويبدو باردا . وكان كل شيء يذكر بقرب مجيء الخريف الكئيب المكفهر . وبدا ان الابسطة الخضراء الفحمة على الشطآن ، وانعكاسات الاشعة الماسية والآفاق الزرقاء الشفافة ، وكل ما هو انيق واحتفالى قد نزعته الطبيعة عن الفولجا ووضعته فى الصناديق حتى الربيع القادم ، بينما حلقت الغربان بجوار الفولجا وهى تستفزه بصياحها : «عريان ! عريان !» . واصغى ريابوفسكى الى نعيقها وهو يفكر فى انه قد انتهى وفقد موهبته ، وان كل شيء فى هذا العالم زائل ونسبى واحمق ، وما كان ينبغى ان يربط نفسه بهذه المرأة . . . وباختصار كان متضايقا ومكتئبا .
وكانت اولجا ايفانوفنا جالسة على السرير خلف الحاجز وهى تقلب باصابعها شعرها الكتانى الرائع ، وتتخيل نفسها تارة فى غرفة الجلوس ، وتارة فى غرفة النوم ، وتارة فى غرفة مكتب زوجها . وحملها الخيال الى المسرح ، والى خياطتها ، والى اصدقائها المشهورين . ترى ماذا يفعلون الآن ؟ هل يتذكرونها ؟ لقد بدأ الموسم ، وآن الاوان للتفكير فى الحفلات . وضيموف ؟ ضيموف العزيز ! كم يرجوها باستكانة وشكاية طفل فى رسائله ان تعود بسرعة ! وكان يرسل اليها كل شهر ٧٥ روبلا ، وعندما كتبت اليه

تقول انها مدينة للمصورين بمائة روبل ارسل اليها هذه المائة ايضا . يا له من انسان طيب ، سمح ! لقد ارهقت الرحلة اولجا ايفانوفنا ، وشعرت بالملل ، واحست بالرغبة فى ان تترك بسرعة هؤلاء الرجال ورائحة الرطوبة النهرية ، وان تتطهر من احساسها بالقذارة الجسدية ، هذا الاحساس الذى تملكها وهى تعيش طوال الوقت فى بيوت الفلاحين وتتنقل من قرية الى قرية . ولـــو لا ان ريابوفسكى وعد المصورين بشرفه ان يبقى معهم حتى العشرين من سبتمبر لكان من الممكن ان ترحل اليوم . وكم كان ذلك جميلا !

وانّ ريابوفسكى :

– يا الهى ! متى ستشرق الشمس ؟ لا استطيع ان اكمل منظرا مشمسا بدون الشمس !

فقالت اولجا ايفانوفنا خارجة من وراء الحاجز :

– لديك مشهد بسماء غائمة . اتذكر ، فى الجانب الايمن غابة وفى الايسر قطيع بقر واوز . تستطيع الآن ان تكمله .

فامتعض المصور وقال :

– ايه ! اكمله ! احقا تظنين اننى من الغباء بحيث لا اعرف ما الذى ينبغى على عمله !

فزفرت اولجا ايفانوفنا قائلة :

– كم تبدل شعورك نحوى !

– فليكن ، رائع .

وارتعش وجه اولجا ايفانوفنا ، فاتجهت نحو الفرن واجهشت بالبكاء .

– لم يكن ينقصنا سوى الدموع . كفاك ! ان لدى الف سبب للبكاء ولكننى لا ابكى .

فقالت اولجا ايفانوفنا وهى تجهش :

– الف سبب ! اهم سبب انك بدأت تضيق بى . نعم ! – قالت ثم انفجرت بالنحيب – اذا شئت الحقيقة فأنت تخجل من حبنا . انت تحاول دائما الا يلحظ المصورون ، رغم ان ذلك لا يمكن اخفاؤه ، وهم يعرفون كل شىء من زمان .

فقال المصور بضراعة وهو يضع يده على قلبه :

– اولجا ، ارجو منك شيئا واحدا . . شيئـــــا واحـدا : لا

تعذبيني ! انا لا اريد منك اكثر من ذلك !

– اقسم انك ما زلت تحبني !

فقال المصور من بين اسنانه وهو يقفز :

– يا للعذاب ! سينتهي الامر بان القى بنفسي في الفولجا او افقد عقلي ! دعيني !

– اقتلني ، اقتلني ! اقتل !

وعادت الى العويل ثانية ومضت خلف الحاجز . ونقر المطر على سقف المنزل الريفي القش . وامسك ريابوفسكي برأسه وسار من ركن الى ركن ، ثم اكتسى وجهه ملامح الحزم وكأنه يريد ان يثبت شيئا ما لاحد ما ، وارتدى القبعة ووضع بندقية الصيد على كتفه وخرج من المنزل .

وبعد خروجه ظلت اولجا ايفانوفنا مستلقية على السرير طويلا وهي تبكي . وفي البداية فكرت في انه من المستحسن ان تتناول سما لكي يعود ريابوفسكي فيجدها ميتة ، ثم حملها الخيال الى غرفة الجلوس ، وغرفة مكتب زوجها ، وتصورت نفسها جالسة الى جوار ضيموف دون حراك ، وهي تستمتع بالسكينة والنظافة الجسدية ، وفي المساء جالسة في المسرح تصغي الى مازيني . وعصر قلبها الشوق الى التحضر وصخب المدينة والشخصيات الشهيرة . ودلفت فلاحة الى المنزل وراحت تشعل الفرن على مهل لتجهز الغداء . وانتشرت رائحة الحريق واصبح الهواء ازرق من الدخان . وجاء المصورون ينتعلون احذية طويلة قذرة ووجوههم مبللة بالمطر ، وشاهدوا الرسوم وقالوا عزاء لانفسهم ان للفولجا سحره حتى في الجو السيىء . اما ساعة الحائط الرخيصة فمضت تتك : تك تك . . وتجمع الذباب المقرور في الركن الامامي بجوار الايقونات وهو يئز ، وتناهى صوت الصراصير وهي تعبث في المحافظ السميكة تحت الارائك .

عاد ريابوفسكي الى البيت عند الغروب . والقى قبعته على الطاولة وتهالك على الاريكة شاحبا ، منهكا وفي حذاء قذر ، واغمض عينيه .

– انا متعب . . . – قال وهو يحرك حاجبيه محاولا ان يفتح جفنيه .

ولكى تتقرب اولجا ايفانوفنا اليه وتبدى له انها ليست غاضبة منه ، اقتربت وقبلتـــــه فى صمت ، ومرت بالمشط فى شعره الاشقر . فقد ارادت ان تمشطه .

فانتفض ريابوفسكى وكان شيئا باردا قد مسه ، وسأل وهو يفتح عينيه :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟ دعينى لحالى ارجوك .

وابعدها عنه بيديه ، وتنحى قليلا ، وخيل اليها ان تعابيـــر وجهه تنم عن التقزز والاسى . وفى تلك اللحظة دخلت الفلاحــة حاملة فى يديها طبقا من حساء الكرنب ، ورأت اولجا ايفانوفنـــا اصابع الفلاحة الكبيرة وهى مغموسة فى الحساء . وبدت لها هــذه المرأة القذرة المحزومة البطن ، والحساء الذى راح ريابوفسكـــى يلتهمه بشراهة ، والبيت ، وكل هذه الحياة التى احبتها كثيرا فى البداية لبساطتها وفوضاها الفنية ، بدت لها الآن فظيعة . وفجـأة احست بالاهانة فقالت ببرود :

— ينبغى ان نفترق لبعض الوقت ، والا فقد نتشاجر جديا بسبب الملل . لقد سئمت كل هذا . سأرحل اليوم .

— وكيف ؟ هل ستمطين صهوة عصى ؟

— اليوم خميس ، اذن فسيأتى المركب فى التاسعة والنصف .

— هه ؟ نعم ، نعم . . حسنا ، سافـــرى . . . — قـــال ريابوفسكى بنعومة وهو يمسح فمه بالفوطة بدلا من المنديل — انت هنا تسأمين ولا عمل لديك ، وينبغى ان اكون انانيا كبيـرا حتى امنعك من الرحيل . سافرى ، وبعد يوم عشرين سنتقابل .

وحزمت اولجا ايفانوفنا امتعتها بمرح ، بل ان خديها تضرجا من السرور . وسألت نفسها احقا سوف ترسم فى غرفة الاستقبـال وتنام فى غرفة النوم وتتغدى على طاولة بمفرش ؟ وانزاح الاسى عن قلبها ولم تعد غاضبة على المصور .

وقالت :

— سأترك لك الالوان والفرش يا ريابوشا * . وما يبقى منها احضره معك . . . اياك ان تتكاسل وتكتئب هنا بدونى ، بل اعمل . انت شاطر يا ريابوشا .

* «ريابوشا» — تدليل من «ريابوفسكى» . **المعرب** .

فى العاشرة قبلها ريابوفسكى قبلة الوداع لكى لا يقبلها ، كما اعتقدت ، امام المصورين على ظهر المركب ، وودعها حتى المرفأ . وسرعان ما وصل المركب وحملها .

ووصلت الى البيت بعد يومين ونصف . ودون ان تنزع القبعة ومعطف المطر ، مضت الى غرفة الاستقبال وانفاسها تتلاحق من الانفعال ، ثم دلفت من هناك الى غرفة الطعام . كان ضيموف جالسا الى المائدة بدون سترة ، فى صديرى مفتوح الازرار ، وهو يسن السكين بالشوكة ، وامامه فى الطبق ديك برى . وعندما دخلت اولجا ايفانوفنا الشقة كانت موقنة بأنها لا بد ان تخفى عن زوجها كل ما حدث ، وان لديها من المهارة والقدرة ما يمكنها من ذلك . بيد انها الآن ، عندما رأت هذه الابتسامة العريضة المستكينة السعيدة ، والعينين البراقتين الفرحتين اجست ان اخفاء الامر عن هذا الانسان شىء وضيع مقزز ومستحيل لا تقوى عليه تماما مثل الافتراء والسرقة او القتل ، فقررت فى لحظة ان تروى له كل شىء . وبعد ان تركته يقبلها ويعانقها ، جثت امامه على ركبيتها وغطت وجهها بيديها .

فسأل ضيموف برقة :

— ماذا ؟ ماذا يا ماما ؟ اشتقت الى ؟

ورفعت اليه وجها مضرجا بحمرة الخجل ، ونظرت اليه نظرة مذنبة وضارعة ، ولكن الخوف والخجل منعاها من ان تقول الحقيقة . وقالت :

— لا شىء . . . هكذا . . .

فانهضها ضيموف واجلسها قائلا :

— فلنجلس . نعم هكذا . كلى الديك . لقد جعت يا مسكينة !

واستنشقت بنهم الهواء المألوف واخذت تأكل الديك البرى بينما راح يتطلع اليها بحب ويضحك بسعادة .

٦

يبدو ان ضيموف بدأ فى منتصف الشتاء يخمن انها تخدعه . وكأنما كان ضميره هو الذى يعذبه ، اذ لم يعد يستطيع ان ينظر مباشرة فى عينى زوجته ، ولم يعد يبتسم بفرح عند رؤياها ، ولكى

يقلل من فترة بقائه معها على انفراد كان كثيرا ما يدعو الى الغداء زميله كوروستيلوف ، وهو رجل قصير حليق الشعر ذو وجـــه مطبق . وعندما كان يتحدث مع اولجا ايفانوفنا يفك جميـع ازرار سترته ويزررها ثانية من الخجل ثم يروح يبرم شاربه الايسر بيده اليمنى . واثناء الغداء كان الطبيبان يتحدثان فى ان ارتفاع الحجاب الحاجز يؤدى احيانا الى اضطراب ضربات القلب ، او فى ازديـــاد الحالات العصبية فى الفترة الاخيرة ، او فى ان ضيموف عندما شرح امس جثة بتشخيص «انيميا خبيثة» اكتشف سرطانا فى البنكرياس . وبدا وكأنهما يخوضان فى احاديث طبية فقط لكى يعطيا اولجـــا ايفانوفنا فرصة لان تصمت ، اى لكيلا تكذب . وبعد الغـداء كان كوروستليوف يجلس الى المعزف ، بينما يتنهد ضيموف ويقول :

– ايه يا اخى ! فليكن ! اعزف لنا شيئا حزينا .

ويرفع كوروستليوف كتفيه عاليا ويبسط اصابعـه ويعزف بعض النغمات ويبدأ فى الغناء بصوت «تينور» : دلنى على دار لا يئن فيها الفلاح الروسى * ، ويتنهد ضيموف ثانية ويعتمد برأسه على قبضته ويستغرق فى التفكير .

وفى الآونة الاخيرة كانت اولجا ايفانوفنا تتصرف بصورة غير حذرة للغاية . كانت تستيقظ كل صباح فى اشد حالات الكـدر وبفكرة انها لم تعد تحب ريابوفسكى وان كل شىء قد انتهى والحمد لله . ولكن بعد ان تشرب القهوة تدرك ان ريابوفسكى سلبهـــا زوجها ، وانها الآن اصبحت بلا زوج وبلا ريابوفسكى . وبعد ذلك تتذكر احاديث معارفها عن ان ريابوفسكى يعد للمعرض شيئـــا صاعقا ، خليطا من المنظر والموضوع ، حسب ذوق بولينـــوف ، شيئا يثير اعجاب كل من يزور مرسمه . وفكرت اولجا ايفانوفنا فى سرها ان هذا قد ابدعه تحت تأثيرها ، وعموما فبفضل تأثيرهـــا عليه تغير بشدة نحو الافضل . ان تأثيرها عليه مفيد وحاســم بحيث لو تركته فربما انتهى . وتذكرت ايضا انه زارها فى المرة

* اغنية مشهورة فى اوساط الثوريين الديمقراطيين الروس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن قصيدة للشاعر نكراسوف بعنوان «تأملات عند المدخل الرئيسى» . **المعرب** .

الاخيرة فى سترة رمادية براقة وفى ربطة عنق جديدة وسألها بنظرة ساهمة : «هل انا جميل ؟» . وبالفعل كان بخصلاته الطويلة وعينيه الزرقاوين واناقته جميلا جدا (او ربما خيل اليها هكذا) وكان رقيقا معها .

وبعد ان تتذكر اولجا ايفانوفنا الكثير وتقلبه فى رأسها ، كانت ترتدى ثيابها فى حالة من الاضطراب الشديد وتتجه الى مرسم ريابوفسكى . وتجده مرحا ومعجبا بلوحته الرائعة بالفعل . كان يقفز ويتشاقى ويرد بالنكات على الاسئلة الجادة . وغارت اولجا ايفانوفنا على ريابوفسكى من اللوحة ومقتتهما ، ولكنها بدافع المجاملة كانت تقف امامها صامتة حوالى خمس دقائق ، وتتنهد كما يتنهد المرء امام شىء مقدس ، وتقول بصوت منخفض :

– نعم ، لم ترسم ابدا شيئا مثل هذا . اتدرى ، انها تثير الرهبة .

ثم تروح تتوسل اليه ان يحبها ، والا يهجرها ، وان يشفق عليها المسكينة البائسة . كانت تبكى وتقبل يديه وتلح عليه ان يقسم لها بأنه يحبها ، وتثبت له انه بدون تأثيرها الطيب سيضل الطريق ويهلك . وبعد ان تفسد عليه مزاجه الرائق وتحس بنفسها مهانة ، ترحل الى الخياطة او الى احدى معارفها الممثلات لتدبر امر بطاقة .

فاذا لم تجده فى المرسم تترك له رسالة تقسم فيها انها سوف تنتحر بالسم حتما اذا لم يأت اليها اليوم . ويخاف ريابوفسكى فيأتى ويبقى لتناول الغداء . ولم يكن يخجل من وجود زوجها فيخاطبها بتبجح ، وترد عليه بنفس الصورة . كان كلاهما يحس بأنه يكبل الآخر وبأنهما طاغيتان وعدوان فيزدادان غلا ، ويعميهما الغل عن ملاحظة سلوكهما الفاضح وعن انه حتى كوروستليوف الحليق يدرك كل شىء . وبعد الغداء كان ريابوفسكى يسرع بالوداع والانصراف .

فتسأله اولجا ايفانوفنا فى المدخل وهى تنظر اليه بكراهية :

– الى اين انت ذاهب ؟

فيمتعض ويزر عينيه ، ويذكر اسم احدى النساء من معارفهما المشتركين ، وكان واضحا انه يسخر من غيرتها ويريد ان ينغص عليها .

فكانت تمضى الى غرفة نومها وتستلقى فى الفراش . وبسبب الغيرة والاسى والاحساس بالمهانة والخزى كانت تعض الوسادة وتعول بصوت عال . فيترك ضيموف كوروستليوف فى غرفة الجلوس ، ويذهب الى غرفة النوم ويقول لها بصوت خافت وهو محرج ومرتبك :
– لا تبكى بصوت عال يا ماما . . . لماذا ؟ عليك ان تسكتى على هذا . . عليك الا تبدى ما بك . . اتدرين ان ما وقع لا يمكن اصلاحه . .

ودون ان تدرى اولجا ايفانوفنا كيف تكبت فى نفسها غيرتها الممضة التى كان صدغاها يكادان يتكسران بسببها ، واذ تعتقد انه ما زال من الممكن اصلاح الامور ، تنهض فتغتسل وترش البودرة على وجهها الباكى ، وتطير قاصدة السيدة معرفتها . وعندما لا تجد ريابوفسكى عندها ، تذهب الى سيدة اخرى ، ثم الى ثالثة . . . وفى البداية كانت تخجل من هذا الطواف ، ولكنها تعودت على ذلك فيما بعد ، وكان يحدث ان تطوف فى مساء واحد بجميع معارفها من النساء بحثا عن ريابوفسكى ، وكان الجميع يدركون ذلك .

وذات مرة قالت لريابوفسكى عن زوجها :
– هذا الرجل يرهقنى بسماحته !

واعجبتها هذه الجملة لدرجة انها عندما كانت تلتقى بالمصورين الذين كانوا يعرفون قصة غرامها مع ريابوفسكى ، كانت تقول فى كل مرة وهى تحرك يدها حركة حادة :
– هذا الرجل يرهقنى بسماحته !

وظل نظام حياتها كما كان فى العام الماضى . فالحفلات تقام فى ايام الاربعاء . ويلقى الممثل ، ويرسم المصورون ، ويعزف عازف الفيولنشلو ، ويغنى المطرب ، وفى تمام الساعة الحاديـــة عشرة والنصف يفتح الباب المؤدى الى غرفة الطعام ، ويقول ضيموف وهو يبتسم :
– تفضلوا الى المائدة يا سادة .

وظلت اولجا ايفانوفنا كما فى السابق تبحث عن الاشخـــاص العظام ، وتجدهم ولا تكتفى فتبحث من جديد . وكما فى السابق كانت تعود كل يوم فى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنها لا تجـــد ضيموف نائما كما فى العام السابق ، بل جالسا الى مكتبه يعمل .

وكان يأوى الى الفراش فى حوالى الثالثة ويستيقظ فى الثامنة .

وذات مساء ، عندما كانت واقفة امام المرآة لتستعد للذهاب الى المسرح ، دخل ضيموف مرتديا حلة سهرة وربطة عنق بيضاء . كان يبتسم بوداعة ، ونظر فى عينى زوجته مباشرة بفـــرح كما فى السابق . كان وجهه متهللا .

وقال وهو يجلس ويمسد ركبتيه :

– لقد ناقشت الآن رسالة الدكتوراه .

فسألته اولجا ايفانوفنا :

– ونجحت المناقشة ؟

– ايوه ! – وضحك ومد رقبته لكى يرى فى المرآة وجـــه زوجته التى ظلت مولية ظهرها له وتصلح تسريحتهـــا ، وردد – ايوه ! اتدرين ، من المحتمل جدا ان يعرضوا على «بريفـــات – دوتسنتورا» * فى الباثولوجى العام . يبدو كذلك .

كان واضحا على وجهه السعيد المتهلل انه لو شاركته اولجـــا ايفانوفنا فرحته وانتصاره ، لغفر لها كل شىء ، فى الحـــاضر والمستقبل ولنسى كل شىء ، ولكنها لم تكن تفهـــم معنى بريفات-دوتسنتورا والباثولوجى العام ، وعلاوة على ذلك كانت تخشى ان تتأخر عن المسرح ، فلم تقل شيئا .

فجلس ضيموف دقيقتين ثم ابتسم ابتسامة مذنبة ، وخرج .

٧

كان ذلك يوما مزعجا .

فى الصباح احس ضيموف بصداع شديد . ولم يتناول الشاى فى الصباح ، ولم يذهب الى المستشفى ، وظل طوال الوقت راقدا على الكنبة التركية فى غرفة مكتبه . وكالعادة توجهت اولجا ايفانوفنـا فى الثانية عشرة الى ريابوفسكى لتريه مشهد «ناتور-مور» رسمته وتسأله لم لم يحضر امس . وكان الرسم يبدو لها تافها ، ولـــم ترسمه الا لتجد ذريعة اخرى لزيارة المصور .

---

* بريفات-دوتسنت – اللقب العلمى للمدرس الجامعى من خارج هيئة التدريس . **المعرب** .

دخلت دون جرس ، وبينما كانت تخلع خفها فى المدخل خيل اليها انها سمعت صوت هرولة خفيفة فى المرسم وحفيف ثوب نسائى ، وعندما اسرعت لتلقى نظرة على المرسم لم تر الا جانبا من جونلة بنية ظهر لحظة واختفى وراء لوحة كبيرة مغطاة هى والحامل بغطاء اسود منسدل حتى الارض . لم يكن ثمة مجال للشك . . لقد كانت تختفى هنا امرأة . وكم مرة اختفت اولجا ايفانوفنا نفسها وراء هذه اللوحة ! ويبدو ان ريابوفسكى كان مرتبكا للغاية فتظاهر بابداء دهشة لمجيئها ، ومد نحوها كلتا ذراعيه وقال وهو يعتصر ابتسامة :

— آ — آ — آ ! سعيد جدا برؤياك . ماذا لديك من انباء طيبة ؟

اغرورقت عينا اولجا ايفانوفنا بالدموع . كانت تشعر بالخجل والمرارة ، ولم تكن لتوافق ، ولو دفعوا لها مليونا ، على الكلام فى حضرة امرأة غريبة ، غريمة ومخادعة ، تقف الآن خلف اللوحة وربما تضحك بتشف .

— جئت اليك بمشهد . . . — قالت بوجل وبصوت رفيع ، وارتعشت شفتاها — ناتور-مور .

— آه . . مشهد ؟

واخذ المصور المشهد فى يديه وراح يتفحصه وهو يسير الى الغرفة الاخرى كأنما بصورة آلية .

وتبعته اولجا ايفانوفنا باذعان .

ودمدم وهو ينتقى كلمات مسجوعة :

— ناتور-مور — احسن دور . . . بور . . حور . . . سور . . .

وتناهى من المرسم وقع خطوات حثيثة وحفيف فستان . اذن فقد خرجت **هى** . وودت اولجا ايفانوفنا لو صرخت بصوت عال وضربت المصور بشىء ثقيل على رأسه وانصرفت . ولكنها لم تر شيئا خلال الدموع ، وكانت مقهورة من الخجل ، واحست فى نفسها بأنها ليست اولجا ايفانوفنا وليست مصورة بل حشرة صغيرة .

— انا متعب . . . — قال المصور ساهما وهو يتطلع الى المشهد ويهز رأسه ليطرد عنه النعاس — هذا طبعا جميل ، ولكن اليوم مشهد ، وفى العام الماضى مشهد ، وبعد شهر سيكون

مشهد . . كيف لا تملين ذلك ؟ لو كنت مكانك لتركت التصوير وانكببت جديا على الموسيقى او اى شىء آخر . انك لست مصورة ، بل موسيقارة . ولكن أتعلمين كم انا متعب . سأطلب لك شايا ، هه ؟

وخرج من الغرفة وسمعته اولجا ايفانوفنا وهو يأمر خادمه بشىء ما . ولكى لا تودعه ، وتتصارح معه ، والاهم من ذلك لكى لا تنتحب ، هرولت بسرعة الى المدخل قبل ان يعود ريابوفسكى ، وارتدت خفها وخرجت الى الشارع . وهناك تنفست الصعداء واحست بنفسها حرة الى الابد من ريابوفسكى ومن التصوير ، ومن الخجل الممض الذى اطبق على قلبها فى المرسم . انتهى كل شىء !

وتوجهت الى الخياطة ، ثم الى برناى * الذى وصل بالامس فقط ، ومنه الى متجر للنوت الموسيقية ، وظلت طول الوقت تفكر فى الرسالة التى ستكتبها لريابوفسكى ، رسالة باردة ، قاسية ، مفعمة بالعزة ، وفى انها ستسافر مع ضيموف فى الربيع او الصيف الى القرم ، لتتخلص هناك تماما من الماضى وتبدأ حياة جديدة .

وعندما عادت الى البيت فى ساعة متأخرة من المساء ، لم تبدل ثيابها وجلست فى غرفة الجلوس تدبج الرسالة . لقد قال لها ريابوفسكى انها ليست مصورة ، وسوف تكتب الآن ، انتقاما منه ، انه يرسم كل عام نفس الشىء ، ويقول كل يوم نفس الشىء ، وانه قد ركد ولن يبلغ شيئا اكثر مما بلغ . وأرادت ان تكتب ايضا انه مدين لها بتأثيرها الطيب عليه ، واذا كان يسلك سلوكا مشينا فذلك فقط راجع الى ان تأثيرها تشله شتى السيدات المريبات ، كتلك التى اختبأت اليوم وراء اللوحة .

— ماما ! — نادى ضيموف من غرفة المكتب دون ان يفتح الباب — ماما !

— ماذا تريد ؟

— ماما ، لا تدخل على ، بل اقتربى فقط من الباب . اسمعى . . . منذ ثلاثة ايام انتقلت الى فى المستشفى عدوى الدفتريا ، والآن . . حالتى سيئة . ارسلى بسرعة فى طلب كوروستليوف .

---

* ممثل المانى . **المعرب** .

كانت اولجا ايفانوفنا تدعو زوجها ، ككل معارفها الرجال ، باسم عائلته لا باسمه ، فلم يكن اسم زوجها يعجبها لانه كان يذكرها بشخصية اوسيب عند جوجول * ، اما الآن فقد صاحت :
– اوسيب ، هذا لا يمكن !
– ارسلى فى طلبه ! حالتى سيئة . . . – قال ضيموف خلف الباب ، وسمع وقع خطواته وهو يتجه الى الكنبة ويستلقى عليها ، وجاء صوته مكتوما – ارسلى !
وفكرت اولجا ايفانوفنا والرعب يجمد اطرافها : «ما هذا ؟ انه شيء خطر !» .
ودونما داع تناولت شمعة ومضت الى غرفتها ، وهنا ادركت ما الذى ينبغى عليها ان تفعله ، ونظرت عرضا الى صورتها فى المرآة . وبدت لنفسها مخيفة ودميمة بوجهها الشاحب المذعور ، وبسترتها ذات الاكمام العالية والشرائط الصفراء على الصدر ، والخطوط ذات الاتجاهات غير العادية فى الجونلة . وفجـأة احست لدرجة الالم بالاسف على ضيموف ، وعلى حبه اللامحدود لها ، وعلى حياتـه الشابة ، بل وحتى على فراشه هذا اليتيم الذى لم يعد يرقد فيه زمن طويل ، وتذكرت ابتسامته المألوفة الوادعة المذعنة . وبكت بحرقة وكتبت لكوروستليوف رسالة ضارعة . وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا .

٨

عندما خرجت اولجا ايفانوفنا من غرفة النوم فى الثامنة صباحا ، بصداع فى الرأس بسبب السهاد ، وغير مصففة الشعر وقبيحـة وبتعبير مذنب على وجهها ، مر بجوارها شخص ما اسود اللحية ، يبدو انه طبيب . وانتشرت رائحة الادوية . وبجوار باب غرفة المكتب وقف كوروستليوف وهو يبرم شاربه الايسر بيده اليمنى .
وقال لاولجا ايفانوفنا متجهما :
– عفوا ، لن اسمح لك بالدخول اليه . قد يعديك . وعموما

* هو اسم خادم خليستاكوف فى مسرحية جوجول «المفتش العام». المعرب .

فلا حاجة لدخولك فى الواقع . انه على اية حال يهذى .
فسألت اولجا ايفانوفنا بهمس :
— هل عنده دفتريا حقيقية ؟
فدمدم كوروستليوف دون ان يجيب على سؤال اولجا ايفانوفنا :
— اولئك الذين يندفعون بتهور ينبغى محاكمتهم فى الواقع . اتعلمين كيف انتقلت اليه العدوى ؟ فى يوم الثلاثاء شفط بالانبوبة اغشية الدفتريا من طفل مريض فما الداعى ؟ حماقة . . هكـــذا ، بلا تفكير . .
فسألت اولجا ايفانوفنا :
— هل هذا خطير ؟ جدا ؟
— نعم ، يقولون ان الحالة صعبة ، فى الواقع ينبغـــى ان نستدعى شريك .
وجاء رجل صغير ، احمر الشعر ، طويل الانف ، ويتحدث بلكنة يهودية ، ثم رجل طويل ، مقوس ، مشعث الشعر يشبـــه رئيس الشمامسة . وبعده جاء شاب ، بدين جدا ، احمر الوجه ، يضـــع نظارة . كانوا اطباء جاءوا ليسهروا بجوار زميلهم . ولم يكـــن كوروستليوف ينصرف الى داره بعد ان يقضى نوبة سهره ، بـــل يبقى وهو يطوف بالغرف كلها كالظل . وكانت الخادم تقدم الشاى للاطباء المناوبين وتذهب كثيرا الى الصيدلية ، ولم يكن هناك من ينظف الغرف . وساد جو من الهدوء والوحشة .
وجلست اولجا ايفانوفنا فى غرفة النوم واخذت تفكر فى ان هذا عقاب من الله لها على خداعها لزوجها . كان هناك مخلوق صموت ، مطيع ، غير مفهوم ، فقد شخصيته بسبب وداعته ، مخلوق بـــلا ارادة ، وضعيف بسبب طيبته الزائدة ، يتعذب هناك على الكنبة فى غرفته دون ان يشكو . ولو انه اشتكى ، حتى فى الهذيان ، لعلـم الاطباء المناوبون ان الدفتريا ليست المذنبة وحدها ، وليسألـــوا كوروستليوف فهو يعرف كل شىء ، ولذلك فهو ينظر الى زوجـــة صديقه نظرات وكأنها هى الشريرة الاولى الحقيقية ، وما الدفتريا الا شريكتها . ولم تعد تذكر الامسية المقمرة على الفولجا ولا الاعتراف بالحب ، ولا الحياة الشاعرية فى البيت الفلاحى بل كانت تذكـــر فقط انها بدافع النزوة الفارغة واللهو قد تلطخت كلها ، بيديها

ورجليها ، بشىء قذر ، لزج ، لن يزيله ابدا اى غسيل . . .

«آه ، كم كذبت بفظاعة ! ! – فكرت اولجا ايفانوفنا وتذكرت حبها القلق لريابوفسكى – اللعنة على كل ذلك ! . .»

فى الساعة الرابعة تناولت الغداء مع كوروستليوف . ولم يذق شيئا ، بل شرب فقط النبيذ الاحمر ، وتجهم . ولم تذق هى ايضا اى شىء . وكانت تارة تصلى فى سريرتها وتقسم لله بأنها ، اذا ما شفى ضيموف فسوف تحبه ثانية وتبقى زوجة وفية له . وتارة تنسى لحظة فتنظر الى كوروستليوف وتفكر : «اليس من الممل حقا ان يكون المرء بسيطا ، لا يتميز بشىء ، انسانا مجهولا ، وفوق ذلك يكون له وجه مطبق كهذا ، وتصرفات غير مهذبة ؟» . وتارة يخيل اليها ان الله سيقضى عليها فى التو واللحظة لانها ، خوفا من العدوى ، لم تدخل غرفة مكتب زوجها بعد ولا مرة . وعموما فقد كانت تحس بالتبلد والوحشة وبقناعة بأن الحياة قد فسدت ولن يمكن اصلاحها . . .

حل الغسق بعد الغداء . وعندما خرجت اولجا ايفانوفنا الى غرفة الجلوس كان كوروستليوف نائما على الاريكة ، وقد وضع تحت رأسه وسادة حريرية مطرزة بخيوط مذهبة . وكان شخيره يتصاعد «كخى – بوا . . . كخى – بوا . . .»

وحتى الاطباء الذين كانوا يجيئون للمناوبة ، وينصرفون لم يلاحظوا هذه الفوضى . فوجود شخص غريب نائم فى غرفة الجلوس ويشخر والمشاهد المعلقة على الجدران ، والوضع الغريب فى البيت ، وربة الدار غير المصففة الشعر والمهملة الثياب . كل ذلك لم يعد يثير الآن ادنى اهتمام . وضحك احد الاطباء عرضا ، فتردد هذا الضحك غريبا وخجلا ، بل واثار الرهبة .

وعندما خرجت اولجا ايفانوفنا الى غرفة الجلوس مرة اخرى ، لم يكن كوروستليوف نائما بل جالسا يدخن .

وقال لها فى شبه همس :

– لديه دفتريا التجويف الانفى . اصبح القلب يعمل بشكل مضطرب . الاحوال سيئة فى الواقع .

فقالت اولجا ايفانوفنا :

– استدع شريك .

– كان هنا بالفعل . وهو الذى لاحظ ان الدفتريا انتقلت الى الانف . ايه ، وماذا يفعل شريك ، فى الواقع شريك لا شىء . انه شريك وانا كوروستليوف . . ولا شىء اكثر .

مضى الوقت ببطء رهيب . كانت اولجا ايفانوفنا مستلقية بثيابها فى الفراش الذى لم يرتب منذ الصباح وهى تغفو . وتراءى لها ان الشقة كلها ملأى من السقف حتى الارض بقطعة ضخمة من الحديد ، وانه ما ان يلقى بهذا الحديد الى الخارج حتى يشعر الجميع بالخفة والمرح . وعندما استيقظت تذكرت ان ذلك ليس حديدا بل هو مرض ضيموف .

وفكرت وهى تغفو من جديد : «ناتور-مور ، بور . . حور . . وكيف شريك ؟ شريك ، بريك ، فريك ، كريك ، واين الآن اصدقائى ؟ هل يعلمون بمحنتنا ؟ يا الهى الرحمة ، النجاة . . شريك ، بريك . . .» . .

ويعود الحديد ثانية . . والوقت يمضى ببطء ، والساعة فى الطابق الاسفل تدق كثيرا . ومن حين لآخر يدق جرس الباب ويدخل الاطباء . . . ودخلت الخادم تحمل كوبا فارغا على صينية وسألت :

– سيدتى ، هل تأمرين باعداد الفراش ؟

وخرجت دون ان تتلقى جوابا . ودقت الساعة فى الاسفل ، ورأت اولجا ايفانوفنا فى الحلم المطر يسقط على الفولجا ، ومرة اخرى دخل غرفة النوم شخص ما ، يبدو انه غريب ، فقفزت اولجا ايفانوفنا وعرفت فيه كوروستليوف .

فسألته :

– كم الساعة ؟

– حوالى الثالثة .

– ماذا هناك ؟

– وماذا هناك ! جئت اقول انه يحتضر . . .

واجهش بالبكاء ، وجلس على السرير بجوارها ، ومسح دموعه بكمه . ولم تدرك ما قاله على الفور ، ولكن البرودة شملت جسدها كله ، وراحت ترسم علامة الصليب ببطء .

وردد كوروستليوف بصوت رفيع :

– يحتضر . . . – واجهش ثانية – انه يموت لانه ضحى

بنفسه . . . – وقال بمرارة – يا لها من خسارة للعلم ! لقد كان بالمقارنة بنا جميعا انسانا عظيما ، انسانا غير عادى ! اية مواهب ! اية آمال كنا نعلقها عليه ! – ومضى يقول وهو يعصر يديه – يا ربى ، كان من الممكن ان يصبح عالما لا مثيل له الآن . اوسكا ضيموف ، اوسكا ضيموف ، ما الذى فعلته ! آه يا الهى !

وغطى كوروستليوف وجهه بكلتا يديه من اليأس وهز رأسه . ومضى يقول وهو يزداد حقدا على شخص ما :

– وأية قوة اخلاقية ! روح طيبة ، طاهرة ، محبة – لم يكن انسانا بل بلور ! عاش فى خدمة العلم ومات بسبب العلم . كان يعمل كالبغل ، ليل نهار ، ولم يرحمه احد ، وكان عليه وهو العالم الشاب والاستاذ المقبل ان يبحث عن زبائن ، وان يعمل فى الترجمة ليلا لكى يدفع ثمن هذه ال . . . الخرق الحقيرة !

وتطلع كوروستليوف بمقت الى اولجا ايفانوفنا ، وامسك الملاءة بكلتا يديه وشدها بغضب ، وكأنها هى المذنبة .

– لم يرحم نفسه ، ولم يرحمه الآخرون . اوه ، ماذا اقول ، فى الواقع !

وقال شخص ما فى غرفة الجلوس بصوت غليظ :

– نعم ، كان انسانا نادرا .

وتذكرت اولجا ايفانوفنا كل حياتها معه ، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها ، وادركت فجأة انه كان بالفعل انسانا غير عادى ونادرا بالمقارنة مع من كانت تعرفهم . وعندما تذكرت كيف كان يعامله المرحوم ابوها وكل زملائه الاطباء ، ادركت انهم جميعا كانوا يرون فيه رجلا عظيما فى المستقبل . وغمزت لها الجدران والسقف والمصباح والبساط بتهكم وكأنها تريد ان تقول لها : «يا غافلة ، يا غافلة !» فانطلقت من غرفة النوم وهى تبكى ، وعبرت غرفة الجلوس مارة بشخص غريب ، واندفعت الى غرفة مكتب زوجها . كان ممدا بلا حراك على الكنبة التركية ، مغطى الى نصفه ببطانية . ضمر وجهه وهزل بشدة واصبح لونه رماديا اصفر بصورة لا تبدو بها ابدا وجوه الاحياء ، وكان لا يمكن معرفة ان هذا هو ضيموف الا من جبينه وحاجبيه الاسودين وابتسامته المعهودة . وتحسست اولجا ايفانوفنا صدره وجبينه ويديه بسرعة . كان صدره لا يزال

دافئا ، لكن جبينه ويديه كانت باردة بصورة منفرة . وكانت عيناه شبه المفتوحتين لا تنظران الى اولجا ايفانوفنا ، بل الى البطانية .
ونادته بصوت عال :
– ضيموف ! ضيموف !
كانت تريد ان تشرح له ان ذلك كان خطأ ، وانه لم يضع كل شيء بعد ، وان الحياة يمكن ان تكون رائعة وهنيئة ، وانه انسان نادر ، غير عادى ، وعظيم ، وانها سوف تظل تقدسه طول العمر وتصلى له وتضمر الخوف المقدس . . .
– ضيموف ! ضيموف ! يا ضيموف ! – دعته وهى تهزه من كتفه دون ان تصدق انه لن يستيقظ ابدا .
وفى غرفة الجلوس كان كوروستليوف يقول للخادم :
– وفيم السؤال ؟ اذهبى الى خفير الكنيسة واسألى اين تقطن عجائز الملجأ . . سيغسلن الجسد ويهندمنـــــه ، ويقمن بكل المطلوب .

١٨٩٢

بعد المسرح

ما ان عادت نادية زيلينينا مع والدتها من المسرح ، حيث شاهدتا «يفجينى انيجين» * ودخلت غرفتها ، حتى نزعت فستانها بسرعة وحلّت ضفيرتها ، واسرعت بالجونلة والبلوزة البيضاء فقط فجلست الى الطاولة لتكتب خطابا كالذى كتبته تاتيانا .

وخطت : «اننى احبك ، ولكنك لا تحبنى ، لا تحبنى !» .

كتبت هذا وضحكت .

كان عمرها ستة عشر عاما فقط ، ولم تحب احدا بعد . وكانت تعلم ان الضابط جورنى والطالب جروزديف يحبانها ، ولكنها شعرت الآن ، بعد الاوبرا ، برغبة فى التشكك فى ذلك الحب . ان تكون غير محبوبة وشقية . . ما اروع ذلك ! ثمة شيء ما ، حين يحب الشخص بقوة ولا يكترث به الآخر ، شيء جميل ، ومؤثر ، وشاعرى . انيجين ممتع لانه لا يحب مطلقا ، اما تاتيانا فهى خلابة لانها تحب بقوة ، ولو انهما احبا بعضهما البعض بنفس الدرجة وكانا سعيدين لاصبحا على الارجح مملين .

«كُف عن تأكيد انك تحبنى – واصلت نادية الكتاب وهى تفكر فى الضابط جورنى – فأنا لا استطيع ان اصدقك انت ذكى جدا ، مثقف ، جاد ، ولديك موهبة كبيرة ، وربما كان فى انتظارك مستقبل باهر ، اما انا فلا شيء يميزنى ، فتاة لا وزن لها ، وانت نفسك

---

* اوبرا للموسيقار تشايكوفسكى ماخوذة عن رواية بوشكين الشعرية التى تحمل نفس الاسم . **المعرب** .

تعرف جيدا اننى لن اكون سوى عقبة فى حايتك . حقا انت همت بى ، وظننت انك فى شخصى عثرت على المثال الذى تبحث عنه ، لكنها كانت غلطة ، والآن تسأل نفسك بيأس : ما الذى جعلنى التقى بهذه الفتاة ؟ وطيبة قلبك فقط هى التى تمنعك من الاعتراف بذلك ! . .»

احست نادية بالاشفاق على نفسها ، فبكت ومضت تكتب :

«صعب علىّ فراق ماما واخى ، والا كنت ارتديت مسوح الراهبات ومضيت اينما يمتد بى البصر . ولأصبحت انت حرا واحببت فتاة غيرى . آه لو كنت اموت !» .

من خلال الدموع استحال تبين الكلمات المكتوبة ، وتراقصت الوان طيف قصيرة فوق الطاولة ، وعلى ارضية الغرفة وعلى السقف كما لو ان نادية كانت تنظر عبر منشور . وتعذرت الكتابة فتراجعت الى ظهر المقعد واخذت تفكر فى جورنى .

يا الهى ، اى سحر فى الرجال ، واية جاذبية ! تذكرت نادية ذلك التعبير الرائع ، المتزلف والمذنب والناعم الذى يرتسم على وجه الضابط عندما يجادلونه فى الموسيقى ، واية جهود يبذلها اثناء ذلك لكيلا يرن صوته بحماسة . ففى المجتمع الذى يعتبر فيه الترفع البارد واللامبالاة دلالة على حسن التربية والاخلاق الفاضلة لابد ان تدارى حماستك . وهو يداريه . لكنه لا يوفق فى ذلك ، فالجميع يعرفون جيدا انه يهوى الموسيقى بشغف . ان المناقشات التى لا تنتهى عن الموسيقى والاحكام الجريئة لغير الفاهمين من الناس ، تجعلانه فى توتر دائم فهو مفزع ، خجول ، وصموت . وهو يعزف على البيانو بصورة رائعة ، مثل اى عازف اصيل ، ولو لم يكن ضابطا لكان فى الغالب موسيقيا مشهورا .

وجفت دموعها . وتذكرت نادية ان جورنى قد صارحها بحبه فى حفل سيمفونى ، ثم بعد ذلك ، فى الطابق الارضى ، بجوار المشاجب ، حيث هبت تيارات الهواء من جميع النواحى .

«انا سعيدة جدا لانك اخيرا تعرفت على الطالب جروزديف – مضت تكتب – انه انسان ذكى جدا ولعلك ستعجب به . كان عندنا بالامس ومكث حتى الساعة الثانية . وقد انبهرنا به جميعا ، وتأسفت انك لم تأت . لقد حدثنا بالكثير من الاشياء الرائعة» .

عقدت نادية يديها فوق الطاولة واسندت اليهما رأسها فسقط شعرها وغطى الخطاب . وتذكرت ان الطالب جروزديف ايضا يحبها ، وان له من الحق فى رسالة منها مثلما لجورنى تماما . وبالفعل ، اليس من الافضل ان تكتب الى جروزديف ؟ وبلا اية اسباب دبت البهجة فى صدرها . . بدأت بهجة صغيرة تواثبت فى صدرها مثل كرة من المطاط ، ثم صارت اعرض واكبر وتدفقت كالموجة . ونست نادية جورنى ، وجروزديف ، واختلطت افكارها ، بينما اخذت البهجة تكبر وتكبر وتنساب من صدرها الى ذراعيها وساقيها ، وخيل اليها كأن نسمة رقيقة باردة هفت على رأسها فحركت شعرها . واهتزت كتفاها من الضحك الخافت ، واهتزت الطاولة وزجاجة المصباح ، وطفر الدمع من عينيها الى الخطاب . لم يكن بوسعها ان توقف ذلك الضحك ، ولكى تظهر لنفسها انها لا تضحك بدون سبب ، اسرعت تتذكر شيئا ما مضحكا .

– يا له من مضحك ذلك الكلب البودل ! – تمتمت وقد شعرت انها ستختنق من الضحك – ياله من مضحك ذلك البودل !

تذكرت كيف لاعب جروزديف ، بعد شرب الشاى بالامس ، الكلب البودل مكسيم ، ثم حكى لها عن بودل ذكى جدا لاحق فى الفناء غرابا ، فالتفت الغراب نحوه وقال :

– انت يا افاق !

ولم يكن الكلب يدرى ان امامه غرابا مدربا ، فارتبك بشدة ، وتراجع فى حيرة ، ثم عاد ينبح .

– كلا ، الافضل ان احب جروزديف – قررت نادية ومزقت الرسالة .

وراحت تفكر فى الطالب ، فى حبه ، وفى حبها ، لكن الذى حدث ان الافكار ساحت فى رأسها فاصبحت تفكر فى كل شىء : فى امها ، فى الشارع ، فى القلم ، فى البيانو . . فكرت ببهجة فوجدت ان كل شىء حسن ، رائع . واوحت اليها البهجة بان هذا ليس كل شىء بعد ، وانه عما قريب ستكون الامور اروع . قريبا يحل الربيع ، الصيف ، السفر مع والدتها الى «جوربيكى» ، وسيأتى جورنى فى فترة اجازته وسيتجول معها فى الحديقة ويحيطها باهتمامه . وسيجىء جروزديف ايضا ويلعب معها الكروكيت والكجل ، ويقص عليها اشياء مضحكة او

مدهشة . وانتابتها رغبة جارفة فى ان تجد نفسها فى الحديقة ، فى العتمة ، تحت السماء الصافية ، والنجوم . واهتزت كتفاها ثانية من الضحك ، وخيل اليها ان الغرفة تعبق برائحة الشيح ، وان غصنا قد احتك بالنافذة .

مشت نحو فراشها ، وجلست ، ودون ان تدرى ماذا تفعل ببهجتها التى أضنتها ، نظرت الى الايقونة المعلقة فوق ظهر سريرها وتمتمت :

– يا الهى ! يا الهى ! يا الهى !

١٨٩٢

عنبر رقم ٦

١

يقوم فى فناء المستشفى جناح صغير ، محاط بغابة من الارقطيون وحشائش القريص والقنب البرى . وسقفه صدىء ، ومدخنتـــــه تهدمت الى نصفها ، وتآكلت درجات المدخل الخشبية وغطاهـــا العشب ، ولم يبق من الطلاء غير آثار . وتطل واجهته الامامية عـلى المستشفى ، اما الخلفية فتطل على حقل يفصلها عنه سور المستشفى الرمادى ذو المسامير . وهذه المسامير باسنانها الى اعلى ، والسور ، والجناح نفسه تبدو بتلك الصورة الخاصة الموحشة اللعينة التى لا تجدها عندنا الا فى مبانى المستشفيات والسجون .

واذا كنت لا تخشى ان يلسعك القريص فلنمض عبر درب ضيق يفضى الى الجناح ، ولنلق نظرة على ما يدور بداخله . بعد ان نفتح اول باب ندلف الى المدخل . هنا تتكدس بجوار الجدران والفـــرن جبال من نفايات المستشفى . . مراتب وارواب قديمة ممزقة ، وسراويل وقمصان ذات خطوط زرقاء ، واحذية بالية لا جدوى منها . وقد كومت كل هذه الحثالة اكواما ، مجعدة ، مختلطة ، وتتحلل فتنبعث منها رائحة خانقة .

وعلى هذه النفاية يتمدد دائما الحارس نيكيتا والغليون بيـن اسنانه . وهو جندى متقاعد عجوز ذو اشرطة كالحة ، ووجه قاس غائر الخدين وحواجب كثة تضفى على وجهه تعبيرا تجعله اشبـه بكلب المراعى ، وانف احمر . وهو قصير القامة ، جسده ضامـــر ومعروق ، لكن هيئته مهيبة وقبضتيه ضخمتان . وهو ينتمى الى ذلك الطراز من الناس البسطاء ، الايجابيين المطيعين والبلـداء ، الذين يحبون النظام اكثر من اى شىء فى العالم ولذلك فهم على يقين

بانه ينبغى ضربهم . وهو يضرب فى الوجه ، وفى الصــــدر وفى الظهر ، وفى اى مكان ، ومتأكد بأنه لو لا هذا لما استتب النظام هنا .

وبعد ذلك تدخل غرفة كبيرة رحبة ، تشغل كل الجنــــاح اذا استثنينا المدخل . والجدران هنا ملطخة بدهان ازرق قذر ، والسقف سوده السناج كما فى المنزل الريفى الخالى من المدخنة مما يوضح ان المواقد ترسل دخانها هنا فى الشتاء ويصبح الجو خانقا . والنوافذ قد شوهت منظرها من الداخل قضبان حديدية . والارضية رمادية ومليئة بالشظايا وتفوح فى المكان رائحة الكرنب الحامض ودخـــان الفتيل والبق والنشادر ، وبسبب هذه الرائحة يخيل اليك للوهلة الاولى انك تدخل حظيرة حيوانات .

وتضم الغرفة اسرة مثبتة فى الارضية . ويجلس عليها او ينام اناس يرتدون ارواب المستشفى الزرقاء وطراطير على الطريقـــــة القديمة . انهم المجانين .

ومجموعهم هنا خمسة اشخاص . واحد منهم فقط نبيل الاصل اما البقية فمن الطبقة الوسطى . اولهم من ناحية الباب رجل طويـــل ، نحيل ، ذو شوارب حمراء لامعة ، وعينين باكيتين ، يجلس مسندا رأسه الى يده ويحدق فى نقطة واحدة . وهو حزين ليل نهار ، يهز رأسه ويتنهد ، ويبتسم بمرارة . ونادرا ما يشارك فى الاحاديث ، وعادة لا يرد على الاسئلة . ويأكل ويشرب بصورة آلية عندما يقدم له الاكل والشرب . ويبدو من سعاله المضنى الحاد ونحوله وتضرج وجنتيه انه قد بدأ يصاب بالسل .

والشخص التالى له عجوز صغير ، حى ، خفيف الحركة جدا ، ذو لحية قصيرة مدببة وشعر اسود مجعد كشعر الزنجى . وفى النهار يتجول فى العنبر من النافذة الى النافـــذة ، او يجلس فى سريره ، ضاما ساقيه تحته على الطريقة التركية ، ويصفر بلا كلل كطائـــر الثلج ، ويغنى ويقهقه بصوت خافت . وهو يبدى مرحه الطفولى وطبعه الحى فى الليل ايضا ، عندما ينهض ليصلى ، اى ليـــدق بقبضتيه على صدره وينقب باصبعه فى الابواب . انه اليهـــودى مويسيكا ، الابله ، الذى فقد صوابه منذ حوالى عشرين عاما ، عندما احترقت ورشته الخاصة بتفصيل الطواقى الفرو .

وهو الوحيد من بين نزلاء عنبر رقم ٦ الذى يسمح له بالخروج من الجناح ، بل ومن فناء المستشفى الى الشارع . وهو يتمتع بهذا الامتياز منذ زمن طويل ، ربما لانه من قدامى المرضى ، ولانه عبيط وديع لا يؤذى ، ومضحك المدينة الذى الف الناس رؤيتـــــه فى الشوارع محاطا بالصبية والكلاب . يسير عبر الشوارع فى روب قصير وطرطور مضحك وفى حذاء ، واحيانا حافى القدمين بل وحتى بدون سروال . ويتوقف عند الابواب والدكاكين ويستجدى كوبيكا . فيعطونه فى احد الاماكن كوبا من الكفاس * وفى مكان آخر خبزا ، وفى مكان ثالث كوبيكا ، فيرجع عادة الى الجناح شبعان وغنيا . ولكن نيكيتا يستولى على كل ما يحضره معه . يفعل ذلك بفظاظـة وغضب ، وهو يقلب جيوبه ويدعو الله شاهدا على انه لن يسمح بعد ذلك ابدا لليهودى بالخروج الى الشارع ، وعلى انه ليس هناك شىء اسوأ بالنسبة له من الفوضى .

وموسيكا يحب تقديم الخدمات ، فيجلب لزملائه الماء ، ويغطيهم وهم نيام ، ويعد بان يحضر لكل منهم كوبيكا من الخارج ويفصل لكل منهم طاقية فرو جديدة . ويطعم بالملعقة جاره الايسر المشلول . وهو لا يفعل ذلك بدافع العطف ، ولا لاية اعتبارات انسانية ، بـل تقليدا وخضوعا لجاره الايمن جروموف .

وايفان دميتريتش جروموف ، رجل فى حوالى الثالثة والثلاثين ، نبيل الاصل ، محضر محكمة سابق وسكرتير المحافظة ، يعانى مـن جنون الاضطهاد . فهو اما راقد فى سريره متكورا كالكعكة ، وامـــا يروح جيئة وذهابا من ركن الى ركن ، وكأنما يسير للتريض ، ولا يجلس الا نادرا جدا . وهو دائما مضطرب ، منفعل ومتوتر يؤرقه انتظار ما غامض وغير محدد . ويكفى ان يتردد حفيف فى المدخل او صيحة فى الفناء حتى يرفع رأسه ويصيخ السمع : أليسوا قادمين فى طلبه ؟ الا يبحثون عنه ؟ ويعبر وجهه فى هذه الحالة عن منتهى القلق والاشمئزاز .

يعجبنى وجهه العريض البارز الوجنتين ، الشاحب والبـــائس دائما ، والذى تنعكس فيه كما فى المرآة روحه التى عذبها الصراع

---

* مشروب غير كحولى يصنع من الخبز الاسود المخمر . **المعرب** .

والخوف الطويل . وحركات وجهه غريبة ومريضة ، بيد ان ملامحه الدقيقة التى خطها فى وجهه العذاب الصادق العميق ، حكيمة ومهذبة ، وفى عينيه بريق دافىء صحى . وهو نفسه يعجبنى ، فهو مؤدب ، خدوم ، مهذب بصورة غير عادية فى تعامله مع الجميع ما عدا نيكيتا . وعندما يسقط زر او ملعقة من شخص ما ، يقفز بسرعة من فراشه ويرفعها . وكل صباح يهنىء رفاقه بصباح الخير ، وعندما يأوى للنوم يتمنى لهم ليلة سعيدة .

وبالاضافة الى التوتر المستمر وتقلصات وجهه يتجلى جنونه كذلك فى التالى . فأحيانا فى المساء يلتف بروبه بينما جسده كله يرتعش واسنانه تصطك وهو يروح ويجىء من ركن لركن وبين الاسرة . وكان يبدو وكأنه مصاب بحمى شديدة . ومن توقفه المفاجىء وتحديقه فى رفاقه كان يلوح انه يريد ان يفضى بشىء هام للغاية ، ولكنه على ما يبدو يدرك ان احدا لن يصغى اليه او يفهمه ، فيهز رأسه بنفاد صبر ويواصل سيره . الا ان الرغبة فى الحديث سرعان ما تتغلب على شتى الاعتبارات ، فيطلق العنان لرغبته ويتكلم بحرارة وحماس . وحديثه مضطرب ، محموم ، كالهذيان ، غير مترابط وليس مفهوما دائما ، الا انك تسمع فى كلماته وصوته شيئا طيبا الى اقصى حد . وعندما يتحدث ترى فيه مجنونا وانسانا . ومن الصعب ان تنقل الى الورق حديثه المجنون . وهو يتحدث عن الوضاعة البشرية وعن الطغيان الذى ينتهك الحق ، وعن الحياة الرائعة التى ستكون على الارض بمضى الزمن ، وعن قضبان النوافذ التى تذكره كل لحظة ببلادة الطغاة وقسوتهم . ويتألف من ذلك خليط مشوش متنافر من الاغانى القديمة التى لم تكتمل بعد .

٢

منذ حوالى اثنتى عشرة او خمس عشرة سنة كان الموظف المحترم والميسور الحال جروموف يعيش فى المدينة فى منزله الخاص الواقع فى اهم الشوارع الرئيسية . وكان لديه ولدان ، سرجى وايفان . وقد مرض سرجى وهو طالب فى الصف الرابع بالسل وتوفى بسرعة ، وكأنما كانت هذه الوفاة بداية لسلسلة من المصائب

التى انهالت فجأة على اسرة جروموف . فبعد اسبوع من دفن سرجى قدم الاب العجوز للمحكمة بتهمة التزوير والاختلاس وسرعان ما توفى فى مستشفى السجن من التيفوس . وبيع المنزل وكل المنقولات بالمزاد العلنى ، واصبح ايفان دميتريتش هو ووالدته دون اى مصدر دخل .

وكان ايفان دميتريتش ، ووالده على قيد الحياة بعد ، يعيش سابقا فى بطرسبرج ، حيث كان يدرس فى الجامعة ، ويتقاضى ستين – سبعين روبلا فى الشهر ، ولا يدرى ما العوز . اما الآن فقد اضطر الى تغيير مجرى حياته تغييرا حادا . كان عليه ان يعطى من الصباح الى الليل دروسا بخسة ، ويزاول نسخ الكتب ، ومع ذلك يجوع ، لانه كان يرسل كل دخله الى امه لتعيش منه . ولم يستطع ايفان دميتريتش ان يتحمل هذه الحياة ، فانهارت معنوياته ، ومرض فهجر الجامعة ورحل الى داره . وفى هذه المدينة حصل بتوصية على وظيفة مدرس فى مدرسة مركز اقليمى ، ولكنه لم يوفق فى التعايش مع زملائه ولم يعجب الطلبة ، وسرعان ما ترك الوظيفة . ثم ماتت امه . وقضى نصف سنة بلا عمل وهو لا يذوق سوى الخبز والماء ، ثم التحق بوظيفة محضر محكمة . وظل فى هذه الوظيفة الى ان فصل بسبب المرض .

لم تكن تبدو عليه ابدا ملامح الصحة حتى فى سنى شبابه الدراسية . بل كان دائما شاحب الوجه ، نحيلا ، سريع الاصابة بالبرد وكان يأكل قليلا وينام نوما سيئا ، ومن كأس نبيذ واحدة يدور رأسه وتنتابه الهستيريا . كان دائما يميل الى معاشرة الناس ، ولكن بسبب عصبيته وارتيابه لم تربطه علاقة حميمة بأحد ولم يكن لديه اصدقاء . وكان يتحدث عن اهل المدينة دائما باحتقار ويقول ان جهلهم الفظ وحياتهم الحيوانية الناعسة تبدو له حقيرة ومقززة . وكان يتكلم بصوت «تينور» عال وبحرارة ، ولا يتحدث الا بغضب او استنكار ، او باعجاب ودهشة ، ولكن دائما بصدق . وايا كان الموضوع الذى تتحدث معه فيه فهو يحول الحديث الى شىء واحد : فالحياة فى المدينة خانقة مملة ، وليس لدى المجتمع اهتمامات سامية ، بل يحيا حياة كابية فارغة وينوعها بالطغيان والانحلال الفظ والنفاق . الاوغاد شبعى ومكتسون ، بينما يأكل

الشرقاء الفتات . لا بد من مدارس وجريدة محلية ذات اتجاه شريف ، ومسرح ، وحفلات القاء عامة وتلاحم القوى المستنيرة ، ينبغى ان يدرك المجتمع نفسه ويرتاع . وكان فى احكامه على الناس يضفى الوانا صارخة من الابيض والاسود فقط ولا يعترف بدرجات الالوان . وكانت البشرية لديه مقسمة الى شرفاء واوغاد ، وليس بينهما وسط . وكان يتحدث عن النساء والحب دائما بحماس واعجاب ، رغم انه لم يجرب الحب مرة .

ورغم حدة احكامه وعصبيته كانوا يحبونه فى المدينة ، ويدعونه فى غيابه فانيا * . وكان تهذيبه الموروث ، وروحه الخدوم ، واستقامته ونقاؤه الخلقى ، وسترته الرثة وهيئته المريضة ومصائبه العائلية تستدر شعورا طيبا دافئا وحزينا . وفوق ذلك فقد كان متعلما ومطلعا بصورة جيدة ، وحسب رأى اهل المدينة كان يعرف كل شيء وكان فى المدينة اشبه بكتاب دليل متنقل .

وكان يقرأ كثيرا جدا . كان يجلس طويلا فى النادى وهو يعبث بلحيته فى عصبية ويقلب المجلات والكتب ، وكان يبدو على وجهه انه لا يقرأ بل يزدرد حتى قبل ان يتمكن من المضغ . ولا بد ان القراءة كانت احدى عاداته المرضية ، لانه كان ينكب بنفس النهم على كل ما تقع عليه يداه ، حتى جرائد وتقويمات العام الماضى . وفى داره كان يقرأ دائما وهو راقد .

٣

ذات صباح خريفى ، سار ايفان دميتريتش عبر الحوارى والافنية الخلفية وهو يخوض فى الوحل وقد رفع ياقة معطفه ، قاصدا احد المواطنين ليتقاضى منه مبلغا مستحقا بأمر دفع . وكان مزاجه عابسا كما هو الحال دائما فى الصباح . وفى احدى الحارات قابل سجينين مكبلين بالاغلال ومعهما اربعة حراس ببنادق . وكان ايفان دميتريتش فى الماضى كثيرا ما يقابل المساجين ، وكل مرة كانوا يثيرون فيه مشاعر العطف والحرج ، اما اليوم فقد ترك هذا اللقاء فى نفسه

* تدليل من الاسم الكامل ايفان . **المعرب** .

انطباعا غريبا خاصا . فقد خيل اليه بغتة ولسبب ما انه ايضا يمكن ان يكبل بالاغلال ويساق فى الوحل الى السجن على هذا النحو . وبعد ان زار المواطن التقى فى طريق عودته عند البريد بمفتش شرطة يعرفه فحياه هذا ، وسار بجواره فى الشارع بضع خطوات ، ولسبب ما بدا له هذا مريبا . وفى البيت لازمته طوال اليوم صورة المساجين والحراس ذوى البنادق ، وعاقه عن القراءة والتركيز قلـــق نفسى غامض . وفى المساء لم يشعل الضوء ، ولم ينم طول الليل وهو يفكر فى انه قد يعتقل ويكبل ويلقى به فى السجن . وكان يعرف انه لم يرتكب ذنبا وبوسعه ان يضمن انه فى المستقبل ايضا لن يقتل ولن يحرق ولن يسرق ابدا . ولكن هل من العسير ان يرتكب المرء جريمة عن غير قصد ، بصورة عفوية ، وأليس الافتراء محتمــلا ، واخيرا الا يمكن ان تخطىء المحكمة ؟ وليس عبثا ان الخبرة الشعبية العريقة تقول : «ياما فى الحبس مظاليم» . وفى ظل نظام القضــاء الحالى فان الخطأ محتمل جدا وما اسهل ان يقع . فالاشخاص الذين لهم علاقة وظيفة او عمل بمآسى الآخرين ، كالقضاة ورجال الشرطة والاطباء مثلا ، يكتسبون بمضى الزمن وبحكم العادة مناعة الى درجة انهم لا يستطيعون – حتى لو شاءوا غير ذلك – الا ان يتعاملوا مع زبائنهم بصورة شكلية . ومن هذه الزاوية فهم لا يختلفون فى شىء عن الفلاح الذى يذبح الخراف والعجول فى الفناء الخلفى ولا يلاحظ الدماء . وفى ظل الموقف الشكلى المجرد من المشاعر تجاه الفرد ، لا يعود القاضى بحاجة الا لشىء واحد ، هو الزمن ، لكى يجرد الشخص البرىء من جميع حقوق الملكية ويحكم عليه بالاشغال الشاقـــــة . الزمن فقط ، لمراعاة بعض الاجراءات الشكلية التى يتقاضى القاضى راتبه مقابلها ، وبعدها ينتهى كل شىء . ولتبحث بعد ذلك عـــــن العدالة والحماية فى هذه المدينة الصغيرة القذرة ، على بعد مائتى فرسخ من السكة الحديدية ! ثم أليس من المضحك ان تفكر فى العدالة والمجتمع ينظر الى اى طغيان وكأنه ضرورة حكيمة معقولة ، بينما يثير اى عمل من اعمال الرحمة ، كالحكم بالبراءة مثلا ، تفجرا هائلا لمشاعر السخط والحنق ؟

نهض ايفان دميتريتش من فراشه فى الصباح مفزوعا ، والعرق البارد يغطي جبينه ، وقد اصبح واثقا تماما من انه قد يعتقل في

اية لحظة . وفكر فى نفسه بأنه اذا كانت افكار الامس المرهقة لم تفارقه هذه الفترة الطويلة فهذا يعنى ان فيها جانبا من الصحة . فلا يمكن بالفعل ان تراوده دون مبرر .

ومر شرطى على مهل بجوار النوافذ . هذا ليس صدفة . وها هما شخصان قد وقفا قرب المنزل فى صمت . لماذا يصمتان ؟

وحلت ايام وليال مضنية بالنسبة لايفان دميتريتش . كان يخيل اليه ان جميع المارين بجوار النوافذ والداخلين الى الفناء هم من الجواسيس والمخبرين . وكان المفتش يمر كل ظهيرة فى الشارع فى عربة بجوادين ، قادما من ضيعته فى الضاحية الى ادارة الشرطة ، ولكن كان يخيل الى ايفان دميتريتش فى كل مرة انه يسير بسرعة وبتعبير خاص على وجهه : يبدو انه يسرع ليبلغ انه قد ظهر فى المدينة مجرم خطير للغاية . وكان ايفان دميتريتش ينتفض كلما سمع الجرس او دقا على الباب ويشعر بالقلق كلما رأى لدى ربة البيت شخصا جديدا . وعندما يلقى رجال الشرطة والدرك يبتسم ويصفر لكى يبدو غير مبال . لم يكن ينام ليالى بأكملها فى انتظار القبض عليه ، ولكنه كان يشخر ويزفر بصوت عال كالنائم لكى تظن ربة الدار انه نائم . فعدم النوم يعنى ان ضميره يعذبه ، فيا له من دليل ! وكانت الحقائق والمنطق السليم تؤكد له ان كل هذه المخاوف هراء وسيكوباتية ، وان الاعتقال والسجن ، اذا نظرنا الى الامر نظرة اشمل ، ليس فيهما ما يخيف فى الواقع طالما كان ضمير المرء مستريحا . بيد انه كلما فكر بمزيد من التعقل والحكمة ازداد قلقه النفسى شدة وعذابا . وكان ذلك اشبه بالناسك الذى اراد ان يقتطع لنفسه مكانا فى غابة عذراء ، فكلما اعمل فأسه بهمة ، ازدادت الغابة كثافة ونموا . وعندما ادرك ايفان دميتريتش فى النهاية ان كل ذلك لا طائل منه ، ترك عنه التفكير واستسلم تماما لليأس والخوف .

وبدأ ينطوى ويتجنب الناس . وعمله ، الذى كان يمقته سابقا اصبح الآن لا يطاق . كان يخشى ان يدبروا له مكيدة ما ، ان يضعوا فى جيبه رشوة بصورة غير ملحوظة ثم يضبطونه متلبسا بعد ذلك ، او ان يرتكب هو نفسه فى الاوراق الحكومية خطأ عفويا يرقى الى منزلة التزوير ، او ان يضيع نقود العهدة . ومن الغريب ان خياله

لم يكن ابدا مرنا وخصبا كما هو الآن ، اذ كان يتفتق كل يوم عن آلاف الحجج المختلفة التى تجعله يخاف على مصيره وشرفه . ولكن فى مقابل ذلك ضعف الى حد كبير اهتمامه بالعالم الخارجى ، وخاصة بالكتب ، واصبحت ذاكرته تخونه كثيرا .

وفى الربيع ، عندما ذاب الثلج وانحسر ، اكتشفت فى الغور المجاور للمقابر جثتا امرأة عجوز وصبى وبهما آثار وفـــاة غير طبيعية . ولم يعد الحديث يدور فى المدينة الا عن هاتين الجثتين والقتلة المجهولين . ولكى لا يظن احد ان ايفان دميتريتش هـــو القاتل ، اخذ يسير فى الشوارع مبتسما ، وعندما يلتقى بمعـارف يشحب وجهه ثم يتضرج ، ويروح يؤكد انه ليس هناك جريمة اشد دناءة من قتل الضعفاء والمساكين . ولكن هذا الكذب سرعان مـــا ارهقه ، وبعد قليل من التفكير قرر ان افضل شىء له فى وضعه هذا ان يختبىء فى قبو ربة الدار . ومكث فى القبو نهارا وليلـــة ونهارا آخر ، وبرد بشدة فانتظر حلول الظلام ثم صعد خفيـة الى غرفته كاللص . ووقف حتى الفجر فى وسط الغرفة بلا حراك وهو يصيخ السمع . وفى الصباح الباكر ، قبل شروق الشمس جاء البناءون الى ربة الدار . وكان ايفان دميتريتش يعلم جيدا انهم جاءوا ليعيدوا بناء الفرن فى المطبخ ، ولكن الخوف صور له انهم رجال شرطـــة متنكرون فى زى بنائين . فخرج من الشقة فى هدوء وبدون سترة او غطاء رأس وقد استولى عليه الرعب ، وركض فى الشـــارع . وانطلقت وراءه الكلاب وهى تنبح ، وصاح خلفه شخص ما ، وصفرت الريح فى اذنيه ، وخيل لايفان دميتريتش ان طغيان العالم كله قد تجمع وراءه يطارده .

وامسكوا به واعادوه الى المنزل وارسلوا ربة الدار لاستدعاء الطبيب . واوصى الطبيب اندريه يفيمتش الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، بكمادات باردة على الرأس وبقطرات الغار والكرز ، وهز رأسه فى اسى وانصرف بعد ان قال لربة الدار انه لن يعوده بعد ذلك لانه لا ينبغى اعاقة الناس عن الجنون . ولما لم يكن لدى ايفـــــان دميتريتش فى المنزل ما يعيش ويتعالج به فقد ارسلـــوه الى المستشفي ووضعوه هناك فى عنبر الامراض الجنسية . ولم ينـــم

الليالى وهو يتأفف ويزعج المرضى ، وسرعان ما نقلوه بأمر اندريه يفيميتش الى عنبر رقم ٦ .
وبعد عام نسى اهالى المدينة ايفان دميتريتش تماما ، اما كتبه التى كومتها ربة الدار فى المدخل تحت الرف فقد بددها الصبيان .

٤

كان جار ايفان دميتريتش الايسر ، كما قلت ، هو اليهودى مويسيكا ، اما جاره الايمن ففلاح غطاه الشحم ، مستدير تقريبا ، ذو وجه بليد لا يعبر عن اى شىء . كان ذلك حيوانا عديم الحركة ، شرها ، قذر الجسد ، فقد منذ امد بعيد القدرة على التفكير والاحساس . وكانت تنبعث منه باستمرار رائحة عفونة حادة خانقة .
وكان نيكيتا ، الذى ينظف له مكانه ، يضربه بفظاعة وبكل قوته ، غير مشفق على قبضتيه . ولم يكن المرعب فى الامر انهم يضربونه ، فهذا يمكن التعود عليه ، وانما المرعب ان هذا الحيوان البليد لم يكن يند عنه اثناء الضرب صوت او حركة او نظرة . بل كان يتمايل قليلا فحسب ، كبرميل ثقيل .
اما النزيل الخامس والاخير فى عنبر رقم ٦ فكان من الطبقة الوسطى يعمل فى وقت ما فرازا فى البريد ، وكان صغيرا ، نحيلا ، اشقر ذا وجه طيب ولكنه ماكر بعض الشىء . ويبدو من عينيه الذكيتين الهادئتين اللتين تطل منهما نظرة صافية مرحة انه حريص ، ويحتفظ بسر هام للغاية وسار . ولديه تحت المرتبة شىء ما لا يريه لاحد ، لا خوفا من ان يخطفوه منه او يسرقوه ، بل خجلا . واحيانا يقترب من النافذة ، ويولى ظهره لرفاقه ، ويرتدى شيئا ما على صدره ويتطلع وقد احنى رأسه . واذا اقترب منه احد فى تلك اللحظة يرتبك وينزع شيئا ما عن صدره . بيد انه ليس من الصعب معرفة سره .
وكثيرا ما يقول لايفان دميتريتش :
— هنئنى ، لقد رشحت لوسام ستانيسلاف من الطبقة الثانية وبنجمة . الطبقة الثانية بالنجمة لا يمنح الا للاجانب ولكنهم لسبب ما يريدون تقديم هذا الاستثناء لى — ويبتسم ويهز كتفيه مستغربا — اصارحك لم اكن اتوقع هذا !

فيقول ايفان دميتريتش بتجهم :
– انا لا افهم شيئا فى هذه الامور .
فيستطرد الفراز السابق وهو يزر عينيه بمكر :
– ولكن اتدرى ما الذى سأبلغه عاجلا ام آجلا ؟ سوف احصل حتما على «النجم القطبى» السويدى . انه وسام يستحق ان تسعى من اجله . صليب ابيض وشريط اسود . انه جميل جدا .

وربما لا تسير الحياة فى اى مكان آخر بمثل هذه الرتابة كما فى الجناح . ففى الصباح يغتسل المرضى ، ما عدا المشلول والفلاح السمين ، فى الردهة من وعاء كبير ويجففون وجوههم بذيول اروابهم . وبعد ذلك يشربون فى اكواز معدنية الشاى الذى يأتى به نيكيتا من المبنى الرئيسى . ويخص كلا منهم كوز واحد . وفى منتصف النهار يتناولون حساء من الكرنب الحامض وعصيدة ، وفى المساء يتعشون بالعصيدة المتبقية من الغداء . وبين ذلك يستلقون وينامون ويتطلعون من النوافذ ويسيرون من ركن الى ركن . هكذا كل يوم . وحتى الفراز السابق يتحدث دائما عن الاوسمة نفسها .

ونادرا ما يرى احد حديث فى عنبر رقم ٦ . فالدكتور لم يعد من زمن طويل يقبل مجانين جددا ، اما هواة زيارة مستشفيات المجانين فقليلون فى هذا العالم . ومرة كل شهرين يأتى الحلاق سيميون لازريتش الى الجناح . ولن نروى هنا كيف يحلق للمجانين ، وكيف يعاونه نيكيتا فى ذلك ، ومدى الاضطراب الذى يعترى المرضى فى كل مرة يظهر فيها الحلاق الثمل المبتسم .

وبخلاف الحلاق لا يزور الجناح احد . لقد حكم على المرضى الا يروا يوما بعد يوم غير نيكيتا .

بيد انه ترددت فى مبنى المستشفى منذ فترة قريبة شائعة غريبة الى حد كبير .

لقد قيل ان الدكتور اخذ يتردد على عنبر رقم ٦ .

٥

شائعة غريبة !

فالدكتور اندريه يفيميتش راجين انسان رائع من نوعه ، ويقال انه كان فى صباه شديد التدين ويعد نفسه للخدمة الدينية ، وانه

بعد ان انهى الدراسة فى المدرسة عام ١٨٦٣ كان يعتزم الالتحاق بالاكاديمية الدينية ، ولكن اباه ، الدكتور الجراح ، سخر منه سخرية لاذعة ، واعلن له بشكل قاطع انه لن يعتبره ابنا له اذا ما اصبح قسيسا . ولست ادرى ما مدى صحة ذلك ، ولكن اندريه يفيميتش نفسه اعترف غير مرة انه لم يشعر ابدا بميل للطب وللعلوم المتخصصة بشكل عام .

وايا كان الامر فبعد ان تخرج من كلية الطب لم يصبح قسيسا . ولم يبد عليه تدين خاص ، وكان فى بداية حياته العملية قليل الشبه برجل الدين ، مثلما هو الآن ايضا .

كانت هيئته ثقيلة ، خشنة ، كهيئة فلاح . وكان بوجهه ولحيته وشعره المسطح وبدنه القوى غير المتناسق اشبه بصاحب حانة على طريق رئيسى ، متخم ، متهور ، وحاد الطباع . كان وجهه قاسيا ، مغطى بعروق زرقاء ، وعيناه صغيرتين وانفه احمر . والى جانب قامته الطويلة وكتفيه العريضتين كان ضخم الساقين واليدين ، حتى ليخيل اليك انه لو لكم لكمة لازهق الروح . ولكن وقع خطواته كان خفيفا ومشيته حذرة ، متلصصة ، وعندما يقابل احدا فى ممشى ضيق يبادر الى التوقف ليفسح الطريق ، ويقول لا بصوت غليظ كما تتوقع ، بل بصوت رفيع لين : «اسف» . وفى رقبته ورم صغير يعوقه عن ارتداء الياقات المنشاة الصلبة ، ولذلك يرتدى دائما قميصا ناعما من الكتان او الشيت . وعموما فهندامه ليس هندام دكتور . فهو يلبس نفس البدلة حوالى عشر سنوات ، اما الملابس الجديدة التى يبتاعها عادة فى متجر يهودى فتبدو عليه مستعملة ومجعدة كملابسه القديمة . وكان فى السترة نفسها يستقبل المرضى ويتناول الغداء ويزور المعارف . ولم يكن ذلك بسبب البخل ، بل لعدم اهتمامه بمظهره على الاطلاق .

وعندما وصل اندريه يفيمتش الى المدينة ليتسلم عمله كان المستشفى فى حالة فظيعة . كان من الصعب ان تتنفس فى العنابر والطرقات وفناء المستشفى من العفونة . وكان خدم المستشفى والمربيات واولادهم ينامون فى العنابر مع المرضى . وتعالت الشكوى من الصراصير والبق والفئران . وفى قسم الجراحة لم ينقطع مرض الحمرة ولم يكن فى المستشفى كلها سوى مشرطين وليس بها

ترمومتر واحد . وكانوا يحفظون البطاطس فى احواض البانيو . وكان المشرف وامينة مخزن الملابس والحكيم يسرقون المرضى ، وقيل ان الدكتور العجوز ، سلف اندريه يفيميتش كان يمارس سرا بيع كحول المستشفى ، وكون لنفسه حريما كاملا من المربيات والمريضات . وكانوا يعرفون فى المدينة هذه الفوضى تمام المعرفة بل ويبالغون فى وصفها ، لكنهم نظروا اليها بهدوء . كان البعض يبررها بان المستشفى لا ينزل به سوى متوسطى الحال والفلاحين ، وهؤلاء لا يمكن ان يكونوا غير راضين لان حياتهم فى المنزل اسوأ بكثير من المستشفى ، ومن غير المعقول ان تقدم لهم الديوك البرية ! ويبررها البعض الآخر بان المدينة وحدها ، دون مساعدة مجلس الاقليم ، غير قادرة على تأمين مستشفى جيد ، والحمد لله ان لدينا مستشفى حتى لو كان سيئا . اما مجلس الاقليم فلم يفتح مستشفى لا فى المدينة ولا قربها تذرعا بان للمدينة مستشفاها .

وبعد ان تفقد اندريه يفيميتش المستشفى توصل الى استنتاج بان هذه المؤسسة لااخلاقية ومضرة الى اقصى حد بصحة النزلاء . وكان من رأيه ان اصوب ما يمكن عمله هو اطلاق سراح المرضى واغلاق المستشفى . ولكنه ادرك ان ارادته وحدها لا تكفى لذلك وانه لا فائدة من هذا ؛ فاذا ازيلت القذارة الجسدية والخلقية من مكان فسوف تنتقل الى مكان آخر . . . ينبغى الانتظار الى ان تتبخر بنفسها . وعلاوة على ذلك فاذا كان الناس قد افتتحوا مستشفى ويتحملون بقاءه لديهم فمعنى ذلك انهم بحاجة اليه . فالخزعبلات وكل هذه الوضاعة والحقارة المعيشية مطلوبة لانها بمضى الزمن تتحول الى شىء مفيد ، كما يتحول الروث الى سماد . وليس هناك فى الدنيا شىء طيب الا وكان فيه شىء حقير فى اصله .

ويبدو ان اندريه يفيميتش ، بعد ان تسلم الوظيفة ، نظر الى تلك الفوضى نظرة لامبالية الى حد كبير . ولم يفعل سوى ان طلب من خدم المستشفى والمربيات الا يبيتوا فى العنابر ، ووضع صوانين بهما ادوات جراحة . اما المشرف وامينة مخزن الملابس والحكيم ومرض الحمرة فقد ظلوا فى اماكنهم .

واندريه يفيميتش يهوى للغاية الحكمة والشرف ، بيد انه لا يملك من الارادة والايمان بحقه ما يكفى لكى يجعل الحياة من حوله

حكيمة وشريفة . وهو لا يجيد ابدا اصدار الاوامر والمنع والاصرار .
وكأنه قطع على نفسه عهدا بألا يرفع صوته ابدا والا يستخدم
صيغة الامر . ومن الصعب عليه ان يقول «اعطنى» او «هات» .
وعندما يريد ان يأكل ، يسعل بتردد ويقول للطاهية : «لو امكن
شاى . . .» او «لو امكن ان اتغدى» . وان يقول للمشرف بان
يكف عن السرقة ، او ان يطرده، او يلغى تماما هذه الوظيفة التى
لا داعى لها ، فهذا امر لا يقوى عليه ابدا . وعندما يخدعون اندريه
يفيميتش او يتملقونه ، او يقدمون له حسابا مزورا عمدا ليوقع
عليه فانه يحمر كسرطان البحر ، ويحس بنفسه مذنبا ، بيد
انه يوقع الحساب . وعندما يشكو له المرضى من الجوع او من
فظاظة المربيات ، يخجل ويدمدم بنبرة اعتذار :
— حسنا ، حسنا ، سأنظر فى ذلك فيما بعد . . . يبدو ان
هناك سوء فهم . . .

وفى الايام الاولى عمل اندريه يفيميتش باجتهاد كبير . كان
يستقبل المرضى كل يوم من الصباح الى الظهر ، ويجرى العمليات
الجراحية، بل ويمارس التوليد . وقالت عنه النساء انه معتن ويخمن
الامراض بصورة ممتازة وخاصة امراض الاطفال والنساء . ولكن
بمرور الزمن سئم العمل بشكل ملحوظ لرتابته وعدم جدواه
الواضح . فاليوم تستقبل ثلاثين مريضا ، واذا بك تستقبل غدا
خمسة وثلاثين ، وبعد غد اربعين ، وهكذا يوما بعد يوم ، وعاما بعد
عام ، بينما نسبة الوفيات فى المدينة لا تقل ، ولا يكف المرضى عن
المجىء . وليس هناك امكانية بدنية لمساعدة اربعين مريضا مساعدة
جدية من الصباح حتى الظهر ، اذن فالنتيجة محض خداع رغما عنك .
ويكتب فى التقرير السنوى انه تم الكشف على اثنى عشر الف مريض
خارجى ، اى ببساطة تم خداع اثنى عشر الف شخص . كذلك فمن
المستحيل وضع المرضى الخطرين فى العنابر ومعالجتهم حسب القواعد
العلمية لان القواعد موجودة اما العلم فغير موجود . واذا ما تركنا
الفلسفة جانبا واتبعنا القواعد بدقة ، كما يفعل اطباء آخرون ، فلا
بد اولا من توفر النظافة والتهوية لا القذارة ، والغذاء السليم لا
حساء الكرنب الحامض الكريه الرائحة ، والمعاونين الجيدين لا
اللصوص .

وعموما فلماذا نمنع الناس من ان يموتوا طالما ان الموت هو النهاية الطبيعية المشروعة لكل انسان ؟ وما جدوى ان يعيش تاجر او موظف خمسة او عشرة اعوام زيادة ؟ واذا اعتبرنا ان هدف الطب هو ان تخفف الادوية الآلام فان السؤال الذى يثور لاراديا هو : وما الداعى لتخفيفها ؟ فاولا : يقال ان الآلام تفضى بالانسان الى الكمال ، وثانيا : لو ان البشرية تعلمت بالفعل ان تخفف آلامها بالحبوب والقطرات ، فسوف تهجر تماما الدين والفلسفة ، اللذين وجدت فيهما حتى الان لا مجرد الحماية من شتى المصائب ، بل والسعادة كذلك . لقد عانى بوشكين قبل موته عذابا رهيبا ، وهاينى المسكين رقد مشلولا عدة سنوات ، فلماذا لا يمرض من يدعى اندريه يفيميتش او ماتريونا سافيتشنا ، اللذان تعتبر حياتهما تافهة ، ولولا الآلام لاصبحت فارغة تماما كحياة الاميبا ؟

واثقلت هذه الافكار على اندريه يفيميتش فتراخى ولم يعد يتردد على المستشفى كل يوم .

٦

تسير حياته على النحو التالى . يستيقظ عادة فى الثامنة صباحا ، فيرتدى ملابسه ويتناول الشاى . ثم يجلس الى مكتبه ليقرأ او يذهب الى المستشفى . وهنا ، فى المستشفى ، وفى طرقة ضيقة مظلمة يجلس المرضى الخارجيون فى انتظار الكشف . ومن جوارهم يهرول الخدم والمربيات وهم يدقون باحذيتهم على الارضية الحجرية ، ويمر المرضى الهزالى فى اردية المستشفى . وينقل الموتى والاوعية بالفضلات ، ويبكى الاطفال ، وتهب تيارات الهواء . واندريه يفيميتش يعلم ان هذا الوضع بالنسبة للمرضى بالحمى والمسلولين ، وعموما للمرضى السريعى التأثر ، وضع معذب ، ولكن ما العمل ؟ ويقابله فى غرفة الاستقبال الحكيم سرجى سرجيتش ، وهو رجل صغير بدين ، ذو وجه نظيف حليق مكتنز ، وحركات ناعمة انسيابية ، وفى حلة جديدة فضفاضة ، ويبدو اكثر شبها بسناتور منه بحكيم . وله فى المدينة زبائن لا حد لهم ، وهو يضع ربطة عنق بيضاء ويعتبر نفسه اكثر الماما من الدكتور الذى ليس لديه

اى زبائن . وفى ركن غرفة الاستقبال ايقونة كبيرة فى اطار وقنديل ثقيل ، وبالقرب منها حامل فى غلاف ابيض . وعلى الجدران صور الاساقفة ومنظر لدير سفيتاجورسك واكاليل من الزهور البرية الجافة . وسرجى سرجيتش رجل متدين يحب الرونق والجلال . وقد وضع الايقونة على نفقته . وفى الآحاد يتلو احد المرضى بامر منه الدعاء بصوت مسموع ، وبعد التلاوة يقوم سرجى سرجيتش بنفسه بالمرور على جميع العنابر بالمبخرة وهو يطلق البخور .

ولكثرة المرضى وقلة الوقت يقتصر الامر على سؤال سريع للمريض واعطائه دواء ما ، مرهم مثلا او شربة زيت الخروع . ويجلس اندريه يفيميتش معتمدا بخده على قبضته ومستغرقا فى التفكير ويوجه الاسئلة آليا . وسرجى سرجيتش جالس ايضا يفرك يديه ويتدخل احيانا قائلا :

– نمرض ونعانى من الفقر لاننا لا نصلى للرب الرحيم جيدا . نعم !

واثناء الكشف لا يجرى اندريه يفيميتش اية عمليات جراحية ، فقد نسى كيف يقوم بها منذ زمن بعيد واصبح منظر الدماء يثير فيه اضطرابا كريها . وعندما يضطر الى فتح فم طفل لينظر فى حلقه بينما يصرخ الطفل ويحمى نفسه بيديه ، يدور رأسه من الطنين فى اذنيه وتدمع عيناه . ويسارع الى كتابة الدواء ويشيح بيديه لكى تنصرف المرأة بالطفل سريعا .

واثناء الكشف سرعان ما يمل من وجل المرضى وقلة حيلتهم ، ومن وجود سرجى سرجيتش الجليل بقربه ، ومن الصور المعلقة على الجدران ، ومن اسئلته هو التى يوجهها دون تغيير منذ حوالى عشرين سنة . فينصرف بعد الكشف على خمسة او ستة مرضى . اما البقية فيكشف عليهم الحكيم .

ويعود اندريه يفيميتش الى المنزل بفكرة سارة وهى انه والحمد لله لم يعد يملك عيادة خاصة منذ زمن بعيد ، ومن ثم فلن يزعجه احد ، فيجلس على الفور فى غرفة المكتب ويشرع فى القراءة . وهو يقرأ كثيرا وباستمتاع كبير دائما . وينفق نصف راتبه فى شراء الكتب ، وتغص ثلاث حجرات فى شقته المكونة من ست غرف بالكتب والمجلات القديمة . ويهوى اكثر شىء كتب التاريخ



والفلسفة ، اما فى الطب فلا يشترك سوى فى مجلة «الطبيب» التى يبدأ قراءتها دائما من آخر صفحة . ويستمر فى القراءة كل مرة عدة ساعات بدون راحة ولا يتعب . وهو لا يقرأ بتلك السرعة والاندفاع مثلما كان يقرأ ايفان دميتريتش فى وقت ما ، بل ببطء وتمعن . وكثيرا ما يتوقف عند المواضع التى تعجبه او التى لا يفهمها . وبجوار الكتاب يوجد دائما ابريق فودكا وخيارة مملحة او تفاحة مخللة موضوعة على جوخ المكتب مباشرة بدون طبق . وكل نصف ساعة يصب لنفسه قدح فودكا ، وهو لا يحول عينيه عن الكتاب ، ويشربه ، ودون ان ينظر يتحسس الخيارة ويقضم منها قطعة .

وفى الساعة الثالثة يقترب من باب المطبخ بحذر ويسعل ثم يقول :

– يا داريوشكا ، لو امكن ان اتغدى . . .

وبعد الغداء السيىء والكريه يتجول اندريه يفيميتش فى غرف شقته وقد عقد ذراعيه على صدره وراح يفكر . وتدق الساعة الرابعة ، ثم الخامسة بينما لا يزال يتجول ويفكر . واحيانا يصر باب المطبخ ، ويطل منه وجه داريوشكا الاحمر الناعس . وتسأله بقلق :

– يا اندريه يفيميتش ، الم يحن الوقت لتناول البيرة ؟

فيرد :

– كلا ، ليس بعد . . . سأنتظر . . . سأنتظر . . .

ويأتى عادة فى المساء مدير مكتب البريد ميخائيل افيريانيتش ، الانسان الوحيد فى المدينة كلها الذى لا تثقل صحبته على اندريه يفيميتش . كان ميخائيل افيريانيتش فى وقت ما اقطاعيا غنيا جدا يخدم فى سلاح الفرسان ، ولكنه افلس ، واضطره العوز الى الالتحاق بادارة البريد وهو فى شيخوخته . وكان ذا هيئة نشطة صحيحة ، وسالفين اشيبين فاخرين ، وحركات مهذبة وصوت جهورى لطيف ، وهو انسان طيب ، حساس ولكنه سريع الغضب . وعندما يحتج احد زوار مكتب البريد ويبدى عدم موافقته او حتى يشرع فى النقاش يتضرج وجه ميخائيل افيريانيتش بحمرة قانية ، ويرتعش بدنه كله ويصرخ بصوت كالرعد : «اخرس !» ، حتى ان مكتب البريد اكتسب منذ امد طويل سمعة المؤسسة المرعبة لمن يزورها .

وميخائيل افيريانيتش يحترم اندريه يفيميتش ويحبه لثقافته ونبل اخلاقه ، اما الاخرون فينظر اليهم بتعال ، نظرته الى مرؤوسيه .
ويقول وهو يدخل على اندريه يفيميتش :
– ها انذا ! مرحبا يا عزيزى ! اظن اننى قد اثقلت عليك ، هه ؟
فيرد الدكتور :
– بالعكس ، انا سعيد جدا . انا دائما اسعد برؤياك .
ويجلس الصديقان فى غرفة المكتب على كنبة ، ويدخنان فى صمت بعض الوقت .
ثم يقول اندريه يفيميتش :
– يا داريوشكا ، لو امكن بيرة . . .
ويشربان الزجاجة الاولى ايضا فى صمت . . يشرب الدكتور مستغرقا فى التفكير ، وميخائيل افيريانيتش فى هيئة مرحة متهللة كالشخص الذى لديه قصة مشوقة جدا سيرويها . والدكتور هو الذى يبدأ الحديث دائما .
– مما يؤسف له – يقول ببطء وصوت خافت وهو يهز رأسه ولا يتطلع الى عينى محدثه (وهو لا ينظر ابدا فى العينين) – مما يؤسف له اشد الاسف يا ميخائيل افيريانيتش المحترم ، انه لا يوجد فى مدينتنا على الاطلاق اناس يستطيعون ويحبون ان يتحدثوا حديثا ذكيا شيقا . هذه خسارة كبيرة لنا . حتى المثقفون لا يرقون فوق مستوى الوضاعة . اؤكد لك ان مستوى رقيهم لا يعلو ابدا على مستوى الطبقة الدنيا .
– صحيح تماما . انا متفق معك .
ويستطرد الدكتور بصوت خافت وبتمهل :
– انت نفسك تعلم ان كل شىء فى هذه الدنيا تافه وممل باستثناء اسمى مظاهر العقل الانسانى . فالعقل يضع فاصلا حادا بين الحيوان والانسان ملمحا الى الوهية الاخير ، والى حد ما يعوضه عن الخلود الذى لا وجود له . وانطلاقا من هذا يصبح العقل المصدر الوحيد المتاح للمتعة . اما نحن فلا نسمع ولا نرى من حولنا العقل ، فاذن نحن محرومون من المتعة . صحيح ان لدينا كتبا ، ولكن ذلك يختلف تماما عن الحديث الحى والتخاطب . واذا سمحت لى ان الجأ

الى تشبيه غير موفق تماما فان الكتب هى النوتة ، اما الحديث فهو الغناء .

– صحيح تماما .

ويسود الصمت . وتخرج داريوشكا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن بليد ، وتعتمد على قبضتها بوجهها وتقف فى الباب لكى تسمع .

ويتنهد ميخائيل افيريانيتش قائلا :

– ايه ! اتريد عقلا من هؤلاء !

ثم يروح يتحدث عن ان الحياة فى الماضى كانت رائعة ومرحة وشيقة ، وكم كان المثقفون فى روسيا اذكياء ، وكم كانوا يقدرون تقديرا عاليا مفاهيم الشرف والصداقة . كانوا يقرضون النقود دون ايصال ، وكان يعد من العار الا تمد العون لرفيق محتاج – ويا للرحلات ، والمغامرات ، والمصادمات ، ويا للرفاق ويا للنساء ! والقوقاز . . يا له من بقعة مدهشة ! وهناك زوجة قائد احدى الكتائب ، امرأة غريبة ، كانت ترتدى زى الضباط وتصعد الجبال فى المساء وحدها ، دون دليل . ويقال انها كانت على علاقة غرامية باحد الامراء الصغار فى القرى الجبلية .

فتتنهد داريوشكا قائلة :

– ايتها السيدة العذراء ، الرحمة . . .

– وكيف كانوا يشربون ! كيف كانوا يأكلون ! واى ليبراليين جسورين كانوا بينهم !

ويصغى اندريه يفيميتش اليه ولا يسمع ، فهو يفكر فى شىء ما ويجرع البيرة . ويقول فجأة مقاطعا ميخائيل افيريانيتش :

– كثيرا ما ارى فى الحلم اناسا اذكياء وانا اتحدث معهم . لقد منحنى ابى تعليما ممتازا ، ولكنه ، تحت تأثير افكار الستينات ، اجبرنى ان اصبح طبيبا . ويخيل الى اننى لو لم اطاوعه آنذاك لكنت الآن فى قلب الحركة الفكرية . وربما كنت منضما الى عضوية كلية ما . العقل بالطبع شىء غير خالد بل زائل ، ولكنك تعلم الآن لماذا اشعر بالميل اليه . فالحياة فخ محزن . وعندما يحقق الشخص المفكر فرصته ويبلغ وعيه درجة النضج ، يحس بنفسه لاارادیا وكأنه قد وقع فى فخ لا مهرب منه . وبالفعل ، فقد جاء الى الحياة

من العدم رغم ارادته بفعل عوامل عارضة . . . فلماذا ؟ انه يريد ان يعرف مغزى وهدف وجوده فلا يقال له ، او تقال له حماقات . ويدق الباب فلا يفتح له احد . ويأتيه الموت . . ايضا رغم ارادته . وهكذا ، كما فى السجن ، عندما يشعر الاشخاص الذين جمعتهم المأساة المشتركة بنوع من الارتياح عندما يجتمعون معا ، كذلك فى الحياة ، لا يحس الاشخاص الميالون الى التحليل والتعميم بوجود الفخ عندما يجتمعون معا ويقضون الوقت فى تبادل الافكار الحرة الابية . وبهذا المعنى يعتبر العقل متعة لا بديل لها .

– صحيح تماما .

ويمضى اندريه يفيميتش ، دون ان يتطلع فى عينى محدثه ، فى الحديث بصوت خافت مع فواصل صمت عن الاشخاص الاذكياء والحديث معهم ، بينما يصغى ميخائيل افيريانيتش اليه بانتباه ويصدق على ما يقول : «صحيح تماما» .

وفجأة يسأل مدير البريد :

– الا تؤمن بخلود الروح ؟

– كلا ، يا ميخائيل افيريانيتش الموقر ، لا أومن ، وليس لدى سند للايمان .

– اصارحك بأنى ايضا اشك . ومع ذلك فلدى احساس بأنى لن اموت ابدا . واحيانا اقول لنفسى : ايه ايها العجوز لقد حان الوقت لتموت ! ولكن صوتا فى داخلى يقول : لا تصدق ، لن تموت ! . .

وفى بداية الساعة العاشرة ينصرف ميخائيل افيريانيتش . ويقول متنهدا وهو يرتدى معطفه فى المدخل :

– انظر الى اى ركن مجهور القت بنا الاقدار ! اكثر ما يحزن اننا سنموت هنا . ايه ! . .

٧

بعد ان يودع اندريه يفيميتش صديقه يجلس الى الطاولة ويشرع فى القراءة ثانية . ولا يعكر صمت المساء ثم بعد ذلك صمت الليل اى صوت ، ويبدو وكأن الزمن قد توقف وتسمر مع الدكتور فوق الكتاب ، ويبدو وكأنما لا يوجد شىء غير هذا الكتاب والمصباح

ذى الغطاء الاخضر ، وشيئا فشيئا يتهلل وجه الدكتور الخشن الفلاحى بابتسامة هيام واعجاب بحركة العقل الانسانى . ويقول لنفسه : اوه ، لِمَ لا يكون الانسان خالدا ؟ وما الداعى لمراكز المخ وتجاعيده ، ما الداعى للبصر والكلام والاحساس والعبقرية ، اذا كان مقدرا لكل هذا ان يواريه التراب ويبرد فى النهاية مع قشرة الارض ، ثم يدور بعد ذلك ملايين السنين حول الشمس بلا معنى ولا غاية ؟ فلكى يبرد ثم يدور بعد ذلك ، لا داعى ابدا لاستخراج الانسان من العدم بعقله السامى الذى يكاد يكون عقل اله ، ثم تحويله بعدها الى تراب وكأنما سخرية به .

التمثيل الغذائى ! ولكن يا له من جبن ان يعزى المرء نفسه ببديل الخلود هذا ! ان العمليات غير الواعية التى تجرى فى الطبيعة هى ادنى قدرا حتى من الحماقة الانسانية ، لان الحماقة فيها مع ذلك وعى وارادة ، بينما ليس فى العمليات ادنى شىء . ان الجبان وحده ، والذى لديه من الخوف امام الموت اكثر مما لديه من الكرامة ، هو الذى يمكن ان يعزى نفسه بان جسده سوف يعيش مع الزمن فى العشب والحجر والضفدعة . . . ان يرى المرء خلوده فى التمثيل الغذائى هو على نفس القدر من الغرابة مثلما تتنبأ بمستقبل باهر لصندوق الكمان بعد ان تحطم الكمان القيم واصبح غير صالح للاستعمال .

وعندما تدق الساعة يضطجع اندريه يفيميتش على ظهر المقعد ويغمض عينيه لكى يفكر قليلا . وعن غير قصد ، تحت تأثير الافكار الجيدة التى قرأها فى الكتب ، يلقى نظرة على ماضيه وحاضره . الماضى كريه ، من الافضل الا يتذكره . والحاضر مثله مثل الماضى . فهو يعلم انه فى الوقت الذى تدور افكاره مع الارض الباردة حول الشمس ، هناك على مقربة من شقته ، وفى مبنى المستشفى الرئيسى يعانى اناس تحت وطأة المرض والقذارة الجسدية . وربما بينهم من لا ينام الآن وهو يصارع الحشرات ، ومن يصاب بالحمرة او يئن من الضمادة المربوطة بشدة . وربما يلعب المرضى الورق مع المربيات ويجرعون الفودكا . فى التقرير السنوى تم خداع اثنى عشر الف شخص . وكل امور المستشفى ، كما كانت منذ عشرين عاما ، قائمة على السرقة والمشاجرات والاقاويل والمحسوبية ، وعلى

الشعوذة الفظة ، ولا يزال المستشفى ، كما كان ، مؤسسة لااخلاقية وضارة للغاية بصحة النزلاء . وهو يعلم ان نيكيتا يضرب المرضى فى عنبر رقم ٦ خلف القضبان ، وان مويسيكا يطوف بالمدينة كل يوم ويجمع الصدقات .

ومن ناحية اخرى فهو يعلم جيدا انه خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية حدث تحول اسطورى فى الطب . فعندما كان يدرس فى الجامعة خيل اليه ان الطب سيؤول عما قريب الى ما آلت اليه الخيمياء * والميتافيزيقا ، اما الآن وعندما يقرأ فى الليل فان الطب يهزه ويثير فيه الدهشة ، بل والاعجاب . وبالفعل فيا له من رقى غير متوقع ، يا لها من ثورة ! فبفضل مضادات التقيح تجرى العمليات التى كان بيروجوف العظيم يعتبرها مستحيلة حتى in spe ** . واطباء الارياف العاديون يقدمون على اجراء عملية استئصال مفصل الركبة ، ومن كل مائة عملية شق الرحم تحدث حالة وفاة واحدة ، اما مرض الحصى فيعتبر من التفاهة بحيث انهم حتى لا يكتبون عنه . وثمة علاج جذرى للزهرى ، ونظرية الوراثة ، والتنويم المغنطيسى واكتشافات باستير وكوخ ، والوقاية وطبنا الروسى الريفى ؟ ان علم الامراض النفسية بتقسيمه الحالى للامراض ، وطرق الاكتشاف والعلاج ، هو ، بالمقارنة مع ما كان فى الماضى ، جبل كامل . المجانين الآن لا يعالجون بصب الماء البارد على رؤوسهم ، ولا يلبسونهم قمصان الكتاف بل يعاملونهم معاملة انسانية ، بل وكما تكتب الصحف يقيمون لهم التمثيليات والحفلات . واندريه يفيميتش يعرف انه فى ظل الآراء والاذواق الراهنة فان وضاعة مثل عنبر رقم ٦ لا يمكن ان توجد الا على بعد مائتى فرسخ من السكة الحديدية ، وفى مدينة رئيسها وجميع نواب بلديتها من صغار البرجوازيين انصاف المتعلمين الذين يرون فى الطبيب كاهنا ينبغى تصديقه بلا اى انتقاد حتى لو صب فى الفم قصديرا مصهورا . ولو كان هذا فى مكان آخر لكان الجمهور والصحافة قد مزقا قلعة الباستيل الصغيرة هذه اربا منذ زمن بعيد .

---

* الكيمياء القديمة التى لم تكن قائمة على اسس علمية بل على الشعوذة والسحر . **المعرب** .

** فى المستقبل (باللاتينية فى الاصل) . **المعرب** .

ويسأل اندريه يفيميتش نفسه وهو يفتح عينيه : «ثم ماذا ؟ ما الذى تمخض عن هذا ؟ حقا هناك مضادات التقيح وكوخ وباستير ولكن جوهر الامر لم يتغير ابدا . فالمرض والموت ظلا كما هما . والمجانين يشهدون التمثيليات والحفلات ، ومع ذلك لا يطلق سراحهم اذن فكل ذلك هراء واباطيل . وليس هناك فى الواقع اى فرق بين عيادة جيدة فى فيينا وبين مستشفاى» .

ولكن الحزن واحساسا يشبه الحسد يعوقانه عن ان يكون لامباليا . يبدو ان ذلك من اثر الارهاق . ويميل رأسه المثقل على الكتاب ، فيضع يديه تحت وجهه ليجعل منهما وسادة لينة ، ويفكر :

«اننى اخدم قضية مضرة واتقاضى اجرا من الناس الذين اخدعهم . انا غير شريف ولكننى فى حد ذاتى لست شيئا ، انا مجرد جزء صغير من الشر الاجتماعى المطلوب : جميع موظفى الاقاليم مضرون ويتقاضون اجورهم عبثا . . . اذن فلست انا المذنب فى عدم شرفى ، بل الزمن . . . لو انى ولدت بعد مائتى عام لكنت شخصا آخر» .

وعندما تدق الساعة الثالثة يطفىء المصباح ويتجه الى غرفة النوم . ولا يشعر برغبة فى النوم .

٨

منذ حوالى عامين تكرم مجلس الاقليم فقرر تخصيص ثلاثمائة روبل سنويا كمساعدة لتعزيز الطاقم الطبى فى مستشفى المدينة لحين افتتاح مستشفى للاقليم ، ودعت المدينة الطبيب الريفى يفجينى فيودوروفيتش خوبوتوف لمعاونة اندريه يفيميتش . وكان هذا شخصا شابا للغاية — لم يبلغ الثلاثين بعد — اسود الشعر ، طويل القامة ذا وجنتين عريضتين وعينين صغيرتين ، اذ يبدو ان جدوده كانوا اجانب . وقد جاء الى المدينة خاوى الوفاض ، بحقيبة صغيرة وامرأة شابة دميمة يسميها طاهيته . ولدى هذه المرأة طفل رضيع . ويحمل يفجينى فيودوروفيتش «كسكتة» وحذاء برقبة ، وفى الشتاء معطفا قصيرا . وتوثقت صلته بالحكيم سرجى سرجيتش

وبالصراف ، اما بقية الموظفين فيسميهم لسبب ما بالارستقراطيين ويتجنبهم . وليس فى شقته كلها سوى كتاب واحد هو «احدث وصفات عيادة فيينا لعام ١٨٨١» . وعندما يتوجه لزيارة مريض يأخذ معه دائما هذا الكتاب . وفى المساء يلعب البليـــاردو فى النادى ، ولا يحب لعب الورق . ويهوى فى كلامه استخدام كلمات مثل : التسويف ، وخزعبلات بالخل ، وكفاك مراوغة .

وهو يتردد على المستشفى مرتين فى الاسبوع ، ويطـــوف بالعنابر ويستقبل المرضى . ويثير سخطه انعدام مضادات التقيح وكاسات الهواء ، ولكنه لا يضع نظما جديدة خوفا من ان يهيـن بذلك اندريه يفيميتش . وهو يعتبر زميله اندريه يفيميتش محتالا عجوزا ، ويظن ان لديه اموالا كثيرة ويحسده فى سريرته . ويود لو حل محله .

٩

فى احدى امسيات الربيع فى نهاية مارس ، عندما لم يعد هناك ثلج على الارض ، وصدحت فى فناء المستشفى الزرازير خرج الدكتور الى البوابة ليودع صديقه مدير البريد . وفى تلك اللحظة دلـــف اليهودى مويسيكا الى الفناء عائدا من جولته . كان بلا غطاء رأس ، وفى نعل خفيف بدون جورب ، ويحمل فى يديه كيسا صغيرا به الصدقات .

وقال للطبيب وهو يرتعد من البرد ويبتسم :

— اعطنى كوبيكا !

واعطاه اندريه يفيميتش الذى لم يكن يستطيع ابدا ان يرفض ، عشرة كوبيكات .

وفكر وهو ينظر الى قدميه العاريتين برسغيها الأحمريـــن النحيلين : «ياله من شىء سيىء . ان الارض رطبة» .

وبدافع هذا الاحساس الذى يشبه الشفقـة والتقزز مضى الى الجناح فى اثر اليهودى ، وهو ينظر تارة الى صلعته ، وتارة الى رسغيه . وعند دخول الطبيب هب نيكيتا واقفا من فوق كومـــة النفايات وشد قامته .

وقال اندريه يفيميتش برفق :

- مرحبا ، يا نيكيتا . هل يمكن ان تصرف لهذا اليهودى حذاء ، يعنى ، والا اصيب بالبرد .
- حاضر ، يا صاحب السعادة . سأبلغ المشرف .
- من فضلك . اطلب منه باسمى . قل له اننى طلبت ذلك .

كان الباب المفضى من المدخل الى العنبر مفتوحا . واصغى ايفان دميتريتش ، الذى كان راقدا فى السرير وقد هم قليلا معتمدا على مرفقه الى الصوت الغريب بقلق ، وفجأة عرف فيه الدكتور . وارتجف بدنه كله من الغضب ، وقفز الى وسط العنبر بوجه محتقن ساخط وعينين جاحظتين .

وصاح :

- الدكتور وصل ! - ثم قهقه - اخيرا وصل ! ايها السادة اهنئكم ، لقد شرفكم الدكتور بزيارته - وصرخ بلوعة لم يسبق لاحد فى العنبر ان رأى مثلها - الوغد الملعون ! - ودق بقدمه - فلنقتل هذا الوغد ! كلا ، القتل قليل عليه ! فلنغرقه فى المرحاض !

واطل اندريه يفيميتش ، الذى سمع هذا ، من المدخل الى العنبر وسأل برفق :

- ولماذا ؟

فصاح ايفان ديمتريتش مقبلا عليه بوجه متوعد وهو يلتف بالرداء فى عصبية :

- لماذا ؟ لماذا ؟ - وقال بتقزز وهو يحرك شفتيه وكأنه يريد ان يبصق - لانك لص ! محتال ! جلاد !

فقال اندريه يفيميتش وهو يبتسم بذنب :

- هدىء نفسك . اؤكد لك اننى لم اسرق شيئا ابدا ، وفيما عدا ذلك اعتقد انك تبالغ جدا . انا ارى انك غاضب منى . هدىء نفسك ارجوك اذا كنت تستطيع وخبرنى بهدوء لماذا انت غاضب منى ؟

- ولماذا تبقينى هنا ؟
- لانك مريض .
- نعم مريض ، ولكن عشرات ومئات المجانين ينعمون بالحرية لان جهلك غير قادر على تمييزهم عن الاصحاء . فلماذا ينبغى على انا وهؤلاء التعساء ان نبقى هنا بدلا من الجميع ككباش الفداء ؟ انت

والحكيم والمشرف وكل اوغادكم فى المستشفى ادنى من اى واحد منا من الناحية الاخلاقية بما لا يقاس ، فلماذا نبقى هنا وانتم لا ؟ اين المنطق ؟

– لا دخل للناحية الاخلاقية والمنطق هنا . كل شيء متوقف على الصدفة . من وضعوه هنا فسيبقى ، ومن لم يضعوه ينعم بالحرية ، وهذا كل ما فى الامر . ليس هناك اى اخلاقية او منطق فى كونى دكتورا وانت مريض نفسى ، بل مجرد صدفة فارغة .

فقال ايفان دميتريتش بصوت مكتوم :

– انا لا اقبل هذا الهراء .

وجلس على سريره .

اما مويسيكا الذى استحى نيكيتا من تفتيشه فى حضرة الدكتور فقد وضع على سريره كسر الخبز والاوراق والعظام التى جمعها ، وقال بالعبرية شيئا ما بسرعة وبصورة منغمة . يبدو انه تخيل انه قد فتح دكانا .

وقال ايفان دميتريتش بصوت متهدج :

– اطلق سراحى .

– لا استطيع .

– لماذا اذن ؟ لماذا ؟

– لان هذا ليس فى سلطتى . ثم احكم بنفسك ، ما الفائدة التى تجنيها اذا اطلقت سراحك ؟ اذهب . . سيمسك بك اهل المدينة او الشرطة ويعيدونك الى هنا .

فقال ايفان دميتريتش ومسح جبينه :

– نعم ، هذا صحيح . . . شيء فظيع ! ولكن ماذا افعل ؟ ما العمل ؟

اعجب صوت ايفان دميتريتش ووجهه الشاب الذكى ذو التقلصات اندريه يفيميتش . وشعر برغبة فى الترويح عن هذا الشاب وتهدئته فجلس بجواره على الفراش ، وفكر ثم قال :

– انت تسأل ما العمل ؟ ان افضل شيء فى وضعك هذا ان تهرب من هنا . ولكن ذلك غير مجد للاسف . فسوف يمسكون بك . عندما يحمى المجتمع نفسه من المجرمين والمرضى النفسيين وعموما من الاشخاص المتعبين ، فانه لا يمكن التغلب عليه ، ولا يبقى لك

غير شيء واحد : ان تهدىء نفسك بفكرة ان وجودك هنا ضرورى .
– لا احد بحاجة اليه .
– طالما توجد السجون ودور المجاذيب فلا بد ان يبقى فيها احد . ان لم تكن انت فانا ، ان لم اكن انا فغيرنا . انتظر الى ان ينتهى فى المستقبل البعيد وجود السجون ودور المجاذيب ، وعندئذ لن تكون هناك قضبان على النوافذ او ارواب . بالطبع سيأتى هذا العهد ان عاجلا ام آجلا .
فابتسم ايفان دميتريتش بسخرية ، وقال وهو يزر عينيه :
– انت تمزح . ان السادة امثالك وامثال مساعدك نيكيتا لا يهمهم المستقبل فى شيء ، ولكن ثق يا سيدى الكريم انه سيأتى زمان افضل ! ولتكن كلماتى مبتذلة ، فلتضحك منها ، ولكن فجر الحياة الجديد سيهل ، وسينتصر الحق وسيحل العيد فى شارعنا ! لن اعيش الى ذلك اليوم ، سأنفق ، ولكن احفاد اشخاص غيرى سيعيشون . اننى احييهم من كل قلبى واسعد ، اسعد لهم ! الى الامام ! فليرعاكم الله يا اصدقائى !
ونهض ايفان دميتريتش وعيناه تلمعان ، ومد يديه نحو النافذة ، ومضى يقول بصوت منفعل :
– اننى اباركم من وراء هذه القضبان ! يحى الحق ! اننى اسعد !
فقال اندريه يفيميتش الذى بدت له حركات ايفان دميتريتش مسرحية ، ولكنها اعجبته جدا فى الوقت نفسه :
– انا لا ارى اى مبرر للسعادة . نعم ، لن تكون هناك سجون ودور مجاذيب ، والحق كما تفضلتم بالقول سوف ينتصر ، ولكن جوهر الامور لن يتغير ، وستبقى قوانين الطبيعة كما هى . سيظل الناس يمرضون ويهرمون ويموتون كما هو الآن . ومهما كانت روعة الفجر الذى سيضيء حياتك فسوف يضعونك فى النهاية فى تابوت ويلقون بك فى الحفرة .
– والخلود ؟
– اه ، دعك من هذا !
– انك لا تؤمن ولكنى اومن . لقد قال شخص ما عند دوستويفسكى او فولتير انه لو لم يكن هناك اله لاخترعه الناس .

اما انا فأومن ايمانا عميقا بانه اذا لم يكن هناك خلود فان العقل البشرى العظيم سوف يخترعه ان عاجلا ام آجلا .

فقال اندريه يفيميتش وهو يبتسم مستمتعا :

– احسنت القول . حسن انك تؤمن . بهذا الايمان يمكن ان تعيش فى هناء حتى لو كنت مدفونا فى جدار . هل حصلت على تعليم فى مكان ما ؟

– نعم ، كنت فى الجامعة ، ولكنى لم اكمل تعليمى .

– انت انسان مفكر ورزين . وتستطيع فى اى وضع ان تجد السكينة فى نفسك . ان التفكير الحر العميق الذى يسعى الى فهم الحياة ، والاحتقار التام لاباطيل الدنيا الحمقاء هما النعمتان اللتان لم يعرف الانسان شيئا اسمى منهما . وبوسعك ان تحوزهما حتى لو كنت تعيش وراء ثلاث طبقات من القضبان . لقد عاش ديوجين فى برميل لكنه كان اسعد من كل قياصرة العالم .

فقال ايفان دميتريتش متجهما :

– ديوجينك هذا كان احمق . لماذا تحدثنى عن ديوجين وعن فهم الحياة ؟ – قال فجأة بغضب وقفز واقفا – اننى احب الحياة ، احبها بشوق ! وعندى عقدة الاضطهاد ، خوف مستمر معذب ، ولكن تمر بى لحظات ينتابنى فيها ظمأ للحياة ، وعندها اخشى ان اجن . كم اود ان اعيش ، اوه كم اود !

وتمشى فى العنبر بانفعال ، وقال وقد خفض صوته :

– عندما احلم تزورنى الاشباح . يأتينى اناس ما ، واسمع اصواتا وموسيقى ، ويخيل الى اننى اتريض فى غابات ما او على شاطىء البحر ، ويجتاحنى شوق جارف الى الزحام والمشاغل . . . – وسأل ايفان دميتريتش – خبرنى ماذا هناك من جديد ؟ ماذا هناك ؟

– اتريد ان تعرف اخبار المدينة ام بشكل عام ؟

– حسنا ، حدثنى فى البداية عن المدينة ، وبعد ذلك بشكل عام .

– حسنا . الحياة فى المدينة مملة الى حد العذاب . . . لا تجد من تتبادل معه كلمة ولا من تسمعه . ليس هناك اشخاص جدد . ولكن جاءنا منذ فترة قريبة الطبيب الشاب خوبوتوف .

– لقد جاء عندما كنت هناك . ماذا ، اهو وقح ؟
– نعم ، شخص غير مهذب . شيء غريب اتدرى . . . الدلائل كلها تشير الى انه ليس هناك ركود ذهنى فى عواصمنا ، واذن فينبغى ان يكون هناك اناس حقيقيون ، ولكن لسبب ما يرسلون الينا كل مرة من هناك اناسا تود الا تراهم . يا لها من مدينة تعيسة !

فتنهد ايفان دميتريتش وضحك قائلا :
– نعم ، مدينة تعيسة ! وكيف الحال بشكل عام ؟ عم تكتب الصحف والمجلات ؟

كان الظلام قد خيم على العنبر . ونهض الدكتور وراح يتحدث واقفا عما يكتب فى الخارج وفى روسيا وعن الاتجاه الفكرى الملاحظ الآن . واصغى ايفان دميتريتش بانتباه ووجه اليه بعض الاسئلة ، ولكنه امسك برأسه فجأة وكأنه تذكر شيئا فظيعا ، وتمدد فى السرير موليا ظهره للدكتور .

وسأل اندريه يفيميتش :
– ماذا بك ؟

فقال ايفان دميتريتش بغلظة :
– لن تسمع منى بعد كلمة واحدة . دعنى !
– لماذا ؟
– اقول لك دعنى ! ما لك بى ؟

فهز اندريه يفيميتش كتفيه وتنهد ثم خرج . وقال وهو يجتاز المدخل :
– لو امكن تنظيف المكان يا نيكيتا . . . الرائحة هنا فظيعة !
– حاضر ، يا صاحب السعادة .

وفكر اندريه يفيميتش فى طريق عودته الى الشقة : «يا له من شاب لطيف ! طول فترة وجودى هنا يبدو انه اول انسان يمكن ان تتحدث معه . انه يجيد النقاش ويهتم بما ينبغى الاهتمام به» .

وبينما كان يقرأ ، ثم وهو يأوى للفراش بعد ذلك ظل يفكر طوال الوقت فى ايفان دميتريتش ، وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، تذكر انه تعرف بالامس على شخص ذكى ممتع ، فقرر ان يزوره مرة اخرى فى اول فرصة ممكنة .

١٠

كان ايفان دميتريتش راقدا فى نفس الوضع الذى كان عليه بالامس ، وقد طوق رأسه بذراعيه وثنى ساقيه . ولم يكن وجهه ظاهرا .

وقال اندريه يفيميتش :

— مرحبا ، يا صديقى ! ألست نائما ؟

فقال ايفان دميتريتش فى الوسادة :

— اولا انا لست صديقك . وثانيا عبثا تتعب نفسك : لن تحصل منى على كلمة واحدة .

فدمدم اندريه يفيميتش فى ارتباك :

— غريبة . . . بالامس تحدثنا فى سلام ، ولكنك غضبت فجأة لسبب ما وقطعت الحديث . . . ربما اكون قد اسأت التعبير ، او ربما اكون قد اعربت عن فكرة لا تتفق مع معتقداتك . . .

— اتظن اننى اصدقك هكذا ببساطة ! — قال ايفان دميتريشتش وهو ينهض ويتطلع الى الدكتور بسخرية وقلق . وكانت عيناه حمراوين — بوسعك ان تتجسس وتستطلع فى مكان آخر ، اما هنا فليس لديك ما تفعله . لقد ادركت بالامس سبب مجيئك .

وضحك الدكتور وقال :

— يا له من خيال غريب ! اذن فانت تعتقد اننى جاسوس ؟

— نعم اعتقد . . . جاسوس ام دكتور وضعونى عنده للاختبار ، الامر سيان .

— اه يا لك من . . . . عفوا . . . غريب الاطوار !

وجلس الدكتور على مقعد خشبى بجوار السرير وهز رأسه مؤنبا ، وقال :

— حسنا ، لنفرض انك على حق . لنفرض اننى احاول غدرا ان اوقع بك لتسليمك للشرطة . سيقبضون عليك ويحاكمونك بعد ذلك . ولكن هل سيكون وضعك فى المحكمة وفى السجن اسوأ من هنا ؟ ولو نفوك او حتى حكموا عليك بالاشغال الشاقة ، فهل سيكون ذلك اسوأ من بقائك هنا فى هذا الجناح ؟ اعتقد انه ليس اسوأ . . . فمم تخاف اذن ؟

ويبدو ان هذه الكلمات اثرت على ايفان دميتريتش ، فجلس بهدوء .

كانت الساعة الخامسة مساء ، وهو الوقت الذى يتجول فيه اندريه يفيميتش عادة فى غرف شقته بينما تسأله داريوشكا عما اذا كان الوقت قد حان لتقديم البيرة . وكان الجو فى الخارج هادئا وصحوا .

وقال الدكتور :

– خرجت بعد الغداء لاتمشى ، وعرجت عليك كما ترى . الربيع قد حل تماما .

فسأل ايفان دميتريتش :

– فى اى شهر نحن الآن ؟ مارس ؟

– نعم ، نهاية مارس .

– الارض قذرة فى الخارج ؟

– كلا ، ليس الى هذا الحد . الحديقة بها دروب الآن .

فقال ايفان دميتريتش وهو يفرك عينيه كأنما استيقظ لتوه :

– ما اجمل ان تركب الآن عربة وتتجول فى المدينة ، ثم تعود الى البيت ، الى غرفة مكتب دافئة ومريحة و . . . تتعالج لدى طبيب جيد من الصداع . . . منذ فترة طويلة لم اعش عيشة انسانية . اما هنا فالحال مقزز ! مقزز بصورة لا تحتمل !

كان متعبا وخائر القوى بعد ثورة الامس ، وغير راغب فى الكلام . وكانت اصابعه ترتعش ، وبدا واضحا على وجهه انه يعانى من صداع شديد .

فقال اندريه يفيميتش :

– ليس هناك اى فرق بين غرفة المكتب الدافئة المريحة وهذا العنبر . ان سكينة الانسان ورضاه ليست خارجه ، بل فى داخله .

– ماذا تقصد ؟

– الانسان العادى ينتظر الامور الطيبة او السيئة من الخارج ، اى من العربة وغرفة المكتب ، اما الانسان المفكر فينتظرها من داخل نفسه .

– اذهب وبشر بهذه الفلسفة فى اليونان ، حيث الجو دافىء

وتفوح منه رائحة الفارنج اما هنا فهى لا تلائم الجو . مع من تحدثت عن ديوجين ؟ اظن معك ؟

— نعم ، معى بالامس .

— لم يكن ديوجين بحاجة الى غرفة مكتب وبيت دافىء ، فالجو هناك حار . فلتجلس فى البرميل ، وكل برتقالا وزيتونا . اما لو قدر له ان يعيش فى روسيا للجأ الى الغرفة لا فى ديسمبر بل فى مايو . ولتجمدت اطرافه من البرد .

— كلا . البرد ، مثله عموما مثل اى الم ، يمكنك الا تحس به . لقد قال مارك : «ليس الالم سوى تصور حى عن الالم . فلتبذل مجهودا اراديا لكى تغير هذا التصور ، ولتطرحه عنك ، ولتكف عن الشكوى ، وسيختفى الالم» . وهذا حق . فالحكيم ، او ببساطة الشخص المفكر الحصيف يتميز بأنه يحتقر المعاناة . انه دائما راض ولا يدهشه شيء .

— اذن فانا ابله ، لانى اعانى ، وغير راض ، وتدهشنى الخسة البشرية .

— عبثا تقول ذلك . فلو انك امعنت التفكير لادركت مدى تفاهة كل تلك الاشياء الخارجية التى تقلقنا . ينبغى ان نسعى الى فهم الحياة ، ففيه النعمة الحقيقية .

وامتعض ايفان دميتريتش قائلا :

— فهم الحياة . . . الخارجى والداخلى . . . عفوا ، انا لا افهم هذا — ثم نهض وقال وهو ينظر الى الدكتور بغضب — انا لا اعرف سوى ان الله خلقنى من دم دافىء واعصاب ، نعم ! والنسيج العضوى ، اذا كان قادرا على الحياة ، ينبغى ان يستجيب لكل مؤثر وانا استجيب ! ارد على الالم بالصراخ والدموع ، وعلى الخسة بالسخط وعلى الدناءة بالتقزز . واعتقد ان ذلك هو ما يسمى بالحياة . وكلما كان الجسم ادنى مستوى ، قلت حساسيته وضعفت استجابته للمؤثرات ، وكلما ارتفع مستواه ازدادت حساسيته للواقع . كيف لا تعرف هذا ؟ دكتور ولا يعرف هذه الامور التافهة ! لكى تحتقر المعاناة وتكون راضيا على الدوام ولا يدهشك شيء ينبغى ان تتردى الى هذا المستوى — واشار ايفان دميتريتش الى الفلاح البدين الذى غطاه الشحم — او ان تحصن نفسك

بالالم الى درجة ان تفقد اى احساس به ، اى بعبارة اخرى ، ان تكف عن الحياة – ومضى ايفان دميتريتش يقول بعصبية – عفوا انا لست حكيما ولا فيلسوفا . ولا افقه شيئا فى ذلك . انا لست قادرا على المناقشة .

– بالعكس ، انت تناقش بشكل رائع .

– ان الرواقيين الذين تحاكيهم كانوا اناسا ممتازين ، ولكن تعاليمهم تحجرت منذ الفى سنة ، ولم تتقدم خطوة واحدة الى الامام ، ولن تتقدم ، لانها ليست عملية ولا حيوية . ولم تلق رواجا سوى لدى الاقلية التى تنفق حياتها فى حفظ ولوك مختلف التعاليم ، اما الاغلبية فلم تفهمها . ان التعاليم التى تدعو الى تجاهل الثروة وملذات الحياة ، واحتقار الآلام والموت ليست مفهومة ابدا للغالبية الساحقة ، لان هذه الغالبية لم تعرف قط لا الثروة ولا ملذات الحياة . اما احتقار الآلام فيعنى بالنسبة لها احتقار الحياة نفسها ، لان جوهر الانسان كله يقوم على احاسيس الجوع والبرد والاهانات والخسائر والخوف الهاملتى من الموت . والحياة كلها فى هذه الاحاسيس . يمكنك ان تشقى بالحياة ، وتمقتها ، ولكن لا تحتقرها . نعم ، هكذا ، اكرر ، ان تعاليم الرواقيين لن يكون لها مستقبل ابدا ، اما التقدم فهو كما نرى ، منذ مطلع القرن حتى اليوم ، من نصيب الصراع ، ورهافة الاحساس بالالم ، والقدرة على الاستجابة للمؤثرات . . .

وفجأة فقد ايفان دميتريتش حبل افكاره فتوقف ، وفرك جبينه بأسى ، وقال :

– اردت ان اقول شيئا هاما ، ولكنى شردت . عم كنت اتحدث ؟ آه ، نعم ! اننى اقول اذن ان واحدا من الرواقيين قد باع نفسه واصبح عبدا لكى يحرر احد الاقربين . ارأيت ، ها هو رواقى قد استجاب للمؤثر ، لان مثل هذا العمل الشهم ، وهو ان تقضى على نفسك من اجل شخص قريب ، يتطلب روحا مغضبة عطوفا . لقد نسيت هنا فى السجن كل ما درسته ، والا لتذكرت امثلة اخرى . وخذ عندك المسيح . لقد كان يستجيب للواقع بان يبكى ويبتسم ويحزن ويغضب ، بل كان يستوحش . . ولم يمض

للقاء الآلام بابتسامة ولم يحتقر الموت ، بل صلى فى حديقة لله لكى يعبر عنه هذى الكأس .

وضحك ايفان دميتريتش ثم جلس . وقال :

— لنفرض ان سكينة الانسان ورضاه ليسا خارجه بل فى داخله ، ولنفرض انه ينبغى احتقار الآلام وعدم الاندهاش لشىء . ولكن ، على اى اساس تدعو انت لذلك ؟ هل انت حكيم ؟ فيلسوف ؟

— كلا ، لست فيلسوفا ، ولكن كل انسان ينبغى ان يدعو لذلك لانه صواب .

— لا ، بل خبرنى لماذا تعتبر نفسك خبيرا فى مسألة فهم الحياة واحتقار الآلام وما الى ذلك ؟ هل تألمت فى حياتك ؟ هل تفهم ما هى الآلام ؟ اسمح لى : هل ضربت فى طفولتك ؟

— كلا ، كان والدى ينفران من العقاب الجسدى .

— اما انا فكان ابى يضربنى بقسوة ، كان ابى موظفا حاد الطبع ، مصابا بالبواسير ، ذا انف كبير ورقبة صفراء . ولكن دعنا نتحدث عنك . طوال حياتك كلها لم يمسسك احد باصبعه ، ولم يرهبك احد او يقهرك . وانت صحيح كالثور . وقد تربيت فى كنف ابيك وتعلمت على حسابه ، وبعد ذلك حصلت فورا على وظيفة مريحة وعشت اكثر من عشرين سنة بالمجان فى شقة بالتدفئة والنور والخدم وتملك الحق فى ان تعمل بقدر ما تريد وكيفما تريد ، حتى لو لم تعمل شيئا . وانت بطبيعتك شخص كسول ، رخو ، ولذلك سعيت الى تدبير حياتك بحيث لا يزعجك شىء ولا يحركك من مكانك . وقد سلمت الامور للحكيم وبقية الاوغاد . بينما جلست فى الدفء والسكون ، تدخر النقود وتطالع الكتب وتمتع نفسك بالتفكير فى مختلف الوان الهراء السامى (ثم نظر ايفان دميترويتش الى انف الدكتور الاحمر) وبالشراب . وباختصار انت لم تر الحياة ولا تعرفها على الاطلاق ، ولست مطلعا على الواقع الا من الجانب النظرى . وانت تحتقر الآلام ولا يدهشك شىء لسبب بسيط للغاية ، فالقول : هذا باطل الاباطيل ، والاحتقار الداخلى والخارجى للحياة وللآلام وللموت ، وفهم الحياة ، والنعمة الحقيقية . . . كل ذلك هو انسب فلسفة للتنبل الروسى .

انت مثلا ترى فلاحا يضرب زوجته ، فلماذا تتدخل ؟ دعه يضربها ، فكلاهما على اى حال سيموتان عاجلا ام آجـــلا . زد على ذلك ان الضارب لا يهين بضربه الشخص المضروب بل نفسه . والسكر عمل احمق ، غير لائق ، ولكن سواء شربت ام لم تشرب فسوف تموت . وتأتى اليك امرأة تشكو الما فى اسنانها . . . وماذا فى ذلك ؟ الالم ليس الا تصورا عن الالم ، وعلاوة على ذلك لا يمكنك ان تعيش فى هذه الدنيا دون امراض ، وكلنا سنموت ، ولذلك انصرفى ايتها المرأة ، لا تعطلينى عن التفكير وشرب الفودكا . ويسألك النصح شاب فيما ينبغى عليه ان يفعل وكيف يعيش . ولو سأل شخصا آخر لفكر قبل ان يجيب ، اما هنا فالجواب حاضر : اسع لفهم الحياة او للنعمة الحقيقية . ولكن ما هى هذه «النعمة الحقيقية» الخيالية ؟ بالطبع ليس هناك جواب . ويحتفظون بنا هنا وراء القضبان لنتعفن ويعذبوننا ، ولكن ذلك رائع ومعقول لانــه ليس هناك اى فــــرق بين هذا العنبر وغرفة المكتب الدافئـــة المريحة . هذه فلسفة مريحة : لا تفعل شيئا بينما ضميـــــرك مستريح وتحس بنفسك حكيما . . . كلا يا سيدى ، هذه ليست فلسفة ، وليس تفكيرا ، ولا سعـــة افق ، بل كسل ، وزهــــد واضغاث احلام . . . نعم ! – وعاود الغضب ايفان دميتريتش من جديد – انك تحتقر الآلام ، ولكن لو ان اصبعك انحشرت فى الباب فلربما صرخت باعلى صوتك !

فقال اندريه يفيميتش وهو يبتسم بوداعة :

– وربما لا اصرخ .

– كيف لا ! اما لو اصابك الشلل ، او لنفرض ان احـــد الحمقى الوقحين اهانك علنا مستغلا مركزه ورتبته وأنت تعرف انه لن يعاقب على ذلك ، لادركت عندئذ ما معنى ان ترسل الآخرين الى فهم الحياة والى النعمة الحقيقية .

فقال اندريه يفيميتش وهو يضحك من المتعة ويفرك يديه :

– هذا طريف . ان ما يذهلنى فيك هو قدرتك على التعميم ، اما الصورة التى تفضلت من توك برسمها لشخصى فهى ، ببساطة ، باهرة . اصارحك بان الحديث معك يحمل لى متعة فائقة . حسنا ، لقد استمعت اليك ، فلتتكرم الآن بالاستماع الى . . .

١١

استمر هذا الحديث حوالى ساعة اخرى ، وتـــرك فى نفس اندريه يفيميتش ، على ما يبدو ، اثرا عميقا . واصبح يتردد على العنبر كل يوم . كان يأتى فى الصباح ، وبعد الغداء ، وكثيــرا ما كانت ظلمة المساء تحل وهو يتحدث مع ايفان دميتريتش . وفى البداية كان ايفان دميتريتش ينفر منه ويرتاب فى سوء قصده ، ويعرب بصورة سافرة عن نفوره ، ولكنه تعود عليه فيما بعد ، وبدّل معاملته الحادة له الى نبرة متعالية ساخرة .

وسرعان ما سرت فى المستشفى شائعة بان الدكتور اندريــه يفيميتش اصبح يتردد على عنبر رقم ٦ . ولم يستطع احــد ، لا الحكيم ، ولا نيكيتا ، ولا المربيات ، ان يفهم السر وراء ذهابه الى هناك ، ولماذا يجلس الساعات الطوال يتحدث فى اشياء ما ، ولماذا لا يكتب روشتات . وبدت تصرفاته غريبة . وكثيرا ما كان ميخائيل افيريانيتش لا يجده فى البيت ، الامر الذى لم يحدث من قبل ابدا ، وكانت داريوشكا فى غايـــة الارتباك لان الدكتور لم يعد يشرب البيرة فى مواعيد محددة ، بل وكان احيانا يتأخر عن الغداء .

وذات مرة ، وكان ذلك فى اواخر يونيو ، ذهب الدكتـــــور خوبوتوف الى اندريه يفيميتش فى امر ما . ولما لم يجده فى المنزل مضى ليبحث عنه فى الفناء . وهناك قيل له ان الدكتور العجــوز ذهب الى المرضى النفسيين . ودلف خوبوتوف الى الجناح وتوقف فى المدخل فسمع الحديث التالى :

– لن نتفق ابدا ، ولن تستطيع ان تحولنى الى دينك – قال ايفان دميتريتش بعصبية – انت لا تعرف الواقع مطلقا ، ولم تتألم قط ، بل كنت كالعلقة تعيش على آلام الآخرين . اما انا فتألمت باستمرار ، من مولدى حتى يومنا هذا . لذلك اقول لك بصراحة : اننى اعتبر نفسى اعلى منك واكثر خبرة من جميع النواحى . لست انت من يعلمنى .

فقال اندريه يفيميتش بصوت خافت وبأسى لعدم الرغبة فى فهمه :

– انا لا اسعى ابدا الى تحويلك الى دينى . وليست تلك هى

المسألة يا صديقى . ليست المسألة انك تألمت وانا لم اتألم . فالآلام والافراح اشياء زائلة ، دعنا منها ، لها الله . ولكن المسألة اننا ، انا وانت ، نفكر . نحن نرى فى بعضنا اناسا قادرين على التفكير والمناقشة ، وهذا ما يجعلنا متضامنين مهما كانت اراؤنا مختلفة . آه ، لو تدرى يا صديقى كم مللت الجنون العام وانعدام المواهب والغباء ، وكم اسعد فى كل مرة بالحديث معك ! انت رجل ذكى وانا استمتع بك .

وفتح خوبوتوف الباب قليلا واطل برأسه فى العنبر . كان ايفان دميتريتش بطرطوره والدكتور اندريه يفيميتش جالسين على السرير متجاورين . وكان المجنون يقلص وجهه وينتفض ويلف نفسه فى الروب بعصبية ، بينما جلس الدكتور بلا حراك وقد نكس رأسه ، ووجهه محتقن عاجز حزين . وهز خوبوتوف كتفيه وضحك بسخرية ، وتبادل النظرات مع نيكيتا ، فهز هذا ايضا كتفيه .

وفى اليوم التالى جاء خوبوتوف الى الجناح مع الحكيم . ووقفا كلاهما فى المدخل يسترقان السمع .

وقال خوبوتوف وهما يغادران الجناح :

- يبدو ان شيخنا خرف تماما !

فتنهد سرجى سرجيتش الجليل وهو يتحاشى البرك الصغيرة بعناية حتى لا يلوث حذاءه النظيف اللامع :

- رحماك يا ربى ، اغفر لنا ذنوبنا ! اصارحك يا يفجينى فيودوروفيتش المحترم اننى كنت اتوقع ذلك من زمان !

١٢

اصبح اندريه يفيميتش بعد ذلك يلاحظ من حوله جوا من الغموض والاسرار . فعندما كان خدم المستشفى والمربيات والمرضى يقابلونه ، كانوا يتطلعون اليه بتساؤل ثم يتهامسون . اما الطفلة ماشا ، ابنة المشرف ، والتى كان يحب لقاءها فى حديقة المستشفى ، فقد اصبحت الآن لسبب ما تهرب منه عندما يقترب منها مبتسما لكى يمسد شعرها . ولم يعد مدير البريد ميخائيل

افيريانيتش وهو يصغى اليه يقول «صحيح تماما» بل كان يدمدم بارتباك غير مفهوم : «نعم ، نعم ، نعم . . .» ويتطلع اليه بتفكير وأسى . ولسبب ما راح ينصح صديقه ان يهجر الفودكا والبيرة ، ولكنه ، كشخص مهذب ، لم يكن يقول ذلك مباشرة ، بل ملمحا ، وهو يحدثه تارة عن قائد كتيبة ، رجل ممتاز ، وتارة عن قسيس فوج ، وهو شاب رائع ، كانا يقبلان على الشراب فمرضا ، ولكنهما شفيا تماما بعد ان تركا الشرب . وجاء الى اندريه يفيميتش زميله الدكتور خوبوتوف مرتين او ثلاث مرات ، ونصحه هو ايضا ان يترك عنه المشروبات الكحولية ، وبدون اى مبرر واضح اوصاه بتناول البوتاسيوم مع البروم .

وفى اغسطس تلقى اندريه يفيميتش من رئيس المدينة رسالة يرجوه فيها الحضور لامر هام للغاية . وعندما وصل اندريه يفيميتش فى الوقت المحدد الى مبنى الادارة وجد هناك قائد الحامية ، والمشرف على مدرسة المركز ، وعضو مجلس الادارة ، وخوبوتوف وسيدا بدينا اشقر ، قدموه اليه على انه دكتور . وكان هذا الدكتور ، الذى يحمل كنية بولندية صعبة النطق يعيش على بعد ثلاثين فرسخا من المدينة ، فى مزرعة لتربية الخيول ، وكان الان مارا فى طريقه بالمدينة .

وقال عضو مجلس الادارة مخاطبا اندريه يفيميتش بعد سلّم الجميع وجلسوا الى الطاولة :

– هنا طلب يخصك . يقال يا يفجينى فيودورفيتش ان مكان الصيدلية فى المبنى الرئيسى ضيق ، وينبغى نقلها الى احد الاجنحة وهذا طبعا امر ممكن ، ولكن السبب الرئيسى ان الجناح سيحتاج الى تصليح .

فقال اندريه يفيميتش بعد تفكير قصير :

– نعم ، الامر لن يخلو من التصليح . فاذا اخذنا الجناح الركنى للاجزخانة ، فاعتقد ان ذلك سيحتاج الى خمسمائة روبل minimum * . نفقات غير منتجة .

وصمتوا قليلا .

* على الاقل (باللاتينية فى الاصل) . **المعرب** .

واستطرد اندريه يفيميتش بصوت خافت :

– لقد تشرفت منذ عشر سنوات برفع تقرير ، بأن المستشفى بحالته الراهنة يعتبر بالنسبة للمدينة ترفا اكبر من امكانياتها . وقد شيد فى الاربعينات ، ولكن الاموال كانت آنذاك غيرهـــا الآن . ان المدينة تنفق اكثر من اللازم على المبانى غير الضرورية والوظائف الزائدة . واعتقد انه بهذه الاموال يمكن ، فى ظل نظم اخرى ، الانفاق على مستشفيين نموذجيين .

فقال عضو مجلس الادارة بحيوية :

– اذن هيا رتب نظما اخرى .

– لقد تشرفت برفع تقرير عن ذلك ، واقترحت وضع الناحية العلاجية تحت اشراف مجلس الاقليم .

فضحك الطبيب الاشقر وقال :

– نعم ، اعطوا مجلس الاقليم النقود وسوف يسرقها .

فأمن عضو مجلس الادارة على قوله وضحك ايضا :

– هذا ما يحدث فعلا .

ونظر اندريه يفيميتش بتراخ واكتئاب الى الدكتور الاشقـر وقال :

– ينبغى ان نكون منصفين .

وصمتوا ثانية . وجئ بالشاى . ومد قائد الحامية يده عبر الطاولة ، وهو مرتبك لسبب ما ، ولمس يد اندريـه يفيميتش وقال :

– لقد نسيتنا تماما يا دكتور . وعموما فـأنت راهب ؛ لا تلعب الورق ، ولا تهوى النساء . انك تشعر معنا بالملل .

وتحدث الجميع عن الملل الذى يشعر به ساكن هذه المدينة المحترم . فليس هناك مسرح او موسيقى ، وفى آخر حفلة رقص فى النادى كان هناك حوالى عشرين سيدة ومراقصان اثنان فقط . والشبان لا يرقصون ، بل يتزاحمون طوال الوقت قرب البوفيه او يلعبون الورق . وبدأ اندريه يفيميتش يتحدث ببطء وبصـــوت خافت دون ان يتطلع الى احد عن الاسف ، والاسف العميق مـن ان اهالى المدينة يبددون طاقاتهم الحيوية وقلوبهم وعقولهم فى لعب الورق وتناقل الشائعات ولا يستطيعون ولا يريدون ان يقضوا

وقتهم فى الحديث الممتع والقراءة ، ولا يريدون استغلال المتع التى يوفرها العقل . العقل وحده هو الطريف والرائع ، اما غير ذلك فضحل ومنحط . واصغى خوبوتوف بانتباه الى زميله ثـــم سأله بغتة :

– فى اى يوم من الشهر نحن الآن يا اندريه يفيميتش ؟

وبعد ان سمع الاجابة ، اخذ هو والدكتور الاشقر يســـألان اندريه يفيميتش بنبرة الممتحن الذى يشعر بعجزه : اى ايـــام الاسبوع اليوم ، وكم عدد ايام السنة ، وهل صحيح انه يوجد نبى رائع فى عنبر رقم ٦ .

ورد اندريه يفيميتش على السؤال الاخير متضرجا :

– نعم ، انه مريض ، ولكنه شاب طريف .

ولم يوجهوا اليه اية اسئلة اخرى .

وعندما كان يرتدى معطفه فى المدخل وضع قائد الحامية يده على كتفه وقال متنهدا :

– آن لنا نحن الشيوخ ان نستريح !

وعندما خرج اندريه يفيميتش من مبنى الادارة ادرك انهـــا كانت لجنة معينة للكشف على قواه العقلية . وتذكر الاسئلة التى وجهوها اليه فتضرج وجهه ، ولسبب ما شعر الآن ، ولاول مرة فى حياته ، بالاسى المر على الطب .

وفكر وهو يتذكر كيف فحصه الاطباء لتوه : «يا الهى ، انهم منذ فترة قريبة جدا درسوا علم الامراض النفسية ، وادوا فيـــه الامتحانات ، فمن اين هذا الجهل المطبق ؟ انهم لا يعرفون شيئا عن علم الامراض النفسية !»

ولاول مرة فى حياته احس بالمهانة والغضب .

وفى مساء نفس اليوم زاره ميخائيل افيريانيتش . اقترب منه مدير البريد دون ان يحييه وامسك بكلتا يديه ، وقال بصوت منفعل :

– يا صديقى العزيز ، برهن لى انك تثق فى صدق شعورى نحوك وتعتبرنى صديقك . . . يا صديقى ! – ومضى يقول بانفعال دون ان يعطى فرصة لاندريه يفيميتش – اننى احبك لثقافتك ونبل روحك . فلتسمعنى يا عزيزى . ان قواعد العلم توجب على الاطباء

ان يخفوا عنك الحقيقة ، ولكنى ، كعسكرى اقول الحقيقـــة دون مواربة : انت مريض ! اعذرنى يا عزيزى ، ولكنها حقيقة ، وقـد لاحظ ذلك كل مَنْ حولك منذ فترة طويلة . وقال لى الآن الدكتور يفجينى فيودوروفيتش انك بحاجة الى الراحة والترويح من اجل صحتك . صحيح تماما ! رائع ! بعد ايام سآخذ اجازة واسافـر لكى استنشق هواء آخر . اثبت لى انك صديق ، ولنسافر معا ! فلنرحل وننفض عنا الشيخوخة .

فقال اندريه يفيميتش بعد تفكير :

– انا اشعر بنفسى فى صحة تامة . ولا استطيع ان اسافر . ولتسمح لى ان اعرب لك بصورة اخرى عن صداقتى .

ان يسافر الى مكان ما ، ولغرض غير معروف ، بدون كتب ، بدون داريوشكا ، بدون البيرة ، ويغير تغييرا حادا نظام الحياة المستقر منذ عشرين سنة ، – هذه الفكرة بدت لاندريه يفيميتش للوهلة الاولى غريبة وخيالية . ولكنه تذكر الحديث الذى دار فى مبنى الادارة والمزاج المقبض الذى احس به وهو عائد من مبنى الادارة الى البيت ، فداعبته فكرة الرحيل لفترة قصيرة عن هذه المدينة التى يعتبره الاغبياء فيها مجنونا . وسأل :

– ولكن الى اين تنوى السفر ؟

– الى موسكو ، وبطرسبرج ، ووارسو . . . لقد قضيت فى وارسو خمس سنوات من اسعد سنوات عمرى . يا لها مـن مدينة مدهشة ! فلنسافر يا عزيزى !

١٣

بعد اسبوع عرضوا على اندريه يفيميتش ان يستريح ، اى ان يقدم استقالته ، فاستقبل ذلك بلا مبالاة ، وبعد اسبوع آخـــر كان هو وميخائيل افيريانيتش جالسين فى عربـــة بريد متوجهين الى اقرب محطة قطار . كانت الايام باردة صافية والسماء زرقاء والافق شفافا . وقطعا مسافة المائتى فرسخ التى تفصلهما عـن المحطة فى يومين ، وباتا ليلتين فى الطريق . وعندما كانوا يقدمون لهما فى محطات البريد اكوابا للشاى غير مغسولة جيدا او يتأخرون

فى تسريج الجياد ، كان ميخائيل افيريانيتش يحمـــر ، ويهتز بدنه كلـــه ويصيح : «اخرس ! ممنـــوع الكلام !» وعندمـــا يجلس فى العربـــة كان لا يكف دقيقـــة واحـــدة عن الحديث حول رحلاته الى القوقـــاز والمملكـــة البولنديـــة . كم خـــاض من مغامرات ، ويا للقـــاءات ! كان يتحـــدث بصوت عال وينظر بعينين مدهوشتين بحيث كان من الممكـــن الظن بأنه يكذب . وعلاوة على ذلك فقد كان ، وهو يتحدث ، يزفر فى وجه اندريه يفيميتش ويقهقه فى اذنه . وكان هذا يضايـــق الدكتور ويعوقه عن التفكير والتركيز .

ومن باب التوفير سافرا فى الدرجة الثالثة فى القطـار ، فى عربة لغير المدخنين . وكان نصف الركاب نظيفين ، وسرعان ما تعرف ميخائيل افيريانيتش بالجميع ، وراح يتنقل من مقعد لآخر وهو يتحدث بصوت عال عن انه لا ينبغىٔ السفر فى هذه الطرق المحنقة ، الجميع من حولك محتالون ! ولكن السفر على ظهر جواد شىء آخر . . . تقطع فى اليوم مائة فرسخ وبعدها تحس بـأنك صحيح ومنتعش . اما قلة المحاصيل لدينا فسببها تجفيف مستنقعات بينسك . وعموما فالفوضى رهيبة . كان يثور ويتحدث بصوت عال ولا يعطى للآخرين فرصة للكلام . وقد ارهقت هذه الثرثرة اللانهائية والمقترنة بالضحك العالى والحركات المعبرة اندريـــه يفيميتش .

وفكر بأسى : «اينا المجنون يا ترى ؟ انا ، الذى احاول الا اسبب اى ازعاج للركاب ، ام هذا الانانى الذى يعتقد انه اذكى واطرف الجميع هنا ، ولذلك يزعج الجميع ؟» .

وفى موسكو ارتدى ميخائيل افيريانيتش سترة عسكرية بدون شارات الرتبة وسروالا بشرائط حمراء . وكان يسير فى الشوارع فى عمرة عسكرية ومعطف فكان الجنود يؤدون له التحية العسكرية . وبدا لاندريه يفيميتش الآن انه شخص قد بدد من اصله النبيل الذى كان له فى وقت ما كل ما هو طيب ولم يبق لنفسه الا ما هو سيئ فقط . كان يحب ان يحتفى به حتى عندما لم يكن ثمة داع لذلك على الاطلاق . اذ يكون الكبريت موضوعا امامه على الطاولة ، وهو يراه ولكنه يصيح بالخادم لكى يقدم له كبريتا . ولم يكن

يخجل من السير امام عاملة الفندق بملابسه الداخلية ، وينادى جميع الخدم دون تفرقة حتى كبار السن منهم بـ «انت» * ، وعندما يغضب يدعوهم بالحمقى والبلهاء وخيل لاندريه يفيميتش ان ذلك كان من طباع السادة ، ولكنه شيء مقزز .

وقبل كل شيء قاد ميخائيل افيريانيتش صديقه الى كنيسة ايفير . وصلى بحرارة وهو يركع حتى الارض وعيناه تدمعان ، وعندما فرغ من الصلاة تنفس الصعداء وقال :

– عندما تصلى ، حتى لو لم تكن مؤمنا ، تشعر براحة اكثر . هيا قبِّل يا عزيزى .

وارتبك اندريه يفيميتش وقبل الايقونة ، اما ميخائيل افيريانيتش فقد مط شفتيه واخذ يصلى هامسا ورأسه يتمايل ، واغرورقت عيناه بالدموع ثانية . ثم توجها الى الكريملين وشاهدا هناك ملك المدافع وملك الاجراس بل وتحسساهما باصابعهما ، ومليا النظر من منظر ما وراء نهر موسكو ، وزارا معبد المخلص ومتحف روميانتسف .

وتناولا الغداء فى مطعم تيستوف . وحدق ميخائيل افيريانيتش طويلا فى قائمة الطعام وهو يمسد فوديه وقال بنبرة الذواقة الذى تعود ان يشعر بنفسه فى المطاعم وكأنه فى بيته :

– فلنر ماذا ستطعمنا اليوم يا همام !

١٤

كان الدكتور يمشى ويتفرج ويأكل ويشرب ، ولكنه لم يكن يحس الا بشيء واحد ، هو الاسى من ميخائيل افيريانيتش . وود لو يرتاح من صديقه ويبتعد عنه ويختفى ، ولكن الصديق اعتبر من واجبه الا يتركه يبتعد عنه خطوة ، وان يهيىء له اكبر ما يمكن من المتع . وعندما لم يكن هناك ما يشاهد ، كان يسليه بالاحاديث . وصبر اندريه يفيميتش على ذلك يومين ، وفى اليوم

* تقتضى تقاليد المخاطبة فى اللغة الروسية ان تخاطب الآخرين بصيغة الجمع «انتم» للاحترام . **المعرب** .

الثالث اخبر صديقه انه مريض ويريد ان يبقى فى البيت طـــول اليوم . فقال الصديق انه فى هذه الحالة سيبقى هو ايضـــــا . وبالفعل ينبغى ان يستريح والا فلن تكفيه قدماه . ورقد اندريه يفيميتش على الكنبة ووجهه الى ظهرها ، وزم اسنانه وهو يصغى لصديقه الذى راح يؤكد له بحرارة ان فرنسا ستهزم المانيا حتما ان عاجلا ام آجلا ، وان فى موسكو كثيرا جدا من المحتالين ، وانه لا يمكن الحكم على فضائل الجياد من مظهرهـــــا الخارجى . وبدأ اندريه يفيميتش يحس بطنين فى اذنيه وتسارع فى ضربات القلب ، ولكنه لم يجرؤ من باب اللياقة على ان يطلب من صديقه ان يتركه او يصمت . ولحسن الحظ مل ميخائيل افيريانيتش من البقاء فى الغرفة ، فانصرف بعد الغداء ليتنزه .

وعندما اصبح اندريه يفيميتش وحده استسلم للاحســـــاس بالراحة . ما اجمل ان تستلقى على الكنبة بلا حراك وان تشعـــر بانك وحيد فى الغرفة ! السعادة الحقيقية مستحيلة بدون الوحدة . والملاك الساقط خان الرب ربما لانه رغب فى الوحدة التــــى لا يعرفها الملائكة . واراد اندريه يفيميتش ان يفكر فيما رآه وسمعه فى الايام الاخيرة ، ولكن ميخائيل افيريانيتش لم يفارق مخيلته .

وفكر الدكتور بأسى : «ولكنه اخذ اجازة وسافر معى بدافع الصداقة ، بدافع السماحة . ليس هناك ما هو اسوأ من الوصاية باسم الصداقة . انه يبدو لك طيبا ، وسمحا ، ومرحا ، ومع ذلك فهو ممل . ممل الى درجة لا تحتمل . وهكذا قد تجد اناسا لا يقولون الا كلمات ذكية جيدة ولكنك تحس بأنهم اناس بلداء» .

وفى الايام التالية كذلك ادعى اندريه يفيميتش المرض ولـــم يغادر الغرفة . ظل راقدا ووجهه الى ظهر الكنبة ويعانى عندما يسليه صديقه بالاحاديث ، او يرتاح عندما يكون الصديق غائبا . وحنق على نفسه لانه سافر وعلى صديقه الذى كان يزداد ثرثرة وتبسطا يوما بعد يوم . ولم يستطع ابدا ان يوجه افكاره فى اتجاه جـــاد سام .

وفكر وهو يشعر بالغضب من تفاهته : «انه الواقع يعصرنى ، الواقع الذى تحدث عنه ايفان دميتريتش . وعموما فهذا هراء . . عندما ارجع الى البيت سيسير كل شيء كما كان فى السابق . .» .

وفى بطرسبرج تكرر نفس الوضع . كان لا يغادر الغرفة اياما بكاملها وهو راقد على الكنبة ، ولا ينهض الا ليشرب البيرة .
وكان ميخائيل افيريانيتش طول الوقت يتعجل السفر الى وارسو .
فيقول اندريه يفيميتش بضراعة :
– يا عزيزى ، وما الداعى لذهابى انا ؟ سافر وحدك ، واسمح لى ان اعود الى البيت ! ارجوك !
فيحتج ميخائيل افيريانيتش :
– لا يمكن بأى حال ! انها مدينة رائعة . قضيت فيها خمس سنوات من اسعد سنوات عمرى .
لم يكن لدى اندريه يفيميتش من الارادة ما يكفى للاصرار على رأيه فسافر مكرها الى وارسو . وهناك لم يغادر الغرفة ، وظل راقدا على الكنبة ، وهو يحنق على نفسه وعلى صديقه ، وعلى الخدم الذين اصروا بعناد على عدم فهم الروسية . اما ميخائيل افيريانيتش بصحته ونشاطه ومرحه كالعادة ، فكان يتجول فى المدينة من الصباح الى المساء ويبحث عن معارفه القدامى . ولم يبت فى الفندق عدة مرات . وبعد ليلة قضاها فى مكان غير معروف رجع الى الفندق فى الصباح الباكر وهو فى حالة انفعال شديد ، احمر الوجه ، مشعث الشعر . واخذ يروح فى الغرفة جيئة وذهابا فترة طويلة ، وهو يدمدم بكلمات ما ، ثم توقف وقال :
– الشرف قبل كل شىء !
ثم تمشى قليلا ، وامسك رأسه بيديه وقال بصوت تراجيدى :
– نعم ، الشرف قبل كل شىء ! اللعنة على تلك الساعة التى فكرت فيها ان آتى الى بابل هذه ! – والتفت الى الدكتور قائلا – يا عزيزى ، فلتحتقرنى ، لقد خسرت فى القمار ، اعطنى خمسمائة روبل .
عد اندريه يفيميتش خمسمائة روبل واعطاها لصديقه فى صمت . فتفوه هذا بقسم ما غير ضرورى ، وهو لا يزال محتقنا من الخجل والغضب ، وارتدى قبعته وخرج . وعاد بعد حوالى ساعتين وتهالك فى المقعد وتنهد بصوت عال وقال :
– لقد انقذ الشرف ! فلنرحل يا صديقى ! لا اريد ان ابقى فى

هذه المدينة الملعونة دقيقة واحدة . المحتالون ! جواسيس النمسا !

عندما عاد الصديقان الى المدينة كان نوفمبر قد حل ، وغطى الشوارع ثلج كثير . وشغل الدكتور خوبوتوف محل اندريه يفيميتش ، وكان لا يزال يقطن الشقة القديمة فى انتظار رحيل اندريه يفيميتش عن شقة المستشفى . واصبحت المرأة الدميمة التى كان يسميها طاهيته تقطن بالفعل فى احد اجنحة المستشفى .

وسرت فى المدينة شائعات جديدة عن المستشفى . فقيل ان المرأة الدميمة تشاجرت مع المشرف ، وان الاخير زحف امامها على ركبتيه طالبا الصفح .

واضطر اندريه يفيميتش فى اول يوم لوصوله الى البحث عن شقة .

وقال له مدير البريد بتردد :

— يا صديقى . . . اعذرنى على هذا السؤال غير المتواضع : كم لديك من المال ؟

فعد اندريه يفيميتش نقوده فى صمت وقال :

— ستة وثمانون روبلا .

فقال ميخائيل افيريانيتش فى حرج وهو لم يفهم الدكتور :

— لست اسأل عن هذا . اننى اسأل كم تملك عموما ؟

— لقد قلت لك : ستة وثمانون روبلا . . . ليس لدى اكثر من هذا .

كان ميخائيل افيريانيتش يعتبر الدكتور شخصا شريفا ونبيلا ، ولكنه مع ذلك كان يحدس بأن لديه رصيدا يبلغ على الاقل عشرين الفا . اما الآن ، وبعد ان عرف ان اندريه يفيميتش شحاذ وليس لديه ما يعيش به ، بكى فجأة لسبب ما وعانق صديقه .

١٥

سكن اندريه يفيميتش فى منزل المواطنة بيلوفا ذى الثلاث نوافذ . ولم يكن فى هذا البيت سوى ثلاث غرف بخلاف المطبخ . وشغل الدكتور غرفتين منهما ، بنوافذ تطل على الشارع ، بينما

سكنت داريوشكا وربة البيت واطفالهـــا الثلاثة الغرفة الثالثة والمطبخ .

واحيانا كان عشيق ربة الدار يأتى للمبيت ، وهو فلاح ثمل ، كانت ثائرتـــه تثور فى الليل فيلقى الرعب فى قلوب الاطفـــال وداريوشكا . وعندما يأتى ويتربع فى المطبـــخ ويبدأ فى المطالبة بالفودكا ، كان الجميع يشعرون بضيق المكـــان الشديد فيأخذ الدكتور الاطفال الباكين شفقة بهم ويرقدهم عنده على الارض ، وكان ذلك يجلب له متعة كبيرة .

كان يستيقظ فى الثامنة كسابق عهده ، وبعد تناول الشاى يجلس ليقرأ كتبه ومجلاته القديمة ، اذ لم يعد لديه نقود لشراء كتب جديدة . وربما لان الكتب قديمة ، او ربمـــا بسبب تغيير المكان لم تعد القراءة تستغرقه بل كانت ترهقه . ولكى لا يبدد الوقت دون عمل ، وضع كتالوجا مفصلا لكتبه ، والصق بطاقات صغيرة بكعوبها ، وبدا له هذا العمل الميكانيكى الدقيق اطرف من القراءة . كان العمل الرتيب الدقيق يهدهد افكاره بصورة غير مفهومة ، فلا يفكر فى شىء ويمر الوقت بسرعة . وحتى الجلوس فى المطبخ مع داريوشكـــا لتقشير البطاطس او تنظيف البرغل من الشوائب بدا له طريفا . وكان يتردد على الكنيسة فى يومى السبت والاحد . كان يقف بجوار الحائط ويصغى الى الغناء مغمض العينين ويفكر فى ابيه ، وامه والجامعـــة ، والاديان ، ويحس بالسكينة والحزن ، وعندمـــا ينصرف بعد ذلك من الكنيسة يشعر بالاسف لانتهاء الصلاة بسرعة .

وزار ايفان دميتريتش فى المستشفى مرتين لكى يتحدث معه . ولكن ايفان دميتريتش فى كلتا المرتين كان هائجا ومحنقا بصورة غير عادية ، فطلب منه ان يدعه وشأنه لانه مل منذ فترة بعيدة هذه الثرثرة الفارغة ، وقال انه لا يرجو من الاوغاد الملاعين غير مكافأة واحدة على كل آلامه : الحبس الانفرادى ، فهل من المعقول ان يرفضوا حتى هذا الطلب ؟ وعندما ودعه اندريه يفيميتش فى المرتين متمنيا له ليلة هادئة ، قال بغل :

— الى الشيطان !

والآن لم يعد اندريه يفيميتش يعرف هل يزوره للمرة الثالثة ام لا . وكانت به رغبة فى الذهاب .

وفى السابق كان اندريه يفيميتش يقضى فترة ما بعد الغداء فى الطواف بالغرف والتفكير ، اما الآن فاصبح يرقد من الغداء حتى شاى العشاء على الكنبة ووجهه الى ظهرها ويستسلم لافكار ضحلة لم يستطع التغلب عليها ابدا . كان يحز فى نفسه انه مقابل خدمته التى جاوزت العشرين عاما لم يحصل لا على معاش ولا على مكافأة . صحيح انه خدم بغير امانة ، ولكن المعاش يحصل عليه جميع الموظفين بغير تمييز ، سواء كانوا امناء ام لا . والعدالة المعاصرة انما تتجلى فى ان الرتب والاوسمة والمعاشات لا تمنح مكافأة على الخصائص الخلقية والقدرات ، بل على العمل بشكل عام ، وايا كان . فلماذا ينبغى ان يكون هو وحده الاستثناء ؟ لم يكن لديه نقود على الاطلاق . وكان يشعر بالخجل من المرور امام الدكان والنظر الى ربة الدار . وكان مدينا باثنين وثلاثين روبلا مقابل البيرة . وداريوشكا تبيع شيئا فشيئا الملابس والكتب القديمة وتكذب على ربة الدار قائلة ان الدكتور سيحصل عما قريب على مبلغ ضخم .

وحنق على نفسه لانه انفق فى الرحلة الالف روبل التى كان قد ادخرها . . كم كانت تنفعه هذه الالف الآن ! وكان يشعر بالاسى لأن الناس لا تدعه وشأنه . فقد كان خوبوتوف يرى من واجبه ان يزور زميله المريض من حين لحين . كان كل ما فيه بغيضا على نفس اندريه يفيميتش : وجهه الشبعان ، ونبرته المتعالية السيئة ، وكلمة «زميل» وحذاؤه العالى . اما اكثر شىء بغضا فهو انه كان يرى من واجبه ان يعالج اندريه يفيميتش ، ويعتقد انه يعالجه بالفعل . وفى كل زيارة كان يأتى معه بقارورة من البوتاسيوم والبروم وحبوب الراوند .

وكان ميخائيل افيريانيتش ايضا يرى من واجبه ان يزور صديقه ويسرى عنه . كان يدخل على اندريه يفيميتش فى كل مرة فى تبسط مفتعل ، ويقهقه بتكلف ، ويروح يؤكد له ان هيئته اليوم تبدو رائعة ، وان الامور تسير والحمد لله نحو التحسن ، وكان يمكن ان تستنتج من ذلك انه يعتبر حالة صديقه ميئوسا

منها . ولم يرد بعد دين وارسو فكان مهموما من الخزى الشديد ، ومتوترا ، ولذلك يحاول ان يقهقه بصوت اعلى ويروى بصورة اكثر اضحاكا . وبدت مزحاته وحكاياته الآن بلا نهاية ، وكانت مضنية سواء لاندريه يفيميتش ام له هو نفسه .

وفى حضرته كان اندريه يفيميتش يتمدد عادة على الكنبة ووجهه الى الحائط ويستمع وقد اطبق اسنانه . وتترسب المرارة على قلبه طبقات ، وبعد كل مرة يزوره فيها صديقه يحس بان هذه الترسبات تصبح اعلى فأعلى وكأنما تقترب من حلقه .

ولكى يخمد هذه الاحاسيس التافهة كان يسارع الى التفكير فى انه هو نفسه ، وخوبوتوف وميخائيل افيريانيتش مصيرهم الى الزوال عاجلا ام آجلا ، دون ان يخلفوا فى الطبيعة حتى مجرد بصمة . ولو تخيلنا انه بعد مليون سنة حلقت روح ما فى الفضاء مارة بالكرة الارضية فلن ترى سوى الطين والصخور العارية . سيندثر كل شىء . . ستندثر الثقافة والقانون الاخلاقى ، حتى دون ان يغطيها العشب . فماذا يعنى الخجل من صاحب الدكان ، وماذا يعنى خوبوتوف التافه ، والصداقة المرهقة مع ميخائيل افيريانيتش ؟ كل هذا هراء وتفاهة .

ولكن هذه الافكار لم تعد تسعفه . فما ان يتصور الكرة الارضية بعد مليون سنة ، حتى يطل خوبوتوف بحذائه العالى من وراء صخرة عارية او ميخائيل افيريانيتش وهو يقهقه بتوتر ، بل ويسمع همسا خجلا : «سأرد لك يا عزيزى دين وارسو فى الايام القادمة . . . حتما» .

١٦

جاء ميخائيل افيريانيتش ذات مرة بعد الغداء عندما كان اندريه يفيميتش راقدا على الكنبة . واتفق ان جاء فى نفس الوقت خوبوتوف ايضا حاملا البوتاسيوم بالبروم . ونهض اندريه يفيميتش بتثاقل وجلس معتمدا بكلتا يديه على الكنبة .

وبدأ ميخائيل افيريانيتش يقول :

– اما اليوم يا عزيزى فلون وجهك افضل بكثير من الامس ، نعم برافو عليك ! اى والله برافو !

وقال خوبوتوف متثائبا :

– حان الوقت للشفاء يا زميلى ، حان الوقت ! عساك سئمت هذا التسويف .

فقال ميخائيل افيريانيتش بمرح :

– سوف نشفى ! وسنعيش مائة عام اخرى ! نعم ، هكذا !

فقال خوبوتوف مواسيا :

– مائة ام لا ، لكن لديه ما يكفى لعشرين عاما اخرى . . . لا بأس ، لا بأس يا عزيزى ، لا تحمل هما . . . كفاك مراوغة !

وقهقه ميخائيل افيريانيتش وربت على ركبة صديقه قائلا :

– سوف نريكم من نحن ! سوف نريكم . فى الصيف القادم ان شاء الله نرحل الى القوقاز ونطوف به كله على ظهور الجياد هوب – هوب – هوب ! وبعد ان نعود من القوقاز ، من يدرى ، ربما نشهد حفل الزفاف – وغمز ميخائيل افيريانيتش بعينيه فى خبث – سنزوجك يا صديقى العزيز ، سنزوجك . . .

وفجأة احس اندريه يفيميتش ان المرارة تقترب من حلقه ، ودق قلبه بعنف .

فقال وهو ينهض بسرعة متجها الى النافذة :

– هذا ابتذال ! الا تدركان انكما تقولان اشياء مبتذلة ؟

واراد ان يستطرد بلطف واحترام ولكنه رغما عنه شد قبضتيه فجأة ورفعهما اعلى من رأسه وصاح بصوت غير صوته وهو يتضرج وجسده كله يرتعش :

– دعونى ! اخرجا من هنا ! انتما الاثنان اخرجا !

ونهض ميخائيل افيريانيتش وخوبوتوف وحدقا فيه فى البداية بدهشة ، ثم بخوف .

ومضى اندريه يفيميتش يصيح :

– اخرجا من هنا ! ايها البلداء ! ايها الاغبياء ! لست بحاجة الى الصداقة او الى ادويتك ايها البليد ! ياللابتذال ! يا للحقارة !

وتبادل ميخائيل افيريانيتش وخوبوتوف النظرات فى ارتباك وتراجعا الى الباب وخرجا الى المدخل . والتقط اندريه يفيميتش قارورة البوتاسيوم بالبروم وقذف بها فى اثرهما ، فتحطمت القارورة على العتبة برنين .

– اذهبا الى الشيطان ! صاح بصوت باك وهو يندفـــع الى المدخل – الى الشيطان !

وبعد خروج الضيفين ، استلقى اندريه يفيميتش على الكنبة وهو يرتعش كالمحموم ، وظل طويلا يردد :

– البلداء ! الاغبياء !

وعندما هدأت ثائرته كان اول ما تبادر الى ذهنه ان ميخائيل افيريانيتش المسكين لا بد يشعر الآن بالخجل الرهيب والكآبة ، وان كل هذا فظيع . لم يحدث له من قبل ابدا شيء مثل هذا ، فأين ذكاؤه ولباقته ؟ واين فهم الاشياء واللامبالاة الفلسفية ؟

لـم يغمض للدكتور جفن طول الليل من الخجل والحنق على نفسه ، وفى الصباح ، حوالى الساعـــة العاشرة ، اتجه الى مكتب البريد واعتذر لمدير البريد .

فقال ميخائيل افيريانيتش وهو يتنهد متأثرا ويشد بقوة على يده :

– دعنا من ذكر الماضى . ما فـــات مات . يا لوبافكين ! – صاح فجأة بصوت عال انتفض له السعاة والزوار – هات مقعدا . اما انت فانتظرى – صاح فى امرأة كانت تمد له عبر النافـــذة رسالة مسجلة – الا ترين اننى مشغول ؟ – ومضى يقول بلطف مخاطبا اندريـــه يفيميتش – دعنـــا من ذكر الماضى . اجلس يا صديقى ، تفضل ارجوك .

وصمت دقيقة وهو يمسد ركبتيه ، ثم قال :

– لم يخطر ببالى ابدا ان اغضـــب منك . فالمرض يجلب الكرب . انا اعرف . لقد ازعجتنى انا والدكتور النوبة الى اصابتك بالامس ، وقد تحدثنا بعدها طويلا عنك . يا عزيزى ، لماذا لا تريد ان تهتم جديا بمرضـــك ؟ امن المعقول ان تبقى هكذا ؟ – وهمس ميخائيل افيريانيتش – اعذرنى على صراحتى الودية ، انك تعيش فى ظروف غير ملائمة ابدا : فى مكان ضيق ، غير نظيف ، وليس هناك من يرعاك ، وليس لديك ما تتعالج بـــــه . . . يا صديقى العزيز ، اتوسل اليك انا والدكتور من صميم قلوبنا ، اقبل نصيحتنا وادخل المستشفى ! هنـــاك الطعـــام الصحى ، والرعايـــة ، والعلاج . ويفجينى فيودوروفتش ، رغم انـــه

موفىتون * ، الا انه بينى وبينك ، رجل عليم ، يمكن الاعتماد عليه تماما . وقد وعدنى ان يهتم بك .

كان اندريه يفيميتش متأثرا بهذه المشاركةِ المخلصة وبالدموع التى لمعت فجأة على خدى مدير البريد .

فهمس وهو يضع يده على قلبه :

– يا صديقى المحترم ، لا تصدق ! لا تصدقهم ! هذا خداع! ما مرضى الا اننى خلال عشرين سنة لم اجد فى المدينة كلها سوى رجل ذكى واحد ، وفوق ذلك فهو مجنون . ليس بى اى مرض ، وانما ببساطة وقعت فى حلقة مفرغة لا مخرج منها . الامر عندى سيان ، انا مستعد لاى شىء .

– ادخل المستشفى يا عزيزى .

– سيان عندى ، ولو السجن .

– عدنى يا عزيزى بأنك سوف تطيع يفجينى فيودورفتش فى كل شىء .

– تفضل ، اعدك . ولكنى اكرر لك اننى وقعت فى حلقة مفرغة . وكل شىء الآن ، حتى المشاركة المخلصة من جانب اصدقائى ، تتجه نحو شىء واحد . . نحو هلاكى . اننى امضى الى الهلاك ، ولدى من الشجاعة ما ادرك به ذلك .

– ستشفى يا عزيزى .

فقال اندريه يفيميتش بعصبية :

– ما الداعى لهذا الكلام ؟ قليلون هم الذين لا يعانون فى اواخر ايامهم ما اعانيه الآن . فعندما يقال لك ان الكلى لديك سيئة وقلبك متضخم فتشرع فى العلاج ، او يقال لك انك مجنون او مجرم ، اى باختصار عندما يوجه الناس انتباههم اليك فجأة ، فلتعلم انك وقعت فى حلقة مفرغة لن تخرج منها ابدا . واذا ما حاولت ان تخرج ستضل اكثر . فلتستسلم ، لانه لن تنقذك اية جهود بشرية . هكذا يبدو لى .

وفى تلك الاثناء تجمع الجمهور بجوار النافذة ، فنهض اندريه يفيميتش مودعا لكى لا يعرقل العمل واخذ منه ميخائيل افيريانيتش مرة اخرى كلمة شرف ، وصاحبه حتى الباب الخارجى .

* قليل الذوق (بالفرنسية) .

وفى نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف بغتة فى معطفه القصير وحذائه العالى الى اندريه يفيميتش وقال وكأن شيئا لم يحدث بالامس :

– لقد جئتك فى موضوع يا زميلى . جئت ادعوك ، الا تريد ان تشترك معى فى كونسولتو ؟ هه ؟

وظن اندريه يفيميتش ان خوبوتوف يريد ان يسرى عنه بالتريض ، او يعطيه بالفعل فرصة للكسب ، فارتدى ثيابه وخرج معه الى الشارع . كان سعيدا بفرصة تصحيح خطأ الامس والتصالح ، وكان فى قرارة نفسه ممتنا لخوبوتوف الذى لم ينبس حتى ببنت شفة عما حدث بالامس ، رحمة به فيما يبدو . وكان من الصعب ان تتوقع من شخص غير مهذب كهذا مثل هذه اللباقة .

وسأل اندريه يفيميتش :

– واين مريضك ؟

– عندى فى المستشفى . لقد اردت منذ فترة طويلة ان اعرضه عليك . . . حاله طريفة جدا .

ودلفا الى فناء المستشفى ، ودارا حول المبنى الرئيسى متجهين الى الجناح الذى ينزل به المرضى العقليون . ولسبب ما جرى ذلك فى صمت . وعندما دخلا الجناح قفز نيكيتا كالعادة وشد قامته .

وقال خوبوتوف بصوت خافت وهو يدخل مع اندريه يفيميتش الى العنبر :

– لقد اصيب احدهم هنا بمضاعفات فى الرئتين . انتظرنى هنا ، سآتى حالا . سأذهب لاحضار السماعة .

وخرج .

١٧

حل الغسق . كان ايفان دميتريتش ممددا على سريره وقد دس وجهه فى الوسادة . وجلس المشلول دون حراك وهو يبكى بصوت خافت ويحرك شفتيه . اما الفلاح السمين والفراز السابق فكانا نائمين .

جلس اندريه يفيميتش على سرير ايفان دميتريتش وراح

ينتظر . ولكن بعد ان مضى حوالى نصف ساعة ، بدلا من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكا تحت ابطه روبا وملابس داخلية ما وحذاء .

وقال بصوت خافت :

— تفضل البس يا صاحب السعادة . هذا هو فراشك ، تفضل هنا — قال مشيرا الى سرير فارغ ، يبدو انهم قد وضعوه مؤخرا — لا بأس ، ان شاء الله ستشفى .

وفهم اندريه يفيميتش كل شيء . ودون ان يتفوه بكلمة انتقل الى السرير الذى اشار اليه نيكيتا وجلس . وعندما رأى ان نيكيتا ما زال واقفا ينتظر ، نزع ثيابه حتى تعرى تماما واحس بالخجل . ثم ارتدى ثياب المستشفى . كان السروال قصيرا جدا ، والقميص طويلا ، وفاحت من الروب رائحة سمك مدخن .

وردد نيكيتا :

— ستشفى ان شاء الله .

وجمع تحت ابطه ثياب اندريه يفيميتش وخرج واغلق الباب خلفه .

«سيان . . . — فكر اندريه يفيميتش وهو يشد الروب على جسده بحياء ويحس انه يشبه السجناء بملابسه الجديدة — سيان ، بدلة السهرة ام البدلة الرسمية ، ام هذا الروب . . .»

ولكن الساعة ؟ والمفكرة التى فى جيب السترة ؟ والسجائر ؟ الى اين اخذ نيكيتا الثياب ؟ فى الغالب لن يقدر له حتى الممات ان يرتدى السروال والصديرى والحذاء . وكل هذا يبدو غريبا وغير مفهوم للوهلة الاولى . وحتى الآن كان اندريه يفيميتش مقتنعا بأنه ليس هناك اى فرق بين بيت المواطنة بيلوفا وعنبر رقم ٦ ، وان كل شيء فى هذا العالم هراء وباطل الاباطيل ، ومع ذلك ارتعشت يداه ، وبردت قدماه ، واستولى عليه الرعب من فكرة ان ايفان دميتريتش سوف يستيقظ ويراه مرتديا الروب . فنهض، وتمشى قليلا ، ثم جلس .

ها هو قد جلس نصف ساعة ، ساعة ، وتملكه الملل الى درجة الكآبة . أمن المعقول ان يعيش المرء هنا يوما ، اسبوعا ، بل واعواما ، مثل هؤلاء الاشخاص ؟ ها هو قد جلس ، وتمشى ، ثم جلس من جديد . من الممكن ان يذهب الى النافذة ويتطلع

منها ، ثم يتمشى من ركن لركن . وماذا بعد ذلك ؟ هل يجلس طوال الوقت كالابله ويفكر ؟ كلا ، هذا شبه مستحيل .

ورقد اندريـــه يفيميتش ، ولكنه نهض لتوه ، ومسح بكمه العرق البارد من جبينه واحس ان وجهه كله قد تشبع برائحـــة السمك المدخن . وعاد فتمشى ثانية .

وقال وهو يشيح بيديه فى استغراب :

– هذا سوء فهم ما . . . ينبغى ان استوضح ، ثمة سوء فهم هنا . . .

وفى تلك اللحظة استيقظ ايفان دميتريتش . جلس واعتمد بخديه على قبضتيه . وبصق . ثم تطلع بكسل الى الدكتور ، ويبدو انه لم يفهم شيئا للوهلة الاولى ، لكن وجهه الناعس سرعان ما اصبح غاضبا وساخرا .

وقال بصوت ابح من اثر النوم وقد زر احدى عينيه :

– آه ، انت ايضا وضعوك هنا يا عزيزى ! سعيد جدا . كنت تشرب دم الناس ، والآن سيشربون دمك . رائع !

– هذا سوء فهم ما . . . – قال اندريه يفيميتش وقد اخافته كلمات ايفان دميتريتش ، وهز كتفيه واضاف – سوء فهم ما . . .

وبصق ايفان دميتريتش ورقد .

ودمدم بسخط :

– حياة لعينة ! والمحنق والمرير فى الامر ان هذه الحياة لن تنتهى بمكافأة على الآلام او بمشهد ختامى كما فى الاوبرا ، بل بالموت . يأتى خدم المستشفى ويسحبون الميت من يديه وقدميه الى القبو . بررر ! ولكن لا بأس . . . فى العالم الآخر سنحيـــى عيدنا . . . سوف آتى من العالم الآخر الى هنا ظلا لاخيف هؤلاء الاوغاد . سأشيبهم .

وعاد مويسيكا ، ورأى الدكتور فمد له يده قائلا :

– اعطنى كوبيكا !

١٨

ذهب اندريه يفيميتش الى النافذة ونظر الى الحقـــل . كان الظلام قد هبط ، وفى الجانب الايمن من الافق صعد قمـــر بارد

احمر . وعلى مقربة من سور المستشفى ، على بعد مائة ذراع لا اكثر قام منزل ابيض عال ، محاط بجدار حجرى . كان ذلك مبنى السجن .

وفكر اندريه يفيميتش : «هذا هو الواقع !» ، واحس بالرعب.

كان القمر مرعبا ، والسجن ومسامير السور ، واللهب البعيد فى مصنع معالجة العظم . وسمع اندريه يفيميتش من ورائه زفرة ، فالتفت فرأى رجلا بنجوم لامعة وأوسمة على صدره ، كان يبتسم له ويغمز بعينه فى خبث . وبدا له هذا ايضا مرعبا .

وراح اندريه يفيميتش يؤكد لنفسه انه ليس هناك اى شيء خاص فى القمر والسجن ، وانه حتى الاشخاص الاصحاء نفسيا يحملون الاوسمة ، وان كل ذلك بمرور الزمن سيزول ويتحول الى طين ، ولكن اليأس تملكه فجأة ، فأمسك بالقضبان بكلتا يديه وهزها بكل قوته . ولكن القضبان القوية لم تستجب له .

ولكي يخفف من وطأة الخوف اتجه الى سرير ايفان دميتريتش. ودمدم وهو يرتعش ويجفف عرقه البارد :

– لقد انهرت يا عزيزى . انهرت .

فاجاب ايفان دميتريتش بسخرية :

– جرب ان تتفلسف اذن .

– يا الهى ، يا الهى . . . نعم ، نعم . لقد تفضلت ذات مرة وقلت انه ليس فى روسيا فلسفة ، ولكن الجميع يتفلسفون ، حتى الصغار ، ولكن تفلسف الصغار لا يعود بضرر على احد – قال اندريه يفيميتش بنبرة خاصة وكأنه اراد ان يبكي او يستدر الشفقة – ما الداعى يا عزيزى لهذه السخرية الحاقدة ؟ وكيف لا يتفلسف هؤلاء الصغار اذا كانوا لا يشعرون بالارتياح ؟ الانسان النبيه المتعلم ، الابى ، الحر ، الشبيه بالاله لا يجد مخرجا سوى ان يصبح طبيبا فى مدينة صغيرة قذرة غبية ، ويقضى عمره كله فى وضع كؤوس الهواء ودود العلق والكمادات ! يا للاحتيال وضيق الافق والابتذال ! اوه يا الهى !

– انت تثرثر بحماقات . اذا كنت تنفر من الطب فاعمل وزيرا .

– لا يمكن ، لا يمكن ، مستحيل . نحن ضعفاء يا عزيزى . . .

كنت لامباليا ، اناقش بهمة ومنطق ، وما ان مستنى الحياة بخشونة حتى انهرت . . . خارت قواى . . . ضعفاء نحن ، سيئون نحن . . .وانت ايضا يا عزيزى . انت ذكى ، نبيل ، رضعت مع لبن الام الانفعالات النبيلة ، ولكن ما ان دخلت معترك الحياة حتى تعبت ومرضت . . .ضعفاء ، ضعفاء !

كان ثمة شيء آخر ملح ، غير الخوف والشعور بالحنق ، يرهق اندريه يفيميتش طوال الوقت منذ حلول المساء . واخيرا ادرك ان ذلك بسبب رغبته فى تناول البيرة والتدخين .

وقال :

– سأخرج من هنا يا عزيزى ، سأطلب منهم ان يشعلوا النور هنا . . انا لا استطيع هكذا . . لا احتمل . . .

ومضى اندريه يفيميتش الى الباب وفتحه ، ولكن نيكيتا هب واقفا على الفور وسد عليه الطريق ، وقال :

– الى اين ؟ ممنوع ، ممنوع ! حان وقت النوم .

فقال اندريه يفيميتش بوجل :

– سأخرج دقيقة واحدة فقط ، سأتمشى فى الفناء .

– ممنوع ، ممنوع . الاوامر لا تسمح . انت نفسك تعرف .

وصفق نيكيتا الباب وارتكز عليه بظهره .

وسأل اندريه يفيميتش وهو يهز كتفيه :

– ولكن هل سيحدث لاحد شيء اذا خرجت من هنا ؟ انا لا افهم ! – وقال بصوت متهدج – يا نيكيتا ينبغى ان اخرج ، انا بحاجة الى ذلك !

فقال نيكيتا آمرا :

– لا تسبب الفوضى . . . عيب .

وفجأة صاح ايفان دميتريتش وهب واقفا :

– الشيطان يعلم ما هذا ! بأى حق يمنعه من الخروج ؟ كيف يجرؤون على ابقائنا هنا ؟ القانون ينص بوضوح فيما يبدو على عدم جواز حبس اى شخص بدون محاكمة ! هذا طغيان ! تعسف !

فقال اندريه يفيميتش وقد شجعه صياح ايفان دميتريتش :

– طبعا تعسف ! انا بحاجة الى الخروج ، ينبغى ان اخرج . ليس من حقه ان يمنعنى ! دعنى قلت لك !

وصاح ايفان دميتريتش ودق الباب بقبضته :

– اتسمع ايها الحيوان البليد ؟ افتح والا كسرت الباب ! ايها السفاح !

وصاح اندريه يفيميتش وجسده كله يرتعش :

– افتح ! انا اطالبك !

فرد نيكيتا من خلف الباب :

– اكمل ، اكمل ، هيا تكلم !

– على الاقل استدع يفجينى فيودورفيتش . قل له انى ارجوه ان يأتى . . . لدقيقة واحدة .

– سيأتى غدا بنفسه .

ومضى ايفان دميتريتش يقول فى اثناء ذلك :

– لن يطلقوا سراحنا ابدا . سيجعلوننا نتعفن هنا ! اوه يا الهى ، احقا لا يوجد جحيم فى العالم الآخر وسيغفر لهؤلاء الاوغاد ؟ اين العدالة اذن ؟ – وصاح بصوت ابح وتحامل على الباب – افتح ايها الوغد ، اننى اختنق . سأحطم رأسى ، يا قتلة !

وفتح نيكيتا الباب بسرعة ، ودفع اندريه يفيميتش بيديه وركبته بخشونة ، ثم طوح بيده الى الوراء ولكمه بقبضته فى وجهه. وخيل لاندريه يفيميتش ان موجة مالحة ضخمة قد غطته حتى رأسه وسحبته الى السرير . وبالفعل شعر فى فمه بطعم مالح . . يبدو ان الدم تدفق من اسنانه . ولوح بيديه وكأنما يريد ان يطفو ، وتشبث بسرير ما ، وفى تلك اللحظة احس ان نيكيتا ضربه مرتين فى ظهره .

وصرخ ايفان دميتريتش بصوت عال . لا بد انه هو ايضا كان يضرب .

ثم هدأ كل شيء . وتسرب ضوء القمر الضعيف عبر القضبان ، وارتمى على الارض ظل يشبه الشبكة . وساد الرعب . وتمدد اندريه يفيميتش وقد حبس انفاسه . كان يتوقع فى رعب ضربة اخرى . واحس كأنما غرز احدهم فيه منجلا واداره بضع مرات فى صدره واحشائه . وعض الوسادة من الالم وضغط على اسنانه ، وفجأة ومضت فى ذهنه بوضوح وسط الفوضى فكرة رهيبة لا تحتمل ، وهى ان مثل هذا الالم كان ينبغى ان يتحمله اعواما ،

ويوما اثر يوم ، هؤلاء الاشخاص الذين يلوحون الآن فى ضوء القمر ظلالا سوداء . وكيف امكن ان يحدث انه طوال اكثر من عشرين سنة لم يعرف ولم يرد ان يعرف هذا ؟ لم يكن يعرف ولا يتصور ما هو الالم ، واذن فهو غير مذنب ، ولكن ضميره ، العنيد والفظ تماما مثل نيكيتا ، جعله يتثلج من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وقفز ، واراد ان يصرخ بكل قواه ويهرب بسرعة لكى يقتل نيكيتا، ثم خوبوتوف والمشرف والحكيم ، ثم يقتل نفسه ، ولكن لم يخرج من صدره اى صوت ولم تستجب له ساقاه . وشـــد القميص والروب عند صدره وهو يختنق ومزقهما ، وارتمى على السرير فاقد الوعى .

١٩

فى صباح اليوم التالى احس بصداع ، وطنين فى اذنيه ، وتعب فى جسده كله . ولم يخجل من تذكر ضعفـــه بالامس . لقد كان بالامس جبانا ، وخاف حتى من القمر ، وعبر بصراحة عن مشاعر وافكار لم يكن يظن قبلا انها تراوده . مثلا فكرة عدم الرضا لدى الصغار المتفلسفين . اما الآن فلم يعد يهمه شيء .

لم يأكل ، ولم يشرب ، وتمدد بلا حراك ولزم الصمت .

وفكر عندما كانوا يوجهون اليه اسئلـــة : «الامر سيـــان عندى . . . لن ارد . . الامر سيان» .

وبعد الغداء جاء ميخائيل افيريانيتش واحضر معه ربع رطل من الشاى ورطلا من الحلوى . وجاءت داريوشكا ايضا ووقفت ساعة كاملة بجوار السرير وعلى وجهها تعبير حزن بليد . وزاره ايضا الدكتور خوبوتوف ، وجاء معه بقارورة بوتاسيوم بالبروم وامر نيكيتا ان يبخر العنبر .

وقبيل المساء توفى اندريه يفيميتش اثر نوبـــة نزيف . فى البداية احس بقشعريرة مذهلة وغثيان . وشـــده شيء ما مقزز ، كما خيل اليه ، من معدته الى رأسه وملأ اذنيـــه وعينيه وهو يتغلغل فى كل جسده ، حتى فى اصابعه . وغامت عيناه . وادرك اندريه يفيميتش انها النهاية فتذكر ان ايفان دميتريتش وميخائيل افيريانيتش وملايين الناس يؤمنون بالخلود . وربما هو موجود ؟

ولكنه لم يكن يريد الخلود ، فلم يفكر فيه سوى لحظة . وركض مارا به قطيع من الغزلان الفائقة الجمال والرشاقة التى قرأ عنها بالامس . ثم مدت امرأة يدها له برسالة مسجلـــة . . . وقال ميخائيل افيريانيتش شيئا ما . ثم اختفى كل شىء وغاب اندريه يفيميتش الى الابد .

وجاء خدم المستشفى فسحبوه من يديه ورجليه الى المصلى وهناك تمدد على طاولة وعيناه مفتوحتان واضاءه القمر ليلا . وفى الصباح جاء سرجى سرجيتش ، وصلى بورع على الصليب ، واغلق عينى رئيسه السابق .

ودفن اندريه يفيميتش بعد يوم . ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل افيريانيتش وداريوشكا .

١٨٩٢

محتويات

انطون بافلوفتش تشيخوف . بقلم : فلاديمير كورولنكو ٣

القبلة ٢٠

الصبيان ٤٠

كاشتانكا ٤٨

الحسنوان ٧١

حكاية مملة (من مذكرات رجل عجوز) ٨٠

المبارزة ١٤٩

اللعوب ٢٧٢

بعد المسرح ٣٠١

عنبر رقم ٦ . . . . ٣٠٥